

دورية إلكترونية - محكمة - ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

كلكن التاريخية

تأسست في 1 جمادى الثاني 1430 هـ

السنة الثالثة - العدد الثامن | يونيو (حزيران) 2010م / جمادى الآخر 1431هـ

ISSN: 2090 - 0449

الترقيم الدولي المعياري للدورية

Kan historique périodique

www.historicalkan.co.dr



الرأسي الرسمي

ويكيبيديا كومنز

الأرشيف العالمي

وإلناشري

مناحة للقراءة والتحميل

يعكس ماضيها، ويترجم حاضرها، وتستلهم
من خلاله مستقبلها، لذا كان من الأهمية
بمكان الاهتمام به، والحفاظ عليه، ونقله
إلى الأجيال نقلاً صحيحاً، بحيث يكون نبراساً
وهادياً لهم في حاضريهم ومستقبلهم.

الواقع أن الشعوب التي لا تاريخ لها لا
وجود لها، إذ به قوام الأمم، تحيى بوجوده
وتموت بانعدامه. ولهذا كانت فكرة تأسيس
دورية علمية إلكترونية تاريخية عربية
أكاديمية موجهة لأساتذة وطلبة الجامعات
العرب و الباحثين وأصحاب الدراسات العليا
في فرع التاريخ وهواة القراءات التاريخية في
كل أنحاء العالم.

بهاء الدين ماجد

المشرف العام على دورية كان التاريخية
مدير إدارة الخرائط بدار الكتب المصرية



علاقات تعاون



معهد سيراكون



الجامعة العربية المفتوحة لشمال أمريكا



شبكة ومتنديات حكماء للآثار والتراث



مركز المقرئ للدراسات التاريخية



معهد المناهج



رابطة الآثاريين بالإسكندرية



مدرسة محمد بن عبد الوهاب
المستقلة (قطر)



المعهد العالي
لحضارات الشرق الأدنى القديم



الإتحاد العالمي للمدنيين



الجامعة الاسكندنافية (النرويج)



جمعية الآثاريين المصريين



جمعية المحافظة على التراث المصري
للمشورة برقم 6732 لسنة 2006

العدد الثامن



المشرف العام

بهاء الدين ماجد

المستشارون

د عائشة محمود عبد العال
د خليف مصطفى غزاية
د نهملة أنيس مصطفى
د بشار محمد خليف
د عبد العزيز غوردو
د خالد بلعربي
د ريهام عبد الله المستادي
د أنور محمود زنتاتي
د نواف نمار طيشات
د آية المنسي
د وليد سامي
د أسامة الخضرجي
د أمل محمد أمين
د هشام سمير شاهين

رئيس التحرير

أشرف صالح

هيئة التحرير

إسراء عبد ربه
محمد حمدي سعودي
مروة عبد الكريم
عماد البحرانسي
أسماء صلاح
حسن علي سالم
نشوى عادل
إسلام طه
إيمان محسي الدين
حسين علي علام

الإشراف اللغوي

محمد عبد ربه
محمد محمد زكي

الإشراف الفني

سيد سعد

سكرتير التحرير

رييح مسلم محمد

دورية كان التاريخية

تدعو كل المهتمين بالمحافظة على تاريخ الوطن العربي إلى إثراء هذه الدورية بالموضوعات التاريخية.

ترحب هيئة التحرير بإسهامات الأساتذة ، والطلاب ، والباحثين ، والكتاب ، والمتخصصين ، من مقالات ودراسات وبحوث تاريخية.



حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمل دورية كان التاريخية أية مسؤولية عن الموضوعات التي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكية أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.



موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المواضيع العلمية و الأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العرب وأصحاب الدراسات العليا والباحثين في الدراسات التاريخية والمهتمين بالقراءات التاريخية.



الموضوعات المنشورة بالدورية تعبر عن وجهة نظر كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

المراسلات

توجه المراسلات والاقتراحات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com



موقع الدورية على شبكة الإنترنت

www.historicalkan.co.nr

ISSN: 2090 - 0449 Online



جميع حقوق الطبع والنشر الورقي والإلكتروني محفوظة © دورية كان التاريخية ٢٠٠٨ - ٢٠١٠

الرأسي الرسمي
سلسلة المؤرخ الصغير
سلسلة كتب علمية تاريخية ، تهدف
إلى توفير المعلومة العلمية التاريخية



دورية كان التاريخية
متاحة للقراءة والتحميل عبر
دار ناشري للنشر الإلكتروني
www.nashiri.net





ترحب الدورية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة ذات الصلة بالدراسات التاريخية، مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقيدة الإسلامية، وأن تتسم بالجدة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح، مع الالتزام بالضوابط التالية:



نشر البحوث والدراسات العلمية

- تقبل الأعمال العلمية التي سبق نشرها أو التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في دورية أو مطبوعة أخرى.
- اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع.
- التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.
- يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر. وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها، أما إذا كانت تعديلات طفيفة فتقوم الدورية بإجرائها.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر أو القديمة.
- أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.



عروض الأطاريح الجامعية

- أن يعرض الكاتب ملخصاً وافياً لمحتويات الكتاب مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور.
- ألا يزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.
- يُراعى في الأطروحات (الرسائل) الجامعية موضوع العرض أن تكون حديثة وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد الموضوعات التاريخية.
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث.
- ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية حلها.
- ملخص لمنهج البحث وفروعه وعينته وأدواته.
- خاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا يزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.



تقارير اللقاءات العلمية

- تنشر الدورية التقارير العلمية عن الندوات والمؤتمرات ذات العلاقة بالدراسات التاريخية التي تعقد في دول الوطن العربي، ويشترط أن يغطي التقرير فعاليات الندوة أو المؤتمر مركزاً على الأبحاث العلمية وأوراق العمل المقدمة ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.





Posting Rules

Historical Kan Periodical

ISSN:2090 - 0449

A specialized journal devoted to historical studies and research. Issued quarterly by: Junior Historian Series.

Kan exists to bring together people of all communities who have an interest in the past. It promotes and supports the study and teaching of history at all levels: teacher, student, amateur and professional.

Our Mission is Promote, develop and support the study of history at all levels. We publish a range of material for a wide variety of readers with regard to:

- Historical studies and research.
- Books Review.
- Thesis review.
- Reports of seminars and conferences.

Editorial Board invites all those interested in preserving the history of the Arab world to the enrichment of this periodical historical topic.

They also invite people who are interesting in historical studies to publish their useful writings.

Remark

- Receiving research "Word format "
- Memoir About the author is required include : Name, Degree, specialization, e-mail, personal site, personal blog, a personal image for publication with the article "if possible".
- Correspondence, advertisements and questions should be addressed to chief editor e-mail: mr.ashraf.salih@gmail.com



هيئة التحرير

- تعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية، للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي.
- الحقوق المتعلقة بالأعمال العلمية المنشورة تعود إلى الدورية، ويحق لأصحاب المقالات والأبحاث والعروض والتقارير إعادة نشر أعمالهم في أي دورية مطبوعة أو إلكترونية أخرى.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسباً للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

قواعد عامة

- تُرسل كافة الأعمال بصيغة برنامج "Word".
- يرفق مع العمل نبذة عن الكاتب تتضمن: الاسم، الدرجة العلمية، التخصص الدقيق، البريد الإلكتروني، الموقع الشخصي، المدونة الشخصية، صورة شخصية للنشر مع المقال "إن أمكن".
- تُرسل الأعمال المطلوبة للنشر على البريد الإلكتروني لرئيس التحرير mr.ashraf.salih@gmail.com





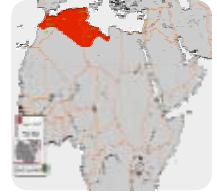
٢٦ - ٢٧

الدولة الخوارزمية
ومواجهتها للزحف المغولي



٢٨ - ٢٩

حكايات هارون الرشيد
بين التاريخ والفولكلور



٣٨ - ٣٩

العلاقات التجارية بين الدولة
الرستمية والسودان المغربي



٤٨ - ٤٩

الأندلس في عهد السوالي
السمح بن مالك الخولاني



٧٢ - ٧٣

الشرطة في بلاد المغرب الإسلامي



٩٨ - ٩٩

التكوين السكاني
في إيران القديمة



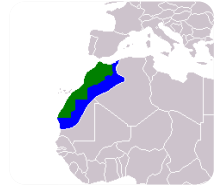
٧٩ - ٨٥

الطريقة بالمغرب
انحرافات فكرية سياسية واقتصادية



٨٦ - ٨٧

النشاط الرعوي في بلاد المغرب
خلال القرن ٤هـ / ١٠م



٨٧ - ٨٨

دولة الأدارسة في المغرب الأقصى



٩٢ - ٩٣

سردية القصيدة
العربية القديمة



٩٠ - ٩١

أولاد الناس بمجتمع عصر
سلطين المالبيك
"الحياة الدينية والعلمية"



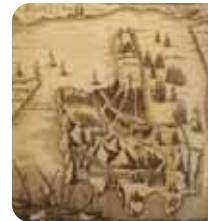
١٠٣ - ١٠٥

مملكة ماري السورية:
ماري في الألف الثالث ق.م



١٠١ - ١٠٢

Theory And Philosophy Of
Architectural Conservation
An Preservation In Islamic
Civilization



٥٦ - ٥٩

التنافس الأوري حول منطقة
الخليج مطلع العصور الحديثة



١٣٢ - ١٣٧

Ptolemais:
The Lost Greek City in
Egypt



٢٠ - ٢١

الحرب قناة للتواصل الحضاري

التاريخ والذاكرة

إن مسألة استخدام الذاكرة "كشاهد تاريخي" خضع لأشكال مختلفة من النقد الحاد، وعلى الأقل منذ نهاية القرن التاسع عشر ركز المؤرخون على مدى ولاء تلك الذاكرة، والمهم بالنسبة إلى ذلك النقد كان التأكيد على تآكل تلك الذاكرة بفعل الزمن وتأثير عوامل كثيرة منها الزمن ومسألة الحنين التي تجعل الذاكرة غير موثوق بها في كثير من الأحيان. ولكن منذ بدايات السبعينيات ١٩٧٠ بدأ يلاحظ تحريفاً في الذاكرة والذي بدا أكثر قوة منه ضعفاً. إحدى أهم تلك المتغيرات كانت الاعتراف بكون الذاكرة غير موثوق بها وربما تشكل مصدراً للأحداث أكثر منها مشكلة في تفسير وإعادة تشكيل الذاكرة.

ومما لا شك فيه؛ أن الذاكرة ليست بناءً بيولوجياً قادراً على إعادة تقديم صورة الماضي بدقتها ضمن إطار سؤالها المناسب، فالطرق التي يتذكر فيها الإنسان إضافة إلى ما يتذكره لا تشكل فقط تساؤل حول سيكولوجية الفرد، عمره، جنسه وطبقته الاجتماعية ومحيطه الثقافي التي تشكل حياته وذاكراته، ولكن أيضاً هيئة تلقيه لتلك الذكريات. وهناك أبعاداً مختلفة للزمن، وللتقاليد القومية والتجارب المأسوية والتي تؤثر بشكل عميق وغير متساوي للتطورات في الذاكرة.



الذاكرة غالباً ما تحفر تجارب جارحة ويمكن أن تقدم شهادات تاريخية ومفاتيح لتنظيم تذكر الحوادث، فالذاكرة تعيد مراجعة، وتنتقي وتفرز وتعديل وتخزن الحوادث، ولكن يمكن أن تكون الذكريات المنسية في بعض الأحيان قيمة بالنسبة للذكريات المتذكّرة. صحيح أن التذكر دائماً يفصل ويشرح ويحلل ما حدث بشكل حقيقي، وهذا بشكل بسيط يشكل صوتاً من الماضي، بمعنى آخر الذاكرة هي تفسير للأحداث التاريخية المشتركة مع المتناقضات والأخطاء المسكوت عنها. الشيء الممتع هنا في تلك الشهادات ليست فقط حقائق الماضي، بل الطريقة التي يتم تذكر تلك الذكريات بها وطريقة تفسيرها وإعادة تشكيلها استجابة لتغير الظروف لتصبح فيما بعد كجزء من الوعي المعاصر.

إن احتمالية نسيان الفرضيات تدريب كامل للذاكرة وهذا يعني أن ما يمكن تذكره؟ وما يمكن نسيانه صفات يمكن أن تكون متأصلة في الذاكرة. فالجدل الدائر حول الذاكرة واستخدام الشهادات الشفهية في إعادة بناء التاريخ حفز الاهتمام بالعلاقة بين التاريخ والذاكرة. فالتاريخ والذاكرة ليسا متجانسين: فالسابق مقبول عالمياً "وهو معرفة علمية" بينما الثاني وجد كاستجابة لمطلب إنساني عالمي للمجتمعات البشرية، حيث يشكل حضور التاريخ في الزمن الحاضر عنصراً أساسياً للكائن الاجتماعي، وباختصار التاريخ علم قائم بحد ذاته لا جدل فيه وليس فقط استرجاع للذكريات من المجتمعات والأفراد، بينما تشكل الذاكرة جزء منه ولكن في الوقت نفسه تعتبر مفصلاً رئيسياً منه.

دورا شوار سنابن

مجلة "كوما"، فبراير ٢٠٠٢

ملخص

تتناول هذه الدراسة حكايات هارون الرشيد كما وردت في كتاب "إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس"، لمحمد دياب الأتليدي، بالمقارنة مع مصادر أدبية وتاريخية أخرى. لقد لاحظنا بأن الحكايات التي أوردها الأتليدي في كتابه ليست مواد تاريخية، ولا تمت إلى الواقعية بصلة، وقد اشرنا لاحقاً بأن المؤلف نفسه قد صرح بأنه ليس مؤرخاً عندما طلب منه تأليف الكتاب. ويبدو لنا بأن الهدف قد يكون للتسلية أو ربما لأغراض سياسية-اجتماعية أخرى كما جاء في مقدمة الكتاب. لا شك لدينا أن المؤلف قد جمع مادته من مصادر قديمة، وهنا نجد نوعاً من الأصالة لديه من جهة، ومن جهة أخرى لا تعبر عملية النقل عن استقلالية المؤلف. المشكلة التي واجهتنا لدى قراءتنا الفصل الخاص بهارون الرشيد أن المؤلف قلما يشير إلى المصدر الذي نقل عنه، نخص بالذكر مجموعة ألف ليلة وليلة، ربما لأنها ليست مجموعة ضمن ما أسميناه الأدب الرسمي. بالمقابل يذكر المؤلف بعض المؤلفات الرسمية، مثل تاريخ بغداد للبغدادي، والفرج بعد الشدة للتنوخي. وقد توصلنا في نهاية الدراسة أن حكايات الرشيد في الكتاب قد ألصقت إليه وهي بعيدة عن الواقعية، وهذا ليس غريباً في الأدب العربي القديم، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن بعض المواد لم تتميز بالأصالة والواقعية التاريخية.

مقدمة

لقد ظهرت في الأدب العربي القديم مواد مختلفة وفق أجناسها المختلفة، كالقصص والحكايات الشعبية، والنوادر والخرافات والأساطير، والحكايات على لسان الحيوان، وغير ذلك من مواد قد استوعبها الأدب العربي، وأخرى قد مجتهد أذواق القراء. لا نغفل أن بعض المواد الأدبية لم تكن رسمية، بسبب طابعها الخيالي، أو أنها مواد تعتبر في إطار "ما وراء الأدب الرسمي" (1). Non Standard. وهكذا برزت في التراث العربي القديم مواد أكثر شعبية لعب الخيال دوره فيها، سواء أكانت هذه المواد أدبية أو مستوحاة من التاريخ، أو ربما فولكلورية. وحول مسألة السرد القصصي، فمن المعلوم أن القصة قديمة عند العرب (2)، نجد عناصرها في الشعر الجاهلي وكذلك في الشعر والنثر

(1) J. Sadan, "The nomad versus sedentary Framework in Arabic Literature" *Fabula* XV 1974, pp. 59- 86; M. Jacobs and B. I. Stern, *An Outline General Anthropology*, N.Y 1980, p. 21-22; Dan B. Amos, "Toward a Definition of folklore in Context, in: *Culture and Social Anthropology*, N.Y 1975, p. 359-361.

قارن: عبد الحكيم شوقي، موسوعة الفولكلور والأساطير العربية، بيروت، ١٩٨٢، ٣٢٧-٣٢٩.

(2) انظر: يوسف سدان، الأدب الهازل ونوادر الثقلاء، ٢٩.

U. Marzolph, *Arabia Ridens*, Frankfurt, (1992), pp. 25-30; van Gelder, "Mixtures of Jest Earnest", *Journal of Arabic Literature*, 22 (1992), pp. 83-108; G. von Grunebaum, "The Spirit of Islam as Shown in its Literature", *Studia Islamica* I (1953), pp. 101-119.

(3) ليس المقصود هنا القصة بالمفهوم الأدبي أو الفني التي نشأت في الأدب العربي الحديث بتأثيرات غربية، كونها تعتبر ضمن الأجناس الأدبية الحديثة، سواء أكانت رواية أو قصة قصيرة.



حكايات هارون الرشيد بين التاريخ والفولكلور (١)

قراءة في أدب الحكايات كما ينعكس في كتاب
"إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس"
للأتليدي



أ.د. غالب عنابسة

رئيس قسم اللغة العربية
الكلية الأكاديمية لإعداد المعلمين العرب
"بيت بيرل" - باقة الغربية



jaleb.anavs@beitberl.ac.il

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

غالب عنابسة، حكايات هارون الرشيد بين التاريخ والفولكلور. دورية كان التاريخية. - العدد الثامن؛ يونيو ٢٠١٠. ص ٨ - ١٣. (www.historicalkan.co.nr)



اختبرنا الكثير من الحكايات فيه وقارناها مع الكتب التاريخية أو الأدبية نتوصل إلى أنه أقرب إلى فن السرد القصصي، أو السرد الفولكلوري، مع وجود عناصر تاريخية لديه، ولكن هذه العناصر لم تنقل عن كتب تاريخية.

قد يواجه الباحث أحيانا صعوبة في تحديد واقعية المواد المتناثرة في الكتب الأدبية، خاصة ضمن ما يسمى "بالأدب الموسوعي"، مثل كتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر" للمسعودي، و"الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني، و"عيون الأخبار" لابن قتيبة وغيرها من الكتب، لأن الكتاب يجمع أحيانا بين الأدب والتاريخ، فضلا عن مؤلفات جمع مؤلفوها مواد أدبية وتاريخية وقصصية، ولذا من الصعب أحيانا علينا كباحثين معرفة الجانب الواقعي أو الجانب الأسطوري في المادة التراثية المكتوبة.

هارون الرشيد في كتب التراث

من الدراسات الهامة التي تناولت هارون الرشيد، دراسة الباحث يوسف سدان⁽⁴⁾ التي تناولت هارون الرشيد في أدب الحكايات، من خلال مخطوطات ومصادر تراثية لها طابعها الأدبي والقصصي والفولكلوري.

لقد تناولت بعض الكتب الأدبية ومنها التاريخية شخصية هارون الرشيد من جوانب متعددة ومتباينة، وبعض الاطلاع على مختلف المؤلفات، لا بد من القول بأن الروايات المرتبطة بهارون الرشيد يمكن تصنيفها في مجالين، الأول الرشيد الخليفة الذي حظي بشهرة نسبية لما وصل إليه العرب بفضل من مجد ووصلت الحضارة العباسية إلى أوج عظمتها، بالإضافة إلى القيم البطولية والدينية والإنسانية، بأن ذلك في الكتب التاريخية المختلفة، مثل كتاب، الكامل في التاريخ لابن الأثير، وعيون الأخبار لابن قتيبة، وانساب الأشراف للبلاذري.

والثاني، روايات وحكايات قد ألصقت بشخصية هارون الرشيد بدافع الحكاية أو السرد القصصي، حيث يعتمد الكاتب فيها على السرد Narrative والخيال Fiction نخص بالذكر الكتب الأدبية، نأخذ على سبيل المثال كتاب "المستطرف في كل فن مستظرف" لشهاب الدين الإشبيلي، نجد حكايات لها علاقة بهارون الرشيد، لكنها لا تمت إلى الواقع بصله.⁽⁵⁾ وهذا أيضا ينطبق نسبيا على كتاب آخر ورد اسم هارون الرشيد فيه، وهو مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودي، وكذلك

الأموي، لكنها لم تصبح فناً أدبياً، إلا في العصر العباسي، بعد أن ترجمت أقاصيص الهند والفرس كقصص: كليله ودمنة، وحكايات ألف ليلة وليلة، ووضعت القصص الدينية، وقصص البطولة: كسيرة عنترة وغيرها مثل القصص الغرامية.

إن قصص الأتليدي في كتابه المذكور أعلاه، منها ما هو ديني، ومنها ما هو بطولي، وجلها غرامي، وغرامي غنائي، أو خمري. وكثيراً ما يشعر القارئ بما في بعضها من مخالفة للمعقول، كالتى تروي مثلاً: اجتماع إبراهيم الموصلي وابنه اسحق، وأبي نواس، بإبليس، وما دار بينهم من غناء وأحاديث، وعلى ذلك فإنه يسر بقراءتها ويستلذها لها فيها من حوادث شائعة تبعث فيه الفضول وتروقه وتسليه.

عندما نطالع صفحات كتب التراث، نخص بالذكر شخصيات هامة في المجتمع العربي والإسلامي، نظن أن هذه المواد التي وردت فيها الشخصيات تنسجم مع الواقع، رغم بعدها عنه وعن الشخصية التي هي بصدها، فيها إذاً قارنا بين الواقع التاريخي ونهج القصة.

تأتي هذه الدراسة لفحص ماهية قصص الخليفة هارون الرشيد كما وردت في كتاب محمد دياب الأتليدي (ت. ١٦٨٨م) "إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس"، بالمقارنة مع مؤلفات تراثية أخرى، احتوت على أدب الحكايات أو القصص. وقبل تناول الكتاب لا بد لنا من الوقوف على حياته بإيجاز.

محمد دياب الأتليدي

محمد دياب الأتليدي هو مؤلف الكتاب أعلاه، ولد في المنية في مصر، وسكن القاهرة، وتوفي فيها سنة ١٦٨٨م، ويدلنا هذا على أنه كان من كتاب عصر الانحطاط، ونرى أثر هذا العصر واضحاً في ما وضعه في كتابه هذا من تعابير وألفاظ عامية، وقد سماه بهذا الاسم من باب تسمية الكل باسم الجزء، لأن أخبار البرامكة لا تستغرق إلا قسماً يسيراً منه، في حين أن الأقاصيص والحكايات التي تتناول ما كان في صدر الإسلام، وأيام الأمويين، وغيرها من الأقاصيص العباسية وغير العباسية تستغرق معظمه.

والأتليدي كان أميناً في نقله عن غيره نسبياً، ينسب كل حكاية أو أقصوصة إلى الكتاب الذي نقلت عنه، أو إلى من رويت عنه، نشير أن أكثر ما نقل عنه، روايات الأصمعي المتناثرة في كتب التراث، بالإضافة إلى كتاب "حلبة الكميت" لشمس الدين النواجي، وكتاب "حياة الحيوان الكبرى" للدميري، و"الأغاني" لأبي الفرج الأصبهاني، و"الفخري في الآداب السلطانية" لابن الطقطقا، و"الفرج بعد الشدة" للتونخي، و"مروج الذهب" للمسعودي، وقصص ألف ليلة وليلة، وتاريخ بغداد للبغدادي، وفي كل القصص التي جمعها في كتابه هذا نرى من جمال السرد وترومي الخيال وحسن الاختراع ما يدل على تمكن الروح القصصية عند العرب.

لكن تقع أمام الباحث مشكلة مفادها أنه في بعض الأحيان يسرد الأتليدي قصته تحت عنوان وقع في كتاب معين، ولا يشير إلى الكتاب الذي نقل عنه، مما يتطلب الأمر جهداً ليس يسيراً من أجل معرفة مصدر النقل، وهي مسألة في غاية الأهمية.

قد يوحي كتاب الأتليدي بأن القارئ مقدم على كتاب يسجل أحداثاً تاريخية محضة، خاصة إذا قرأنا العناوين في فهرس الكتاب، كذكر خلافة هارون الرشيد، والهاؤون والمعتمصم وغيرهم من خلفاء بني العباس. ولكن القارئ سرعان ما يتوصل إلى نتيجة بأن الكتاب فيها إذا

(4) J. sadan, "Harūn al-Rashīd and the Brewer: Preliminary Remarks on the Adab of the Elite versus Hikayat", in: *Studies in Canonical and Popular Arabic Literature*, edited by: S.Ballas and R. Snir, at the York Press, Toronto, 1998, pp. 1-22; De Slane, *Catalogue des Manuscrits arabes* (Paris 1883- 1895), pp. 625-627.

وقد صدر كتاب باللغة العربية تحت عنوان هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا عن دار الفكر بدمشق، لشوقي أبو خليل، عام ١٩٨٨ حيث يتناول المؤلفات القديمة التي أوردت حكايات الرشيد دون تحليل الروايات أو مقارنتها بالكتب القديمة.

(5) انظر: الإشبيلي، المستظرف في كل فن مستظرف، ٩٧، الحكاية التي ترتبط بحصول الغلاء وضيق الحال في فترته، حيث أمر الرشيد بكثرة الدعاء وأمر كذلك بكسر آلات الطرب. قارن: ابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية، ٢٠.

لكن بالمقابل نجد العديد من المؤلفين الذين لم يذكروا مصادر كتبهم، وهذا ينسجم مع كتاب "إعلام الناس" للاتليدي، حيث ذكر المصادر من خلال سرده لبعض الروايات وليس لجميعها وفق اطلاعنا على الكتاب، ومن أهم المؤلفات التي اعتمدها الاتليدي في كتابه بشكل عام والتي تخص هارون الرشيد وغيره من الخلفاء العباسيين أو الأمويين نذكر: "مروج الذهب ومعادن الجوهر" للمسعودي، وكتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصبهاني^(١٠)، و ثمرات الأوراق لابن حجة الأموي.

أما المصادر التي تخص الخليفة هارون الرشيد، فهي، "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي، و"الفرج بعد الشدة" للتونخي^(١١)، ولا شك لدينا أن الاتليدي قد نقل أيضاً عن كتاب "حياة الحيوان الكبرى" للدميري لكنه لم يصرح بذلك. نشير أن مؤلفات الفرّج بعد الشدة التي سبقت التونخي، ينقصها السرد والقصص غير الدينية، ويبدو أن كتاب ابن أبي الدنيا هو الذي وصلنا فضلاً عن كتاب التونخي، لكن من جهة أخرى فإن مؤلفات الفرّج بعد الشدة هي بمثابة مثال جيد للاهتمام ليس في فترة هارون الرشيد فحسب أي القرن التاسع ميلادياً، وإنما القرن العاشر بشكل ملحوظ.

من جانب آخر لا شك أن الاتليدي قد نقل قصصاً أيضاً عن مجموعة "ألف ليلة وليلة" لكن لم يشر إلى ذلك ربما لأن هذه المجموعة ليست ضمن ما يسمى "الأدب الرسمي"^(١٢) والتي تعتبر مشتركة للمجموعة القصصية والأدب، وليس القصص المرتبطة بالشياطين أو الخيال. لكن من جانب آخر فرغم أن مؤلفنا قد أشار في مواضع مختلفة إلى الكتب التي نقل عنها، لكن في بعض الأحيان لم يشر إلى الكتاب الذي نقل عنه، كمجموعة ألف ليلة وليلة، مما نستنتج بأنه قد اطلع على الحكاية وصاغها بنسج خاص. من جانب آخر نحن نعلم أن قصص هارون الرشيد ذكرت في مجموعة ألف ليلة وليلة لكن هذه القصص بعيدة عن الواقعية، بل هي بمثابة أساطير شوهت شخصية هارون الرشيد الخليفة الذي اتسم بالرزانة.

أما عن سبب تأليفه للكتاب؛ فقد ورد في مقدمة المؤلف أن شخصاً طلب منه أن يجمع مادة تتعلق بالخلفاء المتقدمين من بني أمية والعباسيين، فاستجاب للطلب رغم أنه يصرح بأنه ليس قادراً على ذلك وليس مؤرخاً. ورد في مقدمة المؤلف: "سألني بعض الإخوان الموقفين ممن لا يسعني مخالفتهم، أن أجمع له شيئاً مما وقع في زمن الخلفاء المتقدمين من بني أمية والخلفاء العباسيين، فأجبتهم لذلك مع علمي أنني لست أهلاً لذلك."^(١٣)

(١٠) نلاحظ أن الاتليدي عندما لا يصرح باسم الكتاب الذي ينقل عنه يذكر يروي أو يحكي. وكتاب الأغاني متهم مؤلفة في سرد مواد أدبية لعب الخيال دوره فيها، انظر: الحموي، معجم الأدباء، ١٣: ٩٤.

(١١) هناك ثلاثة مؤلفات تحمل هذا العنوان، للمدائني (الفرج بعد الشدة والضيقة)، لابن أبي الدنيا (بنفس العنوان)، وللازدي (بنفس العنوان). انظر في كتاب الاتليدي ١٨٦ حيث يرد اسم القاضي أبي الحسن التونخي. (12) See: Mia I. Gerhardt, The Art of Story-Telling (Leiden), 1963, pp. 45-85; D. Pinault, Story—Telling Techniques in the Arabian Nights (Leiden), 1992, 15-26; A. Chraïbi, Contes nouveaux des 1001 Nuits (Paris), 1996, pp. 32-50.

(١٣) انظر: الاتليدي، إعلام الناس، ٧.

الأمر كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني^(٦) الذي ورد فيه أخبار أبي نواس بصورة جزئية مع هارون الرشيد، ومن المعروف أن كتاب الأغاني يعتبر كتاب أدب، لا يمتّ إلى الجانب التاريخي بصلة، فثمة الكثير من الأخبار فيه تعتبر حكايات أو قصصاً أدبية. وإذن فليس من الغريب أن يذكر الذهبي بان الأصفهاني قد كان يأتي بالأعاجيب في كتابه^(٧). نشير في هذا السياق أن الجزء الخاص المكرس لأبي نواس في كتاب الأغاني قد ضاع، وما تبقى أخبار أبي نواس مع عتبة بالمقابل نجد أيضاً في كتب التراث حكايات قد ألصقت إلى أبي نواس، مثلما ما ورد لدى المسعودي في "مروج الذهب" لذا من الصعب أحياناً أن نفرق بين الأسطورة والحقيقة، وهذا هو موضوع دراستنا^(٨).

ونحن في دراستنا هذه لا نبتغي الوقوف على المؤلفات التي احتوت على قصص ترتبط بالخليفة هارون الرشيد، قدر اهتمامنا بكتاب الاتليدي، وإن أجرينا مقارنة مع كتب تراثية مختلفة. وحول كتاب الاتليدي المذكور، فمن المعلوم أن موضوع هارون الرشيد قد غلب على أغلبية فصول الكتاب، حيث تجاوزت صفحات الكتاب مائتي صفحة يروي المؤلف حكايات الرشيد، علماً بان المؤلف تناول بشكل بسيط بعض خلفاء بني أمية في البداية، كالوليد بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك، وبعض خلفاء بني العباس كالمهدي والمنصور وغيرهما، هذا الأمر يجذب النظر من ناحية الكم الخاص بالرشيد.

أما القصص التي خصّها الاتليدي بالرشيد، فنذكر على سبيل المثال، بعض الحكايات المرتبطة بالجواري، وحكاياته مع أبي نواس، الرشيد وجعفر البرمكي، بكاء الرشيد على البرامكة، وكذلك الرشيد والخيزران، وحكايته مع إبراهيم الموصلي، ولا شك أن القصة التي ذاع صيتها، قصته مع الأصمعي والمعروفة بقصيدة "صوت صفير البلبل". النسوبة للأصمعي. ولا شك أن مواد كثيرة في فصل هارون الرشيد من الكتاب تتناول حكاياته مع البرامكة، كونهم كانوا مقرّبين له في خلافته من الجانب التاريخي^(٩).

مصادر الاتليدي

من المعروف لدى الباحثين، أن أغلبية المؤلفين، وجامعي مادة تاريخ الأدب العربي، اعتمدوا النقل عن سبقيهم من كتاب، ولذا ففي بداية كتبهم صرّحوا بأسماء الكتب التي نقلوا عنها رواياتهم، أو ربما في فصول كتبهم المختلفة. فالتونخي في "الفرج بعد الشدة" يذكر مصادر كتابه في المقدمة، وكذلك ابن السراج في كتابه "مصارع العشاق"، نضيف الأصفهاني في كتاب "الأغاني" الذي يعتبر كتاباً أدبياً لا تاريخياً

(٦) انظر: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٤: ٣٢١-٣٥٠؛ الأصفهاني، الأغاني، حيث ورد ذكره في عدة أجزاء من الكتاب، انظر: ٣: ١٦٢-١٦٣، ١٦: ٧٠-٧١، ١٥: ٨٠-٨١.

(٧) انظر: الذهبي، ميزان الاعتدال، ٣: ١٣٣.

(٨) وردت أخبار أبي نواس لدى Littman, Alf Layla wa-layla, EI1, (N. 1960, pp. 358-364. E) ولدى ابن المعتز في فصول التماثيل وتبشير السرور، ولدى الصولي في كتاب الأوراق، وابن هفان في كتاب أخبار أبي نواس الخ. قارن: ابن منظور، أخبار أبي نواس، ٤: ١٦٧. حيث يذكر أن أخبار الرشيد مع أبي نواس موضوعات لا تصح.

(٩) انظر: الاتليدي، إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، ١٤٤-٢٨٠، حيث كرس المؤلف أكثر من مائة صفحة لخلافة هارون الرشيد، مو ايراد القصص والروايات المختلفة.

حكايات هارون الرشيد لدى الأتليدي

لو اطلعنا على صفحات كتاب المؤلف لوجدنا أنه قد بَوَّه بصورة كرونولوجية ، حيث بدأ بسرد الحكايات منذ فترة الخلفاء الراشدين ، مبتدئاً بالخليفة الراشدي عمر بن الخطاب ، ثم انتقل إلى الخلافة الأموية وتناول قصصاً منوطة بمعاوية بن أبي سفيان وخلفاء آخرين ، ثم انتقل إلى الفترة العباسية بدءاً بالخليفة السفاح ، ثم المنصور والمهدي وهارون الرشيد وغيرهم ممن جاء بعده.

لكن الذي يجذب النظر أن مؤلفنا خصص أكثر من مائة صفحة ونبَّه خلافة هارون الرشيد ، تتضمن حكايات وقصصاً مع مختلف الشخصيات الرزينة وغير الرزينة ، التي عاصرها الخليفة هارون الرشيد ، كالأصمعي وإبراهيم الموصلي وأبي نواس ، فضلاً عن القصص التي ورد فيها الوزراء من البرامكة كجعفر البرمكي ، وأيضاً الجوّاري في قصر الخلافة وغير ذلك من شخصيات شتى. سنشير فيما يأتي إلى بعض القصص التي وردت لدى الأتليدي نموذجاً ، بالمقارنة مع مصادر تراثية ، وأدبية ذات الطابع الأدبي والتاريخي ، وإن كانت لا تمت هذه القصص إلى الحقيقة بصلّة ، فهي غير مستمدة من التاريخ العباسي من جهة وإنما غلبت نزعة الأسطورة عليها.

من الروايات التي وردت في كتاب إعلام الناس للأتليدي ، حكاية هارون الرشيد بصحبة جعفر البرمكي ، وإذا هو بعدة بنات يستقون الماء وتنتهي الحكاية بزواج الرشيد منها. وردت الحكاية لدى الأتليدي تحت عنوان "الرشيد والمستقية" ، جاء في الكتاب: "ويحكى أن هارون الرشيد مرّ في بعض الأيام وبصحبة جعفر البرمكي ، وإذا هو بعدة بنات يستقون الماء فعَرَّج عليهن يريد الشرب وإذا إحداهن تقول:

قولي لطيفك ينثني عن مضجعي وقت المنام
كي استريح وتنطفي نارُ تَأَجَّجُ في العظام
دنفتُ قلبه الأكف على بساط من سقام
أما أنا فكما علمت فهل لوصلك من دوام؟

فأعجب أمير المؤمنين ملاحظتها وفصاحتها. فقال لها: يا بنت الكرام هذا من قولك؟ قالت: من قولي. قال إن كان كلامك صحيحاً فامسكي المعنى وغَيِّي القافية ، فأنشدت تقول:

قولي لطيفك ينثني عن مضجعي وقت الوسن
كي استريح وتنطفي نارُ تَأَجَّجُ في البدن
دنفتُ قلبه الأكف على بساط من شَجَن
أما أنا فكما علمت فهل لوصلك من ثمن؟

فقال لها: والآخر مسروق قالت: بل كلامي".^(١٤) وفي سبيل الإيجاز يطلب الرشيد منها مرتين على أن تغير القافية ، فنجحت وأيقن أن ذلك من أشعارها ، ثم أرسل جعفر البرمكي ليطلبها من أبيها ، وتزوجها ، ومات أبوها ، فحزنت عليه ، ولحقت به بعد مدة. هذه الحكاية التي لم يشر الأتليدي إلى مصدرها ، وردت أيضاً في المجموعة القصصية ألف ليلة وليلة.

(١٤) انظر: الأتليدي ، إعلام الناس ، ١٤٥. وقد وردت في ألف ليلة وليلة ٤: ٦٨-٦٩.

حكاية أخرى وردت تحت عنوان "الرشيد وجارية جعفر" لدى الأتليدي ، تشير إلى طلب الرشيد من جعفر جاريته التي اشتراها ، ورد لديه: "ويحكى أن جعفر البرمكي نادم الرشيد ليلة فقال: يا جعفر بلغني أنك اشتريت الجارية الفلانية ، ولي مدة اطلبها ، فإنها بديعة الجمال ولي شوق زائد إليها فبعنيها. قال: ليس عليّ فيها بيع. قال: هبنيها ، قال: ولا اهبتها. فقال الرشيد: زبيدة طالق مني ثلاثاً إن لم تبعنيها أو تهبنها. وقال جعفر: زوجتي طالق مني ثلاثاً إن بعته أو وهبتها. ثم أفاقا من نشوتهما وعلمتا أنهما وقعا في أمر عظيم وعجزا عن تدبير الحيلة فقال الرشيد: هذه واقعة ليس لها غير أبي يوسف ، فاطلبوه...". وفي سبيل الإيجاز يأتي القاضي ويطلب من جعفر أن يبيع نصفها ويهبه نصفها ، لكن الرشيد أراد أن يطأها ، وأحضروا مملوكاً ليتزوجها ، بسبب مدة الاستبراء ، ليطلقها من المملوك قبل أن يدخل عليها ، لكن المملوك بعد أن عقد عليها رفض الطلاق ، رغم العطاء الكثير من قبل الرشيد ، ويهتدي القاضي في النهاية إلى طلب من الرشيد أن يعتق الجارية ويملك المملوك ففعل ، على مذهب الحنفية ، وقبلت الجارية ذلك وعندئذ فسخ النكاح بين الجارية والمملوك.^(١٥) وهذه الحكاية وردت أيضاً في مجموعة ألف ليلة وليلة.

وقد وردت أيضاً مجموعة حكايات لدى الأتليدي تشير بأن الرشيد وجعفر البرمكي يتنكران في ضواحي مختلفة من مدينة بغداد ، بسبب قلق أو أرق الرشيد ، نذكر مما اشتهر منها ، عندما تنكرا وأرادا التجوال في نهر دجلة ، وطلبا من شيخ صاحب مركب (أي صياد) أن يفعل ذلك ، رغم أن الشيخ يعرف أن من ركب مركباً ليلاً في نهر دجلة ضربت عنقه وفق ما أوصى الرشيد ، لكنهما اقنعا الشيخ على ذلك ، وبريا من خلال الجولة في نهر دجلة ممن يتنكر وكأنه خليفة آخر إلى انتهاء الحكاية ، حيث ينضم إلى الحكاية مسرور الخادم ، وقد وردت الحكاية تحت عنوان "الرشيد والخليفة الكاذب الثاني". وهذه الحكاية وردت في مجموعة ألف ليلة وليلة.^(١٦) دون أن يشير الأتليدي إلى مصدرها.



(١٥) انظر: الأتليدي ، إعلام الناس ، ٢١١-٢١٤. قارن: مجموعة ألف ليلة وليلة ، ٣١٨-٣١٩.

(١٦) انظر: الأتليدي ، إعلام الناس ، ١٩٢-٢١١. قارن: مجموعة ألف ليلة وليلة ، ٣٠٤-٣٠٧. وردت أيضاً حكايات في ألف ليلة وليلة تشير أن الرشيد وجعفر ومسوروا يتنكرون في بساتين القصر على نهر دجلة ، ١: ١٤٦-١٤٨.

وقد عرف الرشيد بأنه سوف لا يضيف بيتا ، لكنه في النهاية نظم:
بأبي من كان في قلب له مرة حب قليل فسرق
يا بني العباس فيكم ملك شعب الإحسان منه تفترق
إنها هارون خير كله مات كل الشر مذ يوم خلق^(٢١)

وهناك حكايات أخرى للرشيد مع أبي العتاهية ، وإبراهيم الموصلي
المغني ، وكذلك الرشيد مع جاريته ماردة.^(٢٢)
ولا عجب أن نشير أن مثل هذه الحكايات لا يمكن أن تكون
واقعية ، ولا تنسجم مع شخصية الرشيد ، خاصة انه امتاز بالرزانة
والشدة ، والمحافظة على القيم الإسلامية.

من جانب آخر فان كتاب الأغاني يعتبر كتابا أدبيا ، وفيه الكثير
من الحكايات التي لا يمكن أن تكون واقعية ، رغم أننا ندعي بأنه في
كثير ممن الأحيان لا نستطيع أن نفرق بين الأسطورة والواقعية ، وهذه
الأمر ينطبق على كتاب آخر اعتمد عليه الاتليدي بشكل مقل ، على
الأقل لأنه ذكره مرة واحدة في الفصل الذي خصصه للخليفة هارون
الرشيد ، نعني كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي.

ومن القصص التي تجذب النظر والتي لم يشر الاتليدي إلى
مصدرها ، قصة الرشيد عندما دخل مكة المكرمة ، وأراد الطواف ومنع
العام والخاص لينفرد بالطواف ، فسقه أعرابي فمر الحاجب أن يتخلى
عن الطواف حتى يطوف الرشيد ، لكن الأعرابي يذكر بأن الله قد ساوى
بين الإمام والرعية ، فلما سمعه الرشيد راعه أمره فأمر الحاجب بالكف
عنه ، ثم جاء الرشيد إلى الحجر الأسود فسبقه الأعرابي ، وإلى المقام
للمصلى فسبقه أيضا ، وبعد أن فرغ الرشيد من الصلاة طلب إحضار
الأعرابي وجادله فأعجب به وبآرائه ، ونظم أمامه شعرا نذكر من ذلك:
هب الدنيا توافينا سنيها فتكدر ساعة وتلدّ حيناً

وفي نهاية القصة يكشف الأعرابي عن نفسه ، وأخبره انه موسى
الرضي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الحسين بن علي بن أبي
طالب رضي الله عنهم أجمعين ، وكان يتزيّا بزّي أعرابي زاهدا في الدنيا.
ويبدو ان هذه القصة تعتبر شيعة بسبب الاسم المذكور في نهايتها.^(٢٣)
ونختتم حديثنا بقصة الرشيد والرجل الأموي ، كما وردت لدى
الاتليدي ، حيث كان صاحب جاه ومال وكثير الضيافة ، وقد وردت
القصة لدى ابن حجة الأموي ، والتنوخي.^(٢٤)

لا شك أن القصص التي وردت أوردناها ، نحو مناحي مختلفة من
الجانب الأدبي والاجتماعي ، نأخذ على سبيل المثال أن قصة الأعرابي
الذي زاحم الرشيد ، لا تدل فحسب على آداب السلوك ، أو المساواة
بين المسلمين ، وإنما على ما يسمى "الأجوبة المسكتة" ، بسبب
إجابات الأعرابي ودكائه أمام الرشيد ، خاصة اعتماد الأعرابي على آيات
من القرآن الكريم ليرد على الرشيد.

فضلا عن ذلك فهناك جانب العجائب "عجائب المخلوقات" في
بعض القصص التي أوردتها الاتليدي ، مثل قصة الرشيد وجميل بن
معمر ، حيث رأينا أن الأشجار كانت تترنم بلغاتها. وهذه القصص نعني
العجائب نعر عليها في مجموعة ألف ليلة وليلة.

(٢٠) انظر: كتاب الاغاني ، ٣: ١٦٢-١٦٣.

(٢١) انظر: الاغاني ، ١٦: ٧٠-٧١ ؛ ١٥: ٨٠-٨١.

(٢٢) انظر: إعلام الناس ، ١٦٦-١٦٦.

(٢٣) انظر: إعلام الناس ، ١٨٦ ؛ ابن حجة الأموي ، ذيل ثمرات الاوراق ، ١٨١ ؛

التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ٤: ١٢٨.

ومن المعلوم أيضا وجود كثير من الحكايات في كتاب الاتليدي ،
نعر عليها في مجموعة ألف ليلة وليلة ، مثل حكاية الرشيد والأصمعي
التي وردت أيضا في مجموعة ألف ليلة وليلة ، حيث يطلب من
الأصمعي أن يحدثه بأجود أخبار النساء ، ويحكي له حكاية الأخوات
الثلاث اللاتي أردن نظم أعذب الشعر والبيت الذي يكون الأملح تفوز
صاحبته بثلاثمائة دينار. ولدى سماع الأصمعي الآيات الثلاثة التالية
يحكم للبننت الصغرى: "قالت الكبرى: عجبت له أن زار في النوم
مضجعي ولو زارني مستيقظا كان أعجبا. فقالت الوسطى: وما زارني في
النوم إلا خياله فقلت له: أهلا وسهلا ومرحبا ، فقالت الصغرى: بنفسني
وأهلي من أرى كل ليلة ضجيجي ورياء من المسك أطيبا".^(٢٥)

ومن الحكايات أيضا التي وردت لدى الاتليدي وفي مجموعة ألف
ليلة وليلة حكاية "جميل والفتى العذري" الذي وقف على باب الرشيد
وأدخله القصر حيث حدّثه بقصة حبّه وحب أحد أبناء عمّه ، ليزيل
عنه القلق.^(٢٦) وكيف خرج ليفتش عنها في كل مكان ، وعندما غلبه
النوم ، "وإذ بأشجار وأنهار وماء وأطيّار على تلك الأغصان تترنم بلغاتها
وأحانها.

وحكايات الرشيد تعد كثيرة نسبيا لدى الاتليدي ، منها "الضيف
الطارق" أي طارق الباب وهو أبو نواس ، الذي وصف كيف قضى
الرشيد ليلته مع جارية من جواريه دون أن يكون معه ، وهذا يدل على
الخيال لدى الاتليدي أو لدى من نقل عنه ، رغم انه لم يشر إلى مصدر
الرواية ، وربما بلورها من خياله ، وكذلك حكاية "الرشيد والجارية
السكرى" في القصر ، وأيضا "الرشيد وجارية الخيزران" حيث وجدها
تغتسل ، وطلب من أبي نواس وبشار ان يعبرا عمن في نفسه ، نضيف
حكايته بصحبة الأصمعي وحسين الخليل ، (وهو الحسين بن الضحاك
ت ٨٤٦م). وغير ذلك من الحكايات.^(٢٧)

بالمقابل نعر أيضا على حكايات تتناول الرشيد في كتب أدبية ولا
تمت إلى التاريخ بصلة وأحيانا ليست واقعية ، مثل كتاب الأغاني ،
لأبي الفرج الأصفهاني ، حيث ورد ذكر الرشيد في أكثر من موضع من
أجزاء الكتاب ، ومن القصص التي سنوردها انه كان بصحبة وزيره
جعفر البرمكي يتناول الشراب ، ويستمتع إلى غناء جارية ، فاستحسن
الرشيد غناها رغم انه كان بيتا واحدا وقال الرشيد: "ما كان أحوجه
إلى بيت ثان" ، فأشار إليه جعفر بأن من يكمل البيت الثاني هو أبو
العتاهية لقدرته على الشعر ، لكنه كان محبوبا ، فكتب إليه الرشيد
بالقصة ، فكتب إليه أبو العتاهية:

ولقد كلفت أمرا عجا أسأل التفرّيح من بيت الحزن

(١٧) انظر: الاتليدي ، إعلام الناس ، ١٥٢-١٥٥ ؛ قارن: مجموعة ألف ليلة وليلة ، ٧٠-٧١.

(١٨) انظر: الاتليدي ، إعلام الناس ، ١٧٢ ، قارن: مجموعة ألف ليلة وليلة ، ٤: ٧٣-٧٢.

(١٩) انظر: الاتليدي ، إعلام الناس ، ١٤٨-١٥٠. بالنسبة لحكاياته مع حسين
الخليع ، انظر: إعلام الناس ، ١٦٧-١٧٢. قارن: ابن القيم الجوزية ، أخبار
النساء ، ١٢٥. وقد صدر عن منشورات الجمل في الهانبا ، ديوان الحسين
بن الضحاك: بتحقيق جليل العطية عام ٢٠٠٥ (منشورات الجمل: بغداد)
وقد سمي بالخليع لكثرة مجونه وخلعانه وكان من أقران أبي نواس كما جاء
في مقدمة التحقيق ، ويذكر جليل العطية انه جالس هارون الرشيد قبل أن
ينكب البرامكة ثم جالس من بعده الخلفاء ، ولعل رثاء البرامكة كان سبب
نفور الرشيد منه. انظر: مقدمة تحقيق الكتاب. انظر ترجمته لدى الصفدي ،
الوافي بالوفيات ، ١٢: ٣٧٩ ، بيروت ، ١٩٩٠.

نتائج الدراسة

حاولنا من خلال دراستنا أن نقف على حكايات هارون الرشيد كما وردت في كتاب الاتليدي ومؤلفات أدبية وتراثية أخرى، والمسألة عندنا ليست إذا كانت القصص أسطورية أو واقعية، وإنما ما احتوته هذه القصص من الجانب الأدبي على أعاجيب وخیالات ومسائل أدبية مسلّية. لذا ينبغي القول أن الحكايات لدى الاتليدي وإن جمعها من كتب تراثية مختلفة- مشيراً إلى مصادره وفي بعض الأحيان لا نعلم إذا غفل ذكر المصدر أو ربما من وضعه- قد ألصقت إلى هارون الرشيد، ربما يرجع الأمر لأسباب أدبية أو سياسية أو اجتماعية.

تشير سهير القلماوي في كتابها ألف ليلة وليلة "بل إن ما بقي لنا من هذه الأخبار إلى اليوم يفتح أمامنا أبواباً من المشاق في استخلاص التاريخ الحق، لكثرة ما استولى الخيال على هذه الحقائق وصبغها بما شاء ذوق الشعب أن يصبغها به"^(٢٤).

لا شك لدينا أن الاتليدي لم يؤلف كتاباً في التاريخ كما جاء الأمر في عنوان الكتاب، وإنما ابتغى تأليف كتاب أدبي جمع فيه بعض المواد التاريخية، وهذا النهج معروف لدى المؤلفين في القرون الوسطى، نذكر على سبيل المثال أن كتاب الأغاني، والعقد الفريد، والفرج بعد الشدة، ومروج الذهب، جمع مؤلفوها بين الأدب والتاريخ، رغم احتوائها على قصص من عالم الخيال الشعبي، خاصة المنقولة عن مجموعة ألف ليلة وليلة رغم عدم إشارته للمصدر الذي ينقل عنه.

وينبغي لنا القول أن كتاب الاتليدي لم يتناوله الباحثون في دراساتهم الأدبية أو التاريخية، ولذا جاءت مقالتنا لتشير إلى بعض الجوانب المرتبطة بمؤلفات القرون الوسطى، والفترة العثمانية المتأخرة.

ويبدو لنا أن البيئات العربية الشعبية، لم تشأ أن تتخلى عما علق بأذهانها وما انتقل إليها وما توارثته من معتقدات طريفة، وهذا يثبت أن بعض القصص التي نقلها الاتليدي وربما ما أضافه من قصص انسجم مع هذه البيئات المذكورة.

والسؤال الذي يطرح في نهاية دراستنا، هل الكتاب الذي وضعه الاتليدي ينسجم مع مؤلفات أخرى ظهرت في القرون الوسطى؟ وهل العديد من الحكايات التي ورد فيه عن هارون الرشيد تعتبر من وضع البرامكة؟

لا شك أن الكتاب لا يوجد فيه إبداع رغم وجود بعض الأصالة نتيجة لعملية النقل عن كتب أخرى، وهذا أمر رائع لدى مؤلفي القرون الوسطى.

المصادر والمراجع:

- الإبيهي، شهاب الدين المستطرف في كل فن مستظرف، القاهرة، ٢٠٠٠.
- ابن الطقطقا، محمد بن علي، الفخري في الآداب السلطانية، بيروت، ١٩٧٥.
- ابن المعتز، عبد الله ابن المعتز، فصول التماثيل في تبشير السورور، دمشق، ١٩٨٩.

(٢٤) انظر: سهير القلماوي، ألف ليلة وليلة، ٢٤٧.

- ابن حجة الاموي، ذيل ثمرات الأوراق، بيروت، ١٩٦٥.
- ابن قيم الجوزية، أخبار النساء، بيروت، ١٩٨٠.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، أخبار أبي نواس، القاهرة، ٢٠٠٠.
- أبو هفان، أبو هفان المهزومي، عبد الله بن أحمد، كتاب أخبار أبي نواس، القاهرة، ١٩٦٤.
- الاتليدي، محمد دياب، إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، القاهرة، ١٩٦١.
- الاصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، الاغانى، القاهرة، ١٩٧٢.
- البغدادي، تاريخ بغداد، بيروت، ١٩٨٢.
- التنوخي، القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، بيروت، ١٩٧٨.
- الجومرد، جزيل عبد الجبار، هارون الرشيد، بيروت، ١٩٩٩.
- الحسين بن الضحاك، ديوان عمر، منشورات الجمل، ألمانيا، ٢٠٠٥.
- الذهبي، محمد بن احمد، ميزان الاعتدال، بيروت، ١٩٦٨.
- سدان، يوسف سدان، الأدب الهازل ونوادير الثقلاء، ألمانيا، ٢٠٠٧.
- شوقي، عبد الحكيم شوقي، موسوعة الفولكلور والأساطير العربية، بيروت، ١٩٨٢.
- الصفدي، خليل بن اييك، الوافي بالوفيات، بيروت، ١٩٩٧.
- الصولي، محمد بن يحيى، كتاب الأوراق، بيروت، ١٩٨٢.
- القلماوي، سهير القلماوي، ألف ليلة وليلة، القاهرة، ١٩٦٥.
- كلو، اندري كلو، هارون الرشيد ولعبة الأمم، بيروت، ٢٠٠٥.
- مجموعة ألف ليلة وليلة، بيروت، ٢٠٠٠.
- المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجواهر، بيروت، ١٩٧٣.
- مؤلف جهول، أخبار البرامكة، بيروت، ٢٠٠٦.

- Alf Layla wa-layla, El 1, (N. E), 1960. Littman
- D. Pinault, Story –Telling Techniques in the Arabian Nights(Leiden), 1992, 15-26; A. Chraibi, Contes nouveaux des 1001 Nuits (Paris), 1996.
- De Slane, Catalogue des Manuscript arabes (Paris 1883- 1895).
- G. von Grunebaum, " The Spitit of Islam as Shown in its Literature", Studia Islamica I (1953).
- J. sadan, "Harūn al-Rashīd and the Brewer: Preliminary Remarks on the Adab of the Elite versus Hikayat", in: Studies in Canonical and Popular Arabic Literature, edited by: S.Ballas and R. Snir, at the York Press, Toronto, 1998
- Mia I. Gerhardt, The Art of Story-Telling (Leiden).
- U. Marzolph, Arabia Ridens, Frankfurt, (1992).
- van Gelder, "Mixtures of Jest Earnest", Journal of Arabic Literature, 22 (1992).

تقديم

الأندلس تلك البلاد التي ما إن سمعنا باسمها حتى تراءت لنا الذكريات الجميلة الحزينة عنها ، وما فعله المسلمون من نقل العلوم كافة إليها وما كانوا عليه من تسامح مع أهلها الأصليين من الأديان كافة ، وما فعله النصارى من اضطهاد للمسلمين بعد أن خبت جذوة الإسلام فيها. وللتاريخ الأندلسي مكانة خاصة في اهتمامات الباحثين ، لما يحمله هذا التاريخ في ثيابه من الانجازات العظيمة في المجالات الفكرية كافة (سياسية - اقتصادية - حضارية) ، التي نقلها المسلمون معهم وهم عابرون لفتح تلك البلاد امتداداً من بدايات الفتح (٩٢-٩٥ هـ / ٧١١-٧١٤ م) وعصر الولاة (٩٥-١٣٨ هـ / ٧١٤-٧٥٦ م) مروراً بعصر الإمارة الأموية (١٣٨ - ٣٠٠ هـ / ٧٥٦-٩١٢ م) وإلى سقوط الأندلس سنة (٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م).

وظهرت خلال تلك الحقبة شخصيات استطاعت بحكمتهما وإخلاصهما للإسلام أن تبني الدول وتوسع العمران وتهيئ أرضية سياسية خصبة لمن يأتي بعدها. ومن تلك الشخصيات السمع بن مالك الخولاني ، والذي أفردناه بهذه الدراسة لمدة حكمه في الأندلس. قسّمت هذه الدراسة إلى عدة محاور ، المحور الأول تناول التعريف بالأندلس والتعريف بنسب السمع بن مالك الخولاني وولايته للأندلس ، والمحور الثاني تطرق إلى سياسته الداخلية التي اتبعتها حقبة حكمه ، أما المحور الثالث أوضحت فيه السياسة الخارجية للوالي السمع ودوره في نشر الإسلام وتوسيع الرقعة الجغرافية لدولة الإسلام في الأندلس. وقد تضمنت الدراسة أهم النتائج التي خلصت إليها ، وبهذا لا أقول أنني استطعت الوصول إلى جميع الحقائق والمعلومات عن هذا الوالي ، وإنما هذه المعلومات هي قطرة في بحر بالنسبة لتاريخ وانجاز أولئك الأفاضل الأبطال.

المحور الأول: تعريف بالأندلس

الأندلس: شبه جزيرة قريبة من شكل المثلث ^(١) ، وتسمى شبه جزيرة أيبيرية وتضم اسبانيا والبرتغال ، وتقع في الجنوب الغربي من القارة الأوروبية ، تفصلها من الشمال عن جنوب فرنسا جبال البرت أو البرتات ^(٢) ، ويفصلها من الجنوب عن قارة أفريقيا مضيق جبل طارق ؛ تقع سواحلها الشمالية والشمالية الغربية على المحيط الأطلسي ، وتقع شواطئها الشرقية والجنوبية الشرقية على البحر الشامي (البحر المتوسط) ^(٣).

وسميت بالأندلس حسب ما يذكر ابن عذاري أن "أول من نزل الأندلس بعد الطوفان قوم يعرفون بالاندلش" ^(٤) ، ويذكر أن التسمية جاءت من "لفظ واندلوس وهو اسم قبائل الوندال الجرمانية الذين يسمون في اللغات الأوروبية (الفاندال أو الفاندالوس) وهي قبائل غزت شبه الجزيرة الأيبيرية في القرن الخامس الميلادي واستقرت في السهل الجنوبي من شبه الجزيرة ومنحته اسمها" ^(٥).

ويعني بالأندلس حضارياً: ذلك التراث الضخم والتاريخ الشامخ الذي تركه المسلمون خلال ثمانية قرون ، مدة بقاءهم في الأندلس ^(٦) . بدأ فتح العرب المسلمون الأندلس سنة (٩٢ هـ / ٧١١ م) ، وتمّ عام (٩٥ هـ / ٧١٤ م) خلال ولاية موسى بن نصير (٨٦-٩٥ هـ / ٧٠٧-٧١٤ م) ^(٧) ، لنشر الدين الإسلامي ونقل الحضارة الإسلامية إليها.

الأندلس في عهد الوالي

السمع بن مالك الخولاني

(١٠٠ - ١٠٢ هـ / ٧١٩ - ٧٢١ م)



خليل خلف حسين ناصر الجبوري

مدرس مساعد — قسم التاريخ

كلية الآداب — جامعة تكريت

محافظة صلاح الدين — العراق

khkhaljbory@yahoo.com

الاستشهاد المرجعي بالهقال:

خليل خلف الجبوري ، الأندلس في عهد الوالي السمع بن مالك الخولاني .- دورية كان التاريخية .- العدد الثامن ؛ يونيو ٢٠١٠.

ص ١٤ — ١٨ . (www.historicalkan.co.nr)



تولى السمع ولاية الأندلس في رمضان سنة (١٠٠هـ / ٧١٩ م) ووصل الأندلس واستقر في قرطبة، إذ اتخذها عاصمة له، بعد أن كانت العاصمة قبل مجيئه مدينة اشبيلية^(١٨) ولم يكن قد مرَّ على الفتح الإسلامي لها سوى ثماني سنوات، ومن هذا الأمر يمكن أن نقول أن بلاد الأندلس لم تكن مستقرة ولا كان أهلها قد خضعوا للحكم الإسلامي خضوعاً تاماً^(١٩). بدليل أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (رضي الله تعالى عنه) كان يحس بالخطر الذي كان يتوقع أن يتعرض له المسلمون في حال أنهم لم يتمكنوا من السيطرة الكاملة على بلاد الأندلس، فيذكر صاحب أخبار مجموعة أن الخليفة "كان رأيته انتقال أهلها منها لانقطاعهم عن المسلمين"^(٢٠).

فكتب الخليفة (رضي الله تعالى عنه) إلى الوالي السمع بأن يخبره بحال الأندلس من حيث قوة المسلمين فيها وعددهم وأن يكتب إليه بصفة الأندلس من حيث طبيعتها وأنها رها وما فيها من عمران^(٢١). فكتب إليه الوالي يذكره ويخبره بأن المسلمين قد كثروا في الأندلس وانتشروا في مدنها وأن لا يخو عليهم، واقتنع الخليفة بقول الوالي وزاد اهتمامه بها ففصلها عن ولاية المغرب العربي فجعلها ولاية مستقلة وأمره بأن يقيم العدل وإنها الرق في إدارته لشؤون الولاية^(٢٢).

ويذكر صاحب أخبار مجموعة أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (رضي الله تعالى عنه) أمر السمع أن "يخمس أرضها" ويفرق بين الأراضي التي فتحت عنوة والتي فتحت صلحاً^(٢٣)، وهنا يتضح لنا الفكر الاقتصادي الإسلامي الفذ الذي كان يتبناه الخليفة (رضي الله تعالى عنه) الذي تمكن من خلاله بناء مجتمع إسلامي متميز اختفت فيه الفوارق الاجتماعية والمادية آنذاك، وقد تبنى هذا الفكر العديد من الاقتصاديين المحدثين.

المحور الثاني: سياسته الداخلية

التزم الوالي السمع بن مالك الخولاني بكل أوامر الخليفة (رضي الله تعالى عنه) فيما يخص سياسته الداخلية لبلاد الأندلس وإدارة شؤونها الداخلية وهذا الالتزام نلاحظه من خلال الأعمال التي قام بها الخولاني في تلك الحقبة، خاصة بعد أن جاءه الأمر بتخمس الأراضي كما ذكرنا. ومسألة تخمس الأراضي مهمة جداً بالنسبة للسياسة الداخلية لأي والي، خاصة بعد أن نعلم أن موارد الولاية الاقتصادية يعتمد على خمس الأموال التي كانت تأتي من الأراضي والفتوحات.

فأول أمر قام به الوالي هو التمييز بين الأراضي التي فتحت عنوة من تلك التي فتحت صلحاً. وهنا يكمن سؤال مهم؟ لماذا هذا الاهتمام بتخمس الأراضي وما الفائدة؟ والجواب إن الفائدة من تخمس الأرض هو للإنفاق من تلك الأموال على أمور الولاية ومصالح المسلمين وإخراج الفتوحات. فخرج الوالي خمس الأموال من الأراضي التي فتحت عنوة. أما الأربعة أخماس الباقية من تلك الأموال فإنها تقسم بين الجند الذين فتحوها^(٢٤).

ومن الأمور المهمة والتي تحسب للوالي السمع هو ذلك العمل الحضاري الذي قام به، إذ قام بإصلاح قطرة قرطبة التي أكلها الدهر ولم يبق منها إلا اليسير ولم تعد تربط جانبي نهر قرطبة الكبير. فكتب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) يستأذنه في إعادة بناءها - وهنا تتضح لنا شخصية الوالي المسلم الذي جاء ليكون أداة بناء لمجتمع حضاري - والسبب في الاستئذان؟ لأنها تحتاج إلى أموال كبيرة لإصلاحها، وهذه الأموال تؤخذ من أموال بيت مال المسلمين

نسبه وولايته: هو السمع بن مالك الخولاني، من بني خولان، واسم خولان هو (فُكُل)، سكنوا مصر والشام^(٨) - وخولان هو "خولان بن عمرو بن مالك بن الحارث بن مرة بن ادد ابن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ"^(٩)، من قضاة - وهي قبيلة يمانية -^(١٠)، تولى ولاية الأندلس بعد واليها الحر بن عبدالرحمن الثقفي^(١١)، بأمر من الخليفة عمر بن عبدالعزيز (رضي الله تعالى عنه) (٩٩-١٠١هـ / ٧١٧-٧١٩ م)^(١٢)، والذي بدأت بلاد الأندلس في خلافته تدخل عهداً جديداً من خلال جعلها ولاية تابعة له مباشرة، شأنها في ذلك شأن الولايات الإسلامية الأخرى، إذ كانت الأندلس من قبل تابعة لولاية المغرب العربي^(١٣).

ويذكر إن سبب اختيار الخليفة عمر بن عبدالعزيز (رضي الله تعالى عنه) للسمع بن مالك الخولاني جاء لكونه من الرجال الصالحين الأكفاء القادرين على النهوض بمستوى المسؤولية التي كلف بها بفكر والتزام إيماني ونزاهة قل نظيرها، وهنالك حادثة شهيرة تذكرها المصادر التاريخية توضح مدى نزاهة السمع التي استمدها من العقيدة الإسلامية، فيذكر المؤرخون أن من عادة خلفاء بني أمية تلك الحقبة أنهم لا يدخلون خزائن الدولة شيئاً مما يرسله الولاة من خراج ولاياتهم إلا إذا شهد عشرة من عدول الجند في تلك الولاية بأن هذا المال هو المستصفي الحلال لبيت المال^(١٤)، بعد دفع أعطيات الولاية والإنفاق على مصالحها وشؤونها العامة. فلما أقبلت أموال المغرب العربي في إحدى سنوات خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ / ٧١٥-٧١٧ م) أقبل معها عشرة من العدول تخبرهم والي المغرب آنذاك، محمد بن يزيد القرشي (٩٧-١٠٠هـ / ٧١٥-٧١٨ م)، فحلف ثمانية من رجاله بأن ما معهم من أموال الجباية اخذ بحقه وامتنع اثنان من حلف اليمين هما إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر دينار والسمع بن مالك الخولاني^(١٥)، فأعجب بذلك "عمر بن عبدالعزيز من فعلهما ثم ضمهما إلى نفسه" لما من صلاحهما ونزاهتهما إذ كان جالساً في مجلس الخليفة آنذاك^(١٦).



وهذا الأمر يوضح لنا مدى حرص قادة وولاة أمور المسلمين على تولية من هم أمناء وهذا الحرص جاء من أمانة الولاة ابتداءً. وأمانة الوالي حرصت على أن يبقى في الولاية بعد تولي الخليفة يزيد بن عبد الملك، الذي لم يعزله إنما ثبته في الولاية. فكان قد أوعز (رضي الله تعالى عنه) بولاية الأندلس للسمع بن مالك الخولاني وبولاية المغرب العربي لإسماعيل بن عبيد الله^(١٧) بعد توليه الخلافة، ليكون أداة لبناء المجتمع الإسلامي في الأندلس؛ ولذلك فعندما نريد أن نبني مجتمعاً بناءً متكاملًا يجب أن نختار وبدقة الأشخاص ذوي المواصفات الخاصة على شاكلة السمع وإسماعيل لكي يكون البناء صحيحاً متكاملًا خالياً من عوامل الفشل^(١٨).

الخاتمة

تميزت الأندلس بالضوء الوهاج الذي حملته الإسلام إليها وشع إلى العالم الغربي منها ، في زمن كان يعيش في سرايب مظلمة ، وأنه أظهر لنا شخصيات وقادة خاصة في عصر الولاة (٩٥-١٣٨هـ / ٧١٤-٧٥٦م) لهم دوراً متميزاً في حكم وقيادة بلاد الأندلس وأتى هذا الدور المتميز من خلال الأعمال التي قاموا بها خلال حقبة حكمهم . ومن أولئك الحكام هو السمع بن مالك الخولاني موضوع بحثنا ، هذه الشخصية التي عبرت عن فكر ووجه الإسلام والرسالة السماوية بالتطبيق العملي أثناء توليه لأمر المسلمين ، ومن خلال هذه الدراسة تمكنا من استخلاص عدة أمور جرت خلال ولايته هي :

- أن مدة ولاية الخولاني كانت خلال حكم خليفتي الأول أثناء خلافة عمر بن عبدالعزيز (رضي الله تعالى عنه) ، واستمر بالحكم خلال خلافة يزيد بن عبد الملك الذي تسلم الخلافة بعد الخليفة عمر بن عبد العزيز . وهذا الأمر لا يذكره الباحثون إلا ما ندر .
- أن ولاية السمع بن مالك الخولاني تميزت باستقلال ولاية الأندلس عن ولاية المغرب العربي فبعد أن كان والي الأندلس يعين من قبل والي المغرب العربي ، أصبحت الأندلس ولاية مستقلة عن المغرب العربي ويولي واليها كنظيره والي المغرب العربي من قبل الخليفة .
- اتصفت شخصية السمع بأنها شخصية تمتاز بالأمانة والشجاعة وهي أهم الموصفات الواجب توفرها في أي حاكم عربي إسلامي والتي قل ما نجدها .
- عاشت الأندلس خلال مدة حكمه القليلة بنوع من الازدهار الاقتصادي وهذا الازدهار جاء من الفكر الاقتصادي للخليفة عمر بن عبدالعزيز (رضي الله عنه) الذي طبقه الوالي السمع تطبيقاً عملياً خلال ولايته .
- اهتمامه بالعمارة وإعادة بناء قنطرة قرطبة التاريخية .
- قيادته للفتوحات جنوب فرنسا ، وفتحته لمدينة اربونة التي تعد القاعدة نحو فتح بلاد فرنسا .



القادمة من خمس الأرض أو من الغنائم ، فأذن له ، فقام بأعمالها بالاعتماد على سور قرطبة حيث اخذ الكثير من أحجارها للبناء . أما لماذا لم يُبق الوالي على سور المدينة ؟ لأنه أحس أن قرطبة لا تحتاج إلى سور خاصة بعد أن تقوى شوكة المسلمين آنذاك^(٢٥) .

فكانت هذه أهم الأمور التي اعتنى بها الوالي الخولاني في مجال السياسة الداخلية لولايتة للأندلس ، فهو نظم أمور أموالها وعمر خرائبها في مدة قصيرة جداً لا تعدى السنتين ليتجه إلى الأمر الأهم الذي جاء من أجله ألا وهو نشر الدين الإسلامي وتوسيع الرقعة الجغرافية للدولة الإسلامية .

المحور الثالث: سياسته الخارجية

بعد أن اطمئن الوالي الخولاني إلى الأمور المالية والاجتماعية والعمرانية في البلاد اتجهت أنظاره إلى نشر الدين الإسلامي ، خاصة بعد أن جاءته أوامر الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥هـ / ٧٢٠ - ٧٢٤م) من دمشق بضرورة الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى . فخرج سنة (١٠٢هـ / ٧٢١م) بالصائفة ليعزو مناطق جنوب فرنسا ، فسار بجيش كبير نحو سرقسطة ، وعبر جبال البرنات وسيطر على مدينة أربونة^(٢٦) عاصمة سبتمانية^(٢٧) .

مع وصوله إليها فرض عليها حصاراً شديداً ، تمكن من فتحها ودخلها والسيطرة عليها وأقام فيها حكومة شرعية ووزع الأراضي بين الفاتحين ، وفرض الجزية على النصارى - متبعاً فرض الجزية على من لم يدخل الإسلام من المشرّكين فبدخل في ذمة المسلمين بدفع الجزية - ثم زحف بجيشه الفاتح نحو الغرب لغزو مدينة طولوشة (Toulouse)^(٢٨) ، عاصمة اكويتين في محاولة لفتح تلك المدينة ، فأحاطها المسلمون بالخنادق والمجنّقات وجميع أدوات الحرب^(٢٩) ، حتى أوشك أهلها على الاستسلام ، لولا عودة اودو - حاكم تلك المناطق - بعد أن علم بأمر الحصار الإسلامي على عاصمته - التي كان خارجاً منها لطلب العون لصد الجيش الإسلامي عند فتحه لمدينة اربونة السابقة الذكر - فعاد لقتال الجيش الإسلامي بعد أن جمع العدة والعدد لمجايبته ، وتقدم نحوه ، فعلم الوالي الخولاني بأمره^(٣٠) ، فهياً الجيش للخروج وقتال جيش اودو فتلاقى الجيشان على مقربة من طولوشة في معركة سميت بمعركة البلوط وكانت غير متكافئة فنشب القتال في معركة هائلة سالت فيها دماء غزيرة ، وكثر القتل في الجيشين ، وأبدى المسلمون برغم قلتهم بسالة وصبراً في القتال حتى انه يقال ان السمع كان يحث الجند على القتال بالصوت والإشارة ، وأن الجند كانوا يتعرفون على الممر الذي سلكه بأثر الدماء التي تجري فيه والتي يتركها سيفه إلى أن سقط شهيداً بأثر رمح أصابه في قلب المعركة وأسقطه عن فرسه ، وكان ذلك في التاسع من ذي الحجة سنة (١٠٢هـ / ٧٢١م)^(٣١) . وعلى أثر مقتل الوالي السمع اختار الجيش أحد القادة وهو عبد الرحمن بن عبد الله الفافقي ليعود بالجيش نحو الجنوب . وبذلك تنتهي ولاية والي اتسم وامتاز بكل مواصفات الوالي المسلم المؤمن التي قل ما وجدت .

عليها السمع آنذاك، وهذا يؤدي إلى أن بناء المجتمع على أسس رخوة وغير متماسكة.

(١٨) ابن القوطية، تاريخ افتتاح، ص ٣٩؛ العبادي، عبد الحميد، المجلد في تاريخ الأندلس، مكتبة النهضة العلمية، (القاهرة: ١٩٥٨م)، ص ٥٤.
(١٩) المقرئ، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، دار الفكر، (بيروت: ١٩٨٦م)؛ ١ / ٢٣٥؛ ابن أبي الفياض، نص أندلسي من كتاب العبر، منشور في مجلة المجمع العلمي العراقي، (بغداد: ١٩٨٣م)، ص ١٨٩؛ أبو دياك: الوجيز، ص ١٧٦.

(٢٠) مجهول، ص ٢٣.

(٢١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢ / ٢٦.

(٢٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢ / ٢٦؛ ارسلان، شكيب، تاريخ غزوات العرب، دار مكتبة الحياة، (بيروت: ١٩٦٦م)، ص ٥٢.

(٢٣) مؤلف مجهول، ص ٢٣؛ وينظر: ابن عذاري: البيان المغرب: ٢ / ٢٦.

(٢٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢ / ٢٦؛ المقرئ، نفح الطيب: ١ / ٢٣٥؛ مؤسس، فجر الأندلس، ص ١٢٣؛ طه، عبد الواحد ذنون، الفتح والاستقرار العربي في شمال أفريقيا والأندلس، دار الرشيد، (بغداد: ١٩٨٢م)، ص ٢١٤.

(٢٥) مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٤؛ طقوش، محمد سهيل، التاريخ الإسلامي، دار النفائس للطباعة والنشر، (بيروت: ٢٠٠٢م)، ص ٢١٢؛ أبو دياك، الوجيز، ص ١٧٧.

(٢٦) أربونة: من المدن المهمة والإستراتيجية بالنسبة للمسلمين، لأنها قاعدتهم المتقدمة، ومنها تنطلق الجيوش الإسلامية شمالاً لنشر الإسلام، وهي الحد الفاصل بين الأندلس وبلاد فرنسا، وهي آخر المدن التي بقيت بأيدي المسلمين عند الثغور، حيث خرجت من أيدي المسلمين سنة (٦٣٠هـ/٢٣٢م) مع غيرها من المدن الأندلسية، وهي الآن مدينة فرنسية تقع على خليج ليون. ينظر: الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المبطار في خبر الأقطار، دار الفكر، (لبنان: ١٩٨٤م)، ص ٢٤؛ الدوري، إبراهيم ياس خضر، عبد الرحمن الداخل في الأندلس، دار الحرية للطباعة، (بغداد: ١٩٨٢م)، ص ٢١١.

(٢٧) عنان، محمد عبدالله، دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عصر الناصر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة: ١٩٦٠م)، عصر ١، ق ١، ص ٨٠-٨١؛ رينو، الفتوحات الإسلامية، ص ٥٠.

(٢٨) جوزيف، المرجع السابق، ص ٥٠؛ طه، الفتح والاستقرار، ص ٣٣٩؛ وات، مونغمري، في تاريخ اسبانيا الإسلامية، ترجمة: محمد رضا المصري، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، (بيروت: ١٩٩٨م)، ص ٣٧.
(٢٩) خليل إبراهيم السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار المدار الإسلامي، (ليبيا: ٢٠٠٤م)، ص ٥٠-٥٢.

(٣٠) أبو دياك، الوجيز، ص ١٧٩؛ وات، في تاريخ اسبانيا، ص ٣٧.

(٣١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢ / ٢٦؛ رينو، الفتوحات الإسلامية، ص ٤٧-٥١؛ شاكر، محمود، موسوعة الفتوحات الإسلامية، دار أسامة للنشر والتوزيع، (الأردن: ٢٠٠٢م)، ص ١٩٧.

المصادر الأولية

- الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م)
- الروض المبطار في خبر الأقطار، ط ٢، تح: إحسان عباس، دار الفكر، (لبنان، ١٩٨٤).
- ابن حزم، أبو محمد علي بن محمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م)
- جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبدالسلام احمد هارون، ط ٥، دار المعارف، (مصر: د / ن).
- السيوطي، جلال الدين (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)

(١) ابن عذاري، أبو العباس احمد بن محمد المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة، (بيروت: ١٩٨٠)؛ ١ / ٢.

(٢) البرتات أو البرت: هي سلسلة الجبال الممتدة بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي وهي جبال فاصلة بين فرنسا واسبانيا، إذ أن سفوحها الشمالية تقع في فرنسا وسفوحها الجنوبية تقع في اسبانيا. أنظر: ارسلان، شكيب، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، دار مكتبة الحياة، (بيروت: د / ن)؛ ٢ / ١٠٨؛ رينو، جوزيف، الفتوحات الإسلامية، دار الحداثة، (الجزائر: ١٩٨٤م)، ص ١٧.

(٣) الدوري، تقي الدين عارف، تاريخ العرب المسلمين وحضارتهم في الأندلس، منشورات جامعة ناصر، (ليبيا: ١٩٩٧)، ص ٢٥؛ الحجي، عبد الرحمن علي، التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، دار القلم (بغداد: د / ن)، ص ٣٥-٣٦.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ١ / ٢.

(٥) الدوري، تقي، تاريخ العرب المسلمين، ص ١٢٦.

(٦) الحجي، عبد الرحمن علي، أندلسيات، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت: ١٩٦٩)، ص ١٢.

(٧) ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر القرطبي، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق: عبدالله انيس الطباع، دار النشر للجامعيين، (بيروت: ١٩٥٨)، ص ٣٣.

(٨) ابن حزم، أبي محمد علي بن احمد بن سعيد الأندلسي، جمهرة انساب العرب، دار المعارف، (مصر: د / ن)، ص ٤١٨.

(٩) ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص ٤١٨.

(١٠) الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار للعلم الملايين، (د . م : د . ن) ١٣٩/٣: أبو زيدون، وديع، تاريخ الأندلس، الأهلية للنشر والتوزيع، (بيروت: ٢٠٠٥)، ص ٥٠.

(١١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢ / ٢٥-٢٦.

(١٢) هو عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف؛ أبو الحفص القرشي الأموي، وأمه أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، ويقال له أشج بن مروان. ولد سنة (٦١١هـ/٦٨٠م) وتولى الخلافة سنة (٩٩هـ/٧١٧م) وبقي خليفة إلى وفاته سنة (١٠١هـ/٧١٩م). ينظر: ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري، الإمامة والسياسة (منسوب إليه)، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، (القاهرة: ١٩٥٧)؛ ٢ / ١١١؛ الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، (مصر: د . ن)؛ ٥٥٠/٦؛ ابن عبد ربه، احمد بن محمد الأندلسي، العقد الفريد، دار الفكر للطباعة والنشر، (بيروت: د . ن)؛ ١٦٨/٥؛ ابن كثير، عماد الدين أبو الفدا إسماعيل الدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، (بيروت: ١٩٧٤م)؛ ٣٣١/٩؛ السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، دار الجبل، (بيروت: ٢٠٠٥م)، ص ٢٣٨.

(١٣) أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر امرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، تحقيق: لافوتين، طبع في مدينة مجريط بمطبع ريدنير، (مدريد: ١٨٦٧م)، ص ٢٣.

(١٤) وهذه الرواية تبين لنا ما كان عليه خلفاء بني أمية من التزام بالشريعة الإسلامية وأنهم لا يختارون لولاياتهم الا قادة أئمة وهذا الأمر يفند ما يذكره أعداء الاسلام من الشعوبيين والزنادقة من أن خلفاء بني أمية لم يكونوا الا مغتصبين للحكم وأنهم قتلة.

(١٥) مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٢-٢٣؛ مؤسس، حسين، فجر الأندلس، الشركة العربية للطباعة والنشر، (القاهرة: ١٩٥٩)، ص ١٢٢؛ أبو دياك، صالح محمد فياض، الوجيز في تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة الكيالي، (اربد: ١٩٨٨)، ص ١٧٥-١٧٦.

(١٦) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٣.

(١٧) ابن القوطية، تاريخ افتتاح، ص ٣٩.

(●) لا كما يحصل الآن إذ نرى أن أغلب القادة لا يتصفون بأقل الصفات التي كان

- تاريخ الخلفاء ، ط ٢ ، تح وفهرسة : سعيد محمود عقيل ، دار الجيل ، (بيروت ، ٢٠٠٥).
- الطبري ، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م)
تاريخ الرسل والملوك ، ط ٤ ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، (القاهرة ، د / ن).
- ابن عبدربه الأندلسي ، احمد بن محمد (ت ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م)
العقد الفريد ، تحقيق : محمد سعيد العريان ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، (بيروت ، د. ن).
- ابن عذاري ، أبو العباس احمد بن محمد المراكشي (ت بعد سنة ٧١٢ هـ / ٣١٢ م)
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ومراجعة : ج. س. كولان وليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، (بيروت ، ١٩٨٠ م).
- ابن أبي الفيض (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م)
نص أندلسي من كتاب العبر ، تحقيق : عبدالواحد ذنون طه ، منشور في مجلة المجمع العلمي العراقي ، مج ٢٣ ، (بغداد ، ١٩٨٣ م).
- ابن قتيبة ، ابو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م)
الإمامة والسياسة (المنسوب اليه) ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، (القاهرة ، ١٩٥٧ م).
- ابن القوطية ، أبو بكر محمد بن عمر القرطبي (ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م)
تأريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق : عبد الله أنيس الطباع ، دار النشر للجامعيين ، (بيروت ، ١٩٥٨ م).
- ابن كثير ، عماد الدين ابو الفدا اسماعيل (ت ٧٧٣ هـ / ١٣٧٢ م)
البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، (بيروت ، ١٩٧٤ م).
- مؤلف مجهول (ت ق ٤ هـ / ق ١٠ م)
أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم ، تحقيق : لافوتين ، طبع في مدينة مجريط بمطبع ريدنير ، (مدريد : ١٨٦٧ م).
- المقري ، احمد بن محمد بن احمد بن يحيى (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م)
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ، تحقيق : يوسف الشيخ محمد البقاعي ، دار الفكر ، (بيروت ، د / ن).
-
- المراجع الثانوية**
- أرسلان ، شكيب
الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، منشورات دار مكتبة الحياة ، (بيروت ، د / ن).
- تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، دار مكتبة الحياة ، (بيروت ، ١٩٦٦ م).
- الحجي ، عبدالرحمن علي
التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ٩٢ — ٨٩٧ هـ / ٧١١ — ١٤٩٢ م ، دار القلم ، (بغداد : د / ن).
- أندلسيات ، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، (بيروت ، ١٩٦٩ م).
- السامرائي ، د. خليل إبراهيم وآخرون
تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس ، دار المدار الإسلامي ، (ليبيا : ٢٠٠٤ م).
- شاكور ، محمود
موسوعة الفتوحات الإسلامية ، دار أسامة للنشر والتوزيع ، الأردن ، (عمان ، ٢٠٠٢ م).
- الدوري ، إبراهيم ياس خضر
عبدالرحمن الداخل في الأندلس وسياسته الداخلية والخارجية ، دار الحرية للطباعة ، (بغداد ، ١٩٨٢ م).
- الدوري ، تقي الدين عارف
تاريخ العرب المسلمين وحضارتهم في الأندلس ، منشورات جامعة ناصر ، (ليبيا ، ١٩٩٧ م).
- أبو دياك ، د. محمد صالح
الوجيز في تاريخ المغرب والأندلس ، مكتبة الكيالي ، (اربد ، ١٩٨٨ م).
- رينو ، جوزيف
الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا في القرون الثامن والتاسع والعاشر الميلادي ، تعريب وتعليق الحواشي وتقديم : إسماعيل العربي ، دار الحداثة ، (الجزائر ، ١٩٨٤ م).
- الزركلي ، خير الدين
الأعلام ، ط ٤ ، دار العلم للملايين ، (بيروت ، ١٩٧٩ م).
- أبو زيدون ، وديع
تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة في قرطبة ، الأهلية للنشر والتوزيع ، (بيروت ، ٢٠٠٥ م).
- طقوش ، محمد سهيل
التاريخ الإسلامي ، دار النفائس للطباعة والنشر ، (بيروت ، ٢٠٠٢ م).
- طه ، د. عبدالواحد ذنون
الفتح والاستقرار في شمال أفريقيا والأندلس ، دار الرشيد ، (بغداد ، ١٩٨٢ م).
- العبادي ، عبدالحميد
المجمل في تاريخ الأندلس ، جمع مادته ونسقها : حمد ابراهيم الشريف ، راجعه : د. مختار العبادي ، مكتبة النهضة العلمية ، (القاهرة ، ١٩٥٨ م).
- عنان ، محمد عبدالله
دولة الإسلام في الأندلس من الفتح الى بداية عصر الناصر ، عصر ١ ق ، ط ٣ ، مطبعة لجنة تأليف والترجمة والنشر ، مؤسسة الخانجي ، (القاهرة ، ١٩٦٠ م).
- مؤنس ، حسين
فجر الأندلس ، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي الى قيام الدولة الأموية (٧١١-٧٥٦ م) ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، (القاهرة ، ١٩٥٩ م).
- وات ، مونتغمري
في تاريخ اسبانيا الإسلامية ، ترجمة : محمد رضا المصري ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، (بيروت ، ١٩٩٨ م).

نبذة عن جغرافية إيران

تقع إيران في القسم الجنوبي الغربي من قارة آسيا وتعد هضبتها من الوجهة الطبيعية وحدة طبيعية واحدة^(١). وتقع هضبة إيران الشبيهة بالمثلث بين منخفضين طبيعيين هما بحر قزوين شمالاً والخليج العربي جنوباً وهي عموماً محصورة بين وادي نهر السند شرقاً ووادي دجلة غرباً^(٢) وتكون النسبة الكبرى منها هضبة^(٣)، أما الأجزاء الشرقية من هذه الهضبة فتؤلف إقليمياً أفغانستان وبلوجستان^(٤) وتشكل إيران حلقة الوصل بين آسيا الوسطى وآسيا الغربية، كما إنها بمثابة جسر إلى آسيا الصغرى ثم إلى قارة أوروبا^(٥) وتكاد تكون محاطة من كل جهاتها بالسلاسل الجبلية فشمالاً تقع جبال كيلان ومازندران الموازية لشواطئ بحر قزوين الجنوبية المتسلسلة نحو جبال هندكوش ويحدها غرباً جبال أرمينيا وجبال أذربيجان وكردستان والبختيرية ويحدها شرقاً جبال خراسان ونهر ألدوس ومن الجنوب يحدها الجبال الموازية للبحر العربي^(٦).

تشكل جبال خراسان وامتدادها خراسان وبلوجستان الحد الجغرافي لهضبة إيران وتشكل سلسلة جبال زاكروس المتصلة بطوروس الفاصل الغربي بين إيران وبين بلاد وادي الرافدين. وعلى الرغم من كون إيران محاطة من جميع جهاتها بسلاسل جبلية متفاوتة الارتفاع، لكن هذه الحواجز الجغرافية للهضبة لم تشكل حواجز طبيعية أمام انتقال الشعوب والقبائل والأفراد، كما أنها تتضمن مجموعة من الممرات وبعضها ذو شهرة تاريخية كبوابة آسيا، تسمح بالاتصالات بين داخل الهضبة وبين المناطق المجاورة مما وراء السلاسل الجبلية^(٧). يوجد في بلاد إيران مجموعة من السلاسل الجبلية التي ترتفع حول صحراء كبرى هي (دشتي لوط)^(٨) وأهم هذه السلاسل هي:

١. سلسلة جبال زاكروس:

تسمية زاكروس هي التسمية العامة للسلسلة الجبلية التي تنفصل عن طوروس وتعرف هذه السلسلة بعدة مسميات، فهي تعرف بجبال كردستان وبعض أقسامها تسمى لورستان وأقسام أخرى تعرف باسم بختياري^(٩). وتعرف هذه السلسلة بـ (السلسلة الغربية)^(١٠). ويكون اتجاه سلسلة جبال زاكروس شمالي غربي إلى جنوبي شرقي، وطول السلسلة (٦٢٠) ميلاً وعرضها (١٢٠) ميلاً ويتراوح ارتفاعها بين (٣٢٨٠) و (٥٥٧٠) ويخترقها عدة أودية طولها يتراوح بين (٦٠-٣٠) ميلاً وعرضها بين (٦-١٢) ميلاً^(١١). وجبال زاكروس شاهقة الارتفاع^(١٢). ويتجه من السلسلة الوسطى لجبال زاكروس ذراع نحو وادي الرافدين باتجاه جبال حميرين الأمر الذي شكل نقطة ضغط طبيعية وتاريخية مؤثرة على نهر دجلة جعله يقترب من الفرات عند بغداد^(١٣) وتصبح المسافة بين النهرين لا تتجاوز أكثر من (٢٠-٢٥) ميل^(١٤).

لقد شكلت سلسلة جبال زاكروس نقطة الارتباط بين أرمينية والأناضول وبين منطقة قزوين وسهول عيلام^(١٥) وتمثل جبال زاكروس الحدود الجغرافية الفاصلة بين هضبة إيران وبين وادي الرافدين^(١٦). ترتبط بلاد وادي الرافدين ببلاد إيران عن طريق ممرات جبلية من جبال زاكروس ويقع أول تلك الممرات في رايات قرب راوندوز والثاني في حلبجة إلى الجنوب الشرقي من السليمانية والثالث في خانقين. وتؤدي ممرات رايات وحلبجة إلى سواحل بحيرة أورميا وأذربيجان. أما طريق خانقين فإنه يتجه نحو كرمنشاه وهمدان وصولاً



التكوين السكاني في إيران القديمة

د. أسامة عدنان يحيى

مدرس تاريخ العراق والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - الجامعة المستنصرية
بغداد - العراق

usama200080@yahoo.com

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أسامة عدنان، التكوين السكاني في إيران القديمة - دورية كان التاريخية - العدد الثامن يونيو ٢٠١٠.
ص ١٩ - ٢٧ (www.historicalkan.co.nr).



الواقعة في الجزء الجنوبي الغربي من إيران وهي منطقة سوسة أو شوشة التي عرفت تاريخياً ببلاد عيلام. وتبلغ مساحة السهل العيلامي حوالي ٢٤,٠٠٠ كم^(٣٠)، ويعد من الناحية الجغرافية والحضارية امتداداً لسهل وادي الرافدين الأسفل^(٣١). وقد أكد الأستاذ المتخصص في عصور ما قبل لتاريخ كوردن تشايلد ارتباط سهل عيلام حضارياً ببلاد بابل منذ أقدم العصور^(٣٢)، فهي لا تبعد عن موطن الحضارة السومرية إلا ببضع كيلومترات.

يخترق السهل العيلامي من الشمال إلى الجنوب وبصورة متوازية تقريباً ثلاثة أنهار هي الكرخة الذي عرف في المصادر الآشورية باسم (Uqnu) (اللازورد) الذي اشتهر قديماً بنقاوة مياهه وعذوبتها، ثم نهر (الذز) ونهر (الكارون)^(٣٣). وعرف هذا الموقع في المصادر المتأخرة لتاريخ إيران لاسيما المصادر العربية باسم الأحواز أو خوزستان^(٣٤).

إن منطقة سوسة في كثير من خصائصها ومناخها لتتشبه القسم الجنوبي لبلاد وادي الرافدين، إذ يرتبط بها من خلال المسطحات لمائية (أهوار الحويزة) التي تمتد غرباً لتحاذي نهر دجلة في بعض أقسامه عند محافظة ميسان حالياً حيث تستطيع أدنى وسائل النقل الشائعة في المنطقة وهي المشاحيف الانتقال من مكان إلى آخر بحرية كاملة. كما أن الشقة الأرضية بين منطقة البصرة وبين سهل الأحواز (عيلام) تمنح الحرية التامة للاتصالات بين الجانبين. وتطل سهول الأحواز على الأقسام الشمالية الشرقية لرأس الخليج العربي ويصل نهر الكارون الذي يقدم من أواسط هذه السهول إلى مسافة قريبة من رأس الخليج العربي حيث يصب اليوم في شط العرب جنوب البصرة بمسافة قليلة^(٣٥).

ومن المدن المهمة التي اشتهرت في تاريخ إيران مدينة سوسة وإقليم فارس هو الإقليم الذي عرف عند كتاب الإغريق باسم (Persis) ويعتقد أستاذ (لسترنج) أن كلمة (Persia) مشتقة من الكلمة اليونانية (Persis)^(٣٦). إلا أن ذلك غير صحيح فقد وردت كلمة (Parsua) في المصادر الآشورية قبل المصادر الإغريقية بحدود خمسة قرون كما سنرى لاحقاً.

يشرف إقليم فارس على ساحل الخليج العربي، ويغلب على الإقليم طبيعة المنطقة الجبلية ومنها سلسلة تحاذي ساحل الخليج العربي وتمنح حرية الانتقال بين طرق المواصلات البحرية وبين داخلية إقليم فارس إلا من خلال ثغرات طبيعية قامت عندها مراكز موانئ رئيسية أهمها بندر عباس الذي يقع عند مضيق هرمز والآخر بوشهر ويقع عند الأقسام الشمالية للخليج العربي، وشهد الإقليم عدة مدن مهمة قديمة منها بزرگادة وبرسيبولس واصطخر، وحديثة منها يزد وكرمان وأصفهان وبوشهر وبندر عباس والإقليم بصورة عامة قليل الأمطار شديد الحرارة نسبياً^(٣٧). وإن أبرز العوارض الطبيعية في إقليم فارس هي بحيرة بختيكان الكبيرة وماؤها الملح^(٣٨).

ومن المدن المهمة في إيران أيضاً مدينة همدان وتبرز شمالها ومدينة همدان هي هكمتانا في الكتابات الاخمينية وذكرت في المصادر الإغريقية أكبتانا وسميت في المصادر العربية همدان من ضمن إقليم الجبال^(٣٩). وإقليم همدان هو عاصمة دولة ميديا التي قامت في إيران في القرن السابع قبل الميلاد^(٤٠). أما شرق إقليم فارس فيأتي إقليم كرمان وهو أقل من إقليم فارس في الخصوبة وذلك لخلوه من الأنهار تقريباً ولوقوعه على صحراء إيران الكبرى، الآن أشهر الظواهر الطبيعية هي هضبة إيران العالية الواقعة في وسط إيران التي تكون الصحراء

إلى الهضبة الإيرانية. وثمة ممر رابع وهو يسير بمحاذاة جبال زاكروس من مدينة الدير (تلول العقر قرب بدره) لتصل إلى مدينة سوسة عاصمة عيلام^(٤١). وفي أقصى شمال سلسلة جبال زاكروس تقوم بحيرة (وان) وهي منطقة أقوام الأورارتو التي تمتد اليوم في شرق تركيا، حيث تفرغ بعض الأنهار المنحدرة من زاكروس صوب الشمال مياهها في هذه البحيرة وفي شرق سلسلة جبال زاكروس تقع بحيرة أورميا التي تتلقى بدورها المياه المنحدرة صوب الشرق من جبال زاكروس. وتأخذ جبال زاكروس جنوب أورميا بالضيق وقلة الارتفاع حتى تتلاشى عند نقطة بدره- جصان على الحدود العراقية الإيرانية حيث تبدأ بعدها سهول سوسيانة الشهيرة^(٤٢).

٢. سلسلة جبال البرز:

تقع في الجزء الشمالي من إيران ويبلغ ارتفاعها (١٩٠٠٠) قدم^(٤٣) وتعرف في أغلب الأحيان باسم السلسلة الشمالية وتعرف في المصادر الآشورية باسم ديماوند^(٤٤). ويتأخم هذه السلسلة بحر قزوين في سواحلها الجنوبية^(٤٥)، وإن محاذاة هذه السلسلة لبحر قزوين جعلته يحصر بينه وبين الساحل منطقة ساحلية تعد من أشهر المناطق الخصبة في إيران. وتمتد السلسلة الجبلية غرباً لتحاذي أذربيجان الذي تقع داخله بحيرة أورميا^(٤٦). أما الامتداد الشرقي لجبال البرز فيعرف بجبال خراسان وهي جبال قليلة الارتفاع سهلة العبور. والسلسلة بجانبها الغربي والشرقي تعد من مراكز الاستقرار الكثيفة. وإلى الجنوب من السلسلة الشرقية يقع نطاق جبال هندكوش الذي يقع في ضمنها إقليما أفغانستان وبلوجستان، سلسلة جبال هندكوش وعرة، مرتفعة، وفيها ممرات تربط تركستان الصينية بأواسط لآسيا من جهة وإيران والهند من جهة ثانية^(٤٧). عبر جبال هندكوش يمر طريق الحرير الشهير كذلك تعد وديان الأنهار التي تخترق المنطقة طرق مواصلات جيدة في نطاق هندكوش ما بين إيران وكابلستان. لذلك أصبحت ممرات بولان في بلوجستان وخيبر في كابلستان ومجموعة ممرات أخرى في نطاق هندكوش في حيز أفغانستان ووسائل عبور رئيسية صوب الهند وأواسط آسيا والصين كما ربطت من ناحية أخرى المناطق المذكورة في غربي آسيا^(٤٨).

٣. سلسلة جبال مكران:

وهي السلسلة الجنوبية من جبال إيران وتضم ممرين الأول يؤدي إلى منطقة بندر عباس عند خليج عمان والثاني يقود إلى بلوجستان^(٤٩). فضلاً عن السلاسل الجبلية العالية فيوجد في هضبة إيران نوع آخر من التضاريس المتمثلة بالصحاري الكبرى. وأبرز هذه الصحاري هي صحراء دشتي كافر وجنوبها دشتي لوط^(٥٠). وتقع هذه الصحاري في مركز الهضبة^(٥١). أما مجموعة السلاسل الجبلية الأنفة الذكر هي التي تحيط بالهضبة التي تضم هذه الصحاري القاحلة الشديدة التطرف في درجات حرارتها، ولذلك فهي بمثابة حواجز طبيعية بين جوانب هضبة إيران وتعد من أشد صحاري العالم جفافاً وملوحة حتى عدها بعضهم أشد جفافاً من صحاري آسيا الوسطى مثل صحراء كوبي. وتنعدم في هذه الصحاري كل ملامح الحياة وبالتالي يتعذر على الإنسان اجتيازها^(٥٢). وسميت هذه الصحاري في المصادر العربية البلدانية فيما بعد باسم مفاز يزد^(٥٣).

إن هذه البيئة الصعبة جعلت الإنسان من القدم يستوطن المناطق السهلية والوديان الخصبة والواحات ومن أبرز مناطق استيطان الإنسان في إيران هي السهول الجنوبية لجبال زاكروس

الزراعة وتدجين الحيوان وقد عرف هذا التحول باسم العصر الحجري الحديث، ويحدد الأستاذ ساكر إن هذا الانقلاب حدث في المنطقة الواقعة من فلسطين حتى سلسلة جبال زاكروس^(٥١) وقد أبانت التحريات الأثرية الشيء الكثير عن بقايا هذا الإنسان في عدة مواقع منها تبة سيالك^(٥٢) كذلك في مواقع باكون وتبة هزار وتبة كيان^(٥٣). وخلال الألف الربع قبل الميلاد ازدهرت مواقع مهمة تعود للعصر الحجري المعدني، ولاسيما في سوسة ومن أبرز ميزات هذا العصر التأثيرات الواضحة العراقية على إيران في عصر العبيد، وعصر الوركاء، وعصر جمدة نصر وأصبح زحم الحضارة العراقية واضحاً^(٥٤).

٢. العيلاميون:

سمي العيلاميون من قبل الباحثين بهذا الاسم نسبة إلى بلادهم المسماة بلاد عيلام الواقعة في السهول الجنوبية الشرقية من إيران وهو امتداد لسهول العراق الطموية الجنوبية^(٥٥). لقد عرف أسم هذا الإقليم في المصادر العراقية القديمة لأول مرة في وثائق ملوك بلاد وادي الرافدين^(٥٦) وعرف هذا الإقليم في المصادر السومرية باسم (NIM) الذي يعني النجد أو الأرض المرتفعة وسمي في المصادر الأكديّة باسم (ايلامتو) في حين أطلق العيلاميون على أنفسهم اسماً يختلف تماماً عن ذلك، إذ ذكر في المصادر المسمارية العيلامية بهيئة خابرتي (Ha-pir-ti) ويجوز قراءة العلامة الوسطى بهيئة (Tam) فتصبح خاتامتي (Ha-tam-ti)^(٥٧). ويرد الاسم في التوراة بهيئة عيلام^(٥٨). أما المصادر الفارسية المتأخرة فيرد الإقليم بهيئة (Uvaja) أو (Huvaja) ومنه الكلمة العربية خوز أو خوزي وحويزة أي إقليم خوزستان. في حين ذكرته المصادر الكلاسيكية باسم عاصمته سوسيانة^(٥٩). لا نعرف أموراً مؤكدة عن أصل العيلاميين وجل ما يمكن قوله بهذا الصدد أنهم لم يكونوا من الأقوام الآرية ولعل أصلهم من المنطقة الجبلية من جبال زاكروس وهي منطقة تتأخم سهول عيلام في الشمال الشرقي وكذلك في سهول وادي الرافدين^(٦٠). لقد ذكر العيلاميون في المصادر العراقية القديمة منذ عصر فجر السلالات في إثباتات الملوك السومرية وحتى عهد الدولة البابلية الحديثة (٦٢٧-٥٣٩ ق.م) في نصوص الملك نبوخذنصر الثاني عندما هاجمها سنة ٥٩٥ ق.م^(٦١).

٣. اللولوبو والكويتيون:

الللولوبو من الأقوام الجبلية المستوطنة في جبال زاكروس ويحتل إقليم الللولوبو الطريق المؤدي من بغداد إلى كرمشاه ثم إلى همدان وطهران^(٦٢) وقد وصل الللولوبو في تحركاتهم إلى سهل شهرزور قرب السليمانية^(٦٣). ونعرف عن قدم العلاقات مع هؤلاء الللولوبو إذ هاجمهم سرجون الاكدي، كما توغل حفيده الملك نرام سين في أراضيهم وانتصر عليهم وأقام منحوتة كبيرة نحتت على الصخر في أعالي جبال قرة داغ عند ممر دربندي كاور^(٦٤). ونعرف من إحدى الكتابات أسم ملك من ملوك الللولوبو يدعى انوبانييني (anu baninni) الذي تحدثت عن أسطورة متأخرة تقول عنه سوط البلاد وكان من القوة بحيث تمكن من أن يقيم مسلة نصر باسمه، غير أن حقيقة كتابة تلك المسلة باللغة الأكديّة يؤكد انتشار تأثير الحضارة الأكديّة حتى بين أعدائهم^(٦٥). لا نعرف الكثير عن الللولوبو بعد فترة الحكم الأكدي إلا بعض الإشارات إذ نعرف أن نبوخذ نصر الأول هاجم قبائل الللولوبو في منطقة قرة داغ^(٦٦). ويخبرنا الملك ادد-نيراري الأول بأنه دحر جموع الللولوبو^(٦٧). كما أخبرنا توكليتي-نينورتا الثاني بأنه هاجم مواقع الللولوبو^(٦٨).

الكبرى وهي صحراء مقفرة مترامية الأطراف وفي هذه المفازة توجد بعض الواحات القليلة وتغطي الأملاح رقعة واسعة من سطحها المحذب^(٦٩). أما إقليم مكران فهو يتأخم الهند من الجهة الشرقية ويرتقي المرتفعات المشرفة على وادي الأندس الذي يسمى قسم منه اليوم سجستان^(٧٠). ومن الأقاليم المهمة التي استوطنها الإنسان الإقليم الذي يقع بين جبال البرز وبحر قزوين ويعد من أخصب مناطق إيران. وفي شمالي طهران الحديثة تقع مدينة مرو القديمة^(٧١).

فضلاً عن ذلك يوجد عدد كبير من المدن التاريخية التي قامت على السفوح الجبلية في الأراضي السهلية منها قزوين وطهران والري وهراة حيث تعتمد في حياتها على مياه الأمطار المتساقطة إلى زاكروس والبرز^(٧٢). أما أذربيجان الإيرانية فتقع عند نهاية امتداد جبال البرز الغربية، حيث تشهد المنطقة كثافة سكانية عالية بسبب خيراتها الزراعية وخصوبة أراضيها وتقع في هذا الإقليم بحيرة أورميا المالحة. ويتيح هذا الإقليم حرية الحركة في كافة الاتجاهات وتتصل بأذربيجان عن طريق الشمال بأرمينية وعن طريق الغرب من خلال منطقة أرضروم ببلاد الأناضول^(٧٣).

مناخ إيران عموماً مناخ بارد، أي أنه بارد شتاءً وحار جاف صيفاً مع وجود بعض المناطق الممطرة عند سواحل بحر قزوين وجبال البرز حيث تكون كمية الأمطار السنوية الساقطة غزيرة وجيدة التوزيع على مدار السنة بينما تتمتع سواحل إيران القريبة من الخليج العربي بمناخها الحار الرطب وتعرضها أحياناً لهبوب الرياح الموسمية وبسبب مناخ إيران المتسم بقلّة الأمطار أصبح النبات الطبيعي محدوداً في انتشاره ومع ذلك ثمة بعض الغابات في كردستان ولورستان كما توجد كثير من المراعي الجبلية في أذربيجان وكردستان وفارس الشمالية، حيث تكون أشجارها من نوع الأشجار النفضية الكثيفة مثل البلوط والدردار^(٧٤).

السكان في إيران

لقد عاش الإنسان في بلاد إيران منذ أقدم العصور، وكان معظم السكان قد اختلطوا من أجناس متعددة حتى غدا من الصعب تمييز أصولهم الأولى. غير أن التوقييات الأثرية والمصادر المدونة أسهمت كثيراً في تزويدنا بمعلومات كثيرة عن الإنسان الذي استوطن إيران ومن أبرز الأقوام التي سكنت إيران:

١. المستوطنون النوائل:

يمكن إطلاق تسمية المستوطنون النوائل على أولئك المجموعة من البشر الذي استوطنوا إيران من أقدم الفترات في تاريخها منذ العصر الحجري القديم، إذ عاش إنسان هذا العصر في الملاجئ الجبلية في إيران، وكان إنسان همجياً أعتمد في حياته على جمع القوت عن طريق التقاط الجذور والنباتات البرية. وقد عثر لإنسان هذا العصر على بقايا في كهف تنكي بآبادا في جبال بختياري إلى الشمال الشرقي من شوشتر ويعود عمر الإنسان الذي عاش في هذا العصر إلى نحو (١٠٠,٠٠٠) سنة مضت^(٧٥). كما عثر على بقايا إنسان العصر الحجري القديم في كهف بهستون وكهف تامناما (قرب بحيرة أورميا) وكهف كامارند (كهف بيليت) المشرف على بحر قزوين^(٧٦). لقد كانت معظم أدوات هذا الإنسان تخص الصيد ومصنوعة من أحجار الصوان والعظام^(٧٧). وقد شهد الشرق الأدنى القديم في حدود الألف الثامن قبل الميلاد، التحول الاقتصادي الخطير في العالم القديم إلا وهو اكتشاف

في شرق بحر قزوين نحو بلاد إيران واستمرت في زحفها نحو جبال زاكروس ومناطق غرب إيران ودخلوا بلاد إيران في مطلع الألف الأول قبل الميلاد^(٩٣). إن المعلومات الواردة عن القبائل الميديّة التي بدأت تدخل بلاد إيران منذ القرن التاسع قبل الميلاد محصورة في ما ذكرته المدونات الآشورية بالدرجة الأولى كما أن الأخبار التي ذكرها هيرودوتس عن الدولة الميديّة وتطوراتها تعد مهمة في هذا المجال فضلاً عن المعلومات التي دونها لنا الملوك الأخمينيون اللاحقين للفترة الميديّة^(٩٤). أول إشارة تاريخية مهمة عن القبائل الميديّة جاءت من السجلات الآشورية في القرن التاسع قبل الميلاد^(٩٥)، أثناء حملة شلمنصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م) على إيران إذ ذكر القبائل الميديّة في السنة الرابعة والعشرين من حكمه أي عام ٨٣٦ ق.م ونستنتج من حملة شلمنصر الثالث أن القبائل الميديّة كانت ما تزال في طور البداوة غير مستقرة تعيش في منطقة همدان الحالية^(٩٦) وقد ذكر هذه القبائل في المدونات الآشورية بصيغة (Madai). ويجب أن نعترف خلال الإشارات الواردة عنهم أن التسمية (Madai) لا تعني في كل الأحوال أسم ذاً مدلول قومي في المدونات الآشورية، إنما تسمية جغرافية تدل على تركيز هؤلاء في جزء من إيران^(٩٧) ويبدو أن هدف حملة شلمنصر الثالث على الميديين هو من أجل إظهار قوة الدولة الآشورية من جهة^(٩٨)، ولوقوع مواطن الميديين على الطريق القديم الذي يجلب من خلاله اللازورد من أفغانستان إلى بلاد الرافدين^(٩٩).

من خلال الدراسة الدقيقة يمكن تتبع حدود الميديين واستقرارهم في إيران إذ شملت مواقع سكنهم بمعناه الواسع الأراضي الواقعة شمال نهر آراس وجبال البرز وسكنوا باتجاه غرب سلسلة جبال زاكروس ويمكن تقسيم بلادهم إلى ثلاثة أقسام وهي:

القسم الأول (ميديا أتروباين):

شملت المقاطعات الشمالية لنهر آراس ماراً إلى الجنوب لحد جبال الوند وضمت مناطق بحيرة أرومية ونهر جغتو وما تحيط به من أنهار وكذلك حوض نهر سفيد رود الذي يقطع جبال البرز قرب مدينة رشت ويصب في بحر قزوين وبهذا احتوى هذا القسم من ميديا كل بلاد أذربيجان وكردستان الحالية.

القسم الثاني (ميديا الصغرى):

وشملت بعض المناطق المتوجة التي تقع بين سلسلتين جبليتين اتصلتا بجبال البرز التي تمتد من الجنوب نحو بحر قزوين في الشمال وأعلى جبل في هذه المنطقة هو ديماوند.

القسم الثالث (ميديا بارتياكينا):

وهي المنطقة الواقعة بين سلسلتين من الجبال تبدأ بجبل رود وتلتقيان في النهاية بجبال زاكروس ويمر بهما نهر زودك وكانت تحد هذه المنطقة قديماً بلاد أوراتو في الغرب مع أرمينيا في وقت متأخر^(١٠٠).

فضلاً عن ذلك فقد استمر الميديون في اندفاعهم، إذ وصلوا إلى حدود أصفهان على مشارف بلاد عيلام غير أن العيلاميون تمكنوا من صدّهم^(١٠١)، ونقرأ من أخبار الملك الآشوري شمشي-أدد الخامس (٨٢٣-٨١٠ ق.م) عن هجوم قام به على جهات إيران ويذكر أنه دحر زعيم إيراني في منطقة تقع إلى الشمال من بحيرة أرومية مع ١٢٠٠ من قراه المحصنة ويذكر أنه استمر في تقدمه فدخل منطقة الميديين الذين هربوا خوفاً منه وإنهم اعتصموا بجبل في منطقتهم أسماه في نصوصه

أما الكوتيون فقد سكنوا جنوب مواطن اللولوبو وقد تمركزوا من مناطق همدان وما جاورها من المناطق وسط جبال زاكروس^(١٠٢) وقد ذكر الكوتيون في المصادر المسمارية إلى جانب اللولوبو^(١٠٣). وكان الكوتيون من ضمن اللذين دحرهم نرام سين في هجومه الشهير على اللولوبو^(١٠٤).

ويعود انهيار الإمبراطورية الأكديّة في حدود ٢٢٣٠ ق.م إلى هجماتهم العنيفة^(١٠٥). وخلال العهد الآشوري الوسيط نعرف من الملك أرك - دين - أيلي قد هاجم مواطنهم^(١٠٦)، كما هاجم الملك أدد-نيراري الأول أثناء عملياته العسكرية ضد اللولوبو^(١٠٧). وقد تمكن الملك شلمنصر الأول من إخضاع بلاد الكوتيين^(١٠٨). ويرد في مدونات توكلتي-نينورتا الأول باسم (Uqumeni) وإنه تمكن من إخضاعهم^(١٠٩) كما هاجم الملك آشور-ريش-أيشي الكوتيين^(١١٠). ويخبرنا الملك أدد-نيراري الثاني بأنه أخضع الكوتيين لسلطته^(١١١).

٤. الكاشيون:

ينتبي الكاشيون إلى مجموعة الأقوام التي عرفت في التاريخ باسم الأقوام الهندية-الأوربية الذين غادروا موطنهم الأصلي فيما وراء القوقاز متجهة نحو منطقة الشرق الأدنى القديم^(١١٢). وقد بدأت بوادر خطرهم منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد^(١١٣). أما كلمة كاشيون فلا نعرف مصدرها بالضبط وربما أن تسمية هذه المجموعة بهذا الاسم فتأتي من الكلمة البابلية كاشو والتي تعني البأس والقوة وربما تكون هذه الكلمة مأخوذة من أسم الإلهم القومي الذي يعرف بنفس الاسم^(١١٤). استوطن الكاشيون بادئ الأمر في الجزء الأوسط من سلسلة جبال زاكروس الذي يعرف حديثاً باسم (لورستان) الواقع جنوب همدان^(١١٥). وكان يجاورهم من جهة الشمال أقوام الكوتيون واللولوبيون^(١١٦). ولا نمتلك معلومات كثيرة عن تنظيمهم السياسي غير أنهم لم يقوموا بدور فاعل في مناطق الشرق الأدنى حتى منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد^(١١٧). وقد أخذوا يزحفون بالتدريج نحو العراق سالكين طريق وادي دجلة^(١١٨). ويبدو أن تحركهم باتجاه العراق ناتج عن ضغط أقوام الكوتو واللولوبو عليهم وقد استقروا أخيراً في الفرات الأوسط عند منطقة عانة^(١١٩) وقد حاول أول مرة غزو أرض بلاد الرافدين في عهد سمسو-إيلونا ملك بابل، إلا أن محاولتهم فشلت^(١٢٠). وقد تمكن الكاشيون من تأسيس سلالة حاكمة في وادي الرافدين في أعقاب غزو الحيثيين لبابل عام ١٥٩٥ ق.م وانسحابهم منها وعرفت سلالتهم الحاكمة باسم سلالة بابل الثالثة^(١٢١). وقد بقي قسم من هؤلاء الكاشيون ساكنين في المناطق الجبلية من جبال زاكروس إذ يخبرنا الملك نبوخذ نصر الأول أنه هاجم مناطق الكاشيين الجبلية^(١٢٢). لا نمتلك حالياً نصاً مدون بأكمله باللغة الكاشية بل توجد لدينا نصوص أكديّة تحتوي على مفردات وتعابير كاشية، واللغة الكاشية لغة إلصاقية تعود إلى مجموعة أسيوية واسعة تتصل من بعيد باللغة العيلامية^(١٢٣). إلا أن وجود آلهة الهندية-أوربية في مجمع الآلهة الكاشي يدل على ارتباطهم بالهندو-أوربيين، مثل شورياش (سوريا في الهندو-أوربية) وماروتاش (ماروت) وبورياش (ربما نفسه بورياس إله الريح الشمالية عند الإغريق) جنباً إلى جنب الآلهة الكاشية (كاشو-شيباك-هاربا-شوماليا-شوكامونا)^(١٢٤).

٥. الهيديون:

يعد الهيديون أحد الموجات السكانية التي تداولت نوعاً من اللغات الهندو-الأوربية^(١٢٥). وهاجرت ضمن الهجرات الواسعة للقبائل

ثانية على الميديين سنة ٧١٤ ق.م وكذلك سنة ٧١٣ ق.م حيث أخضع (٤٢) زعيمها ميدياً كان بعضهم يقطن منطقة همدان^(١١٥).

لقد تزعم القبائل الميدية بعد دياكو ابنه خشاثرثا الذي يحدد بعض الباحثين تاريخ حكمه ما بين (٦٥٥-٦٣٣ ق.م)^(١١٦)، في حين يجعل الأستاذ روستا سنوات حكمه تبدأ من عام ٦٨٠ ق.م^(١١٧). ويرى الأستاذ أولمستد إنه حكم ما بين (٦٧٥-٦٥٣ ق.م)^(١١٨). ويبدو أن الرأي القائل إنه حكم ٦٨٠ ق.م أو ٦٧٥ ق.م هو الأرجح، إذ أن المعروف أن خشاثرثا قد قتل أثناء هجومه على نينوى عام ٦٥٣ ق.م وإنه حكم (٢٢) سنة^(١١٩) وهذا يسقط فرضية حكمه عام ٦٥٥ ق.م. إن انشغال الملك سنحاريب في الجهات الأخرى من الإمبراطورية جعلت الزعيم الميدي خشاثرثا يعمل على إنجاز الوحدة الميدية التي ضمت إلى جانب الميديين كل من المانيين والكمريين^(١٢٠). وقد سار خشاثرثا على سياسة ضم القبائل الضعيفة إلى دولته حتى ضم قبائل فارس الذين كانوا يسكنون جنوب إيران^(١٢١) ولكن يبدو أن خشاثرثا لم يكن مسيطراً على كل القبائل الميدية كما سيتضح لاحقاً من معاهدة أسر حدون مع بعض القبائل الميدية، ويبدو أن الإدارة الآشورية قد تزايد اهتمامها في عهد أسر حدون بإقليم ميديا، إذ يمكن أن نقرأ في كتابات الملوك الآشوريين عن كميات الجزية من الأغنام والمواشي المأخوذة من إقليم ميديا^(١٢٢). وكذلك يحدثنا هيرودوتس عن القيمة التي اشترت بها الخيول النيسية في ميديا^(١٢٣). ويبدو أن الميديين الآن أخذوا يشكلون قوة مؤثرة لذلك نجده في عام ٦٧٢ ق.م يعمل على توقيع معاهدات تبعية مع تسع أمراء ميديين من أجل تنظيم ولاية العهد الآشوري ولم تصلنا من هذه المعاهدات إلا المعاهدة التي وقعها أسرحدون مع حاكم أركبانو المدعو رمتايا^(١٢٤).

في عهد آشوربانيبال (٦٦٩-٦٢٧ ق.م قدم الميديون المساعدة للمانيين في تمردهم على بلاد آشور لذلك توجهت حملة عسكرية آشورية لتأديب القبائل الميدية حيث أسفرت الحملة عن استيلاء الآشوريين على عدد من المدن القوية في هذا الإقليم وأسر الجيش الآشوري عدد من الأمراء الميديين الذين تمردوا عليه^(١٢٥). ونعرف من قيام خشاثرثا بهجمة نينوى عام ٦٥٣ ق.م غير أن الهجوم فشل وقتل خشاثرثا في المعركة أعقب ذلك خضوع بلاد ميديا لسيطرة الأسكتيين نحو ما يزيد عن عشرين سنة^(١٢٦). وفي عام ٦٢٥ ق.م تمكن كي أخسار ابن خشاثرثا من التخلص من الحكم الاسكتي^(١٢٧)، واستطاع بعد تحالفه مع البابليين من إسقاط الدولة الآشورية عام ٦١٢ ق.م^(١٢٨) وغدت الدولة الميدية في عهد كي أخسار إمبراطورية واسعة فشملت ميديا وفارس وبلاد آشور وتخوم آسيا الصغرى وقد دخلت في نزاع مع دولة ليديا الذي انتهى بتدخل بابل في ٢٨ أيار ٥٨٥ ق.م وتوقيع معاهدة صلح بين الطرفين^(١٢٩). وتوفي كي أخسار عام ٥٨٤ ق.م وخلفه على العرش ابنه استياكز (٥٨٤-٥٥٠ ق.م) وانتهى عهد الأخير على يد كورش الأخميني عام ٥٥٠ ق.م^(١٣٠).

٦. الفرس:

الفرس من القبائل الهندو أوروبية التي قدمت بلاد إيران في مطلع الألف الأول قبل الميلاد^(١٣١). وكانت هذه القبائل قد هاجرت من موطنها في جنوب روسيا، وقد استقروا في باديء ذي بدء في المنطقة الواقعة إلى الجنوب الغربي من بحيرة أروميا^(١٣٢)، وإلى حدود جبال ديماند شمال طهران^(١٣٣). ولدى الإيرانيون روايات تقول أن هجرتهم من موطنهم الأصلي كان بسبب كثافة الثلج مما جعله غير صالح

الجبل الأبيض ودخل مدينتهم ساكبتينا^(١٣٤) ويمكن تحديد تاريخ هذه الحملة بحدود عام ٨٢٠ ق.م^(١٣٥).

بعد وفاة شمسي-إدد الخامس تولى العرش ابنه إدد-نيراري الثالث (٨١٠-٧٨٣ ق.م) وقد كان قاصراً فتولت أمه شموارات الوصاية عليه لمدة خمس سنوات^(١٣٦). وقد شهد عهد الوصاية بعض الحملات العسكرية على الميديين، إذ نعرف أن الجيوش الآشورية تمكنت من دحر جيوش ميدي يبدو إنه استغل فرصة تربع صبي على العرش ووصاية امرأة عليه فاخترقوا الحدود الآشورية ولكنهم ردوا على أعقابهم^(١٣٧). ونعرف من حوليات إدد-نيراري الثالث عن قيام الأخير بعدة حملات عسكرية على الميديين خلال الأعوام ٨٠١-٧٩٥-٧٩٠-٧٨٧ ق.م^(١٣٨). وفي نص يذكر فيه إنه أخضع بلاد ميديا^(١٣٩).

لقد أصاب الدولة الآشورية بعض الركود في أعقاب وفاة إدد-نيراري الثالث وبرزت دولة أورارتو التي أخذت تعمل على جذب الزعماء الإيرانيين إلى جانبها ضد الآشوريين^(١٤٠). ولكن وصول تجلاتيلزر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ ق.م) لحكم الدولة الآشورية هو بداية التحول العالمي في السيادة الآشورية وقد تمكن من تحطيم أورارتو بقوده سردورس الثاني أعقب ذلك هجوم تجلاتيلزر على الميديين^(١٤١). وتذكر حوليات الملك تجلاتيلزر الثالث^(١٤٢) أسماء بعض الأمراء الإيرانيين الذين اصطدم بهم وتعرض إلى الغنائم الكثيرة التي حملها منهم، إذ اصطدم تجلاتيلزر الثالث بالميديين التي كانت تحركاتهم قد وصلت إلى شهنزرور. وإن وصولهم إلى هذه المنطقة معناه أنهم ساروا على طول الضفة الغربية لنهر دبالى واستمروا بموازة نهر سروان.

وقد تغلغل تجلاتيلزر بعيداً في عمق إيران حتى وصل جبل بيكني (ديماند قرب طهران) وحدود صحراء الملح الكبرى وذكر عدد من المدن والقلاع التي وقعت في قبضته كانت منها مدينة شيلكا التي قد تكون موقع سيالك الحالية قرب طهران. كما ذكرت حولياته بلاد النيشاي (منطقة كيان الحالية) والمعروفة بالسهولة النيسية إلى الجنوب من طريق همدان. وقد عمل تجلاتيلزر على تعمير المناطق التي دمرتها المعارك وتنظيمها في وحدات إدارية وفعلاً أظهرت التنقيبات في قمة موقع كيان بقايا قصر آشوري محصن وأخبرنا إنه جلب في حملته هذه ٦٥,٠٠٠ ألف أسير ميدي أسكنهم قرب نهر دبالى على طول الحدود الآشورية وأسكن بدلهم في ميديا أرامين^(١٤٣). وتسجل الحوليات الآشورية في عهد تجلاتيلزر الثالث على حصول الآشوريين من منطقة باتوشار عند سفح جبل بيكني على اللزورد وإنها إحدى المصادر المهمة للمعادن. وقد فرض تجلاتيلزر الثالث على المناطق الشرقية من ميديا جزية مقدارها تسعة أطنان من حجر اللزورد^(١٤٤). وفي عهد شلمنصر الخامس (٧٢٧-٧٢٢ ق.م) وبعد حملته على مملكة إسرائيل التي استمرت ثلاث سنوات، إذ تم فرض الحصار على السامرة، غير أن المدينة فتحت في عهد سرجون الآشوري (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) ثم نقل السكان نحو بلاد ميديا^(١٤٥).

وفي عهد سرجون برز أحد زعماء القبائل الميدية وهو دياكو، ويعتقد الأستاذ أبو معلي إنه حاكم قبيلة مناي^(١٤٦)، وقد هاجم سرجون دياكو وقبيلته بعد تحالف الأخير مع دولة أورارتو، ويظهر أن قوة سرجون الآشوري كانت تفزع دولة أورارتو فدفعها إلى خلق دولة حاجزة بينها وبين الدولة الآشورية وقد تمكن سرجون من دحر الميديين ونفى دياكو إلى حماة في سوريا، كما قام سرجون بقيادة حملة

دل هذا على شيء فإنما يدل على دخولهم الفترة المذكورة تحت السيادة العيلامية وتمردهم على السلطة الآشورية^(١٤٥).

وفي سنة ٦٩١ ق.م تحالف الفرس مع البابليين والآراميين وملك عيلام خمبان نيمينا (Humban Nimena) الذي ورد في المصادر الآشورية باسم (Umman Minanu) وحاربوا سوية الملك الآشوري في موقعة خالولة (Halule) التي انتهت بانتصار ساحق للقوات الآشورية^(١٤٦) ومن المرجح أن أخمينس كان يقود الفرس في معركة خالولة في حين كان ابنه جيشبش (تايسبس) يحكم أنشان ويحمل لقب الملك العظيم^(١٤٧). ويبدو أن جيشبش قد حكم في حدود ٦٧٥ ق.م وحتى عام ٦٥٠ ق.م وإن كان هناك من يرى إنه حكم إلى سنة ٦٤٠ ق.م^(١٤٨) ويروي هيرودوتس أن هذا الملك مع استقلاله عن العيلاميين إلا أنه اضطر إلى الاعتراف عام ٦٧٠ ق.م بسيادة الميديين على مملكته في عهد فراورتيش (خشاثرينا)^(١٤٩)، وبعد مهاجمة فراورتيش للدولة الآشورية ومقتله وخضوع بلاده للأشكيشيين تمكن جيشبش من احتلال منطقة فارس (Parsa) التي كانت مسكونة من قبل العيلاميون سابقاً^(١٥٠) وبعد وفاة جيشبش انقسمت مملكته بين ولديه الأول كورش (٦٤٠-٦٠٠ ق.م الذي عرف عند الباحثين باسم كورش الأول وقد حكم المناطق الغربية من مملكة الفرس على امتداد حدود بلاد عيلام أي منطقة أنشان، والثاني هو أريارامنس (٦٤٠-٥٩٠ ق.م وقد حكم منطقة فارس^(١٥١) ويعدى أريارامنس وأن الإله (أهورامزدا) أعطاه حكم فارس في حين يلقب كورش الأول نفسه بلقب الملك العظيم ملك بلاد أنشان^(١٥٢). غير أن مسألة تولي أريارامنس العرش على منطقة فارس أمر لم يثبت صحته حتى الوقت الحاضر. إذ أن اللوح الذهبي المدون بالخط الآخميني المسماري والذي يحتوي على ألقاب الملك أريارامنس مشكوك في أصالته^(١٥٣).

إن تحرر الفرس من سيطرة الميديين دفعهم للعمل بمفردهم، إذ نجدهم يتحالفون مع شمش-شوم-أوكنن أخو الملك أشوربانيبال المتمرد على أخيه إذ أرسل إلى كورش الأول مساعدة عسكرية إلى الأول، غير أن انتصارات أشوربانيبال الباهرة في عيلام التي كانت متحالفة مع شمش-شوم-أوكنن دفعت كورش الأول إلى مهادنة أشوربانيبال فأرسل أبنه (Arukku) إلى نينوى ليعلن ولائه لأشور^(١٥٤). وما أن تولى كي-أخسار العرش الميدي حتى تمكن من إعادة سيطرته على الفرس^(١٥٥)، وبعد وفاة كورش الأول خلفه على العرش ابنه قمبيز الأول، أما أريارامنس فقد حكم من بعده أرشاما (أرساميس) ويبدو أن قمبيز عمل على إزاحة ابن عمه أرشاما عن ممتلكاته ويبدو إن ذلك قد تم بموافقة الميديين^(١٥٦). وكان قمبيز قد لقب نفسه بلقب (الملك العظيم ملك بلاد أنشان)^(١٥٧)، وقد تزوج قمبيز من ابنة الملك الميدي المدعوة مندانة وقد أثمر هذا الزواج إنجاب أعظم ملوك هذه السلالة إلا وهو كورش الكبير.

للسكن وهذا الكلام يعني أن تغير المناخ جعلهم يهاجرون إلى الجنوب وذهبت هذه الروايات إلى القول بأنهم عندما أجبروا على الهجرة بسبب شدة البرد ذهبوا إلى سوغدة (بخارى) ومورو (مرو) ولكن أعدائهم أجبروهم على ترك هاتين المنطقتين فرحلوا إلى إقليم باخدي (بلخ) ومن بلخ ذهبوا إلى (نيساية) (نيسابور) وكانت المراحل الأخيرة من الهجرة هي هريو (هرات) ثم واي كرت (كابل)^(١٣٤).

إن أقدم ذكر للفرس في المصادر الآشورية يعود للقرن التاسع قبل الميلاد حيث ذكروا في كتابات الملك شلمنصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م سنة ٨٤٤ ق.م إذ شاركت إلى الفرس باسم (Parsua)^(١٣٥). ونقرأ عن حملة أرسلت من قبل شلمنصر الثالث سنة ٨٢٨ ق.م بقيادة أحد قادته وهو دايان آشور إلى أقصى شمال العراق حيث غزا موصاصير (عند أعالي نهر الزاب الكبير) وهاجم حدود دولة أورارتو وعاد عن طريق مدن فارس^(١٣٦). وفي حدود عام ٨٢٠ ق.م شمشي-إدد الخامس (٨٢٣-٨١٠ ق.م حملة عبرت الزاب الكبير والجبال التي تليه والتي سماها كوللار إلى بلاد نائيري (جنوب غربي بحيرة وان) وأخذ الجزية من المانيين والفرس. وقد أخضع شمشي-إدد المنطقة الواقعة شرق وأواسط جبال زاكروس، ودفع الفرس في منطقة اردلان الجزية إلى شمشي-إدد^(١٣٧). وتخبنا حوليات الملك أد نيراري الثالث أن الفرس كانوا خاضعين له^(١٣٨).

ونعرف أن الفرس في حدود عام ٨٠٠ ق.م قد هاجروا من مركزهم في الجنوب الغربي من بحيرة أروميا وساروا باتجاه الجنوب تحت ضغط الأورارتيين وسكنوا منطقة سقر وهي حالياً في كردستان إيران ومع هجرتهم فإن خضوعهم للآشوريين قد استمر في منطقتهم الجديدة^(١٣٩). وفي عهد الملك تجلاتيلزر الثالث (٧٤٥-٧٢٢ ق.م إرسال حملة على القبائل الفارسية التي دفعت الجزية للملك الآشوري^(١٤٠)، أما في عهد سرجون الآشوري (٧٢٢-٧٠٥ ق.م نعرف أن الفرس قد استمروا في خضوعهم للسيادة الآشورية حتى عام ٧١٤ ق.م^(١٤١). وتشير المعلومات إنه في حدود ٧٠٠ ق.م بدأت القبائل الفارسية تستقر في السهول الممتدة على طول جبال بختياري قرب الكارون في الجزء الجنوبي الغربي من إيران. في هذه السهول القريبة من منطقة عيلام أسست القبائل الفارسية دولتها الأولى وكانت تسمى بارسوماش (Parsumash) وكانت دولة عيلام ضعيفة فلم تستطيع التدخل في استيطان القبائل الفارسية في جزء من ممتلكاتها، ولا يمكن البت إذا ما كان الفرس قد اعترفوا بسلطة العيلاميون عليهم أم لا^(١٤٢).

إن المعلومات المتناثرة عن تأسيس الفرس لدولتهم الأولى تشير إن ذلك قد حدث بعد اتحاد القبائل الفارسية في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد، وتزعم هذه الدولة رجل أسمه على أغلب الظن أخمينس أو هاخمانيش^(١٤٣) وبذلك يكون تسمية الأخمينيين هي نسبة أخمينس ومن المحتمل جداً أن فترة حكم هذا الملك كانت ما بين الربع الأخير من القرن الثامن وحتى بداية السابع قبل الميلاد. ويعتقد كذلك بأن مقر حكم الملك أخمينس كان يقع في سهول جبال بختياري ويبعد مسافة ٤٠ كم من شوشتر^(١٤٤). وبعد تأسيس الدولة الفارسية بفترة قصيرة بدأ الفرس بالتسلل إلى منطقة عيلام في القرن السابع قبل الميلاد، فأخضعهم العيلاميون إلى سلطتهم، إذ أن النصوص الملكية العيلامية أشارت إلى دفع القبائل الفارسية الجزية لحكام سوسة، وإن

المواهب

- (٣٤) الحديثي، المصدر السابق، ص ٢٤.
- (٣٥) الأحمد والهاشمي، المصدر السابق، ص ١٠-١١.
- (٣٦) لستنر، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عواد، (بغداد: بلاط، ١٩٥٤)، ص ٢٨٣.
- (٣٧) الأحمد والهاشمي، المصدر السابق، ص ٢٥.
- (٣٨) الحديثي، المصدر السابق، ص ٢٥.
- (٣٩) لستنر، المصدر السابق، ص ٢٢٩: الأحمد والهاشمي، المصدر السابق، ص ٩: الحديثي، المصدر نفسه، ص ٢٤.
- (٤٠) روبرت فيفر، "الإمبراطوريات الأولى في أفريقيا وآسيا"، ترجمة: مصطفى محمد الأمير، بحث ضمن كتاب موسوعة تاريخ العالم، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، بلاط)، ج ١، ص ٩٠.
- (٤١) الحديثي، المصدر السابق، ص ٢٥.
- (٤٢) المصدر نفسه، ص ٢٥-٢٦.
- (٤٣) باقر، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٧٥: باقر وآخرون، المصدر السابق، ص ١٧: الأحمد والهاشمي، المصدر السابق، ص ١٢.
- (٤٤) الأحمد والهاشمي، المصدر نفسه، ص ١٥.
- (٤٥) المصدر نفسه، ص ١٢.
- (٤٦) محل، المصدر السابق، ص ٢٣.
- (٤٧) المصدر نفسه، ص ٢٣، للمزيد من التفاصيل حول جغرافية إيران: أنظر الدراسة القيمة التي أعدتها جامعة كامبردج في مؤلفها الضخم.
- The Cambridge History Of Iran في فصول
- W.B Fisher, Physical Geography, In: CHI, (Cambridge, 1968), Vol: I, PP.3-110. J.V. Harrison, Geology, In, CHI, Vol, I, PP.111-185; K.Scharlau, Geomorphology, In, CHI, Vol, I, PP.186-194, MH. Ganjl, Climate, In, CHI, Vol, I, PP.212-249.
- (٤٨) باقر، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٧٩: باقر وآخرون، المصدر السابق، ص ٢١: سامي سعيد الأحمد و رضا جواد الهاشمي، تاريخ الشرق القديم، (بغداد: مطبعة التعليم العالي، ١٩٨٨)، ص ٣٦٠، أنظر كذلك: E. Sundeland, "Early Man In Iran", In, CHI, Vol, I, PP.395 FF.
- (٤٩) الأحمد والهاشمي، المصدر السابق، ص ٣٩-٤٠.
- (٥٠) باقر، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٧٩.
- (٥١) هاري ساكر، عظمة بابل، ترجمة: عامر سليمان إبراهيم، (بغداد: دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٧٩)، ص ٢٦، أنظر كذلك: هنري فرانكفورت، فجر الحضارة في الشرق الأدنى، ترجمة: ميخائيل خوري، (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، بلاط)، ص ٤١-٤٢.
- (٥٢) عن موقع سيالك وبقياءه أنظر:
- Ghirshman, Op.Cit, PP.28-35.
- (٥٣) تقي الدباغ ووليد الجادر، عصور ما قبل التاريخ، (بغداد: مطبعة جامعة بغداد، ١٩٨٣)، ص ١٨٠-١٨٣.
- (٥٤) ساكر، عظمة بابل، ص ٤٨.
- (٥٥) الأحمد والهاشمي، المصدر السابق، ص ٥١.
- (56) Ghirshman, Op.Cit, p.50
- (٥٧) باقر، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٨٠: باقر وآخرون، المصدر السابق، ص ٢٥: الأحمد والهاشمي، المصدر السابق، ص ٥١: طالب حبيب منعم أشمري، الوضع السياسي في الشرق الأدنى القديم بين القرنين السادس عشر والحادي عشر قبل الميلاد، (رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٩٦)، ص ٢٦٧.
- (٥٨) تكوين، ١٠: ٢٢.
- (٥٩) باقر، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٨٠.
- (٦٠) باقر وآخرون، المصدر السابق، ص ٢٦.
- (٦١) حياة إبراهيم محمد، نبوخذ نصر الثاني ٦٠٤-٥٦٢ ق.م، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٣)، ص ٤٣.
- (62) Ghirshman, Op.Cit, P.53.
- (١) سالم أحمد محل، العلاقات العربية-الساسانية خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد، (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٨١)، ص ٢٢.
- (2) R. Ghirshman, Iran, (London, 1954), p.21; Sir Percy Sykes, History Of Persia, (New York, 1958), Vol, 1, p.1.
- طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، (بغداد: شركة التجارة والطباعة المحدودة، ١٩٥٦)، ج ٢، ص ٣٧٣: طه باقر وآخرون، تاريخ إيران القديم، (بغداد: مطبعة جامعة بغداد، ١٩٨٠)، ص ١٥.
- (٣) باقر وآخرون، المصدر نفسه، ص ١٥.
- (٤) طه الهاشمي، التاريخ والحضارة في الأزمنة الغابرة، (بغداد: مطبعة دنكور الحديثة، ١٩٣٧)، ص ٢٧٦: باقر وآخرون، المصدر نفسه، ص ١٥.
- (5) Ghirshman, Op.Cit, p.21.
- باقر، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٧٣.
- (٦) الهاشمي، المصدر السابق، ص ٢٧٦.
- (٧) سامي سعيد الأحمد و رضا جواد الهاشمي، تاريخ الشرق القديم "إيران والأناضول"، (بغداد: مطبعة جامعة بغداد، بلاط)، ص ٧-٨.
- (٨) باقر، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٧٣.
- (٩) الأحمد والهاشمي، المصدر السابق، ص ٨.
- (١٠) باقر، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٧٣.
- (11) Ghirshman, Op.Cit, P.21.
- محل، المصدر السابق، ص ٢٢.
- (١٢) الأحمد والهاشمي، المصدر السابق، ص ٨.
- (13) Ghirshman, Op.Cit, P.22.
- باقر، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٧٣-٣٧٤.
- (١٤) باقر وآخرون، المصدر السابق، ص ١٦.
- (١٥) الأحمد والهاشمي، المصدر السابق، ص ٩.
- (١٦) المصدر نفسه، ص ٨.
- (١٧) فاضل عبد الواحد علي، "صراع السومريين والأكديين مع الأقوام الشرقية والشمالية المجاورة لبلاد وادي الرافدين ٢٥٠٠-٢٠٠٠ ق.م"، بحث ضمن كتاب الصراع العراقي-الفارسي، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٣)، ص ٢٦-٢٧.
- (١٨) المصدر نفسه، ص ٩.
- (19) Ghirshman, Op.Cit, P.22 .
- (٢٠) باقر وآخرون، المصدر السابق، ص ١٦.
- (٢١) باقر، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٧٤.
- (٢٢) الأحمد والهاشمي، المصدر السابق، ص ١٢.
- (٢٣) المصدر نفسه، ص ١٢-١٣.
- (٢٤) المصدر نفسه، ص ١٣.
- (25) Ghirshman, Op.Cit, P.23
- باقر، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٧٥: باقر وآخرون، المصدر السابق، ص ١٦.
- (٢٦) الأحمد والهاشمي، المصدر السابق، ص ١٤.
- (27) Ghirshman, Op.Cit, P.23
- (28) Ibid, pp, 23-24.
- باقر، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٧٥: باقر وآخرون، المصدر السابق، ص ١٤.
- (٢٩) باقر، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٧٥، قحطان عبد الستار الحديثي، دراسات في التاريخ الساساني، (البصرة: مطبعة جامعة البصرة، ١٩٨٧)، ص ٢٤.
- (٣٠) علي، المصدر السابق، ص ١٧.
- (٣١) باقر وآخرون، المصدر السابق، ص ١٧.
- (32) V.Gordon Childe, New light Of the most Ancient East, (London, 1935), P.250.
- (٣٣) علي، المصدر السابق، ص ٢٩.

(٩٢) حول اللغات الهندو-أوربية أنظر

Eric Hamp, "Indo-European Languages", In, El, Vol, 9, P. 264.

(93) Richard N. Frye, Iran, (London, 1954), P. 33; Donald N.

Wilber, Iran Past & Present (Princeton, 1955), P. 18; Donald N.

Wilber, Persia, In, El, Vol, 14, P. 203.

عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، (القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٦٧) ج ١، ص ٥٥٠؛ الأحمد والهاشمي، المصدر السابق، ص ٣٦٤.

(٩٤) باقر وآخرون، المصدر السابق، ص ٣٧.

(٩٥) يشير الأستاذ أبو مغلي بأن تجلاتلرز قام سنة ١١٠٠ ق.م بهجمة الميديين وإخضاعهم. أنظر: محمد وصفي أبو مغلي، إيران دراسة عامة، (البصرة: مطبعة جامعة البصرة، ١٩٨٥)، ص ٤٨.

(96) ARAB, Vol, 1, P. 206; Ghirshman, Op. Cit, P. 90; Sykes,

Op. Cit, Vol, 1, P. 117; Clemnt Huart, Ancient Persia & Iranian

Civilization, (London, 1972), P. 25; Alessandr O. Bausani, The

Persians, (London, 1971), P. 13; HPE, P. 22.

باقر، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٨٩؛ ساكر، عظمة بابل، ص ١١٧؛ وليد محمد صالح فرحان، العلاقات السياسية للدولة الآشورية، (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٧٦)، ص ٧٧.

(٩٧) باقر وآخرون، المصدر السابق، ص ٣٧.

(٩٨) ساكر، عظمة بابل، ص ١١٧.

(٩٩) ساكر قوة آشور، ص ١١٦.

(١٠٠) الأحمد وأحمد، المصدر السابق، ص ٣٦٤-٣٦٥.

(١٠١) باقر وآخرون، المصدر السابق، ص ٣٨.

(١٠٢) حول تفاصيل حملة شمشي-إد الخامس أنظر:

ARAB, Vol, 1, PP. 275; Ghirshman, Op. Cit, p. 90; Sykes, Op. Cit, Vol, 1, P.

17; Huart, Op. Cit, P. 27;

باقر وآخرون، المصدر السابق، ص ٣٨؛ الأحمد، سميراميس، ص ٦٨؛ سامي سعيد الأحمد، "الصراع خلال الألف الأول قبل الميلاد" (٩٣٣-٣٣١ ق.م، بحث ضمن كتاب الصراع العراقي-الفارسي، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٣)، ص ٦٢.

(١٠٣) الأحمد والهاشمي، المصدر السابق، ص ٨٢.

(١٠٤) باقر، المصدر السابق، ج ١، ص ٥٠٧.

(١٠٥) الأحمد، الصراع، ص ٦٢-٦٣.

(١٠٦) الأحمد، سميراميس، ص ١٩٩.

(107) ARAB, Vol, 1, pp. 262-263; Leo Oppenheim, "Adad-Nirarie-

II" 810-783: Expedition To "Palestine", In, ANET, P. 281.

(١٠٨) الأحمد، الصراع، ص ٦٢.

(١٠٩) باقر وآخرون، المصدر السابق، ص ٣٨.

(١١٠) يذكر أبو مغلي إنه تجلاتلرز الرابع. للمزيد من التفاصيل أنظر: المصدر السابق، ص ٨٥.

(١١١) أنظر حول حملة تجلاتلرز الثالث: الأحمد، الصراع، ص ٦٣-٦٤.

HPE, PP. 22-23; Huart, op. cit, P. 27

(١١٢) نينيل يانكوفسكا، "بعض القضايا الاقتصادية في إمبراطورية آشور"، بحث ضمن كتاب العراق القديم، ترجمة سليم طه التكريتي، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٧٦)، ص ٣٩٧-٣٩٨.

(١١٣) الملوك الثاني، ١٧: ٦، ١٨: ١١.

(١١٤) أبو مغلي، المصدر السابق، ص ٨٥.

(١١٥) حول الحملات العسكرية لسرجون الآشوري على بلاد ميديا أنظر:

Sykes. Op. Cit, Vol, 1, PP. 118-122; Huart, Op. Cit, P. 28.

باقر، ج ٢، ص ٣٩١، الأحمد، الصراع، ص ٦٥.

(116) Huart, Op. Cit, P. 30.

باقر، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٩٣، الأحمد وأحمد، المصدر السابق، ص ١٧.

(١١٧) رو، المصدر السابق، ص ٤٣٦.

(٦٣) جورج رو، العراق القديم، ترجمة حسين علوان حسين، مراجعة فاضل عبد

الواحد علي، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٤)، ص ١٤٩.

(٦٤) باقر، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٨٦؛ ساكر، المصدر السابق، ص ٧٠؛ رو، المصدر السابق، ص ٢١٤، وحول حرب نرام-سين لأقوام اللولوبو،

أنظر: زينه لابات، المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين، ترجمة: الأب ألبير أبونا ووليد الجادر، (بغداد: مطبعة التعليم العالي، ١٩٨٨)، ص ٣٦٧-٣٧٦.

(٦٥) ساكر، المصدر السابق، ص ٧٠.

(٦٦) المصدر نفسه، ص ١٠٣.

(٦٧) المصدر نفسه، ص ٧٤.

ARAB, Vol, 1, P. 27.

(٦٨) سامي سعيد الأحمد، سميراميس، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة،

١٩٨٨)، ص ٢٦.

(٦٩) رو، المصدر السابق، ص ٢١٣-٢١٤.

(70) Ghirshman, op. Cit, p. 53.

(٧١) باقر، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٨٦.

(٧٢) ساكر، عظمة بابل، ص ٧١؛ فوزي رشيد، نرام سين، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٩٠)، ص ١٠٥-١٠٦.

(٧٣) هاري ساكر، قوة آشور، ترجمة: عامر سليمان، (بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٩٩)، ص ٧٣.

(٧٤) المصدر نفسه، ص ٧٤.

ARAB, Vol, 1, P. 27.

(٧٥) رو، المصدر السابق، ص ٣٥٣.

ARAB, Vol, 1, PP. 43-44

(٧٦) ساكر، قوة آشور، ص ٨١-٨٢؛ أنظر أيضاً: كوزاد محمد أحمد، توكلتي نينورتا "منجزاته في ضوء الكتابات السومرية المنشورة وغير المنشورة" (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٩٢)، ص ١٢٣-١٢٤.

(٧٧) ساكر، عظمة بابل، ص ١٠٤.

(٧٨) ساكر، قوة آشور، ص ١٠٧.

(٧٩) حول الكاشيون أنظر:

Robert William Rogers, A History Of Babylonia & Assyria,

(New York, 1900), Vol, 1, PP. 398ff; Sidney Smith, Early History

Of Assyria, (London, 1928), PP. 214ff ; Ghirshman,

Op. Cit, P. 64ff; ANE, PP. 105FF

طه الهاشمي، المصدر السابق، ص ١١٤؛ ساكر، عظمة بابل، ص ٩٠؛ سيتون لويد، آثار بلاد الرافدين، ترجمة: سامي سعيد الأحمد، (بغداد: دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠)، ص ١٨٦-١٨٧.

(٨٠) رو، المصدر السابق، ص ٣٣٢.

(٨١) الشمري، المصدر السابق، ص ١٥٥.

(82) Ghirshman, Op. Cit, p. 64.

(٨٣) محمد صبحي عبد الله، العلاقات العراقية-المصرية في العصور القديمة، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٠)، ص ٩٧.

(٨٤) رو، المصدر السابق، ص ٣٣٢.

(٨٥) طه الهاشمي، المصدر السابق، ص ١١٤.

(٨٦) عبد الله، المصدر السابق، ص ٩٧-٩٨.

(٨٧) ساكر، عظمة بابل، ص ٩٠.

(٨٨) حول غزو الحيثيين لبلاد وسلاطة بابل الثالثة أنظر:

Rogers, Op. Cit, Vol, 1, PP. 401FF ; H.W.F. Saggs, "Babylonia"

In, El, Vol, 2, P. 296-297; Oliver R. Gurney, "Hittites", In, El,

Vol, 8, P. 463.

عبد الله المصدر السابق، ص ٩١.

(٨٩) ساكر، عظمة بابل، ص ١٠٤.

(٩٠) رو، المصدر السابق، ص ٣٣٣.

(91) Ghirshman, Op. Cit, pp. 64-65.

(١٤٣) وقد سميت هذه الدولة أحياناً باسم الدولة الهخامنشية نسبة إلى هخامنش، جد الأسرة الحاكمة من قبيلة باسركاد إحدى قبائل فارس وقد قامت الإمبراطورية الفارسية على مجموع من القبائل الفارسية هي: المجموعة الأولى: وتضم قبائل باسركاد ومرفي، وماسبي. المجموعة الثانية: وتضم قبائل بانتالي، ودروسي، وكروماني. المجموعة الثالثة: وتضم قبائل دائي، ومرد، ودروبيك، وساكرتي، للمزيد من التفاصيل أنظر: أبو مغلي، المصدر السابق، ص ٨٨-٨٩.

(173) Edwin Bevan, The Land Of Two Rivers, (London, 1918), p. 67; Sykes, Op. Cit, Vol, 1, P. 142; Huart. Op. Cit, P. 34.

باقر وآخرون، تاريخ إيران القديم، ص ٤٥-٤٦.

(١٤٥) باقر وآخرون، المصدر نفسه، ص ٤٦: الحديثي، المصدر السابق، ص ٤٢.

(١٤٦) الأحمد والهاشمي، المصدر السابق، ص ٨٦، حول تفاصيل معركة خالولي ومناقشتها أنظر: ساكر عظمة بابل، ص ١٥٢-١٥٣: ساكر، قوة آشور، ص ١٤٩: ٣٦٥-٣٦٤.

(١٤٧) الأحمد والهاشمي، المصدر نفسه، ص ٨٦.

(١٤٨) باقر، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٩٩: باقر وآخرون، تاريخ إيران القديم، ص ٤٦: الأحمد وأحمد، المصدر السابق، ص ٣٧١.

(١٤٩) باقر، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٩٩: باقر وآخرون، المصدر نفسه، ص ٤٦: الأحمد وأحمد، المصدر نفسه، ص ٣٧١.

(١٥٠) باقر، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٩٩: باقر وآخرون، المصدر نفسه، ص ٤٦: الحديثي، المصدر السابق، ص ٤٢.

(180) Bausani, Op, Cit, PP. 14.

باقر، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٩٩: باقر وآخرون، المصدر نفسه، ص ٤٦-٤٧: رو، المصدر السابق، ص ٥١٣: الأحمد وأحمد، المصدر السابق، ص ٣٧١.

(181) HPE, p. 29

(١٥٣) باقر وآخرون، تاريخ إيران القديم، ص ٤٧.

(١٥٤) باقر، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٩٩: باقر وآخرون، المصدر نفسه، ص ٤٧: الأحمد، الصراع، ص ٧٧: الأحمد وأحمد، المصدر السابق، ص ٣٧١: الأحمد والهاشمي، المصدر السابق، ص ٩٠.

(١٥٥) باقر، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٧٥، ج ٢، ص ٣٩٩.

(١٥٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٩٩: باقر وآخرون، تاريخ إيران القديم، ص ٤٧.

(186) HPE, P. 34.



عن دار الصداقة للنشر الإلكتروني صدر كتاب
جديد بعنوان "الآلهة في رؤية الإنسان العراقي
القديم"، (يونيو ٢٠١٠) للكاتب والباحث الدكتور
أسامة عدنان يحيى، والكتاب متاح للقراءة والتحميل
عبر موقع دار الصداقة للنشر الإلكتروني (فلسطين)

www.alsdaqqa.com

(118) HPE, P. 29.

(١١٩) باقر وآخرون، المصدر السابق، ص ٣٩.

(١٢٠) الأحمد، الصراع، ص ٦٥.

(١٢١) أبو مغلي، المصدر السابق، ص ٨٦.

(١٢٢) يانكوفسكا، المصدر السابق، ص ٤١٣.

(١٢٣) جورج كونتنو، الحياة اليومية في بلاد بابل وأشور، ترجمة سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٧٩)، ص ١٠٤.

(١٢٤) أنظر حول المعاهدة

D.J. Wiseman, "The Vassal Traits Of Asarhaddon", Iraq. Vol, 20, part. 2. 1958. PP. 1ff.

(١٢٥) المصدر نفسه، ص ٩٤. (١٢٥) أنظر حول المعاهدة

D.J. Wiseman, "The Vassal Traits Of Asarhaddon", Iraq. Vol, 20, part. 2. 1958. PP. 1ff.

(١٢٦) باقر وآخرون، المصدر السابق، ص ٤٠، أنظر كذلك:

Phyllis Ackerman, Scythians, In, EI, Vol, 16; Ackerman, Media, In, EI, Vol, 11, p. 488.

(١٢٧) باقر وآخرون، المصدر السابق، ص ٤٠.

(١٢٨) حول أحداث سقوط الدولة الآشورية أنظر:

HPE, P. 14; A. Leo Oppenheim, "Text From The to the Year Of Naboplassar Events Leading to the Fall Of Nineveh", In ANET, PP. 303-305; ANE, P. 143; I.J. Gelb, "Assyria, In", EI, Vol, 2, p. 126-127; Stefan Zawadzki, The Fall Of Assyria & Median-Babylonian Relations Light Of Naboplassar Chronicle, (Poznan, 1988).

(129) T.F.R.G. Braun, "The Greeks In The Near East", In, (CAH, Cambridge), 1982, Vol, III, Part, 3, p. 23.

(130) HPE, P. 34; Sykes, Op. Cit, Vol, 1, P. 131-132; AHNE, P. 55.

(160) Frye, Op. Cit, P. 33; Wilber, Persia, P. 203.

باقر، المصدر السابق، ج ١، ص ٥٧٤، ج ٢، ص ٣٩٨: باقر وآخرون، تاريخ العراق القديم، (بغداد: مطبعة جامعة بغداد، ١٩٨٠)، ج ١، ص ٢٥٧.

(161) HPE, P. 22; Frye, Ibid, P. 33

باقر وآخرون، تاريخ العراق القديم، ج ١، ص ٢٥٧: باقر وآخرون، تاريخ إيران القديم، ص ٤٥: الأحمد، الصراع، ص ٦٢: الأحمد وأحمد، المصدر السابق، ص ٣٦٤: الأحمد والهاشمي، المصدر السابق، ص ٨٢.

(١٣٣) رضا جواد الهاشمي، "تاريخ العلاقات العراقية-الإيرانية القديمة"، مجلة دراسات الأجيال، العدد ٤٤، لسنة ١٩٨٠، ص ٩٤.

(١٣٤) أبو مغلي، المصدر السابق، ص ٨٢-٨٣.

(164) Ghirshman, OP. Cit, p. 90; Sykes, Op. Cit, Vol, 1, P. 117; Bausani, Op. Cit, p. 14.

باقر وآخرون، تاريخ إيران القديم، ص ٤٥، الأحمد، الصراع، ص ٦٢: الأحمد وأحمد، المصدر السابق، ص ٣٦٤: الأحمد والهاشمي، المصدر السابق، ص ٨٢: الأحمد، سميراميس، ص ٦٠.

(١٣٦) الأحمد، سميراميس، ص ٦٢.

(١٣٧) المصدر نفسه، ص ٦٧: الأحمد والهاشمي، المصدر السابق، ص ٨٢.

(167) ARAB, Vol, 1, pp. 262-263; Oppenheim, Adad-Nirari II, P. 281.

(١٣٩) باقر وآخرون، تاريخ إيران القديم، ص ٤٥.

(١٤٠) الأحمد والهاشمي، المصدر السابق، ص ٨٢.

(١٤١) باقر وآخرون، تاريخ إيران القديم، ص ٤٥.

(١٤٢) باقر، المصدر السابق، ج ١، ص ٥٧٤، ج ٢، ص ٣٩٨. باقر وآخرون، تاريخ إيران القديم، ص ٤٥، باقر وآخرون، تاريخ العراق القديم، ج ١، ص ٢٥٧.

النشاط الرعوي في بلاد المغرب

خلال القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي

تقديم

لقد أنتج النظام الإسلامي الجديد في بلاد المغرب الإسلامي جغرافية زراعية جديدة ، حيث ظهرت بوادر الاستقرار والثبات داخل المجتمع الفلاحي الرعوي المغربي خلال القرن ٢ هـ/٨م بعد التحولات السياسية التي شاهدها المنطقة ، لتعرف بعدها نهوضاً سريعاً وتطوراً ملحوظاً في شتى الميادين ، وقد أشادت المصادر الجغرافية العربية بذلك حيث أطنبت الحديث في ذكر المجال الفلاحي للقرن ١٠ هـ/١٠م لهذه البلاد ، إذ احتل النشاط الرعوي وتربية الأنعام درجة هامة في دائرة هذا المجال .

وقد ساهمت الظروف الطبيعية من تضاريس ومناخ وغطاء نباتي في نمو الثروة الحيوانية في بلاد المغرب ، كما تنوعت بتنوع بيئاتها الجغرافية ، مما أدى إلى اختلاف في توزيعها بين أقاليمها الثلاثة^(١) . وقد عبّر "ابن حوقل" عند إحصائه لهذه الثروة في قوله: "ولهم الخيل النفيسة من البرادين والبغال الفرد ، والإبل والغنم وما لديهم من ماشية البقر وجميع الحيوان الرخيص ، فأما أسعارهم على ثنائي منهم وديارهم ، فعلى غاية الرخص في الأطعمة والأغذية والأشربة ، واللحمان ، والأذنان"^(٢) .

وشكلت تربية الأنعام دعامة أساسية في النظام الفلاحي المغربي سواء تلك التي خصصت للنقل وخدمة الزراعة على مستوى الحياة اليومية ، كطاقة الدفع والجذب لتسيير النوايع^(٣) ، أو تلك التي كانت من نوع ماشية للحوم والألبان ولتقديم مادة أولية صناعية كالصوف والجلد^(٤) . كما تكاملت المؤسسات العرفية والتشريعية في تنظيم ضوابط هذا المجال ، فكثيراً ما كانت ترد النوازل الفقهية لحل بعض المسائل التي تتعلق بالمرعى والرعي^(٥) .

أهمية النشاط الرعوي

احتل النشاط الرعوي وتربية الأنعام في بلاد المغرب ، درجة هامة في المجال الفلاحي غير أنه ثمة نوعين من الرعي ، النوع الأول فهو المختلط بمناطق الزراعة والرعي شبه الصحراوي ، ففي هذه الحالة عادةً ما يجمع صاحب الماشية بين القيام بأعمال الزراعة والرعي . بينما في النوع الثاني لا يتعاطى صاحب الماشية مهنة غير الرعي . فكثيراً ما وصفت مناطق بلاد المغرب بازدياد نسبة النشاط الفلاحي بين "زراع وضرع" ، و"مزارع ومسارح" ، حيث كانت عملية تربية الماشية تقوم إلى جنب مع الزراعة ، إذ اعتبر كل ذلك من أمور الفلاحة ، في حين اتخذت بعض المناطق مسارح وظواعن للأنعام .

لقد توفرت المراعي خاصةً في مناطق التل ، إذ غالباً ما تتحول الأراضي والمساحات الزراعية إلى مراعي بعد عملية الحصاد ، فيرسل مالك الأرض أنعامه لتسرح فيها . كما كانت أيضاً عامة مشاعة بين الرعاة ، وهذا النوع هو أكثر شيوعاً نظراً لطبيعة البيئة القبلية ، إذ أورد "العزيمي الجوزي" نصاً بين فيه ذلك في قوله : "أن هذه المسارح مشتركة لكافة أهل المنازل ، التي تجاورها"^(٦) .

يبدو أن المغاربة اتبعوا نظاماً خاصاً عند ممارستهم للرعي ، وذلك تماشياً والأحوال المناخية فهم ينزلون بالمراعي في المواسم المناسبة . وحول هذا قدم جغرافي مجهول عاش خلال القرن السادس الهجري في مراكش وهو صاحب "كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار" طريقة الرعي في جبل راشد بقوله : "جبل كبير تسكنه أمم كثيرة من البربر ويطردهم الثلج عنه فينزلون إلى ريف البحر الغربي ، وهم أهل كسب



د. فاطمة بلهوارى

أستاذة تاريخ ووسط إسلامي
قسم التاريخ وعلم الآثار - جامعة وهران
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

fbelhouari10@yahoo.fr

الاستشهاد المرجعي بالهقال :

فاطمة بلهوارى ، النشاط الرعوي في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي . - دورية كان التاريخية . - العدد الثامن ؛ يونيو ٢٠١٠ .

ص ٢٨ - ٣٢ . (www.historicalkan.co.nr)



وأفادت عبارات نصوص الجغرافيين ، أنه كثيراً ما كانت تربي مختلف الأنعام بمنطقة واحدة وعلى سبيل الذكر ولا للحصر ، أن أرض برقة كانت تصلح السائمة في مراعيها ، وتميزت أنعامها بكثرة الشحم ولذة اللحم^(٢٥) . كما اشتهرت مدينة سرت بالإبل والغنم^(٢٦) . وتميزت مدينة سوسة بكثرة اللحوم وطيبها^(٢٧) ، ولا بد لهذه اللحوم من مصدر حيواني مهم كالبقرة والغنم والمعز . وفي السياق نفسه وردت إشارة عند "الدرجيني" عن الوفرة في إنتاج الغنم والجمال والبغال ما لا يحصى في قبيلة مزانة^(٢٨) .

الثروة الحيوانية

كثيرة هي المصادر الجغرافية العربية التي نوهت بوفرة الثروة الحيوانية لبلاد المغرب من الدواب والأنعام والبقرة وسائر الكراع^(٢٩) ، حيث أشاد الجغرافي "ابن حوقل" إلى مناطق عديدة من هذه البلاد وسأحصى منها على سبيل الذكر ولا الحصر: سرت ، تونس ، المسيلة ، طبنة ، تنس ، وهران وبونة هذه المدينة التي أطنب الحديث عن أنعامها التي شكلت جزءاً هاماً من أرباح تجارتها^(٣٠) .

وبالمثل أشاد صاحب الاستبصار عند تعريفه لبلاد المغرب الأوسط أنها كثيرة الخصب والزرع كثيرة الغنم والماشية طيبة المراعي ، ومنها تجلب الأغنام إلى بلاد المغرب وبلاد الأندلس لرخصها وطيب لحومها^(٣١) ، وفي ذلك دلالة على وفرة الأنعام بهذه البلاد ، إذ اشتهرت مدينة تيهرت بتربية الحيوانات المختلفة فهي: "أحد معادن الدواب والغنم والبراذين الفراهية كما صرح بذلك "ابن حوقل"^(٣٢) . ومما يدل على اهتمام أهالي هذه المدينة بتربية الماشية ، امتلاك أفراد منهم آلاف من رؤوس الأغنام والإبل . وقد كان لهذه الثروة دعماً ووزنها على اقتصاديات هذه المدينة ، إذ وردت إشارة في مصدر إباضي أن أحد وجهاءها ويدعى "يبيب بن زلفين"^(٣٣) كان له ثلاثون ألف ناقة وثلاثمائة ألف شاة واثنان عشر ألف حمار^(٣٤) . ومما يؤكد صحة هذه الرواية أو على الأقل الأخذ بها ، هو قول "الإمام الرستمي" "عبد الوهاب بن عبد الرحمن" "لو لا أنا ومحمد بن جرنى ويبيب بن زلفين لخرب بيت مال المسلمين: أنا بالذهب ومحمد بن جرنى بالحرب وابن زلفين بالأنعام"^(٣٥) .

ولقد أطنب صاحب "كتاب الاستبصار" الوصف لطريقة الرعي في جبل راشد بضواحي تلمسان أن أهالي هذه النواحي كانوا أهل كسب من الغنم والبقرة والخيل^(٣٦) . أما مدينة مرسى الدجاج فكانت تمون غيرها ممن يجاورها بالألبان والمواشي^(٣٧) . وفي هذا دلالة على الوفرة والفائض في الثروة الحيوانية.

وامتدت المراعي في المغرب الأقصى سواء في السهول أو على قمم الجبال أو في الصحراء ، لتجعل من الثروة الحيوانية قوة هامة^(٣٨) . وأشاد "البكري" إلى شهرة مدينتنا أغمات ، ووريكة أغمات بثروتها الحيوانية ، إذ كان يذبح في أسواق وريكة أكثر من مائة ثور وألف شاة^(٣٩) . وفي السياق نفسه تحدث "القلقشندي"^(٤٠) أن هذه المنطقة كثيرة الدواب من الإبل ، والخيل ، والغنم ، والبقرة ، والحمر ، والماعز .

وسميت مدينة البصرة ببصرة الألبان ، حيث كانت أوسع النواحي مرعى وأكثرها ضرعاً للأغنام والأبقار والمعز^(٤١) . وعدت مدينة فاس من المدن المهمة التي تكثر فيها الأغنام والأبقار ، حتى بلغ سعر الكبش درهما ونصف وسعر البقرة ربع درهم^(٤٢) . في حين عدت سجلماسة من أشهر مدن المغرب الأقصى من حيث الثروة الحيوانية ، فقد ذكر "ابن

من الغنم والبقرة والخيل"^(٧) . وأضاف يصفها "وخيل هذا الجبل من أعتق الخيول لصبرها وخدمتها وهي مدورة القدود حسنة الخلق والأخلاق ولحوم غنمها أطيب اللحوم وكذلك أسنانها"^(٨) .

وكان الرعي النشاط المعول عليه عند سكان الصحراء وهو مورد مهم الأساسي ، إذ كانت قطعان الغنم والجمال كثيرة ينتقل وراءها البدو صيفاً نحو الشمال ، ويعودون إلى مواطنهم في الشتاء عندما تكثر الأمطار والثلوج التي تؤثر سلباً في الحيوان ، خاصة حديثة الولادة منها^(٩) . وقد وأشار "ابن الصغير" إلى أسلوب الرعي الذي اتخذته قبائل مزانة وسدراتة البترية ، حيث كانت هذه القبائل تنتجع من أوطانها المتفرقة لتعود في أشهر الربيع إلى تيهرت وأحوازها لما حولها من الكلأ^(١٠) . فكثيراً ما كان تقصدها القبائل الرحل في فصول معينة من السنة . وكثيراً ما كانت تحدث النزاعات حول مناطق الانتجاع ، إذ كان العرف الجاري خلال مرحلة العصر الوسيط المرعى لمن سبق^(١١) . هذا وقد بينت النصوص النوازلية الخلافات والمشاحنات بين صاحب الزروع والراعي بسبب الأضرار الناتجة عن ترك الماشية في الملكيات الزراعية الخاصة من الأجنة والبساتين^(١٢) .

ويبدو أن أصحاب الأنعام كانوا يتولون مهمة الرعي بأنفسهم^(١٣) ، غير أنه غالباً ما كانوا يستأجرون لها رعاة لتربيتها وحراستها لفترة معينة نظير أجره معلومة^(١٤) ، إذ كان للفقهاء "ابن أبي زيد القيرواني" راعي يرعى له الغنم^(١٥) . كما استأجر الفقيه "أبو الحسن الجبنياني"^(١٦) نفسه راعياً للبقرة في ناحية سوسة . وقد يمكث الراعي مدة طويلة بالأنعام في أمكنة بعيدة عن صاحبها . وإلى جانب ذلك وردت إشارة عند الفقيه "البرزلي" أن بلاد المغرب عرفت عملية الشراكة في تربية الأغنام^(١٧) .

وفي هذا السياق ، ذكر المؤرخ الإباضي "الدرجيني" نقلاً عن "أبي الربيع الوسياني" أن أبا محمد بن مانوج^(١٨) قدم عليه راعي غنمه فسأله عن حالها فكان رده: "هي صالحة الحال ، وأن وهب الله لها العافية إلى قابل فستكمل مائة" . كما تبين أن الرعاة كانوا يصطحبون معهم حيواناتهم الخاصة ، ومن ذلك أن أرسل "أبو عبد الله محمد بن بكر"^(١٩) رجلاً من قبيلة لمطة في غنم له بجبال بني مصعب سائمة فخرج ، فكان الغنم تحت يده وله فيها غنم قد جمعها فيها^(٢٠) .

وما يشد الانتباه عند تناول العناصر الفعالة في عملية الرعي ، تغيب دور الراعي من المصادر التاريخية المتنوعة ، على الرغم أنه يتعهد الماشية في تربيتها وحراستها ، وقد يعود السبب في ذلك إلى طبيعة إهمال الكتابة التاريخية عن هذا الصنف من الفئات الاجتماعية ، والذي ظل تغيبها وتهميشها يخضع لتأثير النزعة الاستعلائية لذا مؤرخي الإسلام عن طبقة العوام وموقعها الدوني ضمن معمار مجتمع العصور الوسطى ، فضرّبوا صفحا عن ذكر أخبارهم ، باستثناء ما ارتبط بكيفية عقوبة ضمن الحديث عن أصحاب الأنعام أو في سياق ذكر سير وتراجم الرجال^(٢١) .

وغالباً ما كان صاحب الأنعام يمارس على الراعي سلطة لا حدود لها ، الأمر الذي جعله دوماً تابعاً لصاحب الماشية^(٢٢) ، وحدث للفقهاء "الجبنياني" أن طلب منه — صاحب الأنعام — فضلاً عن الرعي قطع الخشب ، وحين همّ هذا الفقيه بالرفض ، كان رد صاحب العمل أن عليه السمع والطاعة^(٢٣) . كما كان يطبق عليه التضمين والتعويض في حالة إتلاف الماشية ، وهذا ما كشفت عنه نصوص النوازل الفقهية^(٢٤) . وهكذا اعتبر نظام الرعي في بيئة قبلية تعتمد الماشية ، دعامة أساسية في حياتها الاقتصادية.

حوقل "أن أهلها" يبيحون البلاد للمراعي والزرع والمياه لورود الإبل والماشية^(٤٣).

بينما اشتهرت بعض المناطق بنوع واحد عن باقي الأنعام التي تتوفر بها ، ونخص الذكر هنا فصوص القيروان^(٤٤) ، وطبنة^(٤٥) ، وسببية^(٤٦) ، وسوسة^(٤٧) ، هذه الأخيرة التي اشتهرت بتربية الأغنام ، ورخص أسعار لحومها وألبانها نظرا لوفرة هذه الثروة التي ميزتها. وكان أهالي جزائر بني مزغناي "أكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم السائمة في الجبال"^(٤٨). بينما كانت وهران محطة ترد إليها المراكب لنقل مواشيتها إلى الجهة المقابلة للمراسي الأندلسية^(٤٩).

أما مدينة وجدة فقد كانت أرضها ذات مروج خضراء صالحة للرعي وخاصة الأغنام ، ويذكر أنه يوجد في الشاة الواحدة من شياهم مائتا أوقية من الشحم ، ويصنعون من صوفها أكسية ليس لها نظير في الجودة وتعرف "العبيدي"^(٥٠). واختص حصن يراة بكثرة الأغنام ، واعتبر صوفها من أجود الأصواف ويقال أن أصول هذه الأغنام من بلاد فارس ، وكانت هذه البلدة تصدر هذه المادة إلى سجلماصة^(٥١) ، وفي ذلك دلالة على وفرة الأنعام بهذه البلاد.

وأفادت الكتب النوازلية هي الأخرى ، في التعرف على وجود النوعية في الماشية وقد سبق أن ذكرها الرحالة والجغرافيون^(٥٢) ، إذ أشارت بعض الفتاوى إلى وجود الخرفان ذات الألبية النحيفة ، وهي لا تقل قيمة من الخرفان ذات الإلية الغليظة التي كانت تمثل السلالة الإفريقية^(٥٣) ، وكانت أكثر إنتاجا إلى جانب المعز^(٥٤).

هذا ، وقد انتشرت تربية الأبقار والثيران في بلاد المغرب لضرورتها وأهميتها في العمل الزراعي كالحراثة والحمولة من جهة ولفائدتها الاستهلاكية من جهة أخرى. وعرفت الناحية الشرقية والشمالية أنها كثيرة البقر كالقيروان ، حتى أحصى ما ذبح بهذه المدينة في بعض أيام عاشوراء من البقر خاصة ، حوالي تسع مائة وخمسين رأسا^(٥٥). ومما لا شك فيه أن هذا النص كان يقصد به أيام الفاطميين الذين كانوا يحتفلون بأيام عاشوراء.

وبالمثل ، راجت هذه التربية في مدينتي طبنة^(٥٦) و بونة^(٥٧) ، غير أن هذه الأخيرة كانت أكثر سوائها البقر ، نظرا لتوفرها على ظروف ملائمة كوقوعها ضمن إقليم واسع وبادية وحوزة بها إنتاج كثير^(٥٨). وقد أشاد "البكري"^(٥٩) بأهمية لحوم البقر بهذه المدينة ، وقد زاد إنتاجها عن حاجتها مما دفعها لتصدير الفائض نحو الأقطار الأخرى. وشاع استعمال نوى التمر المدقوقة لتعليف الماشية^(٦٠) ، وبالأخص البقر. وفي هذا السياق وردت إشارة في إحدى النوازل التي أقيمت على "السبوري" عن حكم دق النوى ببيت قرب جار له^(٦١).

وأما تربية الخيول فقد تميز بها سكان بلاد المغرب ، حيث نقل مؤرخ مجهول قول "بلكين بن زيري بن مناد" يؤكد فيه هذه الحقيقة ، أن لا أمان عنده لبربري ركب فرسا أو أنتج خيلا أبدا حيثما سلك من البلاد^(٦٢) ، إذ كان هؤلاء فرسان محاربون لهم القسي والخيول العرب^(٦٣) ، للحاجة العسكرية والاقتصادية إليها^(٦٤). وشهدت هذه المنطقة أنواع منها^(٦٥) ، استفيد منها في تحريك النواخير والرّحى للاستخراج المياه الجوفية.

وقد عرفت بعض المناطق بإنتاج هذا النوع من الحيوانات كسهل قمودة ، الذي كان مناسبا لتربية الخيول^(٦٦). وقد مارست كل من صنهجة وزناتة على حد السواء تربية الخيول نظرا للحاجة إليها في تزويد طاقاتهم العسكرية ، ولا محالة أن كانت هذه العملية مزدهرة

ورائجة بين هذه القبائل^(٦٧). وقد أورد "القاضي النعمان" إشارة تنم عن الوفرة والنوعية عند وصفه لخيول بلاد إفريقية التي غنمها "أبو عبد الله الشيعي" في قوله: "كان عندهم (بني الأغلب) خيول لم ير الناس مثلهما فيما رأوه جودة وعتقا وفراهة وسلاح ليس فيه ساقط ولا منه ضعيف"^(٦٨).

وزيادة على اشتهار بونة بتربية الأبقار فكان أهلها قل من تقوته إنتاج الخيل السائمة^(٦٩). أما تلمسان فقد امتازت بكثرة الخيول وسماها الجغرافي "ياقوت الحموي"^(٧٠) بالخيول الراشدية نسبة إلى جبل راشد والتي تميزت عن سائر الخيول. ويعتقد أن المغاربة كانوا يطلقون على خيولهم أسماء يختارونها^(٧١). وأطنب صاحب "كتاب الاستبصار" في وصفها في قوله: "وخيل هذا الجبل من أعتق الخيول لصبرها وخدمتها وهي مدورة القدود حسنة الخلق والأخلاق ولحوم غنمها أطيب اللحوم وكذلك أسماؤها"^(٧٢). واعتبر جبل فازاز الواقع بين نهر سبو ونهر سلا من المناطق التي تربي فيها الخيول المشهورة والتي تعد "من أعتق الخيول لصبرها وخدمتها"^(٧٣).

والى جانب هذا ، انتشرت تربية الإبل في بلاد المغرب ، حيث مثل هذا الحيوان وسيلة نقل هامة ، استغلت في المجال التجاري بين المناطق البعيدة كبلاد المشرق والسودان على وجه التحديد. وقد أشاد "ابن حوقل" إلى وفرتها في قوله: "عندهم من الجمال الكثيرة في براريهم وسكان صحاريهم التي لا تدانيها في الكثرة إبل العرب"^(٧٤). وكان لقبائل سدراة ومزاتة دور في تربيتها فقد كان هؤلاء ينزلون في فصل الشتاء إلى الرمال حيث لا مطر ولا ثلج ، خوفا على نتاج الإبل^(٧٥). وبالتالي كان للقبائل المغربية دور وحرص في تنمية هذه الثروة ، إلى درجة أن خصص لها سوقا عُرفت بها^(٧٦).

وقد تميزت بلاد المغرب بنوع من الإبل عرف بالمهاري^(٧٧) ، حيث وردت إشارة تقيد في الحديث عن هدية "زيري بن عطية" إلى "المنصور بن أبي عامر" تمثلت في مئتي فرس من عتاق الخيل ، وخمسون جملا مهريه سوابق^(٧٨). وبالمثل ذكر "النويري"^(٧٩) نوعا منها عرف بالنجبي ، وهذا النوع قوي وخفيف سريع المشي. وفي هذا دلالة على الوفرة والنوعية في أصناف الإبل.

وقد استغل الخليفة الفاطمي "المعز لدين الله" من هذه الثروة الحيوانية فحين عزم الرحيل من المغرب أثناء "أبو الفتوح يوسف بلكين" بألفي جمل لحمل أمواله من ابل زناتة^(٨٠). وبالمثل ورد عن "النويري" أن هذا الخليفة كان معه خمسة عشر ألف جمل تحمل صناديق الأموال والسلاح وغيرها ، ومائة جمل تحمل شبه الطواحين من الذهب وثلاثة آلاف جمل على كل جمل صندوقان حين دخوله مصر. كما عدت هذه الثروة الحيوانية من جملة صادرات بلاد المغرب إلى أقطار متعددة حسب ما أدلى به جغرافي^(٨١) القرن الرابع الهجري ، أنه كان يصدر من المغرب إلى المشرق اللبود المغربية والبغال للسر. وفي السياق نفسه ذكر "النويري" نقلا عن "الريفي القيرواني" أن الجمال كانت تباع بعشرة دینار والحمار بعشر بصلات ومن الخيل ما لا يحصى^(٨٢) ، وهي إشارة واضحة عن غزارة الإنتاج الحيواني مع بدايات القرن الرابع الهجري ، حتى غدا سعرها في غاية الرخص.

(٩) بحاز إبراهيم، الدولة الرستمية (١٦٠-٢٩٦ هـ/٧٧٧-٩٠٩ م). دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية-، نشر، جمعية التراث، القزارة، ط ٢، ١٩٩٣، ص ١٦٢.

Vanacker, C. op, cit., p 674

(١٠) ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق، محمد ناصر وإبراهيم بحاز، المطبوعات الجميلة، الجزائر، ١٩٨٦، ص ٤١. وقد ذكر "الدرجيني" أن مزاة اشتهرت بالمال والرجال والخيول طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، ١٩٧٤، ج ١، ص ١٢٤.

(١١) الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، الرباط، ١٩٨١، ج ٨، ص ٣٣٨.

(١٢) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(١٣) الدرجيني، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٠٠.

(١٤) القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، دار مكتبة الحياة، دار مكتبة الفكر، بيروت، طرابلس د. ت. ج ٣، ص ١٩٩.

(١٥) الدياغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القبور، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٨، ج ٣، ص ١٣٩.

(١٦) الليدي، مناقب أبي إسحاق الجبيني ومناقب محرز بن خلف، تأليف أبي الطاهر الفارسي، تحقيق وترجمة، روجي إدريس، تونس، ١٩٥٩، ص ٦.

(١٧) البرزلي، أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي، (ت ٨٤١ هـ/ ١٤٣٨ م)، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تحقيق، محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢، ج ٣، ص ٣٦.

(١٨) من الطبقة التاسعة والتي صنفها الدرجيني، ما بين سنة ٤٠٠ هـ - ٤٥٠ هـ ينظر تفاصيل هذه شخصية هذا الفقيه عند المؤلف نفسه المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٠٠، ٤٠٣.

(١٩) وهو من الطبقة التاسعة. المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٧٧، ٣٩٩.

(٢٠) نفسه، ج ٢، ص ٣٩٠.

(٢١) القاضي عياض، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٩٩. يراجع موضوع تهيش العوام من الكتابة عنهم إلى مجموعة الدراسات، محمود إسماعيل عبد الرزاق، في تأويل التاريخ والتراث، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ١٠-٢٥. إبراهيم القادري بوتشيش، ظاهرة التسول في الغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ضمن أعمال الملتقى الدولي حول التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور، جامعة منتوري، قسنطينة، ٢٣-٢٤-٢٠٠١، ص ١٧٥-١٨٥.

(٢٢) القاضي عياض، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٩٩.

(٢٣) الليدي، المصدر السابق، ص ٦.

(٢٤) الونشريسي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٤١.

(٢٥) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مطبعة، Librairie D'Amérique et D'Orient, Paris. 1963، ص ٥.

مجهول، الاستبصار، ص ١٤٣.

(٢٦) ابن حوقل، صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت. ص ٧٠.

(٢٧) البكري، المصدر السابق، ص ٣٤.

وحصيلة القول أن بلاد المغرب اشتهرت بثروتها الحيوانية، حيث شكلت تربية الأنعام دعامة أساسية في النظام الفلاحي المغربي في مرحلة العصر الوسيط، وعلى الرغم من هذه المحاولة في سبر أغوار النشاط الرعوي المغربي، وإمالة اللثام عن جوانب منه إلا أنه لا تزال بعض إشكالاته بحاجة إلى بحث دقيق ومفصل يخص دور ثنائية السلطة الزمنية والقبلية في توجيه هذا النشاط الاقتصادي واستخدامه كورقة ضغط في بعض القضايا المصرية.

هوامش البحث

(١) يراجع أهم الدراسات التي تناولت الظاهرة الجغرافية لمنطقة شمال إفريقيا وعلى سبيل الذكر:

Jean Despois, René royal, Géographie de l'Afrique du nord ouest, Paris 1967, p9.

Augustin Bernard, Géographie universelle, Afrique septentrionale et occidentale

Librairie Armond colar, Paris 1937, p14

(٢) ابن حوقل النصيبي، صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت. ص ٩٥.

(٣) الجنحاني الحبيب، دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٧٣.

Colin. G.S, la Noria Marocaine et les machines

Hesperis, 1er Trimestre, hydrauliques dans le monde arabes 1932, pp 22 et suiv

Géographie Economique de l' Afrique du "Vanacker. C nord in AnnaleS.E.C, 1973, p674.

(٤) موريس لومبارد، الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة، عبد الرحمن حميدة، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٩، ص ٢٣٠.

Rosenberger.B, Rosenberger.B, L'histoire économique du Maghreb, Handbuch der Orientalistik Leiden / Koln E. J. BRILL, 1977., op,cit., p 210., p 210.

(٥) لواتي دلال، عامة القبور في العصر الأغلي ١٨٤-٢٩٦ هـ/ ٨٠٠-٩٠٨ م رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٢-٢٠٠٣، ص ١٤٥.

(٦) العزيزي الجوزري، سيرة الأستاذ جوذر وبه توقعات الأئمة الفاطميين، تحقيق، محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٤، ص ٩٦-٩٧.

(٧) مجهول، جغرافي مراكشي من (ق ٦ هـ / ١٢ م) كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدنية ومصر وبلاد المغرب، نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨، ص ١٨٧.

(٨) المصدر نفسه، نفس الصفحة. وقد ذكر "ابن سعيد" أن أصحاب هذا الجبل هم من قبيلة زناتة، ولهم نتاج في الخيل. ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط ٢، ١٩٨٢، ص ١٤٥.

- (٦٢) مجهول ، نبذ تاريخية من أخبار البربر في القرون الوسطى منتخبة من كتاب مفاخر البربر ، نشر ، إ. ليفي بروفنسال ، المطبعة الجديدة لصاحبها مونشو ، الرباط ، ١٩٣٤ ، ص ٤ .
- (٦٣) أبو بكر أحمد بن محمد المعروف ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، مطبعة بريل ، لندن ، ١٨٨٥ ، ص ٨٤ .
- (٦٤) الدرجيني ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٦٧ .
- (٦٥) المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق ، عبد الحميد محمد محي الدين ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ت ، ج ٤ ، ص ٢٩٠ .
- (٦٦) الهادي روجي إدريس ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ .
- Vanacker, C, op.cit., p 674
- Golvin. L, Le Magrib central à l'époque des Zirides, ed , (67) Arts et métiers graphiques, p 81. Paris, 1954
- (٦٨) افتتاح الدعوة ، ص ٢٥٢ .
- (٦٩) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ٧٧ .
- (٧٠) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، دار الصادر للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ج ٢ ، ص ٤٤ .
- (٧١) جودت عبد الكريم ، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين ١٠/٩م ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ١٩٩٢ ، ص ٦٧ .
- (٧٢) مجهول ، الاستبصار ، ص ١٨٧ .
- (٧٣) المصدر نفسه ، نفس الصفحة .
- (٧٤) صورة الأرض ، ص ٩٥ .
- (٧٥) البكري ، المصدر السابق ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ .
- (٧٦) الخشني ، طبقات علماء إفريقية ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ١٨٢ .
- (٧٧) وعن تاريخ ظهور الجمل ببلاد المغرب ينظر:
- Demougeot. E, Le Chameau et l'Afrique du nord romaine, Annales, A.S.C, Mars, Avril 1960, p210.
- (٧٨) ابن أبي زرع ، القرطاس ، ص ١٠٣ .
- (٧٩) الدولة الفاطمية ، قسم من كتاب نهاية الأرب ، ص ٧٤ .
- (٨٠) النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق وتعليق على القسم المغربي ، مصطفى أبو ضيف أحمد ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، المغرب ، ج ٢٤ ، د.ت ، ص ٣١١ .
- (٨١) الاصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق ، محمد عبد العال الحسني ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٤٥ . ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ٩٥ .
- (٨٢) الدولة الفاطمية ببلاد المغرب ، قسم من كتاب نهاية الأرب ، ص ٣٤ .

الدكتورة فاطمة بلهواركي في سطور:

- أستاذة جزائرية متخصصة في التاريخ الوسيط "إسلامي".
- دكتوراه دولة في التاريخ الوسيط ، جامعة وهران ٢٠٠٥ .
- ماجستير في التاريخ الوسيط ، جامعة عين شمس ١٩٩١ .
- عضو في اللجنة العلمية بقسم التاريخ جامعة وهران ، الجزائر
- رئيسة فرقة بحث في مخبر مصادر وأعلام ، جامعة وهران
- شاركت في عدد من الملتقيات الوطنية والدولية.
- نشرت عدة مقالات في الدوريات العربية والدولية.

- (٢٨) الطبقات ، ج ١ ، ص ١٣٠ .
- (٢٩) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ٧٧...وبعدها ، البكري ، المصدر السابق ، ص ٥...وبعدها مجهول ، كتاب الاستبصار ، ١٧٩...وبعدها ، الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مكتبة الأفاق الدينية ، القاهرة ، ٢٠٠٢ ، ج ١ ، ص ٢٥٢...وبعدها
- (٣٠) المصدر نفسه ، ص ٧٧ .
- (٣١) مجهول ، الاستبصار ، ص ١٧٩ .
- (٣٢) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ٨٦ .
- (٣٣) أحد فقهاء ووجهاء الأباضية وحسب رواية الشماخي هو من علماء الطبقة الثالثة ، ما بين (٢٠٠ - ٢٥٠ هـ / ٨١٥ - ٨٦٤م) المصدر السابق ، ص ١٠٥ ، ١٢١
- (٣٤) المصدر نفسه ، نفس الصفحات .
- (٣٥) نفسه ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ . بجاز إبراهيم ، المرجع السابق ، ص ١٦١ .
- (٣٦) مجهول ، الإستبصار ، ص ١٨٧ .
- (٣٧) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ٧٧ .
- (٣٨) محمود إسماعيل عبد الرازق ، الأدارسة (١٧٢ - ٣٧٥ هـ) حقائق جديدة ، مكتبة المبدولي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩١ ، ص ٤١ .
- (٣٩) البكري ، المصدر السابق ، ص ١٥٣ .
- (٤٠) كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، شرح وتعليق ، نبيل خالد الطيب ، ج ٥ ، دار الكتب المحلية ، بيروت ، ١٩٨٧ .
- صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ١٧ .
- (٤١) البكري ، المصدر السابق ، ص ١١٠ .
- (٤٢) ابن أبي زرع ، الأليس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، ١٩٧٣ ، ص ٥٠ .
- (٤٣) صورة الأرض ، ص ١٠٠ .
- (٤٤) القاضي عياض ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٩٩ .
- (٤٥) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ٨٥ .
- (٤٦) المصدر نفسه ، ص ٨٤ .
- (٤٧) البكري ، المصدر السابق ، ص ٣٤ .
- (٤٨) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ٧٨ .
- (٤٩) المصدر نفسه ، ص ٧٩ . الإدريسي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٢ .
- (٥٠) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ٨٨ . مجهول ، الاستبصار ، ص ١٧٧ .
- (٥١) البكري ، المصدر السابق ، ص ١٤٧ .
- (٥٢) مجهول ، المصدر السابق ، ص ١٧٧ .
- (٥٣) الهادي روجي إدريس ، الدولة الصنهاجية ، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن ١٠ إلى القرن ١٢م ، ترجمة ، حمادي السّاحلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٨ ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ .
- (٥٤) Vanacker, C, op. cit., p 674
- (٥٥) البكري ، المصدر السابق ، ص ٢٦ .
- (٥٦) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ٧٧ .
- (٥٧) المصدر نفسه ، ص ٨٥ .
- (٥٨) نفسه ، ص ٧٧ .
- (٥٩) البكري ، المصدر السابق ، ص ٥٥ .
- (٦٠) أبو حاتم سهل ابن محمد بن عثمان السجستاني ، النخلة ، مخطوط الخزانة العامة ، الرباط ، رقم D ١٢٢١ ورقة ٦ .
- (٦١) الونشريسي ، المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٤٤٥ .

مقدمة

يسعى هذا البحث إلى إعادة التوكيد على دراسة تاريخنا وتراثنا الأدبي، ومن منظور يتواءم مع العصر، لإيماننا بأن هذا الماضي العريق لحضارتنا العربية الإسلامية ينطوي على كنوز قيمة، نحتاج إلى تسليط الضوء عليها، ما أمكن، ومن هنا جاء اختيارنا لقصيدة من شعر الصعاليك، وقمنا بتحليلها من منظور تعاملات النقد الحديث مع السرديات، وتقنياتها الحداثية، إضافةً إلى تبيان العناصر الفنية الأخرى التي تحتوي عليها هذه القصيدة، بوصفها نموذجاً من الشعر العربي القديم، الذي يعد منجماً للمعرفة العربية، ويزودنا باستمرار بمنتجات ومعطيات تلفت الانتباه.

الدارس الحالي يأمل من دراسة هذه القصيدة، أن يكون جانب التوفيق، وليسهم مع آخرين، في إعادة البحث في تراثنا الأدبي، رغم شيوع المناهج الدراسية الحديثة، والتعامل معها، وبطرائق تتناسب والمرحلة، وعليه قدم الباحث الحالي لمفهوم السرد، ولعلاقة السرد بالشعر، حتى لا تبقى البحوث السردية تنصب على الأدب الحديث.

مفهوم السرد

في البدء، وقبل الدخول في تبيان مفهوم السرد، نشير إلى أننا سنقوم بتناول قصيدة من الشعر الجاهلي القديم، واخترنا أن تكون هذه القصيدة للشعراء الصعاليك، والمنسوبة لتأبط شرا، والتي أثبت نسبته الباحث محمود شاكر لخفاف بن نضلة^(١) لتكون تأسيساً تاريخياً للمراحل التي تحدثت عليها هذه الطروحات النقدية، المتعلقة بالعلاقة القائمة بين السرد والشعر العربي، عبر مسيرته، منذ الجاهلية حتى اليوم.

السرد في اللغة هو التتابع وإجادة السياق، وهذا ما يكشف عنه البحث في معاجم اللغة العربية^(٢)، ومع تطور البعدين، المعجمي والدلالي يتحول المفهوم إلى الحديث عن التجليات المتصلة بالحدث الحكائي، ولهذا يمكن القول منذ البداية: إن الحكاية ولدت مع الإنسان، والحكاية عندما تتخذ طابعاً وظيفياً، وتنطوي على مفهومات معينة يقصد إليها المتكلم أو المؤلف، وتضمر في الوقت نفسه وجهة نظر مؤسسة للخطاب، تصبح سرداً، ومن هنا يمكن القول: إن الإنسان هو السارد بامتياز، فهو في كلامه، سواء أكان ذلك بقصد التوصيل والإفهام، أم بقصد إنشاء نص يظهر خطاباً ما تجاه المتلقي حيث تلفظاته القولية عندما تكون منتظمة وفق سياق محدد، تسرد ما في ذهنيته أو مدونه.

يرى رولان بارت، عند محاولته لتعريف السرد، بالمفهوم النقدي الحديث، أنه رسالة يتم إرسالها من مرسل إلى مرسل إليه، وقد تكون هذه الرسالة شفوية أو كتابية، والسرد لديه (حاضر في الأسطورة والخرافة والحكاية والقصة والملحمة - وهي شعر غالباً - والتاريخ والمأساة والكوميديا، إنه يبدأ - يعني السرد - مع تاريخ الإنسانية نفسها، فلم يوجد أبداً شعب دون سرود)^(٣)، هذا التوجه يدعم وجهة نظرنا عن وجود السرد بطرائقه المختلفة في مجمل الأجناس الأدبية، ومن بينها النصوص العربية القديمة، حتى الشفاهية منها.

لا يمكن مناقشة إشكالية السرد خارج الكلام على مصطلح الحكاية والحكي، وهذا ما يذهب إليه جل النقاد الذين تكلموا على مصطلح السرد، في النصوص الإبداعية الحديثة على الأقل، ومنهم على سبيل



سردية القصيدة العربية القديمة

قصيدة خمفاد بن نضلة نموذجاً



د. عبد الرحيم عزام مرشدة

رئيس قسم اللغة العربية
كلية الدراسات الأدبية - جامعة جدارا
مدير تحرير مجلة جرش الثقافية
المملكة الأردنية الهاشمية

abd_marashdeh@yahoo.com

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد الرحيم عزام مرشدة، سردية القصيدة العربية القديمة - دورية كان التاريخية - العدد الثامن؛ يونيو ٢٠١٠. ص ٣٣ - ٤١ (www.historicalkan.co.nr).



الماضي، وثانياً — مجال التوقع الذي يذوب في الواقع ويشير إلى المستقبل، وعليه يصبح النص مذاباً في الماضي ومتشاكلاً أو متعالفاً مع الواقع ومختزقاً للمستقبل، بمعنى يمكن للنص أن يكون استشرافياً.

النص السردى في هذه الحالة /الأخيرة (لا ينقل الواقع الفعلي المباشر، بل إنه ينقله بحسب مقتضيات سردية توجهها أعراف النوع ^(٦)، وهذا المنحى يمكن الإفادة منه في التطبيق على الشعر الجاهلي، الذي له ظروفه ومقتضياته وطرائق تعبيره الخاصة به. في ضوء هذا الفهم للسردية، عبر النصوص القديمة والحديثة، لا يمكن التخلي، من وجهة نظرنا على الأقل عن اعتبار السرد مكوناً أساسياً من مكونات أية نظرية في المعرفة، لأن السرد (يحتل منزلة انثربولوجية — إنسانية — يتحول بمقتضاها إلى مصدر أولي من مصادر المعرفة بالذات والعالم ^(٧)).

ما تقدم يشكل إيماننا بالتركيز على إيجاد تصور مفهومي للسرد، بوصفه مصطلحاً نقدياً وإجرائياً، راح ينتشر في العصر الحديث بشكل لافت، خصوصاً وأنه أصبح مادة تتناوله الدراسات النقدية الحديثة في تعاملاتها مع الأجناس الأدبية المختلفة، ذلك أن السردية تعنى بتحليل مكونات الحكى وآلياته، لا من حيث كون السرد مكوناً من مكونات المدونة السردية، أنى كانت عندما تتحول إلى نص، بل من حيث أن هذه المدونة تشكل خطاباً يحمل في ثناياه وجهة نظر أو وجهات نظر متعددة، تبعا لطبيعة الخطاب وتوجهاته ومرجعياته.

من هذا المنطلق التأسيسي والإجرائي ذهبنا إلى تتبع ظاهرة السرد وتقنياته الفنية عبر جنس أدبي فار، لاسيما وأن هذا الجنس صار مختزقاً للأزمنة ولأمكنة، وأعني به هنا الشعر القديم /الجاهلي، لاعتقادنا أن هذا الشعر تأسس وانتشر بطرائق شفاهية أساسها البنية الحكائية المتحولة عند الرواة، بعد تناقلها بين الناس أو تدوينها فيما بعد إلى مدونة سردية قابلة للتدريس والقراءة النقدية، وهي في الوقت نفسه تنطوي على إمكانية لسرد الذات والآخر والوجود والعالم من خلال النص الشعري، وعليه فهذه الدراسة تحاول تقصي وتحليل نموذج من الشعر الجاهلي، عن طريق استنباط ما فيه من طرائق للسرد العربي القديم، والتي نزعم بوجودها، تاريخياً على أقل تقدير، قبل شيوع المصطلحات المتعلقة بهذه التقنيات في الغرب.

إن تبني هذه المسألة لا يعني الإنفراد بها فقط، وإنما سنحاول البحث في أثر مكونات البنيات السردية في إثراء النص الشعري وإمكانية توظيفها لفتح مزيد من الدلالات في النص، فهذه التقنيات عند مصاحبته لبنيات فنية أخرى في النص الشعري تعطي له كثافة معنوية تحفز على التلقي، وعلى التفكير في النص، بمعنى تزيد من لذة النص وتلقيه، وهذا الأسلوب بدا واضحاً في طرائق تأليف القصيدة العربية الجاهلية، وقد انعكس ذلك في بنائية النص الشعري الجاهلي، لاسيما النص الذي ينطوي على تعدد اللوحات الفنية، بوصفها أنماطاً وأساليب تسم نظام القصيدة العربية القديمة، إذ يمكن للمتلقى أن يستشعر، عند تلقيه للنص، وجود راوٍ ومروي ومروي له، ويستشعر وجود سلطة للأزمنة والأمكنة المتعاقبة مع نظام من الصيغ، والذي يشكل الخيط الرابط لفنية النص، هذا ما سنبينه بعد قليل، عند مناقشة مسألة الوحدة الموضوعية للنص وعلاقتها بالسرد. القصيدة الجاهلية عند النظر إليها بوصفها وحدة متكاملة، أي بدمج أبياتها، والنظر إلى الوحدة الموضوعية فيها، تمكن القارئ

المثال لا الحصر الناقد جيار جينيت الذي يعرف السرد بقوله: (هو فعل واقعي أو خيالي ينتج عن الخطاب، ويعدده واقعية روائية بالذات) ^(٨)، وهذا الرأي لا ينفي إمكانية وجود السرد في الأجناس الأدبية الأخرى وهذا القول يثير مسألة فاعلية الحكى والسرد الذي يعتبر المجال التمثيلي والإحالي للحكي، من حيث قدرته على تجاوز الفعل التواصلى لتأسيس احتمالات فنية أكثر علائقية مع مكونات الخطاب، بحيث يصبح الحكى والسرد، بتفاعلاتهما، مجالاً لتحريك فاعلية اللغة، وتحويل منتجاتها ومحمولاتها، عبر النظم في سياق مخصوص، إلى كلام مسرود، ينطوي على فاعلية خاصة تتميز بتميز أسلوب المنتج، يقول فريدمان في هذا السياق: (السرد هو بث الصورة بوساطة اللغة وتحويل ذلك إلى إنجاز سردي.. ولا علينا أن يكون هذا العمل السردى خيالياً أو حقيقياً) ^(٩).

وهناك أمر آخر لا بد من الكلام عليه وهو أنه لا يمكن تناول إشكاليات السرد وتجلياته في الشعر، بوصفه جنساً أدبياً، دون الحديث على مسألة الشعرية وتداخل عناصرها مع النص حتى لو انطوى على أبعاد قصصية، لأن الشعرية تتداخل أيضاً مع كثير من الأجناس الأدبية، وهي لا تقف عند حدود الآثار الأدبية المفردة، ولا تقف عند حدود خصائص السرد، أو الحوار، أو الوصف، في نص معين، وطالما نتحدث عن السرد والشعرية في النص الشعري فيكون من الأجدي البحث عن علاقة مثل هذه القضايا بالمجتمع، لاسيما وأن النصوص القديمة، والشعر الجاهلي منها، ينهل من الواقع بشكل لافت ويقترب من وقائعه وما ينتج فيه.

البعد الاجتماعي للنصوص القديمة يسهم في تفكيك كثير من الرموز والاحتمالات، ويعطي مفاتيح جيدة للوقوف على منتجات النص الأدبي، الكلاسيكي خاصة، لكن المزلق هو تطابق النص الشعري مع الواقع، وهذا يثلب من فنية العمل الشعري، والقصيدة التي بين أيدينا هي تقترب من الواقع وتبتعد عنه في آن، وهذا ما أنقذ شعريتها وفنيته بشكل لافت فوظيفة السرد في القصة أو الشعر (ليس تمثيل الواقع، وإنما هي إنشاء مشاهد واقعية يمكن أن تكون غامضة، ولكنها ليست من قبيل المحاكاة) ^(١٠) بمعنى الكلام المتطابق مع الواقع.

القصيدة الجاهلية منجم معرفة، وهي صورة وحالة في آن، والقصيدة هذه منجز يمثل سرد شعب من الشعوب، يقود إلى تكوين مفهوم تجاه هذا الشعب ومكوناته العقائدية والمعرفية، فهي — القصيدة — عندما تعرض وتحمل في داخلها لوحات تحكي العالم والوجود والذات، فهي تسرد وتقص على المتلقين ما يعتل في الذات الساردة، ومن هنا يمكن القول أن القصيدة العربية القديمة تشكل تجلياً لمقولة النقاد الحديثين المهتمين بمفهومات السرد، ومن بينهم فريدمان وبارت وآخرين، ولهذا نجد أن الشعر الجاهلي في كثير من قصائده، الطوال خاصة، والمتضمنة لموضوعات تسرد أحداثاً كقصيدة الرثاء وقصيدة الغزل وقصيدة المدح.. الخ هو شعر سردي بامتياز.

النص السردى مهما كان النوع الذي ينتهي إليه، أسطورة أو رواية أو شعر... لابد وأن يتسرب إليه قليل أو كثير من السرود الوظيفية المتعاقبة مع البنيات السردية الموجودة في الرواية والقصة والحكاية وما إلى ذلك، وفي الوقت نفسه لا بد وأن يحتمل أمرين، أو مجالين هما: أولاً- التجربة التي تتجه نحو الماضي ومرجعيات هذا

العربية قادرة على حمل وجهة نظر حول الذات /الإنسان والعالم، وهذا ما يبعد القصيدة العربية عن الاتهام بالتفكك، لأن النظر إلى جزئيات العمل الأدبي ينطوي على محاذير عدة.

لم تعد الدراسات التي تتناول فكرة هنا أو فكرة هناك، وبيت من قصيدة أو مجموعة من أبيات مجدية، فالدراسات الشمولية تبقى أكثر جدوى، فأراء النويهي، مثلاً، حول القصيدة العربية القديمة لم يعد لها تبرير مقنع، لدى النقد في العصر الحديث، على أقل تقدير، لأنه يرى: (أن الموقف الصائب هو أن تستخرج من الشعر القديم نفسه مقاييسه ومفاهيمه التي نستخدمها في تفهمه وتذوقه وتقديره، ومعنى هذا، في موضوعنا الراهن، هو أن تقبل كل قسم من أقسام القصيدة القديمة كأنه وحدة مستقلة، أو قصيدة منفردة)^(١١). هذا القول يتهاوى مع تقدم الدرس النقدي الحديث الذي يتناول القصيدة العربية القديمة، ولعل الدراسات السردية جاءت لفتح مزيد من النوافذ والقنوات على آليات التفكير في بنية القصيدة العربية القديمة.

إن النص مدار التحليل يمثل الواقع وما وراء الواقع في الآن نفسه، والشعرية الكامنة فيه والمتداخلة مع السرد المنتمي إلى جنس القص تغذي البعد المتخيل الذي يتضمنه، لأن الشعر من مكوناته الأساسية إبراز الجانب التصويري والتخييلي فيه، وهذا المنحى هو الذي يعطيه مدى الانحراف عن الواقع، ويعطيه الأبعاد الاحتمالية الحافزة، للمتلقي إذا كان الشاعر في القصيدة يتمثل حدثاً معيناً، وقصة بعينها، ربما استقفاها من الواقع، وهذا ما يثبتته تحقيق النص، والبحث في البعد التاريخي له، وقد قام بهذه المهمة الشاققة غير باحث، على رأسهم محمود محمد شاكر في كتابه الموسوم (نمط صعب نمط مخيف)، حيث أثبت في هذا الكتاب أن الشاعر ليس تأبط شرا- الصعلوك - وإنما هو صعلوك آخر وهو(خفاف بن نضلة) وقد ظهر أثناء التحقيق بأنه ابن أخت الشاعر تأبط شرا^(١٢). والذي يعني هنا ما يقدمه الانفتاح على التاريخ لشحن مضمونات النص من الشخوص والأحداث..الخ.

إن شعر الصعاليك، غالباً، يتناول سيرة الواقع مع الذات، وانعكاس البيئة التي يعيش فيها على نفسيته وعلى المجتمع المحيط به والذي يضغط عليه إلى جانب ضغط المكان والزمان بوصفهما سلطة قاهرة ليس من السهل التعامل معها. فالصعلوك عندما يقدم نصاً له فهو يضع أمامنا وجهة نظره عن العالم والوجود والحياة، وحساسيته تجاه الأشياء تكون أكثر فاعلية وتحركاً، فهو إنسان دائم القلق وهو عندما يتكلم على قصته أو قصة الآخرين لا وقت لديه للتأمل كثيراً، ولا وقت لديه لإعادة النظر في قصائده كما فعل أصحاب مدرسة الصنعة، ولهذا نجده أيضاً لا يحتفي بالمقدمات بأنواعها، فيدخل إلى موضوعه مباشرة، وتبدو سروده متوالية تحكي حاله وحال الآخرين، هذا الملمح يجعل من السرد وتقنيات القص في نصوصه أكثر فاعلية وظهوراً.

شعر الصعاليك، كذلك، يشكل كثافة سردية واضحة لاحتوائه على كثير من الأحداث العنيفة والدموية والتي تصلح لإقامة بناء قصصي من نوع ما، ومن هنا تكمن أهمية مثل هذه النصوص حيث يتعالق فيها القص بالشعر تعالفاً لافتاً، وتحقق في الوقت نفسه الإطار السسيوثقافي على حد تعبير الباحث (المصطفى ميفن) لاسيما عندما نتناول نصوصاً من الماضي وتكون هذه النصوص صورة عن عصر بعينه، فهذا هو يذكر: (إن علاقتنا بالماضي كتاريخ تقوم انطلاقاً من

من النظر في مكوناتها بشكل شمولي. هذه الوحدة، وهذه الشمولية غالباً ما تظهر بوجود خيط قرائي مترابط، يصنع ترابطه كيفية التعبير الخاصة، القائمة على السرد القصصي، أو الحكائي على أقل تقدير، فالوحدة الموضوعية، أو الوحدة المعنوية، كما يسميها طه حسين تتحقق في الشعر الجاهلي من خلال اعتماد النفس الطويل في نظم القصائد، لاسيما القصائد التي تسرد قصة وتنطوي على أحداث بعينها، ويرى هذا الناقد كذلك إمكانية تحقق السرد القصصي في كثير من قصائد الغزل، وقصائد الرثاء، وقصائد المديح..الخ.

مثل هذا القول التفت إليه الباحث يحيى الجبوري^(٨) ويذكر أن القص يتمركز حول إمكانية وجود السرد في القصيدة الجاهلية، وهذا الأسلوب الشعري عند القدماء هو المؤسس لها يسمى الوحدة العضوية والموضوعية في الشعر العربي القديم، ولم يكتف الجبوري بهذا القول وإنما ذهب إلى تبين هذه المسألة بأدلة من الشعر العربي القديم، فذكر قصيدة المرقش الأكبر، التي مطلعها:

سرى ليلا خيال من سلمى فأرقني وأصحابي هجود

وقصيدة عروة بن الورد، التي مطلعها:

أقلى علي اللوم يا بنت منذر ونامي وإن لم تشتبي النوم فاسهري

والقصيدة التي يتناولها هذا البحث ومطلعها:

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلادمه ما يطل

أما في العصر الحديث فإننا نرى كثيراً من النقاد حاولوا الإفادة من أثر الدراسات حول السرد في الشعر العربي القديم، وذهبوا إلى إثراء الدرس النقدي الحديث بالتفاتهم إلى الموروث العربي القديم من الشعر خاصة، فهذا كمال أبوديب يسجل خطوات لافتة لإثبات وجود السردية في الشعر العربي القديم، وذلك عندما اهتم بدراسة الوحدات الأساسية المكونة للقصيدة العربية، آخذين بعين الاعتبار مرجعيته البنيوية في طروحاته النقدية، فهو عندما يتناول مسألة الوحدة الموضوعية وعلاقتها بالسرد القصصي، وبناء مكونات السرد، يبين مدى انعكاس الأحداث ومشتملاتها على نفسية الشاعر العربي القديم ويبين فاعليتها في تحريك الأفق الشعري لديه لصياغة نص شعري مؤثر، ومن هنا يجد هذا الفعل - السرد - وقدرته على إنتاج تركيبة شعرية من عناصر ووحدات مؤسسة لبناء القصيدة.

ولم ينس أبو ديب مسألة الربط بين سردية النص وطرائق السرد، وبين الوحدة الموضوعية وحتى العضوية، كما سلف، ومن هنا يأتي مفهومه عن الوحدة في النص بقوله هي: (الحقل الدلالي لذات معينة، مثلاً، الخصائص التي تنسب إلى الأطلال، أو كل شيء يقال عن الناقية)^(٩) ويتابع القول في مكان آخر، عن المسألة نفسها بقوله: (إن الربط بين الشعر الجاهلي من جهة والحكاية والأسطورة من جهة أخرى يؤدي إلى فتح آفاق تصويرية ومنهجية جديدة لدراسة هذا الشعر، ومن أهمها نقل قراءته من مستوى الفعل الواقعي إلى التخيلي، ومن مستوى القراءة التاريخية إلى مستوى القراءة الإشارية الرمزية، ومن مستوى الدلالة التقليدية للتشكل إلى مستوى الدلالة الطقسية للتشكل...)^(١٠)، هذا يعني أن مستويات الفاعلية الشعرية متحركة ومتحولة في آن، وأن هذه الفاعلية تتنامى في الشعر القديم بتنامي فعل السرد.

مثل هذه المقولات، وربما غيرها، تسعى إلى النظر إلى القصيدة العربية بوصفها كلا متكاملًا من جهة، وبوصفها قادرة على اكتناز محاولات دلالية كثيفة من جهة أخرى، وتعني كذلك أن القصيدة

ألف ليلة وليلة مثلاً، في حديث شهرزاد إلى شهریار والخاتمة التي تشكل لازمة للقصص فيها.

صحيح أن العرب القدماء لم يعرفوا تقنيات السرد القصصي بالمفهومات الحديثة، لكن هذا لا يعني عدم استخدام هذه التقنيات عن وعي أو دون وعي، فوجود الحدث المركزي في البداية، يتناسب مع الحالة النفسية التي يعيشها السارد/الراوي هنا والذي يمكن أن يقترب أو يتماهى مع الشاعر في هذه القصيدة، فهو هنا إزاء قتل الشخصية المركزية والتي تتمركز حولها الأحداث، حيث القتل الصلوك — تأبط شرا- والقتل كان قتلاً عنيفاً ومن مجموعهم قبيلة هذيل، وفق رواية الباحث والمحقق محمود محمد شاكر وغيره.

إن مرجعية القتل هنا تشي بأهميته وصفاته التي سنرى بعضاً منها في القصيدة، وهو شخص مهم يشكل ملمحاً رمزياً لفئتين من الناس، الأولى هي شريحة الإنسان العادي ضمن نظام اجتماعي معين، والثانية هي الشريحة التي انطوى تحت لوائها - شريحة الصعاليك. يبدو أن الحالة النفسية التي يعيشها الراوي هنا، هي التي ضغطت عليه لتقديم الحدث في بداية النص، ومن ثم راح يقدم تفصيلاً بأسلوب شعري لسبب هذا القتل وظروفه ومنتجاته، وحسب علم النفس نجد أن الأكثر إلحاحاً على الذاكرة هو الأولي بالتقديم، كما في اللغة عند صياغة الكلام نجد أن تقديم الفعل أو الاسم قد يكون للأهمية لإعطاء دلالة يرمي إليها المتكلم. مثل هذه التقنية في تقديم الخاتمة والحدث المركزي وحتى العقدة — لحظة التأزم — أمثال ألن روب غرييه وساروت وآخرون، وكما أفاد من هذه المسألة بعض كتاب الرواية العرب، كما نجد عند الطيب صالح في روايته الشهيرة (موسم الهجرة إلى الشمال) ورواية جبرا إبراهيم جبري (الغرف الأخرى).

الراوي الشاعر في هذه القصيدة عندما أعطانا الحدث المركزي، جعلنا نتساءل وندهش لفعل القتل، ثم تحول عن طريق التلاعب بالأصوات إلى إنشاء ما يشبه الحوار مع الآخر والذات، لبيان أهمية الحدث — القتل وأهمية الشخصية — القتل، وطبيعي هنا أن تخف أو تضعف شعربة النص لتمرکز الراوي حول سرد حكاية القتل، فهو لا يعدو أن يقدم خبراً بطريقة فجائية وصادمة.

الذي يسعف الشعربة هنا هو الإيقاع الذي تخيره الشاعر لقصيدته، وجاء الالتزام بالوزن على بحر المديد، ونحن نعلم أن الوزن لوحده لا يقدم شعربة كثيفة وفنية عالية، ثم توسل الشاعر بالتلاعب بتركيبة الجملة الشعربة، إضافة لإيقاع، وذلك عن طريق التقديم والتأخير، كما نجد في البيت الأول حيث تأخر اسم إن وجاء مقترباً (باللام) التوكيدية وهذا ما أعطى للمتلقين إيقاعاً لافتاً، كما استخدم أكثر من أداة للتوكيد للتمرکز حول أهمية الحدث. إذا ما حاولنا تتبع التقنيات السردية المستثمرة في هذه القصيدة سنجد، دون وجه عناء، ما يؤسس لفكرة إمكانية وجود القص والسرد القصصي في النصوص العربية القديمة.

(٢) المكان:

يشكل المكان مكوناً أساسياً من مكونات الحكاية والسرد القصصي، ومن قراءة متأنية للنص نجد المكان العام والمكان الخاص، أو ما يسمى بالمكان المركزي الذي يشتمل على كل الأحداث ومصحوباتها والإمكانة الفرعية التي تقدم وظيفة مساندة للمكان

فهنا له عبر الجدال والحوار^(١٣) وهذا الرأي يقترب كثيراً من طروحات نصر حامد أبو زيد الذي يرى أن العمل الأدبي عبارة عن عملية جدلية تقوم على ما يطرحه علينا من أسئلة هي التي تشكل وجوده^(١٤) ونصوص الصعاليك تطرح كثيراً من الأسئلة تبعاً لظروفها وتشكلها وبيئتها.

السرد وعلاقته بالشعر

من أين نبدأ إذا؟ لعل النص بكلية يقدم نفسه من خلال التوضع قرأياً في مكوناته والوقوف على بعض المفصلات والنقاط التي تسهم في تفكيكه، فالنص هو الأساس الذي يوجه كيميائياته التعبيرية طبيعة القراءة، وهذا ما يراه كثير من النقاد، فهذه فدوى المالحطي تقول: (إذا افترضنا أن التحليل يبتدئ من النص نفسه، يمكننا بالتالي أن نتناول مسألة علاقة النص ببيئته ... وبما أن الأعمال الأدبية هي ظواهر معقدة، لذلك يجب فهم العناصر المتفرقة فيها)^(١٥)، والنص المنسوب إلى تأبط شرا له ظروفه وبيئته وزمنه، وله في الوقت نفسه مكوناته وعناصره، التي أشرنا لها سابقاً وهي البيئة المليئة بالرعب والخوف والقلق.

إن الكلام السابق يستدعي الكلام على مكونات النص التي استعارها من الأجناس الأدبية الأخرى، ونتابع نحن هنا، حسب مسيرة البحث البعد السرد القصصي، وهذا يستدعي الكلام على مكونات القص وعناصره الأساسية وأثرها في التداخل مع جنس الشعر، وأثرها كذلك، على الأبعاد الدلالية الموجودة في النص، ومن هذه التقنيات:

(١) الحدث:

يشكل الحدث، في النص الذي ينطوي على أبعاد سردية قصصية، محور الحركة والتفاعلات المتقدمة بين الشخصيات والأشياء والعالم، ويقول الناقد (تزييه) في تعريفه للحدث وأهميته في النص: (الحدث في جوهره منفذ لموقف معين، أو بصورة أكثر دقة، هو المرور من موقف إلى آخر)^(١٦)، بينما نجد في معجم المصطلح السردية بأنه: (سلسلة من الوقائع المتصلة تتسم بالوحدة والدلالة وتتلاحق من خلال بداية ونهاية، نظام نسقي من الأفعال)^(١٧) ولم يعلق صاحب المعجم على ضرورة وجود الحدث في جنس بعينه من الأجناس الأدبية المعروفة، وهذا ما يشي بإمكانية وجود مثل هذه التقنيات في أجناس مختلة، ونحن نعرف أننا نعيش في عصر تداخل الأجناس الأدبية. يبدأ النص بمكون رئيسي وهام من مكونات القص بوصفه جنساً أدبياً مختلفاً، وهو الحدث الذي يضمه السارد في بداية النص/القصيدة من خلال البيت-المطلع:

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلا دمه ما يطل

يفترض في التسلسل المنطقي للسرد القصصي وسرود الحكاية، حتى ذات الوظيفة الخبرية منها، أن يكون الحدث المفصلي والمركزي في نهاية القطعة الأدبية أو في وسطها على أقل تقدير، وهذا يقيم سؤالا عن سبب ذلك. لقد اعتاد القصاصون العرب القدماء في حكاياتهم أن يقدموها بأسلوب درامي مشوق ويرجئون فاعلية الأحداث وحراكها الهام إلى النهايات، وهذا ما يعث على إنتاج عنصر التشويق والتشوف، وكانوا يطمحون بذلك إلى إنتاج عنصر اللذة لدى المتلقين، وأحياناً يأتون بنهايات مفتوحة ومؤجلة، وهذا ما نراه في

الدلالة إلا ترسيمة مكانية مفترضة يمكن تصورها في الخيال ، وهذا التصور يقود إلى فتح الباب على احتمالات معنوية منها على سبيل المثال: المكان الوعر والصعب المسلك والخشن... الخ.

عند التفكير في السياق الأول نجد أن القصد ليس المكان بقدر الدلالة المثارة في التوظيف ، وهذه الدلالة تقود إلى ما يعرف بالكناية في البلاغة العربية ، حيث المكان هنا وبهذه التركيبة الكلامية تشي بالضيق الذي لحق بالقبيلة / الناس الذين قتلوا تأبط شرا ، وتشى كذلك بقوة هذا الرجل رغم أنه فرد واحد مقابل مجموع ، ومع ذلك كان يوقع بهم ويؤثر بهم ويحرجهم ويرغمهم على الانكسار والخضوع ، تماماً ، كما تجبر الناقة على المقام بأرض وعرة مليئة بالحصى والحجارة الجارحة ، التي تثقب وتدمي الجسد.

المكان وفق هذه المفهومات ، وربما غيرها قدم وظيفة إستراتيجية للنص من حيث تقديم معاني أكثر عمقاً ، وفي الوقت نفسه حفزت المتلقين على التفكير في استنباط الدلالة ، فكان المكان الذي جاء عبر الكناية ، هو وليس هو في الآن نفسه ، لما أعطاه من أبعاد في تعميق المعنى والدلالة ، رغم أن الشاعر هنا في معرض تقديم أخبار ، وتقديم حكاية طورها عبر هذه الكيفية التعبيرية إلى قصة شعرية ، دون أن تخسر القصيدة كثيراً من فنيته وشعريتها المفترضة ، وهذا الأمر يحسب للشاعر.

مثل هذا الكلام يمكن أن يقال على السياق الآخر ، الحاضن للكناية الأخرى ، فكان المكان (الخرق) مكاناً معهما ليشير إلى أكثر من مكان لقيت فيه القبيلة التي قتلت الشاعر الضيق والضنك والحر ، حتى دلالة الكلمة (الخرق) تعني المكان الضيق ، وبإضافتها إلى كلمة (صليت) التي تحيل إلى النار والحريق اكتسبت دلالة عميقة في صالح الشاعر كذلك ، من حيث الموقف الذي قدمه تجاه قبيلة مهزومة ، أمام ضربات الشاعر الفارس الذي كان يغزو قبيلة هذيل كثيراً. الصور الشعرية المتضمنة للتشبيهات والاستعارات والكنايات ، هنا ، أنقذت القصيدة ، رغم مسارات القص فيها من الهبوط في الكلام المباشر والإخباري ، وأنقذت النص ، كذلك من الاتجاه إلى جنس أدبي آخر بطريقة مخلة ، فجاء القص الشعرية ، بهذه الكيفية الكلامية مقنعة إلى حد لافت لدى المتلقين.

(٣) الزمن:

لا بد من الإشارة هنا إلى أن الزمن في توظيفاته في النصوص الإبداعية ، والتي تحتوي على قصة أو رواية ، يأتي مصاحباً للدلالة المكانية ، ولا يوجد زمان دون مكان ، أو العكس بالمفهوم الفلسفي ، ومن هنا درج الفلاسفة على تسميته بالفضاء الضام للأشياء. ما يهمنا هنا هو الفضاء الزماني العامر بالحيوية والنشاط ، ولهذا تتبع أهمية المسألة الزمنية من تلازمها توظيفاً مع عنصر المكان والمستوعبة في الأدب إستيعاباً فنياً على حد تعبير باختين^(٢٠).

إن النص موضوعاً ، وهذا ما يتأتى من دراسة شمولية كلية للنص ، يتناول قضايا إنسانية ، أو لها مساس بحراك اجتماعي معين ، في عصر ما ويدل عليه ، والقضايا الإنسانية بهذه الكيفية لها سيروية وجود وحياة ، والزمان والمكان من خلال هذه المواضيع ، يمثلان (العامل الأساسي في تحديد سياق الأثار الأدبية من حيث اشتغالها على معنى معين)^(٢١) . وهما أيضاً يمثلان (الصورة التي ندرك فيها العلاقة بين الأشياء من حيث هي متقابلة ، أو متجاوزة ، أو الصورة التي

المركزي ، والمكان غالباً ما يرتبط بالزمن ويسمى الفضاء الذي يحتضن الأحداث والشخص وما يمكن أن يسند الفاعلية السردية ، حتى أن (المرء عندما يستعمل تعبيراً عن العالم فإنما يستعمل تعبيراً مكانياً)^(١٨) و(وعي المكان أشبه بشاعرية بصرية يستسلم لها المرء عفويا حتى دون تفحص أو نقد ، ربما لأنها تزيد من حدة الملاحظة ، وحدة المتعة الحسية ، بشكل يمكن تعيينه ، قياساً إلى متعة وعي الزمن التي تتخطى الحواس والتعيين المباشر)^(١٩).

المكان العام هنا هو الصحراء العربية في منطقة الجزيرة ، وبالتحديد مضارب وحى قبيلتي فهم وهذيل ، التي قتل فيها تأبط شرا والمناطق المحاذية لها ، التي كانت مسرحاً للتقاتل بين الصعلوك والقبيلة ، ومن الأمكنة الفرعية الثابتة منطقة (الشعب) ومنطقة الجبل (سلع) ، و(الحي) بدليل كلمة (ملحين) ، و(مناخ جعجع) المكان الوهمي المتصور ، و(الخرق) ، وهذه الأماكن استثمرت سردياً ، ويمكن اعتبارها مكوناً من مكونات القص بسبب من احتوائها على أحداث جزئية مصاحبة ، تم فيها تنامي أحداث مساندة للحدث المركزي /القتل.

اللافت هنا أن توظيف الأمكنة في النص الشعري لم يأت بطريقة مباشرة ، وسبب ذلك هو الانحراف السياقي الذي يتطلبه الشعر ، والذي يسهم في انقاذ شعرية الكلام من المباشرة والخطابة ، في ذلك تحفيز لدور القارئ وإشراكه في ترسيم المكان من جهة عبر مخيلته ، وإدراك الأبعاد الدلالية من توظيفه في النص من جهة أخرى. ولنا أن نسأل هنا ما الذي قدمه المكان بهذه الكيفية التوظيفية؟ وما الذي أضافه الشعر له؟.

إذا أخذنا بعين الاعتبار زمنية النص والبنية السسيولوجية الحافة بالنص ، نجد أن الأمكنة الجغرافية المثارة يعرفها أهل العصر ، على أقل تقدير ، ذلك أن الخطاب يفترض أن يكون موجهاً لشريحة من الناس / القارئين ، المعاصرين للنص ابتداءً ، ومن ثم للذين يريدون معرفة ظروف المكان ولهم عناية به ، حتى ولو في عصر آخر ، وهذا الأمر يدلنا على وجود مكان عام حاضن للأحداث في القصة ، ولم يكتف الشاعر بهذه الأمكنة لتقديم الحكاية والقصة والخبر ، لأنه لا يريد فقط البعد الإعلامي للمسألة ، ولهذا ذهب إلى توظيف دلالات الأمكنة أخرى مليئة بمحمولات من المعاني ، وقام بتقديم هذه الأمكنة توسلاً بالصورة والخيال على اعتبار أن ذلك ضرورياً لإقامة عناصر الشعرية في النص الشعري.

فإذا كان سلع والشعب أمكنة معروفة جغرافياً ، أو يمكن الوصول إليها عن طريق البحث والتحري ، فإن أمكنة أخرى لا تقوم إلا في ذاكرة المتلقين ، والشاعر قدم لها إطاراً فكرياً معرفياً معيناً ، كل قارئ يمكن أن يتخيل مكاناً معيناً وفقاً لمرجعياته ، ومثل هذا المكان نجده في الصورة الفنية التي توصل بها الشاعر لتقديم المكان والتي تأتي عبر السياق التالي:

فلئن قلت هذيل شباه لبما كان هذيلاً يقل

وبما أبركها في مناخ جعجع ينقب فيه الأطل

وكذلك الحال في السياق التالي:

صليت مني هذيل بخرق لا يمل الشر حتى يمل

ففي هذين السياقين نجد أن المكان الأول يشير إلى صورة مفترضة ، لا يقصد منها الشاعر مكاناً جغرافياً بعينه ، وإنما تقود

الفعل الماضي، ثم نلاحظ أن هذه الأفعال تسند لها جمل إخبارية لافتة، وهذا يشي بأن الشاعر يعيش بين زمنين: الزمن الماضي — زمن حياة الميراثي وزمن موت الميراثي وما بعد موته، فهو أمام الماضي ومحمولاته وأمام الواقع ومشتملاته ويمكن وما يمكن أن يكون عليه الزمن القادم الإستشراقي الذي يطمح فيه بأخذ الثأر — وقد فعل. كل هذه الأزمنة، وربما غيرها شكلت تقنيات مساعدة رفدت الحكاية والقصص، وفي الوقت نفسه أغنت شعرية النص حتى لا يبتعد كثيراً عن فنيته وإجناسيته الأدبية.

(٤) تعدد الأصوات وفعل الحكاية:

إن الكلام على الأصوات داخل النص الشعري، هنا، له علاقة بحركية الشخص الموظفة في القصيدة وما ينتجونه من أفعال تسهم في رد الحدث المركزي (القتل)، إضافة إلى رد الشخصية المركزية (الراوي/السارد وهو المتماهي مع شخصية الشاعر خفاف بن نضلة)، ثم إن الأصوات وتعددتها يحمل المتلقي على تمثيل الوقائع المثارة في النص، وهي بطرائقها التعبيرية تنمي فعل الدراما والحس التمثيلي في النص، حتى لتبدو بعض السياقات الشعرية أقرب ما تكون إلى شريط تمثيلي مسرحي يقدم عبر الرسم بالكلمات، فمشهد القتل، ونقل صورته وهو يرشح الموت تمثّل هذا الجانب، حيث نجد السياق:

مطرق يرشح موتاً كما أطرّق أفعى يرشح السم صل

وكذلك السياقات:

فاحتسوا أنفاس نوم فلما هوموا رعتهم فاشمعلوا

سقتنيها سواد بن عمرو إن جسي بعد خالي لخلّ

تضحك الضبع لقتلي هذيل وترى الذئب لها يستهلّ

وسباع الطير تهفو بطانا تتخطاهم فما تستقلّ

إن الأصوات المتعددة في النص لها علاقة كذلك بتقنية الحوار، التي يمكن أن تكون مكوناً من مكونات القصص، والمسرح، والتمثيل، لكن الشعر لا يمكن أن يحتمل كثيراً من هذه الأساليب والتقنيات، لاسيما عندما لا يكون طويلاً أو ملحماً، كما نجد في الملاحم الشهيرة لهوميروس وغيره، والتي انطوى كثير منها على قص رغم شعريتها، لأن الإكثار من الحوارات يخفف من شعرية الشعر، ولهذا جاءت الأصوات في هذه القصيدة ليست بالأساليب التقليدية التي تشي بالخبر والإنشاء، فلا نجد في القصيدة العبارات (قال وقتل وحكي .. الخ)، وإنما جاءت، على الأغلب، على طريقة المنولوج الداخلي وضمير الغائب وضمير المتكلم، كما سنمثل على ذلك تالياً.

العرب قديماً كانوا أكثر احتفاءً بالحكي والحكاية، وبرعوا في تحويل الحكي إلى قص وسرود، لاسيما وأن العصر الشفاهي أسهم في هذا الجانب، فوجد القصاصون والرواة، الذين كانوا ينتقلون عبر المناطق، ولعل كتب مثل: (ألف ليلة وليلة والوزير سالم وتغريبة بني هلال وحتى المترجمات ومثالها كليله ودمنة...)، تقف شاهداً على ما نذهب إليه، وإلى جانب ذلك عرفوا حكاية القصيدة بالشعر، كما نجد شيوع الأسلوب الحوار في المعلقات، كحكاية الطلل والصيد وما إلى ذلك.

ندرك فيها الأشياء، من حيث هي متعاقبة أو متأنية^(٢٢)، ولهذا يفترض النظر إلى الأزمنة الموجودة في النص الشعري خاصة الرؤية المتأنية لاستكناه فاعلية الزمن وأثره في النص، لا سيما وأننا في القصيدة الشعرية المتعاقبة مع القص، تقع على أزمنة متعددة ولها فضاءات متحركة.

النص الذي بين أيدينا يتعامل مع الأزمنة تعاملًا حساساً ولافتاً، فالمتلقي لمثل هذه النصوص يعيش في أجواء وفضاءات أزمنة واقعية تقريباً وتخييلية في آن واحد، فهناك زمن داخلي — داخل النص — والذي تدور عليه القصة والحكاية وهو زمن عام فيه أزمنة جزئية، وهناك أزمنة خارجية له مساس بالواقع البعيد — زمن الحكاية والقصة — ومتعلقاتها من المعاني والدلالة. ولنا أن نتذكر هنا الزمن بالمفهوم الرياضي والواقعي، وبالمقابل الزمن الوهمي الفلسفي، الذي لا يدرك إلا بعد اشتغاله في الذاكرة.

زمن الأحداث هنا هو الخارجي والضمّام للأحداث الجزئية والمختزلة عبر سياق القصيدة، هو زمن عمر الشاعر بعد بلوغه سن الفروسية، وإذا أردنا تضيق الزمن، يمكن أن نشير هنا إلى زمن عمر الشاعر في مرحلة الصعلكة، وعلينا أن نعي بالمقابل كذلك عمر ابن أخت الشاعر وهو شاعر أيضاً ومنشئ لهذا النص، مع الأخذ بعين الاعتبار أنه صعلوك كذلك.

البحث في القصيدة، على قصرها، يشير إلى أزمنة منها:

أ- زمن افتراضي تخيلي: مثل (الدهر) في السياق: (بزني الدهر وكان غشوماً)، والدهر هنا يشير إلى استغراق لزمن طويل، كناية عن العبء الذي تركه الوقت الطويل عليه، وفي السياق يمكن استنتاج أن الشاعر هنا في لحظة من العنفوان لا يريد أن يشير إلى أي نوع من العجز أمام فعل القتل، ولهذا يجعل السبب في الزمن الذي سلبه خاله، ثم إن هذا المفهوم قادم من عجز الإنسان تجاه سلطة المكان والزمان، والإنسان يبقى عاجزاً عن الوقوف بوجه الزمن والمكان والموت. مثل هذا الزمن الوهمي نجده كذلك في السياق (شامس في القر) أي وقت البرد، وفي السياق (إذا ما ذكت الشعري) وهو وقت الحر الشديد وفي السياق (حيث يجدي) والسياس (مناخ جعجع)، والسياس (صليت بخرق).

ب- الزمن القريب من الواقعي: مثل الزمن في السياق (وقفو هجروا ثم أسروا ليلهم) وهو وقت يشير إلى فترة محددة يمكن الوقوف عليها وتمثلها في الواقع، والسياس (وبها صباحها — وقت الهجوم — في ذراها) ووقت الصباح ممكن تمثله بوقت محدد كذلك، ومثل هذه الأزمنة تجعل المتلقي أكثر تمركزاً على تخيل الأحداث وإحالتها إلى واقع.

لا نريد هنا الإسهاب في هذه المسألة — الزمن من وجهات نظر أخرى لها علاقة بجنس القصة والرواية أكثر مما لها علاقة بجنس الشعر، وأعني بذلك مثلاً: زمن القراءة والزمن المستقطع وزمن الاسترجاع وزمن تيار الوعي وما إلى ذلك، لعدم تحمل مثل هذه النصوص أكثر مما نذهب إليه.

هناك قضية أخرى لها علاقة لافتة في أثر الزمن في إقامة المعنى، وهي قضية التوظيف اللغوي، حيث نجد دون وجه عناء أن هناك تسلطاً واضحاً للفعل المضارع عندما يأتي الحدث على لسان الشاعر خفاف ابن نضلة، أو على لسان الشخصية المتخيلة، تأبط شرا- القتل- ومثال ذلك (يُطلّ، تحلّ، يتفشّ، يرشح... الخ) ويأتي بعده

المعنوية نجد (الأبى ، ندي الكفين ، غيث ، وليث ، يركب الهول ...الخ.

ب- تقنية السارد بضمير المتكلم:

يلفت الإنتباه هنا صوتان بضمير المتكلم هو: صوت القتل وصوت السارد المتماهي مع الشاعر، الذي يحيل إلى نص السيرة الذاتية، ويقدم الشاعر لمعة فنية تبدو منطقية وممكنة في الشعر وذلك باستثمار الفانتازيا - الخيال-، فهو عندما يجعل الميث ينطق، فإنما يقدم صوتا مسترجعا من الماضي المتخيل، وتقنية الاسترجاع تقنية سردية معروفة في الرواية والقصة، ووظيفتها تقطيع الزمن الحاضر وتجاوزها إلى الماضي أو المستقبل، وهذا واضح في السياقات التالية، عندما يرد على لسان الميث (ووراء الثأر مني ابن أخت) (وصليت مني هذيل بخرق).

أما صوت السارد المتماهي مع السيرة الذاتية فنجد حضوره بشكل لافت، لأن هذا الصوت ملازم للشخصية المركزية التي تدور الأحداث حولها، وتتناهى حركية القص بعناصرها لخدمتها، وتمثيلا على ذلك نجد السياقات التالية، التي تظهر أن الراوي/السارد هو ضمير المتكلم:

قذف العبء علي وولّى أنا بالعبء له مستقل
بزني الدهر وكان غشوما بأي جاره ما يُذَلّ
سقيتها يا سواد بن عمرو إن جسمي بعد خالي لخلّ

ج - السارد بضمير الغائب:

يستخدم الشاعر هذا الضمير عندما يريد الإسهاب في القص، وعندما يريد تأجيج الأحداث، وبهذه التقنية يعطي مدى واضحا للسارد، يحفز المتلقي على المتابعة والمشاركة في فهم الأحداث، وحتى تمثيلها، ويقترن هذا الأسلوب بتغييب صورة الذات، مع أنه يكون على صورة العليم والعارف ببواطن الشخص وسلوكياتها، وهو نمط أسلوبى مستخدم في القصة والرواية، إن ذروة الأحداث التي تتأزم لتصل إلى درجة العقدة والحبكة، يظهر عبر هذه اللوحة الشعرية المتضمنة للقص والخبر في آن واحد:

وفتو هَجَرُوا ، ثم أسروا ليهم حتى إذا انجاب حلوا
كل ماضٍ قد تردى بماضٍ كسنا البرق ، إذا ما يُسَلّ
فادركنا الثأر منهم ولما ينجو ملحين إلا الأقلّ
فاحتسوا أنفاس نوم فلما هوموا رعتهم فاشمعلوا

ففي هذه الأبيات يتضح كيف أن السارد ينقل لنا بالكلمات، حركية الأحداث عند الغزو للأخذ بثأر القتل، فيقدم لنا، بوصفنا متلقين، صورة المجموعة عبرة كلمات مختارة بعناية وهي (الفتو) دلالة على أن المجموعة من الشباب والفرسان الأقوياء، إضافة إلى أن هؤلاء قد شاركوا غير مرة في الغزو على القبيلة التي قتلت الرجل، وهو هنا تأبط شرا، وهذا المعنى نصل إليه بدلالة اللغة، حيث واو ربّ تقيد التكتير للجماعة والتكتير لحدث الهجوم على القبيلة، ويسند هذا الرأي صيغة المبالغة التي نجدها في كلمة (هَجَرُوا).

إن الذي يسعف ما نذهب إليه من دلالة، بنية الصورة المقدمة، تنطوي على استعارات فنية ناجحة للدلالة على قوة الرجال - الفتو- مثل الصورة التي نجدها في السياق الشعري (كل ماضٍ قد تردى

العرب كذلك برعوا بأساليب الحوار وفنون القول، وهذا ما استدعى تداعي فنون القول وأساليب الحوار، ولن أبالغ إن قلت إن العرب أمة حوارية بامتياز، ويشاطرنا القول غير ناقد، فهذا صلاح صالح يرى أن (العرب قديما، وفي جميع مراحل تاريخهم الثقافي، عرفوا الجنس الحكائي وكتبهم القديمة، كتب الأدب العام - ومنها الشعر- والتاريخ والأخبار، ملأى بمواد حكاية لافتة مفعمة بالدلالة^(٢٣)، ويرى الموسوي أن (فن السرد القصصي انتعش في الشرق بحكم بعض الظروف المناخية والاجتماعية التي جعلت ملوك وأمراء الشرق يبحثون عن هذا النوع من التسلية يمنحونه تقديرا كبيرا^(٢٤)، وطبيعي أن يكون الحوار والسجل أساس تلك الفنون والجلسات.

النص/ القصيدة التي بين أيدينا رغم شعريتها اللافتة، لما تنطوي عليه من صور فنية وأخيلة، نجد فيها حوارات وسرود وحكايا لا تخل بنظامها وشعريتها، وإنما وظفت لإسناد مضموناتها، فأعطتها قوة بدل ضعف، ومن الأصوات الحوارية التي تسند القص في هذه القصيدة نجد:

أ- تقنية شاهد العيان

يشيع انكاء الشاعر في قصيدته على معطى المشهد واللغة الأقرب للتمثيل السينمائي، وهنا يعتمد السارد/الراوي (على العين الباصرة، إضافة إلى الذاكرة لتسجيل الوقائع والأحداث وحركات الشخص وسلوكياتهم، وبالتالي يجعل المتلقي أكثر إحساسا بالأشياء^(٢٥)، فمجد البيت الأول يقدم السارد الحدث وكأنه كاميرا تلتقط المشهد وتسجله، وذلك بعدم إسناد الخطاب والكلام إلى متحدث بعينه، حيث الخبر عن حدث القتل يتم تصويره بالكلام، ويبدو الصوت المتكلم حياديا وخارج النص.

هذا المنحى يعطي بعدا تظمينيا للمتلقي، ليكون على درجة من الصدقية والثقة بالخبر، وقد استخدم السارد إضافة لتصوير المشهد البعد اللغوي، عن طريق توظيف أدوات التوكيد، وذلك لإضفاء البقين على ما يحدث، وتقديم الصورة بالكلمة يجسد صدقية هذا التوكيد، كما نجد في الجمل (إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلا) و(مطرق يرشح موتا) و(مسبل في الحي، أحوى) و(يُنهل الصعدة، حتى إذا ما نهلت كان لها منه عل)... إلخ.

لا يكتفي شاهد العيان بذلك، بل يحاول تعميق الصورة باستثمار عناصر الصورة البلاغية، وهنا يدمج أسلوب الصورة الواقعية المشاهدة بالصورة الخيالية التي يرسمها، عن طريق استثمار المخيلة ليقوي من شعريّة النص، وبهذا ينهض بفنية النص الشعري، ومن هذا نجد التركيز على أوصاف القتل، ويحاول نقلها بالكلمات عبر أسلوب حوارى قائم على الوصف الخيالي وعن طريق استرجاع الماضي الذي كان عليه القتل، ولهذا نجد جملا تتضمن وصفا للقتل، وصفا جسديا، قائم على استحضار الشكل ووصفا معنويا قائم على استحضار عادات وقيم المجتمع.

من الصور الجسدية أو الشكلية التي تصب في هذا الاتجاه، صورة القتل الذي يرشح موتا، وصورة الرجل النحيف الضعيف، ولكن من غير بؤس، المتمثلة في السياق (يابس الجنين من غير بؤس) وصورة العداء التي يتصف بها الصعاليك، كما في السياق (وإذا يعدو فسمّع أزل) وصورة الرجل الرفل المنعم في حيه للإشارة إلى مركزته في قومه في السياق (مسبل في الحي، أحوى، رفل)، ومن الصور

الصعاليك عرفوا بعدم الاستقرار النفسي ، وبعدم الاستقرار الزمني والمكاني ، وهذا جعلهم على قلق دائم ومستمر ، في نظرتهم للكون والحياة والعالم ، ولوقابلنا ذلك بأشعار الحويلات والمعلقات ، وما إلى ذلك لتبين صحة ما نرمي إليه من معنى .

إن الإنسان القلق وغير المستقر عندما يقدم سروده وتلفظاته وحكاياته ، يحاول تقديم الأمر مباشرة ، حيث المقدمات تنطوي على إسهاب ما ، قد يؤجل تقديم محور الموضوع المنوي إثارته في النص ، ولهذا حاول الشاعر في هذه القصيدة تقديم الخبر الأكثر إلحاحا على ذاكرته ، فهو غير معني بتقديم تفاصيل قد تبعد المتلقين عن التمرکز على المسألة المركزية ، من هذه الناحية وجدنا أن حدث موت الرجل هو الذي قفز إلى ذاكرته وبدأ يقص علينا حكاية هذا الرجل ، بأقصى ما يمكن من مسافة زمانية ومكانية في آن ، ومن هنا جاء قصر الشريط الحكائي والقصصي .

إن قصر القصيدة إذاً كان في صالح فنيات القصيدة ، مع الأخذ بعين الاعتبار هنا أن التكتيف والاختزال اللغوي الكثيف جاء ليعزز شعرية القصيدة ، فأعطاه قوة إضافية لافتة ، وأسند إضافة للكثافة اللغوية الكثافة المعنوية ، ومثل هذه النصوص تحمل المتلقين على تمثيل الوقائع والتفكير بأبعادها المعنوية المحتملة .

وبعد فإننا ما زلنا نأمل في دراسة الأبعاد السردية ، المنطوية على القص والحكاية ، في تراثنا العربي القديم ، وخاصة الشعر ، بوصفه ديوان العرب الذي يختزل تاريخ أمتنا وتراثهم وعاداتهم وتقاليدهم ، يثري الدرس النقدي العربي ، ويضيف إلى المكتبة العربية طروحات ، باتت الساحة النقدية العربية بحاجة إليها ، مع توكيدنا على مسألة اقتران التنظير النقدي بالتطبيق العملي على النصوص ، وهذا ما حفزنا إلى هذه الدراسة آمليين أن تكون خطوة على الطريق لدراسات أخرى تصب في الاتجاه ذاته ، لا سيما أننا نؤمن بإعادة قراءة تراثنا العربي العظيم ، بآليات تفكير جديدة ، تتناسب ومعطيات العصر الذي نعيش فيه .

الهوامش

* قصيدة خفاف بن نضلة ، المنسوبة لتأبط شرا ، وقام بتحقيق هذه القصيدة المحقق محمود محمد شاكر ضمن كتابه الموسوم (نمط صعب نمط مخيف) طبعة دار المديني المنشور عام ١٩٩٦ .

١- المرزوقي (سمير) وجميل شاكر ، مدخل إلى نظرية القصة ، تونس ، الدار التونسية ، د.ص ٢٩ .

٢- السويدي (محمد) النقد البنيوي والنص الروائي ، نماذج تحليلية من النقد العربي ، دار أفريقيا الشرق ، ١٩٩٩ ص ١١١ .

٣- جينيت (جبرار) عودة إلى خطاب الحكاية ، ترجمة محمد المعتصم ، المركز الثقافي ، بيروت ، ٢٠٠٠ ، ص ١٣ .

٤- مرتاض (عبد الملك) في نظرية الرواية ، مجلة عالم المعرفة ، الكويت ، وزارة الثقافة والإرشاد ، ١٩٩٨ ، ص ٢٥٦ .

٥- نقلاً عن: بوخالفة (فتحي) مسئلة بحث مشاركة في جامعة جرش/الأردن بعنوان "شعرية السرد في رواية الشارع والعاصفة لحنا مينة" /أعمال المؤتمر النقدي العاشر ٢٠٠٧ ص ١٠ .

٦- ريكور (بول) الوجودية والزمان والسرد ، فلسفة بول ريكور ، ترجمة سعيد الغانمي ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ، ١٩٩٩ ، ص ٣٢/١٣ .

٧- المصدر السابق ، ص ٣٢ .

٨- الجبوري (يحيى) الشعر الجاهلي ، خصائصه وفنونه ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٠ ، ص ٢٦٥ .

بهاضي كسنا البرق إذا ما يسل) حيث يشبه كل رجل بالسيف الماضي- الحاد- وهو في الوقت نفسه يلبس سيفاً ماضياً ، وإذا ما انتدب للقتال ، واختير له سجنده قاطعا باترا وهذا ما يتبين من التشبيه (كسنا البرق إذا ما يسل) .

مما تقدم يمكن القول أن هذه القصيدة ، على قصرها لكنها تصلح مثلاً على احتفاء العرب بالسرد الذي تكون من خلال تحول الحكاية إلى قصة ، وحسبها مرّ معنا وجدنا أن تداخل السرد القصصي في الشعر ، إن أحسن الشاعر التعامل معه يعطي وظيفة أخرى للنص الشعري ويحمّله بدلالات ما كانت لتكون لولا هذا التوظيف ، وقد لاحظنا أن شعرية القصيدة لم تتأثر سلباً بهذا التوظيف لمكونات جنس أدبي آخر ، والسبب هو احتفاظ الشاعر بقدرته على استثمار كثير من الصور الفنية والأخيلة والتكثيف للغة ، وذلك باعتماد الجمل المكثفة القصيرة وهذا ما يحسب للشاعر هنا .

ولعل الإيقاع كان عنصراً جاذباً ولافتاً في هذا النص ، من حيث المحافظة على لذة التلقي عبر الإيقاع الوزني الخليلي ، والإيقاع الداخلي الذي يظهر عبر بعض أصوات الحروف ، كما نجد استخدام حرف اللام المشدد في القافية ، والذي أعطى عند الوقوف عليه مع حركة الضم قوة لافتة في النطق ، وحتى في التلقي عند السماع .

يمكن أن يضاف إلى ذلك ثقل وزن بحر المديد ، بهذه الكيفية التي تنتهي القصيدة له ، علماً بأن هذا البحر قليل الاستعمال حسبها يذكر النقاد العرب القدماء والمحدثون ، ولعل الصعوبة ناجمة عن كثرة زحافاته ، وتداخل الأسباب والأوتاد فيه ، لكن هذا لا يقلل من شأنه ، بل على العكس يجعل القلة من الشعراء المجريين ينظمون أشعارهم عليه .

وقد لفتت هذه المسألة في هذه القصيدة نظر المحقق محمود محمد شاكر عند قوله (إن فعل الخليل في إدخاله هذا البحر المختلة مواقع أوتاد أجزائه ، مكان البحر المستتبّة مواقع أوتاد أجزائه ، كان هو الحائل بين الناس وبين معرفة موقع الود في العروض ومنعهم أن يدركوا ما لموقع الود من المنزلة في عروضه)^(٢٧) . ويرى هذا الباحث كذلك أن (نغم هذا المديد المرفل.. يوجب على المترنم ، وهو الشاعر ، إذا لابسّه وهو في حال مطيقة لاحتمال سطوته ، بين القلق والحيرة ، والبسط والقبض ، وهي تتابع عليه دراكا لا تقتّر . وليس كل مترنم يطبق ذلك ، أو يصير عليه إذا طال ، وليس كل مترنم بقادر على أن يقبل سطوة تكفه إذا أراد أن يسترسل)^(٢٨) . هذا يعني أن هذا البحر يحتاج إلى دراية تتوافق وقوة إيقاعه .

يلفت الانتباه كذلك أن الأبيات قد جاءت على شكل مخصوص ، يصعب على المتلقي والقارئ الفصل بين صدر الأبيات وعجزها ، فيبدو البيت عند قراءته وكأنه كلا متكامل لا ضرب فيه ولا عروض إلا عند التعمق في التأمل والتفكير . وقد يدل ذلك على استمرارية الحكى والسرد المتواصل تبعا لتوالي الحالة النفسية عند الشاعر .

القصيدة بهذه الطرائق السردية أيضا ظهرت بشكل لا يحتوي على مقدمة طلبية ، أو مقدمة خبرية ، أو مقدمة غزلية... الخ ، وقد يقال أن كثيرا من أشعار العرب ربما نجد فيها خلوا للمقدمات ، والشعراء الصعاليك من هؤلاء الذين لم يحتفوا بالمقدمات في مطالع قصائدهم ، ولم تتضمن القصيدة البيت المصّر على عادة أصحاب المطولات والمعلقات ، وإننا نبين وجهة نظرنا في هذه المسألة ، أن الشعراء

قصيدة خفاف بن نضلة

المنسوبة إلى تأبط شرا

١
إن بالشَّعبِ الذي دون سلعٍ لقتيلاً دمه ما يُطَلَّ
قذف العباء عليّ وولّي أنا بالعبء له مستقلّ
ووراء الثَّار مني ابن أخت مصعّ عقدته ما تُحلّ

٢
خبّر ما نابنا مصمّل جَلّ حتى دقّ فيه الأجلّ
بِزني الدهر وكان غشوما بأبي جازه ما يذلّ
شامسٌ في القر حتى إذا ما ذكت الشَّعريّ، فبرّد وظلّ
يابس الجنين من غير بؤسٍ وندي الكفين شهْمُ مُدلّ
ظاعنٌ بالحزم حتى إذا ما حلّ، حلّ الحزم حيث يحلّ
غيثٌ مزن غامرٌ حيث يجدي وإذا يسطو فليث أبلّ
مسبل في الحي أحوى رفل وإذا يعدو فسمّع أزلّ
وله طعمان: أريّ وشريّ وكلا الطعمين قد ذاق كلّ
يركب الهول وحيدا ولا يصحبه إلا اليماني الأفلّ

٣
وفتو هجّروا ثم أسروا ليلهم حتى إذا انجاب حلّوا
كل ماضي قد تردى بماضي كسنا البرق إذا ما يُسل
فادركنا الثَّار منهم ولها ينجو ملحيين إلا الأقلّ
فاحتسوا أنفاس نوم فلما هوموا رعتهم فاشمعلوا

٤
فلئن فلت هذيلٌ شباه لبما كان هذيلاً يفلّ
وبما أبركها في مناخ جعجع ينقب فيه الأطلّ
وبما صبحها في ذراها منه بعد القتل نهب وشلّ

٥
صليثٌ مني هذيلٌ بخرق لا يملّ الشرّ حتى يملوا
يُنهل الصعدة حتى إذا ما نهلت كان لها منه علّ

٦
حلّت الخمر وكانت حراماً وبلائي ما ألّمت تجلّ
سقّيتها يا سواد بن عمرو إن جسمي بعد خالي لخلّ

٧
تضحك السبع لقتلي هذيل وتري الذئب لها يستهلّ
وسباع الطير تهفو بطاناً تتخطاهم فما تستقلّ

- ٩- أبو ديب (كمال) مقدمات لدراسة البنية والتحليل البنيوي، مجلة المهدي للثقافة والفنون، ع ٢، ١٩٨٤، ص ١٩٦.
- ١٠- المصدر السابق، ص ١٩٨.
- ١١- النويهي (محمد) الشعر الجاهلي، ج ٢، القاهرة، الدار القومية لطباعة والنشر، دت، ص ٤٤٤.
- ١٢- شاكر (محمود محمد)، نمط صعب نمط مخيف، القاهرة، مطبعة المدني، ١٩٨٩.
- ١٣- موفن (المصطفى) بنية المتخيل في نص ألف ليلة وليلة، اللاذقية، دار الحوار، ٢٠٠٠، ص ٣٩.
- ١٤- أبو زيد (نصر حامد) إشكالية القراءة والتأويل، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٤، ص ٢٥.
- ١٥- مالطي (فدوى) بناء النص التراثي دراسة في الأدب والتراجم، القاهرة الهيئة المصرية العامة، ١٩٦٥، ص ١٧.
- ١٦- نقلا عن: بورونوف (رولان) وروبال أوالبه، عالم الرواية، ترجمها نهاد تكرلي ومحسن الموسوي، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٩٩، ص ١٤٤.
- ١٧- برنس (جيرالد)، معجم المصطلح السرد، ترجمة عابد خزندار، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٧، ص ١٩.
- ١٨- ويلك (رينيه) واوست وارن، نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات ١٩٨٢، ص ٨١.
- ١٩- جيرال (إبراهيم جيرال) آثار المكان، مجلة الجيل، بيروت، مجلد ١١، ع ٢٨، ١٩٩٠، ص ٤.
- ٢٠- باختين (ميخائيل) اشكال المكان في الرواية، ترجمة يوس حلاف، دمشق، وزارة الثقافة ١٩٩٠، ص ٥.
- ٢١- كنعان (شلوميت يهون) التخيّل القصصي للشعرية المعاصرة، الدار البيضاء ١٩٩٥، ص ٧٣ وما بعدها.
- ٢٢- فضل (صلاح) نظرية البنائية، بغداد، دار الشؤون الثقافية ١٩٨٧.
- ٢٣- صالح (صلاح) سرد الآخر، الأنا والآخر عبر اللغة السردية، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي ٢٠٠٣، ص ٢٢.
- ٢٤- الموسوي (محسن جاسم) ألف ليلة وليلة في نظرية الأدب الأنكليزي، بيروت، مركز الإنماء القومي ط ٢، ١٩٨٦، ص ٢٩.
- ٢٥- مرأشدة (عبد الرحيم) الفضاء الروائي، عمان، منشورات وزارة الثقافة الأردنية، ٢٠٠٢، ص ٢٥٩.
- ٢٦- شاكر (محمود محمد)، نمط صعب نمط مخيف، ص ١٠٨.
- ٢٧- المصدر السابق ص ١١٣.



من مؤلفات الدكتور عبد الرحيم مرأشدة:

- لسع السنابل صدر عن مكتبة كتاني / إربد عام (١٩٨٦).
- كتاب الأشياء والصمت / مجموعة شعرية، صدر عن أمانة عمان عام (٢٠٠٢).
- (الرحلة الثانية) رواية صدرت عن مكتبة كتاني / ودار الروزنا عام (١٩٩٩).
- أدونيس والتراث النقدي صدر عام (١٩٩٥) و بدعم من وزارة الثقافة الأردنية.
- الفضاء الروائي / الرواية في الأردن أنموذجا ٢٠٠٢، منشورات وزارة الثقافة الأردنية وصدر ضمن سلسلة كتاب الشهر.

هاري في الألف الثالث قبل الميلاد

إنشاء مدينة هاري 2900 قبل الميلاد

دورية إلكترونية. محكمة. ربع سنوية

كيلومتراً وأمكن التعرف عليها لأول مرة باسم نهر داورين ، وأن أسباب تشييد منشأة كهذه واضح في عصر كثيف النشاط ، فهي تختصر خط الرحلة من 160 إلى 120 كيلومتراً . وتتيح إمكانية بقاء ما يكفي من المياه في القناة في فترات انخفاض المنسوب بمعنى أنها قناة ملاحية . وإلى الآن لم تعرف هذه الترتيبات إلا في المنطقة الواقعة بين الخابور وبلدة البوكمال ولكن يبدو أن آثار تشييدات لأبأس بأبعادها ، قد تمّ اقتفاؤها باتجاه معاكس لتيار النهرين المجتمعين من قبل ب. ج. ي. مونسباير ، وإذا ما ثبتت صحة هذه الملاحظات فلن يقتصر تكييف الوادي على القطاع من نقطة التقاء الخابور بالفرات وحتى ماري ، بل يمكن تصوره على نطاق واسع نوعاً ما ^(٣) .

وفي مجال تأمين مياه الشرب للمدينة عمدت إدارة ماري إلى إنشاء قنوات تتصل بنهر الفرات ، وقد دلت الكشوفات على وجود قنوات تخرج من وادي الصواب / حيث تجتمع مياه الأمطار / بحيث أقيمت سدود لحفظ المياه التي سوف تنتقل إلى ماري عبر هذه القنوات . أيضاً ثمة تطور آخر تبدى في تقنيات وسائل الري ومعالجة المياه ، وصلت إلى حدّ تمكنت إدارة ماري من خلاله أن تتحكم بالمساحات الطمئية التي كانت تشكّل تجويف ماري . ويشير الباحث أوليفيه روو إلى أن تمّ تصوّر وجود مستوطنة كتلك التي في ماري البعيدة عن النهر ولكنها تتصل به بواسطة نظام قنوات مُعقد ما أدى إلى تحكّم صناعي وفعال بين النهر والمدينة ^(٤) .

وبنتيجة هذه الذهنية المتطورة في إنشاء المدن في ذلك الوقت المبكر ، فإن هذا أدى إلى ازدهار هام لمنطقة الفرات الأوسط ، بحيث أكدت الاكتشافات والأبحاث على أن وادي الفرات شهد في هذه الفترة تكثفاً للسكن ولا سيما في الجزء الجنوبي منه حول مدينة ماري . واستطاع الباحثان جيير ومونسباير من تحقيق وجود ما لا يقل عن عشرين موقعاً يبدو أنها كانت تدور في فلك مدينة ماري .

وتوصل الباحثان إلى تأكيد " أن صورة الفرات في الألف الثالث والثاني قبل الميلاد ، أشبه بصورة عالم مكتنز بالخيرات ، وضع فيه علم الماء القديم كل إمكاناته لاستغلال جميع المساحات الزراعية المتوفرة أحسن استغلال " ^(٥) . ولعل أنظمة الإنشاء المائي هذه سواء كانت لأغراض ملاحية أو خدمية أو وقائية تُعبر تعبيراً قوياً عما استطاعت إدارة ماري في مطلع الألف الثالث القيام به لجهة التصالح مع نهر الفرات بحيث أدى إلى وضع مكنات البيئة الطبيعية في خدمة المدينة والمجتمع . وبذا فإن علاقة ماري بالفرات كانت تشكّل علة وجودها ^(٦) .

وبذلك فقد أمكن للجناح الرافدي أن يطل على عالم المتوسط وبلاده ، في مقابل إطلال الجناح الشامي على العالم ما بعد الرافدي ولا سيما الإيراني والهندي وشرق آسيا وعبر مواقع الخليج العربي أيضاً بما يعني أن الجانب الاقتصادي . التجاري كان حاضراً بقوة في هذا الشأن . وعلى هذا ، يمكننا أن نحدد انعكاس تأثير إنشاء ماري وفق الحياة الاقتصادية . التجارية في ذلك الحين ، فنجد:

أولاً: كان الجناح الرافدي وتبعاً لإشراطات وإمكانات البيئة الطبيعية ، يفتقد للأخشاب والحجارة ومواد أخرى ، وهذا ما أمكن تأمينه عبر موقع ماري الذي بدوره شكّل صلة وصل تجارية بين الداخل الشامي والرافدين . بالإضافة إلى قيام ماري بتأمين الجناح الشامي من حاجيات يفقدها وتأتيه من الرافدين وما بعده .

ثانياً: إن منطقة الخابور الخصبة وسهولها الزراعية الوفيرة تؤمن إمكانات حياة زراعية نشطة ومنتجة . وهذا ما سبّب اهتمام إدارة ماري وسلطتها بهذه المنطقة طيلة فترة فاعليتها في الألف الثالث والثاني قبل الميلاد .

والجدير ذكره هنا ، هو أن المخطط الأصلي لماري على شكل دائرة كاملة تخترقها قناة متفرعة عن نهر الفرات حيث تؤمن جرّ المياه إلى المدينة وتسهّل وصول السفن إلى المرفأ . ويلحظ المدقق على أن بناء سور المدينة تمّ أولاً ثم شيدت الأبنية داخله ، وكان التوسع العمراني يتجه من المركز إلى السور ، ومع ملاحظة أن السور يحيط بكافة جهات المدينة عدا الجهة المطلّة على نهر الفرات . ويزيد قطر المدينة على 1.9 كيلومتر .

أما لجهة المنشآت المائية التي أنشئت بالتوازي مع إنشاء المدينة ، فهي تدل على تطور مذهل في التقنيات ومحاولات جديرة بالاهتمام في سياق التعامل مع البيئة الطبيعية وجعلها تخدم المجتمع لأن تسبب هلاك المدينة والمجتمع .

وهذا ما تبدى جلياً في المنشآت المائية من أقنية وسدود من غايتها الحد من خطر الفيضانات ، إلى تأمين مياه الشفة للمدينة وصولاً إلى تأمين حركة ملاحية تأخذ بعين الاعتبار اختصار الطرق البرية عبر الملاحية المائية . يقول مارجرون في هذا المجال: " عمّرت ماري وفق مخطط وتنظيم هادفين ، حيث يشهد على ذلك منشآتها المائية وآثار السور الذي يحيط بها . وإن منظر المدينة في الألف الثالث قبل الميلاد يدل على تفكير منطقي متجانس ، يمثل قوة الحضارة وتفتحها التي ظهرت في الألف الرابع قبل الميلاد ، وتوجت في بداية الألف الثالث عبر إنشاء هذه المدينة " ^(٧) .

وقد بينت الأبحاث التي جرت على تجويف ماري ومنطقة التقاء نهر الخابور بالفرات ، على وجود شبكة من الأقنية . فثمة قناة مهمتها إيصال مياه الري إلى مصطبة واقعة على ضفة الفرات اليمنى بشكل يتأمن معه إنتاج الحبوب اللازمة لاستهلاك المملكة .

وثمة اعتقاد أن هذه القناة جرى ربطها بسدّ أقيم على وادي الصواب لتأمين المياه في نهاية فصل الشتاء . كما أبانت التقنيات عن وجود قناة أخرى تربط نهر الخابور بالفرات عند مستوى البوكمال ويتعدى طولها 120 كيلومتراً وكان وظيفة هذه القناة تأمين الملاحة وبالتالي تفعيل التبادل التجاري بين مناطق الشمال والشرق والغرب عبر ماري .

" كانت هذه القناة الضخمة التي تدمج الخابور بالفرات تحت ماري قائمة على الضفة اليسرى ولها مقياس ثابت هو 11متراً وبطول 120



الواقع الديمغرافي لهاري

في الألف الثالث قبل الميلاد

قبل أن نناقش معطيات الواقع الديمغرافي في هاري في الألف الثالث قبل الميلاد، لابد لنا من أن نشير إلى خصيصة أساسية من خصائص الحضارة السورية عبر التاريخ، عنيت بذلك خاصية الحيوية التي تجلّت في منحنيين:

أولهما: هو الحيوية المتبادلة في البيئة الطبيعية والوسط الطبيعي المحيط والتي أفرزت حالة من التنوع البيئي الطبيعي الذي انعكس حكماً على أحوال البيئة الاجتماعية من خلال التفاعل النشط بينهما سلباً أو إيجاباً.

وبناء على هذا فنحن نستطيع تحديد معالم الوسط الاجتماعي البدوي أو الرعوي والوسط الزراعي والمديني، وهذا الواقع فرض إشرافاته على حركة تاريخ الاجتماع البشري المشرق سواءً لجهة التفاعل أو التضاد، لكنه في المحصلة العامة كان يصب في قناة التطور العام الذي تبدى في جملة المنجزات الحضارية الإنسانية للمشرق العربي. وهذا ما نستطيع تتبع إيقاعه من خلال قراءة الرقم المسمارية لجهة الوقائع الحياتية أو لجهة الأساطير والمناظرات التي عبّرت عن أوجه هذا التفاعل في منحنييه السلبي والإيجابي كما في ملحمة جلجامش أو المناظرة بين الراعي والمزارع وهكذا.

ثانيهما: وفق ما سبق لم يعد النظر إلى حركة الاجتماع البشري المشرق على أنها حالة تفاعل فيزيائي بين كتل لا رابط بينها، بل أصبحنا أمام حالة تفاعل بنيوي امتزاجي أكدته معطيات الآثار والوثائق الكتابية.

فكما استند المنجز الحضاري السومري على ما سبقه من منجز حضاري عبيدي، فإننا الآن أمام حالة امتزاج سومري - أكادي - عموري على مدى النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد. وهكذا تلمحز حركة الاجتماع المشرق عن سلسلة حضارية - تاريخية متواصلة امتلكت أدوات التفاعل المادي - الروحي فيما بينها، واستطاعت أن تؤسس من خلال تفاعلها مع البيئة الطبيعية والوسط المحيط لحياة جديرة بأن تعاش.

بناء على ذلك نستطيع مقارنة الواقع الديمغرافي في مدينة هاري انطلاقاً من هذه المفاهيم التي حاد عنها الاستشراق الغربي جهلاً أو تجاهلاً وإما لظهور حالة قطيعة بين المشرق العربي اليوم ومشرق تلك العصور. وإذا كان الواقع الديمغرافي في الألف الرابع ولا سيما في منتصفه قد استمد ركائزه من الفاعلية المشرقية السومرية في الجناح الرافدي، فإننا إزاء الجناح الشامي لا نلاحظ فعالية واضحة كما في الرافدين وعلى هذا يمكننا القول أنه مع الألف الثالث قبل الميلاد فإن الفاعلية الحضارية التاريخية في الجناح الغربي الشامي قامت بفضل الأكاديميين والهاريين / نسبة لهاري / والإبلايين / نسبة لإبلا /، وطبعاً لا يمكن تتبع هذه الفاعلية بموضوعية إن لم نجد أساساتها في الفاعلية السومرية.

يقول الدكتور أبو عساف: "ساهم السومريون في صنع حضارة الجناح الشرقي للهِلال الخصيب ولم يسهموا في حضارة بلاد الشام، حيث قامت هذه بواسطة الهاريين والإبلايين والأكاديميين"^(٧) وإن كانت الثقافة في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد في هاري تأخذ من الروحية السومرية في أوجهها كافة، غير أن البيئة

الديمغرافية حسب المعطيات الأثرية تشير إلى فاعلية أكادية - عمورية يبدو وأنها تأثرت بالثقافة السومرية.

وهذا ما دفع مكتشف هاري أندره بارو للقول: "إن ثقافة هاري سومرية تفتحت في وسط غير سومري"^(٨) إذن نستطيع بناء على ذلك مقارنة العلاقات التفاعلية والامتزاجية في المنظور الاجتماعي بين مدن المشرق العربي بجناحيه حيث أن الأبحاث الرصينة تشير إلى علاقات وطيدة بين مواقع الجناحين في الفترة بين 2800 - 2350 ق.م، في حين يؤكد الباحث مارك لوبو: "إن المبادلات الثقافية في الألف الثالث ق.م بين مدن المشرق العربي كانت أغزر وأقوى مما كان من الممكن تصوره حتى الآن"^(٩).

وهذا ما تؤكد المعطيات الأثرية في العلاقات الوطيدة بين مواقع كيش وأبو صلابخ في الرافدين وهاري وإبلا في بلاد الشام. كذلك تلك العلاقات الوطيدة أيضاً بين هاري وأوروك ولجاش في الرافدين.^(١٠) وتجمع "الدراسات حول الثقافة المادية للممتلكات القديمة في هاري منذ الثلث الأول للألف الثالث قبل الميلاد، وأكثرها بوجه خاص الفخار، وتقودنا إلى اعتبار هاري منذ فجر السلالات الثانية متصلة حصراً مع وادي ديار في الرافدين، وفي الواقع كانت هاري قد أسست في نهاية فترة فجر السلالات الأولى خط سير واضح يُعبّر عن العلاقة بين اشنونا / في الرافدين / وهاري. بحيث أن هذا الخط يمر عبر عانه ويجتاز الطريق السفلي لوادي الثرثار. وقد أقامت هذه الطريق علاقات مباشرة بين مناطق كيبان، كركميش، إيمار، توتول، هاري، عانه، سيبار، كيش."^(١١)

إذن نصل من هذا إلى استنتاج أن هاري ذات القاعدة الأكادية - العمورية، كانت واقعة تحت تأثير الروحية الثقافية الرافدية، وكان خط اتجاهها التفاعلي يتجه شرقاً إلى الرافدين ولا سيما في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد، وهذا ما يمكن ملاحظته سواء لجهة الفخار أو المنحوتات التي عثر عليها والتي تحمل صفاتاً رافدية في الشكل والروحية.

وبناء على هذا يمكننا القول أن حركة التفاعل في هذه الفترة في هاري كانت ذات اتجاه رافدي أكثر من اتجاهها إلى العمق الغربي الشامي، ويبدو أن هذا الأمر يتبع النشوء المبكر لهاري كمدينة في بلاد الشام في ظل غياب فاعل لمدن كانت في طور التكوين كإبلا مثلاً، أو إيمار التي لم تمتلك أدوات قوتها الذاتية مما أهلها لتكون مدينة تابعة للفاعلية الأقوى سواء في هاري أو إبلا في النصف الثاني للألف الثالث. وهنا يعيننا التأكيد أن الواقع المديني في النصف الأول من الألف الثالث كان يشتمل على سلالات حكمت مدن، أور، أوروك، لجاش، كيش، أوما، شورباك، أدب، هاري وغيرها، وهذه كلها كانت سومرية فيما عدا سلالات مدينتي كيش الرافدية / بؤرة التواجد الأكادي / وهاري، حيث كانت أكادية وبؤرة التواجد والتجمع العموري.^(١٢)

ويشير د. أبو عساف إلى أن مدن لجاش وأوما وأور، لم تشارك مباشرة في التفاعل مع مدن بلاد الشام آنذاك، بل شاركت الأكاديميين في صنع حضارة الجناح الرافدي.^(١٣)

أما عن لغة سكان هاري في هذه الفترة فتبعاً للواقع الديمغرافي، لابد أن نلاحظ وجود عدة لهجات أو لغات، حيث دلت الأبحاث على أن سكان هاري كانوا يتكلمون السومرية والأكادية القديمة والحورية واللهجات العمورية، وكان ملوك هاري في تلك الفترة يحملون أسماء عمورية.

مجمع من الأرباب. وهذا يؤكد حسب الباحث على التواصل الثقافي والروحي بين جناحي المشرق في عصر ماري. ^(١٦) ويصل إلى نتيجة أن وجود " أسماء آلهة سومرية في معابد سورية وأسماء آلهة سورية في معابد سومرية يجعل الحديث عن الحياة الاعتقادية في المشرق لا يكتمل إن لم يتم التطرق إلى كلا الجناحين ، الرافدي والشامي .

وفي مجال مقاربتنا للحياة الاقتصادية والطقوس في ماري ، فنحن نعتقد أن ما كان موجوداً في مواقع الرافدين لهذه الفترة ، ينسحب على مدينة ماري كون أن الفاعلية الرافدية كانت أقوى من جهة ، ومن جهة أخرى أنه تبعاً لذلك كانت ماري ذات توجه رافدي ولا سيما في النصف الأول من الألف الثالث. ونظراً لأن نصوص ماري العائدة للألف الثالث لم تقدم بعد معطياتها لقلتها ، لهذا سنحاول تتبع مجمل فعاليات الحياة الاعتقادية والطقسية التي كانت سائدة في مواقع الرافدين المتزامنة مع هذه الفترة من حياة ماري .

وبالعودة إلى ثنائية السلطة في شقيها المعبدي والزمني ، نلاحظ أنه مع بدايات تشكل المدن الأولى كان ثمة سيادة للسلطة المعبدية على حركة المجتمع ، ويبدو أنه مع معالم نشوء السلطة الزمنية المتجلية في القصر والملك ، أصبحنا أمام تقاسم للأدوار بين المعبد والقصر ويبدو أن كل هذا اختص في مجال الفاعلية السومرية ، ولم تتوضح معالم فصل المعبد عن دولة المدينة إلا مع العصر الأكادي وانبثاق الفاعلية الأكادية في النصف الأخير من الألف الثالث ق.م .

فبالعودة إلى الحقبة الأولى من تشكل المدن ولا سيما في الرافدين ، نلاحظ أن حاكم المدينة كان يقوم بوظيفة مزدوجة فهو إلى جانب كونه ملكاً ، غير أنه كاهن أيضاً ، ما يعيد للأذهان وجود حالة توافيقية ومتداخلة بين كلا السلطتين . وباطراد مع الزمن أصبحنا أمام حالة لنشوء فئة من الكهان كانت غايتها التوسط بين الإله والجمهور ، ما يعني انسحاب السلطة المعبدية من مجال الحياة العامة ولو في شكل بدئي. فإن كان الإله . حسب اعتقادهم . هو المالك الحقيقي للأرض ، فإن الجمهور هم المستأجرون عنده ، وبالتالي فإن للكهان وظيفة أن يقوموا بتحصيل الضرائب وبيع الأراضي .

وقد تمت وثائق أوروك في هذا المجال دليلاً على تسديد الضرائب والالتزامات إلى الكهان . وثمة وظائف أخرى يقوم بها الكهان ولا سيما كبيرهم الذي تستند إليه مهمات قيام وإقامة الطقوس المعنوية الكبرى / السنة الجديدة مثلاً / . ويمكننا مقارنة فئات الكهنة التي كشفت عنها وثائق المدن الرافدية والتي نعتقد أنها انسحبت على الحياة الاعتقادية بعامة على كامل المشرق العربي ومنه مدينة ماري .

الكالو KALU

وهم فئة من الكهنة كانت مختصة بموسيقى المعبد ، حيث كانت تؤلف الترانيم والليتورجيات وتعني بالآلات الموسيقية . بحيث أن وظيفتهم الأساسية كما أشارت الوثائق هي " تهدئة قلب كبار الآلهة " وكان من يريد العمل في هذه الفئة أن يتبع دورة تدريبية تستغرق ثلاثة أعوام .

النشيفو ASHIPU أو مَشْهَاشُو

كانت وظيفة هذه الفئة تنحصر في درء الأرواح الشريرة والشياطين عن الناس وذلك عبر إقامة الطقوس وتلاوة التعاويذ ، وكان الاعتقاد آنذاك أنه حتى الأمراض أو الحوائج والأوبئة كان مصدرها تلك الأرواح الشريرة .

ويشير الفرد هالدنر إلى أن السكان الذين يتكلمون اللغة السومرية كانوا موجودين في شمال سورية وفي ماري وتل الخويرة في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد على الأقل. ^(١٤) أما لجهة التواجد العموري في المشرق العربي فتؤكد الأبحاث التاريخية إلى أنه يعود إلى الثلث الأول من الألف الثالث قبل الميلاد ، حيث أنه أخذ بالتصاعد التدريجي وصولاً إلى تأسيسه للممالك العمورية الكنعانية مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد في مجمل مدن المشرق العربي آنذاك .

الجدير ذكره هو أن البؤرة الديمغرافية للتواجد العموري تقع في جبل بشري في البادية الشامية ، وشكلت ماري عبر تاريخها بوابة العبور العموري إلى بلاد الرافدين . وإن كانت معالم التغلغل العموري في الألف الثالث أخذت بعداً سلبياً في الأدبيات الرافدية السومرية حيث أشارت إلى العموريين على أنهم يأكلون اللحم النيء ، وكونهم رُحلاً وإلى ما هنالك ، من صراع بين النمط المديني والنمط الرعوي ، غير أن هذا الأمر أخذ بالأفول تبعاً لانضواء العموريين تحت جناح الحياة الزراعية والمدينة واسهامهم في دورة الحياة المدنية الواحدة .

والباحث مارك لوبو يشير إلى التعايش السومري العموري الذي سار جنباً إلى جنب وبسلام في ماري . ويؤكد أن التجار العموريين كانوا يتجولون في بلاد الرافدين وأكد كما تجول التجار السومريون في ماري ، بالإضافة إلى توطن الكثير منهم في أماكن الأخر . وهذا ما يُعَبَّر عنه الفرد هالدنر بقوله : "لما كانت التجارة تتيح إمكانية التبادل ليس فقط بين البضائع ، بل أيضاً بين الأشخاص ، فإن النتيجة أنه استوطن العموريون بصفة دائمة في الرافدين واستوطن السومريون في الغرب" . ^(١٥)

إذن نصل إلى أن ثمة تعايشاً سومرياً . أكادياً . عمورياً في الثلث الأول من الألف الثالث . وعلى جري المدن التي تمتلك الخاصية التجارية ، لا بد أن تتمتع ماري بلغة تقاعل وحوار بين مختلف أروماتها الواعلة في دورة حياتها الاقتصادية . الاجتماعية الروحية وبالتالي امتلاك أدوات القوة الحضارية من أجل انبثاق فاعليتها الحضارية التاريخية .

الحياة المعتقدية في ماري . الألف الثالث

أيضاً لا نعتقد أن بإمكاننا البحث في الحياة المعتقدية في مدينة ماري في الألف الثالث ، دون الاستناد على البعد الديمغرافي – الاجتماعي في شقيه الزمني والمكاني . فالمعطيات الأثرية تؤكد ميزة التفاعل والامتزاج الاجتماعي ، بالإضافة إلى التنوع في مجال الرموز الاعتقادية تبعاً للتنوع الديمغرافي . فإلى جانب الآلهة السومرية سنجد آلهة عمورية وبذا نحن أمام معابد للأولى كما للثانية .

وعلى هذا قدمت الكشوفات الأثرية معبداً للآلهة نيني زازا كما أمدتنا بمعبد للآلهة عشتار ، كذلك نجد معبداً لشمش وعشتارات ودجن ونيهورساج بالإضافة إلى العثور على زقورات ذات مهمات معتقدية مدنية اجتماعية .

وتشير الدلائل إلى أن الأرباب السومريون والعموريون عُبدوا بأن واحد في ماري . ويشير هالدنر إلى أن جزءاً من سكان ماري كانوا يتكلمون السومرية ويعبدون الأرباب السومريين ، وقسم آخر كان يتكلم العمورية ويعبد الأرباب العموريين .

بدوره يشير ويلفرد جورج لامبيرت إلى أن مجمع الآلهة / البانتيون / في ماري كان يحاكي النمط السومري ، فثمة إله رئيسي وإلى جانبه

المشرق. وقد قدمت معطيات ماري العمرانية، وجود معابد لـ نيني زازا ونينهور ساج وكذلك عشتار ودجن.

ويشير أندره بارو مكتشف ماري إلى أنه ومع بداية تأسيس ماري، شهدت هذه المدينة مع أول سلالة حاكمة لها فترة ازدهار عبرت عن نفسها في إنشاء القصور والمعابد التي ترقى إلى حوالي 2900. 2600 ق.م. ومع حوالي منتصف الألف الثالث ستكشف التنقيبات، عن وجود تماثيل تعبر عن الخشوع والإيمان تخص الحكام والكهنة موضوعة في المعابد، وهذا ما نجد صداه في مواقع عديدة من المشرق، كمواقع خفاجي وتل أسمر في الرافدين وموقع تل خوية في الشام.

أما الباحث مارجرون فيؤكد وحدة الذهنية المعمارية في الشرق، بقوله: " لا يمكن الحديث عن استقلالية سورّية في مجال العمارة الدينية عن الرافدين " ⊗ ⊗ ⊗ وتجمع دراسات الحياة الاعتقادية في ماري وعمارته وذهنيتها على هذا النموذج الاعتقادي بين كلا مدن الجناحين المشرقيين فالباحث ويلفرد جورج لامبيرت يتحدث عن " أسماء آلهة سومرية في معابد سورّية وكذلك أسماء آلهة سورّية في معابد سومرية، يؤكد بناء على هذا على أن أي حديث عن مجمع ديني في سورّية أو الرافدين لا يكتمل ما لم يتم التطرق إلى كلا الجانبين " ⊗ ⊗

وقدّمت نصوص ماري ما يزيد على 125 اسماً إلهياً مقدساً، مثل: شمش، سين، أدد، عشتار، إيا، نهور ساج. داجان.. الخ. أما الأضاحي المقدمة للآلهة فكانت دوماً من الخراف الذكور، وكانت تؤكل بعد ذبحها مع ملاحظة أن الكنعانيين كانوا يحرقونها. وتشير الوثائق أيضاً إلى ظهور اسم إله هو / اتور. مير / وتعني بوابة ماري، وربما هذا يعطي دلالة إلى وجود إله قديم في ماري أعطاها اسمه. ⊗ ⊗ أما معابد ماري في هذه الفترة فسنجد، معبد عشتار، معبد شمش، معبد نهور ساج، معبد عشتارات، معبد نيني زازا. معبد داجن. كما عثر على زقورات ذات وظيفة اعتقادية ودينية.

الجدير ذكره أن مساكن الكهنة كانت تقام إلى جوار المعابد. وقد أبانت مكتشفات ماري على نشوء ظاهرة جديدة تمثلت في إنشاء قصر. معبد، وهي ظاهرة مميزة بين مدن المشرق العربي آنذاك. وربما هذا يدل على وجود نوع من التصالح بين السلطين الاعتقادية والزمنية. "وقد عثر في معابد مدينة ماري هذه على مجموعة كبيرة من تماثيل العبّاد الوريين، والذي يعتقد أنه كانت هناك ورشات عمل تنتج تماثيل بشرية متشابهة تبيعها للراغبين من الرجال والنساء.

وعلى مدى عدة قرون / 2700. 2350 / ق.م، انتجت ورشات ماري تماثيل رجال مثّلوا وقوفاً، أو في بعض الأحيان الجلوساً، حفاة، يرتدون مئزراً معدّفاً بأكمله أو طرفه فقط يشده إلى الخصر أحز مة، ويستر النصف السفلي من الجسم أما النصف العلوي فيبقى عار،

البأرو: BARU

وتعني الرائي. وهذه الفئة كانت تختص باستطلاع الفأل وتفسير الأحلام ورصد الفلك والنجوم وكان لهذه الفئة دوراً مهماً في استطلاع نتائج الحروب وتقديم المشورة إلى الملك.

قدشتو

وهذه الفئة من الكهنة تختص بالنساء، وتخبرنا الوثائق أن بنات الملوك كنّ يلتحقن بهذا السلك فهو مدعاة للفخر والايان حيث تصبح النسوة كاهنات المعبد ومثال ذلك، ابنتي نارام سن الأكادي. وقد صانت قوانين حمورابي في الألف الثاني قبل الميلاد، حقوق هذه الفئة ووضعت قوانيناً تحدد آليات عملهن وسلوكهن. وكانت النسوة اللواتي يلتحقن بمعبد عشتار يطلق عليهن اسم "عشتاريتو".

طقوس المعبّد

كان المعبّد يُعبّر عدة مراحل طقوسية يومية، فهناك أولاً: غسل تماثيل الآلهة وكسوتها وإطعامها. حيث يوضع أمام الحرم، الزهر والطعام والشراب للآلهة، بالإضافة إلى البخور ومجامر حرقه. ويتألف طعام الآلهة من الخبز والكعك ولحم الحيوان والأسماك. وتقدّم القرايين من قبل الجمهور سواء كانت من الماشية أو نتاج الحقول وهي بمثابة ضريبة عن ريع الأراضي وغيرها.

وفي حكمة تقديم القرايين، فإن الوثائق تشير إلى أن هذا الأمر ضروري لجهة جعل الإله في مزاج حسن وتجنب غضبه. ⊗ وباعتقادنا أنه لا يمكن النظر إلى مجمل فعاليات الحياة الاعتقادية في ماري / الألف الثالث / إلا من خلال فعل التمازج والتعايش وسيادة الثقافة الأقوى، عنيت الثقافة الرافدية وإلى جانبها ما تمخض عن السياق الأكادي. العموري.

ولعل طبيعة ماري التجارية فرضت عليها أن تكون حاضنة لمجمل الاعتقادات ورموزها، وهذا ما فرضه الواقع الاقتصادي، التجاري، بما يذكّر أيضاً في مجمل معايير ومنظومات المدن القائمة على الفعل التجاري وإشراطاته، مثل تدمير في القرون الميلادية الثلاثة الأولى وبابل في الألف الأول قبل الميلاد.

واستناداً على ذلك، فإن ماري في الألف الثالث، حفلت بمعابد سومرية ومعابد عمورية، وكذلك آلهة سومرية وعمورية، فإلى جانب معبد نيني زازا السومري نجد معبداً للآلهة عشتارات العمورية. " ولها كانت التجارة تتيح إمكانية التبادل ليس فقط بين البضائع، بل أيضاً بين الأشخاص كالتجار مثلاً، فكانت النتيجة أن استوطن العموريون بصفة دائمة في الرافدين واستوطن السومريون في بلاد الشام " ⊗

إذن ثمة تداخل بين العالم التجاري وإشراطاته، مع العالم الاعتقادي وكذلك مع عالم التوطن والإقامة في المدن المختلفة في

⊗ للاستزادة في هذا المجال يمكن الرجوع إلى مؤلفات عديدة تتحدث عن هذه الأمور ولا سيما:

- S.H.HOOK. BABYLONIAN AND ASSYRIAN RELIGION

صموئيل كريبير. طقوس الجنس المقدس. ت. نهاد خياطة. دار الغربال. دمشق

1989

انطوان مورتقات. تموز. ترجمة. توفيق سليمان. دار المجد. 1985

ما قبل الفلسفة. هنري فرانكفورت وآخرون. ت. جبرا إبراهيم جبرا. المؤسسة العربية. لبنان. 1980

⊗ هالدار - العموريون. ١٩٩٣ - دار الأبجدية.



⊗ أندره بارو- ماري- وزارة الثقافة السورية ١٩٧٩.

⊗ ⊗ جان كلود مارجرون- دليل معرض الآثار السوري الأوروبي.

⊗ فيصل عبد الله - دراسات تاريخية - ٣٨/٣٧ قراءة في ٥ مجلدات عن ماري.

⊗ المرجع السابق.

ويبدو هنا أن الصدام والصراعات ما كانت لتحصل إلا عند اكتمال الشرط الحياتي للمدينة سواء في مجال الاقتصاد أو التجارة أو الحدود الادارية/الدولية لكل مدينة ، حيث سنصبح أمام صراع معظمه صراع مصالح مدنية في غياب وجود وعي اتحادي يصون مصالح الجميع والذي يبدو أنه لم يكن ليتحقق إلا عبر وجود قوة فاعلة لمدينة ووجود رأس لهذه المدينة يعي هذا الأمر وهذا ما نجده صداه في محاولات عديدة بدأها لوغال زاجيزي ثم شاروكين الأكادي وشمشي أد وحمورابي.

وبالعودة إلى ما قبل كل ذلك ، فإن لحظة الصراع المصلحي بين مدن الجناح الرافدي تبلورت حين اتسعت أملاك مدن .الدول وامتدت أراضيها بحيث أصبحت تلك المدن متجاورة ومتلاصقة فيما بينها بشكل مباشر ، ما أتاح هذا المجال للاحتكاك المباشر وبالتالي ظهور صراعات حدودية واقتصادية وتجارية وملاحية.

فالرافديون " لم يستجيبوا للتحدي الاجتماعي بالجوء إلى الطريقة الأساسية للتوحيد والوحدة ، على نحو ما تمّ في مصر حين ظهرت المشكلة الاجتماعية ذاتها هناك. بل استمرت مدن الدول السومرية حتى بعد تماسها واندماجها بالأخرى في الحفاظ على استقلاليتها وسيادتها المحلية " (18).

وبذلك فمع منتصف الألف الثالث سنشهد بدء الصراعات بين المدن الرافدية والتي أخذت طابعاً عسكرياً ، باختلاف مدينة أوما مع لاجاش حول قناة مائية تقع على تخوم المدينتين سيفجر صراعاً عسكرياً أدى إلى انتصار مدينة لاجاش. ثم وفي فترة حكم إناتوم حاكم لاجاش ، قامت هذه بحروب على مدن أور .أوروك .كيش ، واستطاع هذا الحاكم الوصول إلى منطقة الفرات الأوسط وماري.

الجدير ذكره هنا ، هو أن بعض أوجه الصراع لم تكن لأسباب المصالح المدنية بقدر ما كان تعبيراً عن حيوية المدينة واكمال فاعليتها ما يدفعها إلى التوسع واحتواء المدن الأخرى كعنصر من عناصر ثقافة الأقوى والذي تخبرنا عنه حركة التاريخ.

وبعد انتصار لاجاش سنلاحظ أن معالم التهديد والتوسع تحمل في طياتها تآكل للنظام نفسه وهذا ما نجده هنا حيث قام أوركا جينا بحركة تمرد في لاجاش أدت إلى اعتلائه لسدة الحكم فيها. وقاد حركة اصلاحية اجتماعية لكافة ظواهر ومجريات الحياة في لاجاش ، غير أن مصالح المتضررين من هذا الاصلاح دفعت بهؤلاء كي يتآمروا مع حاكم مدينة أوما لوغال زاجيزي (19) ، ما أدى إلى سيطرة أوما على لاجاش.

ثم ونتيجة لاكمال فاعلية أوما التاريخية ولا سيما بعد إسقاط لاجاش ، سنجد أن زاجيزي سيطر على مدينة أوروك ، واستطاع هذا الملك أن يستغل الصراعات القائمة بين مدن الدول آنذاك لصالحه وهذا ما مكّنه من الاستيلاء عليها. وإليه ينسب تدمير ماري في حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد. والذي يبدو أن محاولات زاجيزي هذه ، تعتبر أولى محاولات التوحيد السياسي / بقوة السلاح / تتم في المشرق العربي بحيث استطاع أن يصل إلى ساحل البحر المتوسط.

ومثلت النساء واقفات وجالسات حفاة يرتدين ثوباً طويلاً فضفاضاً يستر الجسم. (20)

الجدير ذكره أن أغلب تماثيل ملوك ماري في هذه الفترة عثر عليها في المعابد. وحوى أحد القصور .المعبد الذي يعود إلى حوالي 2500 قبل الميلاد ، على مصطبة مرصوفة بالبلاط حوت على بقايا عمود خشبي جميل من أرز لبنان ، ما يقدم دليلاً مادياً على وجود علاقات لماري آنذاك مع الساحل السوري.

وكما أشرنا إلى احتواء المعابد على تماثيل الملوك ، نجد تماثيل لمحي ماري في معبد عشتار ، وتمثالاً للملك إيكو .شاما .كان في معبد نيني زازا ، وكذلك تماثيل الهغنية أور .نانشي الذي نقش على ظهره اسم الملك إيلول .ايل. وكانت معابد ماري على صنفين: الأول: هو المعبد الطويل حيث يكون المصلى طويلاً. والثاني: معبد يكون مخططه شبيهاً بمخطط بيت السكن وهو بيت الرب.

وتشير الدراسات إلى وحدة النمط المعماري بين المعبد B₂ في إبلا مع بيت العبادة التابع للقصر في ماري والذي يرقى إلى 2300 قبل الميلاد. وكان الرب الحقيقي أو الرب الوطني في ماري هو داجان / دجن. مع الإشارة إلى أن الملوك آنذاك ، درجوا على وضع بناتهم في سلك الكاهنات في المعابد ، وذكرنا مثلاً أن نارام سين وضع ابنته كاهنتين في معبد شمش ، وهما شوما شاني وأختها ميكيبار.

الواقع السياسي

في الألف الثالث قبل الميلاد - عصر ماري

في إشارته إلى الجناح الشرقي الرافدي يقول أرنولد توينبي: " كانت سومر في فجر التاريخ للمدنية السومرية ، قطعة فسيفساء مكونة من مدن . دول محلية ذات سيادة. والوحدة الثقافية التي عرفها العالم السومري لم تكن بعد قد وازنها وحدة على المستوى السياسي " (17) ففي هذه الفترة نحن أمام مدن تكاملت مصالح كل واحدة على حدة ، فنجد ، أوروك .أور .لاجاش .كيش .أوما .شوروباك .نفر .أدب .نيبور .أريدو .ماري.

وهنا تنبغي الإشارة إلى أن مدينة إبلا والتي يعود بدء استيطانها إلى حوالي 3500 قبل الميلاد ، كانت ذات تواجد تاريخي لا بأس به في النصف الأول للألف الثالث ، إلا أن فاعليتها التاريخية لم تكتمل إلا في حوالي 2400 قبل الميلاد متوافقة تقريباً مع نشوء الفاعلية الأكادية أو قبلها بقليل. وتعطي وثائق هذه الفترة منذ فجر التاريخ واستمراراً حتى النصف الأول من الألف الثالث انطباعاً على أن دول المدن تلك تعايشت خلال القرون الأربعة الأولى وفي أبعد تقدير الستة الأولى ، في وئام ودون أن تتصادم فيما بينها.



(20) بغية الاستزادة ، انظر مؤلف الدكتور علي أبو عساف ، فنون الممالك القديمة في سورية - دار شمال ١٩٩٣ -دمشق.

(18) لعل ظاهرة لوغال زاجيزي تُعبّر عن مدى التفاعل السومري .الأكادي. فهو كان حاكماً لمدينة سومرية غير أنه كان أكادي النسب وذلك بالاستناد إلى اسم أبيه " بوبو " الأكادي. (BUBU). انظر عيد مرعي. تاريخ الرافدين .دار الأبجدية .دمشق 1991. ص 38.

إيل ، حيث أشارت الوثائق إلى أن ماري كانت القوة الوحيدة المسيطرة على حوض الفرات الأوسط ، بحيث استمرت في فاعليتها التاريخية حتى ظهور الفاعلية الأكادية في حوالي 2350 قبل الميلاد.

وقد دلت الوثائق على هذا الأمر ، عبر قراءة رسالة لحاكم ماري إيلول إيل ، عثر عليها في أرشيف إبلا حيث يذكر هذا الملك أعماله ومنجزاته ، بالإضافة إلى أعمال سلفه . ايشتوب شار ، وسوم اللذين سيطرا على مدن عديدة في حوض الفرات.

ويبدو أن محتوى الرسالة يتضمن وجود صراع مصالح خفي بين ماري وإبلا في هذه الفترة ، وهذا ما سنناقشه لاحقاً في فصل منفصل. إذن ، إن المشهد البانورامي باتجاه منتصف الألف الثالث يشير إلى وجود صراعات مصالح بين مدن المشرق العربي ولا سيما في جناحه الرافدي ، ثم سنشهد علاقات متباينة ومتصالحة بين ماري وإبلا. على أنه حين دمّر لوغال زاجيزي ماري فإنها سرعان ما أعادت بناء نفسها وباقتدار ، ما يدل على فاعليتها آنذاك ولاسيما الاقتصادية – الاجتماعية- الروحية.

هذا في وقت كانت إبلا توطد دعائم دولتها وتحاول السيطرة على مدن العبور التجاري ، وهذا ما يؤكد تروح علاقتها مع ماري تبعاً لمصالحها وتبعاً لمصالح ماري ولا سيما التجارية منها. والذي يبدو أنه في فترة التصالح بينهما وتأسيس علاقات حميدة بينهما ، كان هذا الأمر ينعكس إيجاباً لصالح المدينتين. جورجيو بونشيلاتي بدوره يؤكد أن ماري ومنذ حوالي 2400 قبل الميلاد ، كانت تسيطر على منطقتي الفرات وحوض الخابور واستمرت حتى سقوطها على يد حمورابي في 1760 قبل الميلاد ، وعلى نفس المنوال.⁽¹⁹⁾

وتشير الدراسات إلى أن ماري في الألف الثالث امتد نفوذها حتى كركوك في فترة إيلول إيل ، ومنطقة كوموكينا في الأناضول ، وأن إبلا دفعت الجزية لها ، كذلك تشير تلك الأبحاث إلى أنه في فترة حكم ايشتوب شار خضعت إيمار لفاعلية ماري.⁽²⁰⁾ واستطاع الباحث الفونسو آركي من تحديد ملوك الألف الثالث في ماري ولا سيما مع الثلث الثاني منه كما يلي: سوم . ايشتوب شار . إيلول إيل . نيزي . إنا دجن . إيكوشار . حيدار.

وقد كشفت وثائق إبلا عن إرسال كميات من الهدايا من إبلا في عهد ملكها أرانوم الذي حكم بين حوالي 2400 . 2300 ق.م إلى ماري في فترة حكم إيلول إيل ونيزي وإنا دجن ، وقد بلغ مجموع الهدايا المرسلة هذه 63 كيلو غراماً من الذهب و 1008 كيلو غراماً من الفضة. وهذا يشير إلى سيادة فاعلية ماري بمملكته في هذه الفترة وصولاً إلى إبلا. ومع حكم إيكوشار وحيدار لمملكة ماري ، يبدو وأن فاعلية ماري قد هدأت وسادت علاقات متوازنة وندية بين المدينتين ، ويبدو أن توطد دعائم الفاعلية الإبلية ساهم في هذا التوازن. لذا سنجد أننا هنا أمام إقامة علاقات اقتصادية وتجارية وفق معاهدات ، وهذا ما سمح بتفعيل العبور التجاري للبضائع والسلع من وإلى ماري وإلى إبلا ومدن أخرى مثل كيش الرافدية ، لا بل وتشير وثائق إبلا إلى انتقال الحرفيين بين المدينتين.⁽²¹⁾

وفي معرض مناقشته لظاهرة لوغال زاجيزي يشير توينبي إلى أن التوحيد السياسي الذي فرضه كان العلاج الوحيد لظواهر اجتماعية سلبية كالحروب الأهلية . الصراعات والتفكك.

كما أن شبكة الأقنية المائية التي كانت قائمة في الحوض الأدنى لدجلة والفرات ، الطبيعي منها والاصطناعي ، كانت وحدة لا تقبل التقسيم ، وما لم تقم سلطة واحدة قادرة على تنظيم عالم المياه بالكامل ، فإن إدارة هذا العالم المائي لا يمكن أن تكون فعالة وسليمة. أيضاً لا يخفى هنا وجود بعد اقتصادي ملاحى تجاري يتبدى في السيطرة على المعابر المائية التجارية لدجلة والفرات بالإضافة إلى وجود حاجة رافدية دائمة للحصول على الأخشاب من جبال الأمانوس وكذلك الحصول على النحاس من مناطق بعيدة.

ووسط كل ذلك ، كان ثمة فاعلية تسعى للاكتمال ولا سيما في منحها الديمغرافي وذلك في مدينة كيش ، بحيث أن اكتمال هذه الفاعلية سيؤدي إلى انحسار فاعلية زاجيزي المتسعة غرباً. ويبدو أن الأمر حُسم حين قام زاجيزي الذي أصبح مقره في مدينة أوروك بمحاولة إنهاء فاعلية كيش المهددة له ولمشروعه وهذا ما سوف يؤدي إلى خروج شاروكين الأكادي من مدينة كيش / حوالي 2340 ق.م / وانتزاعه للامبراطورية من يد زاجيزي ، وهنا سوف تبدأ الفاعلية الأكادية نحو منعطف جديد في تاريخ المشرق العربي.⁽²²⁾

وتشير الوثائق الكتابية إلى أن شاروكين قام بحوالي 34 حملة عسكرية ضد لوغال زاجيزي حتى تمكن من أسره وعرضه أمام الإله انليل في مدينة نفر. وتجدر الإشارة هنا إلى أن كلا المدينتين أريدو ونفر كانتا ذات فاعلية دينية/اعتقادية ، بشكل جوهري ولم تكن لهما أي مطامح سياسية.

مدينة ماري بين 2900 . 2350 قبل الميلاد

لندرة الوثائق الكتابية في ماري والتي تعود لمطلع الألف الثالث قبل الميلاد بالاتجاه نحو منتصفه ، فإن ما عوّض عن ذلك هو الوثائق الرافدية / البابلية والآشورية/.

فقد أبانت هذه الوثائق / ولو أنها أتت في فترة متأخرة عن ذلك العصر / عن ستة ملوك حكموا ماري لمدة 136 عاماً. علماً أن سلالة هؤلاء الحكام وغيرهم حكمت بين 2900 . 2600 ق.م . وأول حكام هذه السلالة هو أنسود. وبعد الكشف عن رّم إبلا في الألف الثالث / العائدة نحو منتصفه / أبانت هذه عن وجود أسماء لملوك حكموا مدينة ماري ، ولم يرد ذكرهم في ثبت الملوك البابلي الآشوري.

ويميل الاعتقاد إلى أن هؤلاء حكموا في الفترة بين 2600 . 2350 قبل الميلاد. وهم: إيكوشمش . سوم . ايشتوب شار . إيلول إيل . إنا دجن . لمحي ماري . إيكوشاماكان./ يمكن الرجوع إلى الملحق الأول للكتاب./ ويبدو أن فاعلية ماري/ بحيث يمكن اعتبارها مملكة تسيطر على مجالها الطبيعي والحيوي التاريخي / تحققت في زمن حكم إيلول

⊗ في مقاربة المستشرقين لهذا الصراع بين شاروكين وزاجيزي ، نجد أنهم يحاولون مناقشة هذا الأمر وفق صراع ديمغرافي بين السومريين والأكاديين ، غير أننا هنا نستبعد هذه المقاربة التي لا تمت لذهنية المشرق العربي القديم ، فالوثائق لم تشر إلى حدوث صراع ديمغرافي سومري . أكادي ، كذلك إن الصراع هنا يتبدى في مسألة انبعاث فاعلية تاريخية واكتمال شرطها الحضاري دون اعتبار آخر. كما أننا نعلم أن زاجيزي هو أكادي وحاكم لمدينة سومرية ، وأن شاروكين هو أكادي أيضاً.



فمثلاً، إن وثائق إبلا تتحدث في الألف الثالث على أن ملوك الجنوب الرافدي كانوا يعتمدون على المواد الخام الثمينة من خشب وذهب وفضة وما إلى هنالك من مدن الجناح الغربي / بلاد الشام. حيث كانت إبلا على مقربة من مصادر تلك المواد والتي استطاعت ممارسة تجارتها ونقل المواد عبر الفرات إلى مدن الجنوب الرافدي، وهنا يكمن دور ماري الهام في هذا السياق.

يقول مارجرون: "في سهول بلاد ما بين النهرين، لا وجود للأخشاب والحجارة والمعادن، وبالتالي لا وجود للمواد الأولية، لهذا فإن السهول المحرومة من المواد الأولية والمحروقات مثل أور، وماري في وسط الفرات، فرضت نفسها كمراكز لصناعة المعادن المستوردة ومن الدرجة الأولى في بداية الألف الثالث قبل الميلاد⁽²³⁾". على أن ماري كانت تمارس رقابة نهريّة صارمة على حركة الملاحية الفراتية، وهذا ما سبّب لها الازدهار المشهود له، حيث استطاعت أن تكون صلة الوصل بين العمق الشامي والعمق الرافدي وبالتالي إلى ما وراء العمقين معاً.

الثالثا: أن النشاط التجاري والسلعي لم ينحصر في الألف الثالث بين مدن المشرق العربي، بل ثمة بعض المدن التي أنشأت خطوط تجارة تتجاوز الأفق المشرقي. فقد كشفت وثائق منتصف الألف الثالث أن مدينة لاجاش الرافدية كانت تستورد النحاس من الديلمون في البحرين، والقصدير من الشمال، والخشب من عيلام والديلمون أيضاً. كما أنها استوردت مستحضرات وزيتوت الأشجار الأبرية من مدن بلاد الشام. مع الإشارة إلى أن مدينة أور في الجنوب الرافدي، كانت ميناء بحرياً مهماً لوقوعها على مقربة من الخليج العربي حيث تذكر الوثائق أنها كانت مركزاً مهماً للتبادل التجاري.

وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى أن التجارة آنذاك كانت تجارة مقايضة بين السلع. كمقايضة مثلاً المنسوجات والحبوب بالنحاس من الديلمون، وثمة بضائع كان يتم تسديد أثمانها بالفضة. أيضاً ثمة شأن آخر يتعلق باستيراد الأحجار الكريمة من مراكز حضارية بعيدة وتشير الدراسات على أنه "منذ نشأت الحضارة في المشرق العربي، تطورت التجارة تطوراً سريعاً، وسعى الناس للحصول على بعض المواد الخام من البلدان المجاورة.

وكان من بين المواد التي ازداد الطلب عليها منذ الألف الثالث قبل الميلاد، الحجر الأزرق اللامع الذي يعتبر من الأحجار الكريمة العادية والمطواعة بين أيدي الحرفيين. وقد عثر على ما أنتجه هؤلاء من هذه المادة على شكل حلّي وأختام اسطوانية وقطع زخرفية.. الخ، في العديد من المواقع الأثرية الهامة مثل أوروك، وأور، ماري، إبلا، وتحدثت عنه الوثائق المسمارية المشرقية كسلعة تجارية هامة من غير أن تذكر مصدره. ومن المعلوم أن هذا النوع من الحجارة متوافر في أفغانستان⁽²⁴⁾".

ويبدو أن الخط التجاري لهذه المادة كان يتم عبر إيران عن طريق موقع تبه. هيسار الذي يقع شرق مدينة طهران، حيث كان هذا الموقع يتاجر بالأحجار الكريمة ويصنعها أيضاً في مشاغله منذ الألف الثالث قبل الميلاد. ثم يتابع الطريق إلى موقع تبه. سيالك إلى الجنوب من طهران ومن ثم إلى مدن المشرق العربي ولا سيما ماري. وتشير وثائق أور في الألف الثالث ومنذ منتصفه إلى استيراد النحاس من باكستان إلى أور عبر البحر. حيث كانت السفن تبحر من

مع الإشارة إلى أن ماري كانت وبقيت مفتاح السيطرة على التجارة النهرية لنهر الفرات، واستطاعت كلا المدينتين أن تسيطر على النصف الشمالي لبلاد الشام. وأيضاً، يجدر الذكر هنا، هو أن نشوء وإنشاء ماري في منطقة الفرات الأوسط جعلها همزة الوصل بين جناحي المشرق العربي وبمعنى آخر فإن هذا الأمر قد أرسى لتوجه حضاري جديد يتجلى في محاولة جعل الجناح الرافدي منفثاً أكثر على عالم المتوسط وبلدانه عبر موقع ماري وتالياً إبلا.

ويشير الباحث مارجرون إلى هذا الأمر بقوله: "إن وادي الفرات الأوسط، عاش عصره الذهبي في فترة البرونز، وأن هذا الوضع يتطابق واللحظة الحاسمة في تاريخ الشرق الأدنى القديم، حين كانت سهول الرافدين التي سارت على خطى حضارة أوروك تتجه بنفسها نحو البحر الأبيض المتوسط⁽²²⁾".

الحياة الاقتصادية . التجارية . 2900 . 2350 ق.م

لمقاربة دقيقة للواقع الاقتصادي التجاري لماري في الفترة الممتدة بين مطلع الألف الثالث وصولاً إلى ظهور الفاعلية الأكادية، ينبغي علينا التأكيد على حقائق عدة:

أولها: أن هذا الواقع الاقتصادي . الاجتماعي لا ينفصل عن الواقع السياسي الذي تبدى منذ نشوء المدن الأولى وتكون مصالحتها باطراد، وأن هذه المصالح كانت تُعبّر عن نفسها ضمن وعي مديني لم يرق إلى وعي اتحادي بين المدن آنذاك.

وعليه فإن ما نتابعه من دراسات وأبحاث للمستشرقين والتي تُعنى بمناقشة هذه المسائل، ولا سيما الصراعات بين المدن تلك على اعتبار أنها صراعات هوية ديمغرافية، فيجري التركيز على الهوية السومرية مقابل الهوية الأكادية، بحيث يتبدى للقارئ والمتابع أن ثمة صراعات أثنية آنذاك، وقد فندنا ذلك فيما سبق وأظهرنا أن وثائق المشرق العربي القديم الرافدية لم تشر إلى صراعات أثنية أو ديمغرافية مع الأكاديين، لا بل إن التعايش بينهما كان يعبر عن نفسه في مجمل حركة المجتمع آنذاك، وإن ذكرت الوثائق الرافدية، العموريين، بشكل سلبي، فهذا لم يكن استناداً إلى معطى ديمغرافي بقدر ما كان تعبيراً وصفيّاً عن جماعة مرتحلة من البدو لم تصل بعد إلى التفاعل مع العالم الزراعي والمديني رغم وجود عناصر عمورية متزامنة امتلكت التفاعل وانخرطت في حركة المجتمعات في مدن المشرق الرافدية.

وعليه فإن ما درج عليه بعض المستشرقين في هذه المسألة، نقف إزاءه وقفه نقدية، ونشير إلى أن صراع المصالح المدينية هو الأساس الكامن خلف صراع المدن المشرقية آنذاك، وبالتالي فلا تحبذ الإشارة إلى فاعلية أور في الثلث الأخير من الألف الثالث على أنها نهضة سومرية متأخرة، لأن المعطيات الأثرية تدل على وجود ركائز ومدايك أكادية في فاعلية هذه المملكة في هذه الفترة. ولا يمكن الركون إلى الأسماء فقط لإصاق مرحلة كاملة بهوية واحدة، طالما أن حركة التاريخ في مجتمعات المشرق أساسها التفاعل والتمازج الذي وثقته الكتابات والمعطيات الأثرية.

ثانيها: إن اختلاف إمكانات البيئة الطبيعية ومواردها / والمناخ كذلك / بين مواقع مدن المشرق العربي آنذاك فرضت نشوء حاجات اقتصادية لتلك المدن، وكذلك أدت إلى نشوء أهمية خاصة ومميزة للمدن النهرية أو مدن العبور التجاري.

هذه نشوء حضارة هرايا المعاصرة لحضارة الألف الثالث في المشرق ولحضارة الديلمون في البحرين.

ومن أهم مواقع الخليج العربي ولا سيما على طول ساحله الغربي والتي امتلكت فاعلية تجارية مميزة نجد: موقع فيلكة في الكويت ، وفي السعودية موقع جرها ، وفي قطر والبحرين موقع الديلمون ، وفي الإمارات العربية موقع أم النار والعين وجلفار ، وفي عُمان موقع ماجان. ويشير د. محمد حرب فرزات إلى أن هذه المواقع شهدت ومنذ الألف الثالث قبل الميلاد ، ملامح حضارية مادية وثقافية اتصلت بالثقافة المبكرة في المشرق العربي.⁽²⁹⁾

وقد استطاعت هذه المواقع لعب دور الوسيط التجاري بين عالمي المحيط الهندي والبحر المتوسط عن طريق المشرق العربي ومصر.

النشاط الملاحى على الفرات وتقنياته

لا نعتقد أن تقنيات الملاحة وحركتها تختلف في الألف الثالث عن شقيقتها في الألف الثاني ، إلا ما اعترى الأخير من تطور تبعاً لمقتضيات مصالح الملاحة وصناعة السفن وزيادة التبادل التجاري ونشاطه في الألف الثاني ، أو نشوء مراكز ملاحية جديدة.

لهذا فإن كانت وثائق الألف الثاني قدمت معطيات عن هذه المسألة فإن ما نستطيع مناقشته في الألف الثالث يستند عليها ، مع الأخذ بعين الاعتبار أنه مع إنشاء ماري كانت السلطة قد أقامت قوات ملاحية لتعزيز وتسهيل هذا الأمر وجعله مطواعاً لمتطلبات أو علة إنشاء مدينة ماري. فميناء هذه المدينة كان المحطة الأخيرة للسفن القادمة من منطقة الجزيرة العليا. واستطاع الفرات والخابور أن يستجيبا لمتطلبات الملاحة والنقل عبرهما وعبر القنوات المتفرعة عنهما ، علماً أن النقل المائي يعتبر أسهل وأرخص وآمن من النقل البري.

وكون أن نهر الفرات الذي كان يشكل عصب التجارة المشرقية والدولية آنذاك لم يكن ليصلح للملاحة لاختلاف سوياته أولاً ، ثم أنه في شهري آب وكانون الأول تكون مياهه في أخفض حالاتها مما يضعف حركة الملاحة فقد استطاع الهاريون للتغلب على هذه المشكلة من أن يبتكروا قوارباً ذات قواعد مسطحة وجوانب مستديرة أو مستقيمة ، ولم تحتج هذه القوارب للأشعة كون أن اندفاع تيار النهر أقوى من حركة الرياح وهذا ما جعلهم يسحبون هذه القوارب بالجمال. كما صنعوا قوارب من الجلود يتم نفخها عند الاستعمال وهناك سفن مصممة للابحار مع التيار وسفن بعكس التيار. وتذكر وثائق مدينة نيبور الرافدية أنه للذهاب من لاجاش إلى نيبور / حوالي 140 كيلومتراً / ، كان يقوم 16 عاملاً بجَر سفينة حمولتها 18 طناً خلال 15 يوماً.

وهذا الأمر بقي متواصلاً حتى عصرنا الحالي ويشير قاسم طوير إلى أنه وقبل حوالي 60 عاماً كان المشهد مألوفاً في مدينة دير الزور أن يجري سحب السفن المسطحة بالجمال وهي معبأة بالخطب أو المحاصيل الزراعية. [⊗] والجدير ذكره هنا هو أن تكاليف النقل المائي كانت باهظة الثمن وفي معظم الحالات يتم النقل النهري للحمولات الثقيلة في حين أن الحمولات الخفيفة كانت من نصيب النقل البري. وبشكل عام كان اللجوء إلى الملاحة النهرية يتم باتجاه سير التيار لسهولة الحركة ، أما في الاتجاه المعاكس فيتم اللجوء إلى طرق النقل البري.

⊗ انظر الحوليات الأثرية السورية . العدد 34. آثار حوض الفرات . قاسم طوير.

جزيرة فيلكة / الكويت / وتهر من البحرين حتى مضيق هرمز محملة بالسهمس والأنسجة ، ومنها إلى موانئ باكستان حيث تفرغ حمولتها وتعود محملة بالنحاس. مع الإشارة إلى أن هذه الطريق هي نفسها التي نقلت الحرير من الشرق الأقصى إلى المشرق العربي ثم نحو عالم المتوسط.

ويشير الباحث هورست كلينغل إلى ذلك بقوله: "ثمة قاعدة للاقتصاد السوري هي التجارة وذلك لسببين هما: الموقع الجغرافي والإنتاج الاقتصادي. فقد أصبحت سورية بمشاركتها بالتجارة البعيدة بالأحجار الكريمة منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، مركزاً للمبادلات الإقليمية ، وهذا ما تطور مع أوائل الألف الثاني ق.م ، عندما برز العالم الإيجي وقبرص كشركاء في التجارة"⁽²⁵⁾

الجدير بذكره أن مدينة ماري وإبلا وبسبب موقعيهما الجغرافي المتميز ، شكلا نقطة تجارية ومحطة أساسية مهمة في طرق التجارة العالمية ولا سيما منذ الألف الثالث وهذا ما كان سبباً في تعميق التفاعل بين المدينتين لجهة السلب والإيجاب.

وكان "أهم طريق تجاري لإبلا هو الطريق الذاهب إلى الفرات ، وبخاصة إلى ماري ومن ثم إلى مدينة كيش في وسط الرافدين. وكان أهم شريك تجاري لإبلا هو مدينة ماري ، حيث كانت تنقل الأخشاب من جبال الأمانوس وسلسلة الجبال الساحلية السورية إلى ماري ، بالإضافة إلى النبذ والشعير والمنسوجات والمفروشات. وكانت ماري تنقل الأحجار الكريمة مثل اللازورد والعقيق"⁽²⁶⁾

كذلك فقد نشطت مدن الرافدين في تجارتها نحو الشرق مثل إيران ومدن الخليج العربي واستطاعت أن تحصل عبر ذلك على المواد الخام والسلع الثمينة مثل الخشب والحجارة والمعادن وتشير وثائق الألف الثالث إلى أن العقيق واللازورد والكلوريت كانت تستورد من بادخشان في أفغانستان ومن هضاب إيران.

ونتيجة العثور على حلي مصنوعة من اللازورد في ماري وإبلا وكذلك في مصر ، فإنه بالإمكان التأكد الآن على أن طريق اللازورد في تلك الفترة ، كان ينطلق من الشرق مروراً بالمشرق العربي إلى مصر وقد أمكن تحديد هذه الطريق التي تنطلق من بادخشان في أفغانستان إلى مصر وذلك عبر: موقع شهري سوخطة في سيستان ثم تبه هيسار ، وتبه يحيى ومدينة في عيلام ثم آشور وماري وإبلا وجبيل أو ميناء أكرسواه على الساحل السوري.

وقدمت المعطيات الأثرية الإبلية على وجود علاقات قوية بين إبلا ومواقع الجنوب الرافدي من ناحية ، ومع مصر من ناحية أخرى وقد أصبح لدينا الآن سبب للافتراض بأن تلك العلاقات كانت تتم عبر وساطة كلبية أو جزئية لمراكز أخرى مثل ماري أو جبيل "⁽²⁷⁾

ويشير كلينغل إلى "أن النقص في المواد الخام اللازمة للبناء والنحت والصياغة ، أدى إلى تحريض مدن المشرق كي تفعل تجارتها نحو بلدان بعيدة مثل أفغانستان ووادي السند ومصر مروراً بإيران. وكون أن الفرات الأوسط يقع في وسط هذا الخط التجاري العالمي ، فقد أخذ أهمية قصوى في الألف الثالث قبل الميلاد عبر مدينة ماري."⁽²⁸⁾

هذا من جهة مدن المشرق العربي ، أما لجهة مواقع الخليج العربي والتي ساهمت ومارست التجارة بين مدن المشرق وشبه القارة الهندية ، فقد أماطت الكشوفات الأثرية في مواقع الخليج العربي البحرية على أنه ومنذ الألف الرابع قبل الميلاد ، قامت مواقع الخليج العربي بدور الوساطة بين مواقع المشرق العربي وشبه القارة الهندية ، حيث شهدت

الهواش

١- مرجع سابق.

EXPOSITION SYRO – EUROPE'ENNE D'AERCHE'OLOGIE
MARI- MARGUERON٢- د. فيصل عبد الله. قراءة في خمسة مجلدات عن ماري. دراسات تاريخية.
38. 37.٣- وثائق الآثار السورية. مارجرون "الفرات الأوسط في عصر البرونز" وزارة
الثقافة السورية 2002٤- المرجع السابق. التغييرات البيئية واستثمار الأراضي ونظم الاستيطان.
أوليفية روو.٥- المساهمة الفرنسية في دراسة الآثار السورية. I.F.A.P.O. 1989.
دمشق. جبر. ج.إ. منشائير. لاستكشاف وادي الفرات الأوسط.

٦- المرجع السابق. مارجرون. ماري.

٧- د. علي أبو عساف. آثار الممالك القديمة في سورية. وزارة الثقافة السورية
1988.8- A. PARROT: MARI; CAPITALE FABULEUSE. PAYOT. 1974
PARIS٩- مارك لوبو - طرق الاتصال في بلاد الرافدين العليا في الألف الثالث ق. م.
الحوليات الأثرية السورية مجلد 43.

١٠- ألفرد هالدان. العموريين. ت. شوقي شعث. دار الأبجدية. دمشق 1993

١١- مارك لوبو. مصدر سابق.

١٢- د. علي أبو عساف. مصدر سابق.

١٣- د. علي أبو عساف. مصدر سابق.

١٤- ألفرد هالدان. مرجع سابق.

١٥- المرجع السابق.

١٦- د. فيصل عبد الله. مرجع سابق.

١٧- أرنولد توينبي. تاريخ البشرية. 2. نقولا زيادة. دار الأهلية. بيروت
1984.

١٨- المرجع السابق.

١٩- جورجيو بوتشيلاتي ترقا. كتاب أضواء جديدة على تاريخ آثار بلاد
الشام. مطبعة عكرمة 1989. ت. قاسم طوير. دمشق٢٠- الفونسو آركي. من دراسة د. علي أبو عساف. إبلا ماري قطبان في دورة
حضارية واحدة. مجلة البناء اللبنانية العدد 732 1990/4/21٢١- علي أبو عساف. فنون الممالك القديمة في سورية. دار شمال. دمشق
1993.

٢٢- جان كلود مارجرون. وثائق الآثار السورية. مرجع سابق.

٢٣- مرجع سابق.

EAN MARGUERON; EXPOSITION SYRO – EUROPE'ENNE

٢٤- علي أبو عساف. طريق الحرير والطرق التجارية الأقدم. دراسات
تاريخية 1991. 40. 39. دمشق٢٥- هورست كلينغل [تاريخ سورية السياسي] 3000. 300 ق. م. ت.
سيف الدين دياب. دار المتنبي. دمشق 1998.

٢٦- عيد مرعي. إبلا. دار الأبجدية. دمشق ١٩٩٦.

٢٧- هورست كلينغل. الفرات الأوسط والتجارة الدولية خلال العهد البابلي
القديم. الحوليات الأثرية السورية 34.٢٨- هورست كلينغل. "التجارة في بلدان المشرق القديم والتفاعل مع
جزيرة كريت في الألف الثالث ق. م. أضواء جديدة في تاريخ وآثار بلاد
الشام. مرجع سابق.٢٩- محمد حرب فزات. العلاقات الحضارية بين بلاد الخليج العربي وشبه
القارة الهندية حتى الألف الأول قبل الميلاد. دراسات تاريخية. العدد
38. 37. 1990. دمشق. جامعة دمشق.

٣٠- مصدر سابق.

JEAN MARGUERON

ويشير جورج دوسان في كتابه / الأرشيفات الاقتصادية لماري /
إلى أن السفن في ماري كانت على أنواع منها الصغيرة والكبيرة ، وثمة
سفن متخصصة في نقل الخمر أو أحجار الجواريش وكذلك الاسفلت أو
الحبوب. ونعتقد أن تنظيم أمور الملاحة النهرية كان يتطلب وجود
مؤسسة تعنى بهذا الأمر ، وتشير وثائق الألف الثاني في ماري إلى أن
أحد الملاحين وقبل أن يصل إلى مرفأ إيمار كان ينتظره ستون رجلاً
لتمهيد الطريق حيث يتجه نحوه الحرس وملاح خبير يارشاد السفن ،
كما تكون بانتظاره ثلاثون طوافاً.

وبالإضافة إلى الفرات لعب نهر الخابور دوراً مهماً في الاتصالات
التجارية الشمالية والجنوبية وذكرنا سابقاً أن سلطة ماري كانت قد
أنشأت قناة ملاحية / قناة داورين / كانت تربط الخابور بالفرات في
المنطقة اليسرى على مستوى البوكمال عند باغوز ، وكان طول هذه
القناة 120 كيلومتراً وعرضها 20 متراً ومصّبها 30 متراً.

ويبدو أنه من أجل تأمين هذا الخط التجاري / كونه يؤمن التجارة
الشمالية / كان لابد لماري من إخضاع مثلث الخابور لفاعليتها لضمان
وتأمين هذا الخط لها يؤمنه أيضاً من احتكاك بين الممالك في سفوح
الجبال مع الفرات ومدينة ماري. أما الملاحة في نهر الخابور فالذي يبدو
أن سرعة جريان الخابور تفوق سرعة جريان الفرات وهذا ما شكّل عقبة
أمام النقل النهرى ، ولأجل تجاوز هذه المشكلة عمد الماريون إلى ربط
أثقال من الحجر بحيث تحتك بقاع النهر وذلك للحد من سرعة المراكب
المتركة لتسير نزولاً مع مجرى النهر. في حين أن الملاحة الصاعدة
كانت تعتمد حصراً على السفن المقطورة ، بحيث أن هذا يتطلب جهداً
لا يستهان به من البشر. ⑩

نستنتج مما سبق أن ماري الألف الثالث امتلكت أدوات التفاعل
مع البيئة الطبيعية ، واستطاعت تطويع الفرات والخابور وفقاً
لمتطلباتها الملاحية والمائية وعلى هذا نفهم مقولة جان كلود مارجرون
من أن "الفرات سمح لسورية أن تشرع بعملية التمدن ، ذلك أنه يسّر
لها التطور من خلال العلاقات التجارية انطلاقاً من البلاد السومرية في
الألف الرابع قبل الميلاد ، وهو دائماً وللأسباب ذاتها الذي ضمّن تطور
سورية الداخلية في الألف الثالث قبل الميلاد". (30)



⑩ للمزيد. انظر أندره فينه. الحوليات الأثرية السورية عدد 34. نهر الخابور عبر
وثائق مدينة ماري. وكذلك دراسة الدكتور علي أبو عساف " إيمار وحوض الفرات
الأوسط بين مملكتي إبلا وماري " 1991. وهي غير منشورة.

تمتاز

منطقة الخليج^(١) بموقع استراتيجي فريد في الخريطة الدولية إذ أنه يعد أحد الطرق الرئيسية لنقل التجارة بين الشرق والغرب فالطريق الذي يمر به ينقل بضائع الهند والشرق الأقصى إلى العراق فالشام ومن ثم إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط ومنها تنتقل إلى أوروبا.^(٢)

وقد ساعدت جغرافية الخليج في تسهيل المرور التجاري بمياهه فالسواحل الخليجية تمتاز بالخلجان والأخوار^(٣) مما وفر للسفن حواجز تحميها من أمواج الرياح العاتية ، بالإضافة إلى أنها سهلت رسو السفن التجارية به ، كما منحت تلك السفن ملاجئ طبيعية آمنة عند تعرضها للهجوم بالإضافة إلى أن الرياح الموسمية التي تهب على منطقة الخليج ساعدت في دفع السفن التجارية المتجهة نحو الهند وأفريقيا.^(٤) وفضلاً عما سبق فإن قرب الخليج من الهند قد أضاف إليه أهمية خاصة فلا يخفى على القارئ أن الهند كانت الثروة التي تتصارع عليها القوى الاستعمارية الغربية ، وعندما نجحت بريطانيا في السيطرة على الهند أدركت أن المحافظة عليها لا تأتي إلا بتأمين الطرق المؤدية إليها والتي على رأسها مياه الخليج فاستقرار وجودهم بالهند يرتبط باستقرار نفوذهم في الخليج.^(٥)

إن المميزات السابقة التي تتحلى بها المنطقة جعلتها تحتل حيزاً كبيراً في "المخطط الاستعماري" للدول الأوروبية ولو أردنا أن نسجل مراحل الوجود الأوروبي في موانئ الخليج لعُدنا إلى عام ١٥٠٧/٩١٣ م حينما وصل البرتغاليون إلى مياه الخليج وقاموا بهجماتهم الوحشية موانئه فاستولوا على قلهات ،^(٦) ثم تقدم الأسطول البرتغالي للسيطرة على مسقط وأشعل النيران فيها وتلى سقوط مسقط استسلام صحار^(٧) ومنها توجه الأسطول البرتغالي نحو خور فكان^(٨) وحينما قضت على مقاومة أهلها توجهت الأطماع البرتغالية إلى هرمز فتمكنوا في عام ١٥٠٧/٩١٣ م من فرض سيطرتهم على هرمز^(٩) التي تعد بوابة الخليج وفيها بنيت قلعة لتكون قاعدة للوجود البرتغالي في المنطقة.^(١٠)

وقد اتسمت الهجمات البرتغالية السابقة بأشد أنواع الوحشية والتدمير إذ لم تكتف الأساطيل البرتغالية بنهب تلك المدن بل أشعلت النيران في أرجائها واقتادت سكانها أسرى ولولا ضيق السفن الغازية عن حمل سكان تلك المدن "كأسرى" لما أطلق سراحهم وحتى هذا الأمر لم يتم إلا بعد أن نكلت بسكانها بوحشية شديدة فجذعت أنوفهم وصلمت^(١١) آذانهم^(١٢).

أصبحت البرتغال منذ هذا التاريخ القوة المسيطرة على منطقة الخليج والمتحكمة في موانئه وتجارته وضيقوا على السكان المحليين ومنعواهم من ممارسة التجارة في مياه الخليج إلا بإذنهم واستمرت القبضة البرتغالية على منطقة الخليج لما يزيد على قرن من الزمان ، ففي أوائل القرن الحادي عشر الهجري - القرن السابع عشر الميلادي بدأت الهيمنة البرتغالية تتعرض إلى:

- ١- مقاومة محلية تمثلت في قيام دولة اليعاربة.
- ٢- منافسات أوروبية جديدة^(١٣).



التنافس الأوربي حول منطقة الخليج في مطلع العصور الحديثة

منال المريطب

محاضر - قسم التاريخ

جامعة الملك عبد العزيز

جدة - المملكة العربية السعودية

manal_mriteb@hotmail.com



الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

منال المريطب ، التنافس الأوربي حول منطقة الخليج في مطلع العصور الحديثة - دورية كان التاريخية - العدد الثامن يونيو ٢٠١٠.

ص ٥٢ - ٥٩ (www.historicalkan.co.nr).



١ - دولة اليعاربة

يبدأ تاريخ أسرة اليعاربة^(١٤) في المنطقة حينما التف أهالي عمان حول ناصر بن مرشد اليعربي وبايعوه بالإمامة عام ١٠٣٤هـ / ١٦٢٤م لما اشتهر به من العدل والاستقامة ، وما أن تسلم ناصر اليعربي زمام الحكم حتى بدأ في توحيد عمان المنقسمة حينذاك إلى زعامات محلية عديدة في الداخل بينما كانت أبرز المدن الساحلية بيد البرتغال فنجح ناصر اليعربي في السيطرة على نزوى^(١٥) ، وسمايل^(١٦) ، وغيرها من المناطق الداخلية^(١٧) .

ثم بدأ في الأربعينات من القرن السابع الميلادي الحادي عشر الهجري يكرس جهوده ضد الحاميات البرتغالية في الساحل حيث تمكن من الاستيلاء على مدن عدة منها: جلفار^(١٨) ، وصور^(١٩) ، وصحار^(٢٠) ، وفرض الحصار على مسقط عام ١٠٥٣هـ / ١٦٤٣م حتى اجبر البرتغاليين على عقد اتفاق ينص على فرض الجزية على البرتغاليين مقابل احتفاظ البرتغاليين بمسقط ، اعتبرت القوات البرتغالية هذه الشروط مذلة لهم فقررروا استئناف الحرب إلا أن ناصر بن مرشد جهز حملة أخرى عام ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م أرغمت الحامية البرتغالية على الانصياع لشروط الاتفاق السابق^(٢١) .

وبعد وفاة الإمام ناصر بن مرشد عام ١٠٥٩هـ / ١٦٤٩م بويغ ابن عمه سلطان بن سيف بالإمامة ، وقد سار على خطا سلفه في منازلة الحاميات البرتغالية المتبقية في الساحل العماني فنجح في طرد البرتغاليين من مسقط عام ١٠٦٠هـ / ١٦٥٠م وانتزع منهم كلاً من صور وقربات^(٢٢) ، ولم يكتف بطرد البرتغاليين من عمان بل تعقبهم في مستوطناتهم في سواحل الهند ، فأرسل سفنه لمهاجمتهم هناك وغنم منهم الكثير من الغنائم^(٢٣) . كما طاردت الأساطيل العمانية السفن البرتغالية في شرق إفريقيا تلبية لنجدة المسلمين هناك الذين استبد بهم جبروت البرتغال ، فتمكنت سفنه من السيطرة على مهباسة قاعدة الوجود البرتغالي في شرق إفريقيا ، وعلى كلوة^(٢٤) ١١١١هـ / ١٦٩٩م وبدأ بذلك الحكم العماني في شرق إفريقيا^(٢٥) .

أما على الصعيد الداخلي ، فقد قام سلطان بن سيف بإصلاحات عسكرية وعمرانية عديدة حيث قام بشراء الأسلحة والخيول وبنى القلاع بالإضافة إلى عمارة الأسواق والاهتمام بشؤون التجارة الأمر الذي جعل عمان في عهده تمتاز بالاستقرار والرخاء الاقتصادي^(٢٦) .

وبعد وفاته بويغ ابنه بلعرب بن سلطان إلا أن حكمه لم يدم طويلاً إذ ثار عليه أخوه سيف وعجز بلعرب عن قمع أخيه سيف الذي تمكن من فرض سيطرته على القلاع الرئيسية في عمان وقبض عليه أخيه فاضطر أعيان عمان لمبايعة سيفاً بالإمامة عام ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م^(٢٧) . وقد بلغت عمان في عهده قمة ازدهارها وأوج قوتها ، واستمر في نهج أسلافه من حيث تعقب البرتغاليين في سواحل الهند وإفريقيا ، كما قام بالعديد من الإصلاحات الداخلية فاعتنى بالزراعة وانتعشت التجارة في حكمه الطويل الذي استمر أكثر من أربعين عاماً^(٢٨) .

امتد النفوذ السياسي لليعاربة ليشمل عمان وجنوب الجزيرة العربية وسواحل شرق إفريقيا غرباً وسواحل وادي السند شرقاً ، أما النفوذ الاقتصادي فامتد لإيران والعراق والجزيرة العربية^(٢٩) .

وهناك عوامل ساعدت الدولة اليعربية على تحقيق النصر في نزاعها مع البرتغاليين ولعل من أهم تلك العوامل:

- ١- توحيد كلمة العمانيين والتفاف عامة الناس وعلمائهم حول ناصر بن مرشد اليعربي ومبايعته وخلفائه بالإمامة^(٣٠) .
- ٢- المنافسة التي واجهت النفوذ البرتغالي في المنطقة على يد الإنجليز والهولنديين والتي بلغت أشدها بتحالف الإنجليز مع الفرس ونجاحهم معاً في السيطرة على معقل البرتغال الحصين في هرمز عام ١٠٣٢هـ / ١٦٢٢م ، بالإضافة إلى التدهور السياسي الذي أصاب البرتغال في أعقاب وقوعها تحت الاحتلال الإسباني عام ١٠٨٨هـ / ١٥٨٠م^(٣١) .
- ٣- اهتمام أئمة اليعاربة ببناء السفن وتقوية أساطيلهم البحرية فغقد في هذا الصدد اتفاقيات مع ملوك الهند حصلوا بمقتضاها على حق بناء السفن في الموانئ الهندية وتركوا البناء التقليدي للسفن العمانية واستخدموا نوع متطور للسفن الحربية التي تحاكي في طرازها السفن الأوروبية^(٣٢) من حيث تزويدها بالمدافع ، فقد قدرت المدافع التي تحملها السفن العمانية بـ ٨٠ مدفعاً ففي ظل الحكم اليعربي أصبحت عمان أكبر قوة بحرية غير أوروبية في منطقة الخليج^(٣٣) .
- ٤- أن الوجود البرتغالي اتسم بالعنف والقسوة واضطهاد السكان والتدخل في الشؤون الداخلية للمنطقة ، واحتكار تجارة العمانيين لأنفسهم^(٣٤) .
- ٥- عمد اليعاربة إلى تأمين طرق أساطيلهم البحرية ولتحقيق ذلك اتخذوا لهم مراكز ثابتة على الخليج وسواحل شرق أفريقيا^(٣٥) .
- ٦- موجة الاضطراب وعدم الاستقرار التي اجتاحت فارس إذ تعرضت البلاد للاحتلال الأفغاني ثم للتدخل الروسي والعثماني والذي صرف اهتمامها عن منطقة الخليج مما ساهم في بروز قوة اليعاربة في المنطقة^(٣٦) .

٢ - المنافسة الأوروبية الجديدة

لم يتعرض الوجود البرتغالي في منطقة الخليج لهجمات اليعاربة فحسب بل إن البرتغاليين قد واجهوا منافسة شرسة من قبل قوى استعمارية جديدة جاءت إلى المنطقة بهدف كسر الاحتكار البرتغالي واقتسام ثروات المنطقة وتمثلت تلك القوى في الهولنديين والإنجليز .

الوجود الهولندي:

أغرت ثروات الشرق المطامع الهولندية لذلك وطدوا عزمهم على الوصول إلى الهند والمشاركة في الأرباح الطائلة التي يحصل عليها البرتغاليون ، فبدأت البعثات الهولندية تشق طريقها نحو المياه الشرقية بهدف الوصول إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وحينما تمكن البحار الهولندي فان لينشوتن Vanlinschoten من الوصول إلى الهند ووصف الطريق إليها سهلت المهمة أمام البعثة الثانية بقيادة كورنيليس هوتمان CornelisHautman وتمكنت من الوصول إلى الهند عام ١٠٠٧هـ - ١٠٩٨م^(٣٧) ، وفتحت الطريق أمام الأساطيل الهولندية وشجع هذا الأمر التجار الهولنديين فتمكنوا من توحيد أهدافهم تحت مظلة "شركة الهند الشرقية الهولندية" التي تأسست في عام ١٠١١هـ / ١٦٠٢م ومن صلاحياتها مزاوله التجارة مع الشرق وتأسيس مراكز تجارية لها في تلك الجهات تكون بصورة أخرى أداة للوجود الهولندي هناك^(٣٨) .

وقد استفادت الشركة البريطانية من الصراع الفارسي البرتغالي الذي جاء بعد احتكار الأخيرة لتجارة منطقة الخليج ، وفي ظل هذا العداء نجحت الشركة البريطانية في التقرب من البلاط الفارسي والحصول على امتيازات جديدة لرغبة الشاه في التخلص من الاحتكار البرتغالي لتجارة الخليج وإدخال قوى أخرى تقدم عروض منصفة للفرس بعيدة عن المطاعم البرتغالية المتزايدة ، وفي هذا الصدد قدم الشاه الفارسي امتيازات للشركة البريطانية إذ حولها الحق في إقامة وكالة تابعة لها في ميناء جاسك^(٤٨) حتى يتسنى لها مواصلة التجارة في المنطقة بعيداً عن المضائق البرتغالية المتوقعة لهم في مضيق هرمز^(٤٩) . وتمت الاستفادة من هذا الامتياز في عام ١٠٢٥ هـ/١٦١٦ م إذ قدمت سفن إنجليزية محملة بالبضائع إلى جاسك وأقامت بها مركز تجاري لشركة الهند البريطانية في ظل الترحيب الفارسي ، كما نجحت الشركة في الحصول على الموافقة الفارسية لإنشاء مركز تجاري آخر في أصفهان ، والتجارة الرئيسية التي مارسها الإنجليز في المراكز الفارسية هي مقايضة الأصواف الإنجليزية بالحرير الفارسي^(٥٠) .

أما على صعيد المساعي البريطانية في الهند ، فقد سبق التقدم الإنجليزي نحو الخليج إذ حقق الإنجليز نجاحاً في إثبات وجودهم بالهند منذ عام ١٠٢٢ هـ/١٦١٣ م ، حيث تمكنت شركة الهند الشرقية البريطانية من إقامة مركزاً تجارياً لها في الساحل الغربي للهند وتحديداً في ميناء سورات^(٥١) الذي لا يبعد كثيراً عن المراكز البرتغالية هناك^(٥٢) .

وفي ظل غزو الأساطيل الإنجليزية الجديدة لمستعمرات الهند الشرقية واحتكارها لقسم من خيراتها كان الصدام بين البرتغاليين والغزاة الجدد أمراً متوقعاً ، ففي عام ١٠٣١ هـ/١٦٢١ م التقى الأسطول البرتغالي بنظيره الإنجليزي في مواجهة عسكرية بينهما تمكن فيه الأخير من تحقيق النصر ، ومع بداية الصدام البرتغالي - الإنجليزي حدث التقارب الإنجليزي - الفارسي بشكل أوثق ، فقد انضم الأسطول البريطاني للقوات الفارسية في هجوم مشترك ضد معقل البرتغاليين الحصين في هرمز عام ١٠٣٢ هـ/١٦٢٢ م وانتهت الهجمة المشتركة بتحرير هرمز من الاحتلال البرتغالي ، ويعد تحرير هرمز بداية النهاية للوجود البرتغالي بمنطقة الخليج^(٥٣) .

وخلال النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي بدأت الأساطيل الهولندية تغزو المياه الشرقية محطمة فيها الاحتكار البرتغالي لتجارة الشرق إذ نجح الهولنديون في عام ١٠١٤ هـ/١٦٠٥ م في إحكام قبضتهم على تجارة التوابل في جزر الهند الشرقية وانتزاعها من البرتغال بعد سلسلة من المعارك بين الطرفين^(٣٩) .

ومن المفيد الإشارة إلى أن الهولنديين حينما توجهوا إلى جزر الهند الشرقية كان الإنجليز قد ظهروا على الخارطة البحرية إذ بدأت أساطيلهم تحوب في بحار المنطقة للأهداف ذاتها لذلك فإن الهولنديين لم يواجهوا منافسة من قبل السفن البرتغالية فحسب بل كان عليهم أن يواجهوا الوجود الإنجليزي الجديد فخلال الفترة (١٠٢٨ هـ/١٠٢٩ - ١٦١٩/١٦١٨ م) تمكنت الأساطيل الهولندية من أسر أكثر من عشرين سفينة إنجليزية^(٤٠) ، وحينما بلغ الصدام بينهما حدّاً أضر بمصالحهما التجارية بدأت الميول تتجه للطرق السليمة لإنهاء الخلافات بين الشركتين ، وتم التوصل للاتفاق في عام ١٠٢٩ هـ/١٦١٩ م وافق فيه الهولنديون على تسليح السفن البريطانية لمواجهة البرتغاليين المقيمين في هرمز^(٤١) .

إن الاتفاق السابق قد كفل لهولندا تحقيق حلمها وهو الوثوب إلى منطقة الخليج وإيجاد مراكز تجارية لها في تلك الجهات ، وشرج التعاون الهولندي البريطاني عام ١٠٣٥ هـ/١٦٢٥ م حينما نجح الحليفان في إلحاق هزيمة كبيرة بالأسطول البرتغالي بالقرب من ميناء بندر عباس واستغلت الحكومة الهولندية هذه النتيجة فاتخذت من هذا الميناء مركزاً تجارياً لها وعملت على فرض سيطرتها على تجارة المنطقة وفي مقدمتها التوابل^(٤٢) . واتبعوا ذلك بفتح مراكز تجارية جديدة في مناطق أخرى كأصفهان^(٤٣) وجزيرة قشم^(٤٤) .

وبعد أن تخلص الحليفان شركتا الهند الهولندية والبريطانية من الاحتكار البرتغالي بدأ التضارب في مصالح الحليفين وأصبح حلفاء الأمس هم أعداء اليوم ، وقبل الحديث عن مجريات التنافس الإنجليزي - الهولندي لابد من الإشارة ل بدايات الوجود البريطاني في منطقة الخليج .

الوجود البريطاني في منطقة الخليج:

منذ أواخر القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي نجحت بريطانيا في تأكيد وجودها الأوروبي كقوى ناشئة لا يستهان بها ، وذلك على أثر انتصارها على إسبانيا القوى العظمى آنذاك في معركة الأرمادا عام ٩٩٧ هـ/١٥٨٨ م بدأت السياسة البريطانية توجه أنظارها نحو ثروات الشرق ومشاركة البرتغاليين في اقتسام خيرات الهند ، ولم تنطلق الأساطيل البريطانية بثبات نحو المياه الشرقية إلا عندما وضع أساس الإدارة الاستعمارية البريطانية الجديدة الممثلة في شركة الهند الشرقية البريطانية والتي تأسست بمرسوم ملكي^(٤٦) في أواخر عام ١٠٩٠ هـ/١٦٠٠ م .

وخلال تلك الفترة قام الأخوين أنطوني وروبرت شيرلي بدور كبير في تمهيد الطرق أمام التجارة البريطانية لتصل إلى المنطقة ، فقد أوفدت الحكومة البريطانية الأخوين لبلاد فارس وذلك لمقابلة الشاه الفارسي عباس الصفوي والحصول منه على امتيازات للتجار البريطانيين وصيانة ممتلكاتهم ، ومع تلك المساعي انطلقت أساطيل شركة الهند الشرقية البريطانية نحو الهند ومنطقة الخليج^(٤٧) .



وفي ظل تلك التطورات بدأ التدهور الهولندي في منطقة الخليج ، فلم يشارف القرن الثالث عشر الهجري - الثامن عشر الميلادي على الانتصاف إلا وهولندا تفقد مراكزها التجارية هناك بالتدريج ابتداءً من البصرة ، ومروراً ببوشهر ، وبندر عباس وأخيراً فقدوا مركزهم الأخير في جزيرة خارج^(٦٢) بعد أن ارتكبوا أعمالاً أثارت غضب سكان الجزيرة فتمكن أميرها مهنا بن نصر من طردهم نهائياً من الخليج عام ١١٧٩هـ / ١٧٦٥م ، وبخروج الهولنديين من تلك الجزيرة انهار تماماً النفوذ الهولندي في منطقة الخليج وأصبحت بريطانيا هي القوى العظمى الهيمينة على منطقة الخليج العربي^(٦٣) .

الوجود الفرنسي في منطقة الخليج:

دخلت فرنسا حلبة الصراع على ثروات الشرق متأخرة نوعاً ما فلم تظهر على مسرح الأحداث إلا في عام ١٠٧٥هـ / ١٦٦٤م حينما تأسست بصورة فعلية شركة الهند الشرقية الفرنسية ووجهت أنظارها مباشرة إلى الحكومة الفارسية ، إذ وصل ممثلو الشركة إلى بلاط الشاه الفارسي أملاً في تأسيس فرع للشركة في السواحل الفارسية ، وتم لهم الأمر عندما أذن لهم الشاه بتأسيس وكالة فرنسية في بندر عباس عام ١٠٧٨ / ١٦٦٧م وأخرى في أصفهان^(٦٤) .

ويمكن القول بأن الوجود الفرنسي حتى النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري - الثامن عشر الميلادي لم يكن له تأثير واضح في مجريات الأحداث في منطقة الخليج ، وذلك بسبب انغماس فرنسا بحروبها داخل القارة الأوروبية ، فضلاً عن الاحتكار الهولندي والبريطاني لتجارة المنطقة ولكن مع بداية النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري - الثامن عشر الميلادي وفي أعقاب السيطرة الفرنسية عام ١١٢٨هـ / ١٧١٥م على جزيرتي "موريشيوس والبوربون"^(٦٥) في المحيط الهندي بدأت الحكومة الفرنسية تضع مخططاتها في سبيل تقوية الاتصال التجاري بين هاتين الجزيرتين ومنطقة الخليج فأنشأت لها وكالة جديدة في البصرة عام ١١٦٩هـ / ١٧٥٥م^(٦٦) .

ولم يبدأ الدور الفرنسي في الخليج يعطي ثماره إلا واصطدمت الحكومة الفرنسية بنظيرتها الإنجليزية ونشبت بينهما في أوروبا حرب السنوات السبع (١١٧٠هـ / ١١٧٧هـ - ١٧٥٦م / ١٧٦٣م) وامتد تأثيرها للقواعد التجارية في الخليج ، وقد أسفرت تلك الحرب عن انتصار بريطانيا وتأكيد تفوقها في الشرق بموجب صلح باريس ١١٧٧هـ / ١٧٦٣م والذي تنازلت فيه فرنسا لبريطانيا عن معظم ممتلكاتها في الهند ما عدا بعض المراكز والجزر القليلة في المحيط الهندي ، وبهذا عاد التفوق البريطاني على مسرح الأحداث الخليجية من جديد حتى بلغ الأمر بفرنسا أن قامت بحل شركة الهند الشرقية الفرنسية عام ١١٨٤هـ / ١٧٧٠م^(٦٧) .

وبطبيعة الحال ؛ فإن شركة الهند الشرقية البريطانية لم تقدم المساعدة للشاه الفارسي إلا بعد أن حصلت على امتيازات جديدة في مقدمتها إقامة مركز تجاري جديد للشركة في هرمز ، وإعفاء البضائع البريطانية من الرسوم الجمركية ، واقتسام عوائد هرمز مع الفرس^(٥٤) . ولم يرضخ البرتغاليون لتلك الهزيمة ، فحاولوا مجدداً السيطرة على هرمز وهنا بدأ التعاون الإنجليزي - الهولندي ، إذ استعان الفرس وحلفاؤهم الإنجليزي بخدمات الأسطول الهولندي وتمكن الحلفاء من صد الهجوم البرتغالي قرب بندر عباس^(٥٥) عام ١٠٣٥هـ / ١٦٢٥م ، وقد أشرنا إلى أن هذا التعاون وضع أقدام هولندا بثبات في منطقة الخليج وفرضوا نفوذهم التجاري على ميناء بندر عباس^(٥٦) .

وخلال القرن السابع عشر الميلادي برز التفوق الهولندي في منطقة الخليج ، إذ نجحوا في التقرب من الشاه الفارسي ، وانتزاع امتيازات عديدة من الحكومة الفارسية وعلى رأسها حصولهم على امتياز تجارة التوابل والحرير الفارسي^(٥٧) .

إن التفوق الهولندي الواضح في منطقة الخليج أضر كثيراً بمركز الإنجليز التجاري في تلك المنطقة ، ولعل التنافس التجاري بين هولندا وانجلترا في مياه الخليج كان من أسباب الحرب بين الدولتين في أوروبا في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري - السابع عشر الميلادي ، وخلال تلك الحرب استمر التفوق الهولندي في منطقة الخليج إذ نجحوا في إلحاق هزائم بالأسطول البريطاني في منطقة الخليج وأكدوا هيمنتهم التجارية فيها^(٥٨) .

ولعل من أهم العوامل التي ساعدت شركة الهند الهولندية على هذا التفوق اعتماد الشركة على أسطول بحري قوي ، بالإضافة إلى أن الحكومة الهولندية قد منحت الشركة استقلالية كاملة ، ومنحتها الحق في عقد الاتفاقيات والمعاهدات ، وتحديد العلاقات مع حكومات المشرق في ظل قوة عسكرية قادرة على تحقيق أهدافها ، وحماية مصالحها التجارية في تلك المناطق ، بينما افتقدت شركة الهند البريطانية تلك الصلاحيات ، إذ أن الحكومة البريطانية لم تقدم لشركة الهند البريطانية الدعم السياسي والعسكري الكافي نظراً لأنها كانت تعتبرها شركة تجارية تخص القطاع الخاص^(٥٩) .

استمر التفوق الهولندي في الخليج حتى أواخر القرن الحادي عشر الهجري - السابع عشر الميلادي ، ثم بدأ الميزان يرجح لكفة الإنجليز وذلك على أثر الصراع الذي نشب بين هولندا وفرنسا عام ١٠٨٣هـ / ١٦٧٢م ، ونجاح الأخيرة في تدمير الأسطول الهولندي مما جعل هولندا تبحث عن مساعدة إنجلترا حليفها القديمة فاجتمعت مصالحهما مرة أخرى في إيقاف المد الفرنسي في أوروبا عام ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م وقدمت القوات البريطانية مساعدات عسكرية لهولندا في مقابل خضوع المصالح الهولندية للسياسة الإنجليزية^(٦٠) .

ومن جهة أخرى ؛ فإن الحكومة البريطانية رأت ضرورة توسيع صلاحيات شركة الهند في الشرق فطبعت النشاط التجاري بالطابع السياسي ، بمعنى أنها فوضت الشركة حق الدخول في معاهدات ومفاوضات لضمان مصالحها بل إنها أصدرت مرسوماً ملكياً عام ١٠٧٢هـ / ١٦٦١م منح الشركة الحق في إعلان الحرب وعقد الصلح مع حكام الشرق غير المسيحيين ، وتجهيز الجيوش ، وإقامة المستعمرات ، ومع بداية القرن الثامن عشر الميلادي أصبحت الإجراءات السياسية في الشرق من اختصاص شركة الهند الشرقية^(٦١) .



فرنسا عام ١٢٣٠هـ / ١٨١٤م تنازلت عن موريشيوس لبريطانيا بمقتضى صلح باريس ، وبذلك نجحت بريطانيا في الحد من النشاط الفرنسي في المياه الشرقية وتمكنت من الإنفراد بالمنطقة وتشديد قبضتها عليها^(٧٥).

الهوامش

- (١) دار جدل بين المؤرخين منذ الخمسينات من هذا القرن حول المسمى الصحيح للخليج هل هو الخليج العربي ؟ أم الخليج الفارسي ؟ ولتوضيح سبب اللبس نعود للواء لعهد الإسكندر الأكبر (٣٥٦-٣٢٣ ق م) حينما نجح قائد أسطوله نيارخوس عام ٣٢٥ ق م في الوصول إلى الهند والعودة إلى العراق مخترقاً مياه الخليج ولم يتعرف القائد الروماني في رحلته على الساحل العربي من الخليج إنما عبر أسطوله السواحل الفارسية فقط لذلك أطلق عليه مسمى " الخليج الفارسي " ، ومع قدم هذا المسمى فإن مسمى الخليج العربي ظهر أيضاً في كتابات المؤرخين القدامى " فالمؤرخ الروماني بليني (٦٢-١١٣ م) أطلق عليه " الخليج العربي " ، وحتى لا يكون مسمى الخليج مثار جدل وخلاف بين المؤرخين المسلمين العرب والفرس فلا بد من احترام قناعات كل منهما في هذا الصدد أو على أقل تقدير تسميته بالخليج درأ للخلاف السياسي بينهما على التسمية ، عبد الرحمن النعيمي : الصراع على الخليج العربي (بيروت : المركز العربي الجديد ، ١٩٩٢م) ص ١٣٢-١٣٣ ، قذري قلعي ، الخليج العربي ، بحر الأساطيل ، ط ٢ (بيروت : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، ١٩٩٢م) ص ٧-٨ .
- (٢) محمد شبيبة السالمي ، نهضة الأعيان بحرية عمان ، (بيروت : دار الجيل ، ١٩٩٨م) ص ١٠ ، روبرت لاندن ، عمان منذ ١٨٥٦ مسيراً ومصبيراً ، ترجمة : محمد ابن عبد الله ، (مطر : المطبعة الشرفية ، د.ت) ، ص : ١١ ، ١٤ ، محمد متولي ، حوض الخليج العربي ، ج ١ (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٨م) ص ٢٣-٢٤ ، عبد القوي فهمي ، القواسم ونشاطهم البحري وعلاقتهم بالقوى المحلية والخارجية ، ص ٤ ، ١٧٤٧م- ١٨٥٣م : نوال الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي (الرياض : مطابع دار الهلال ، ١٩٨٣م) ص ٤٥-٤٦ : فؤاد العابد ، سياسة بريطانيا في الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، (الكويت : ذات السلاسل ، ١٩٨١م) ص ٢١ .
- (٣) أخوار : جمع خور وتعد من أبرز خصائص ساحل الخليج وهي عبارة عن السنة من البحر تتوغل في اليابس بضعة كيلومترات ويرجع تكوينها إلى عوامل عدة منها تراكم الرواسب الهوائية والتيارات البحرية ومن العوامل أيضاً ظاهرة المد والجزر التي تعد أولى خطوات تكون الأخوار ، خالد المطري ، جغرافية الخليج العربي ، ط ٢ (جدة : الدار السعودية ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م) ، ص : ٣٦ .
- (٤) متولي ، حوض الخليج العربي ، ص ٢٤-٢٥ ، ٣٦ ، ٤٠ ، المطري ، جغرافية الخليج ص ٣٠ ، ٤٠ .
- (٥) جون كلي ، بريطانيا والخليج ، ج ١ ، ترجمة محمد أمين عبد الله (مصر : مطبعة عيسى البابلي الحلبي ، ١٩٦٥م) ص ٩٥ ، سمير أبو ياسين ، العلاقات العمانية البريطانية (البصرة : مطبعة جامعة البصرة ، ١٩٨١م) ص : ١٦-١٧ ، العابد ، سياسة بريطانيا في الخليج العربي ص : ٢٥ .
- (٦) قلها : يذكر الحموي أنها " تقع على ساحل البحر إليها ترفأ أكثر سفن الهند عامرة أهلة ، وليست بالقديمة في العمارة " ويقول عنها ابن بطوطة " مدينة قلها على الساحل وهي حسنة الأسواق ، ومعيشتهم بها مما يأتي إليهم من البحر الهندي " وقد ازدهرت هذه المدينة في القرن السادس الهجري ولكنها خربت على أيدي البرتغال حينما قاموا بحملتهم على المنطقة ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٧ (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، د.ت) ص ٨٥ : محمد بن عبد الله اللواتي شهرته ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظائر في غرائب الأمصار

ومع أن تلك الأحداث كانت تؤكد التفوق البريطاني في منطقة الخليج إلا أن هذا لا يعني تخلي فرنسا عن مطامعها الاستعمارية واستسلامها للاحتكار البريطاني لثروات الشرق وقد ترجم هذا الأمر في أعقاب الثورة الفرنسية التي أنهت الحكم الملكي ووضعت أساس الحكم الجمهوري في فرنسا عام ١٢٠٤هـ - ١٧٨٩م ليبدأ مع الحكم الجديد استئناف النشاط الفرنسي في الشرق^(٧٨).

وتساعد الخطر الفرنسي في الخليج بعد أن نجحت الحملة الفرنسية في السيطرة على مصر عام ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م والتي هدفت الحكومة الفرنسية من السيطرة عليها الوصول للهند عن طريق منطقة الخليج ومع ظهور المطامع الفرنسية تجاه المنطقة أدركت بريطانيا الأهمية المتزايدة لمنطقة الخليج إذ اعتبرته منذ تلك الفترة أحد الخطوط الأمامية الرئيسية للدفاع عن مستعمراتها في الهند^(٧٩).

كانت موريشيوس القاعدة التي ارتكزت عليها فرنسا في إثبات دورها السياسي في منطقة الخليج وسعت لتحقيق ذلك في التقرب من الحكومة العمانية والفارسية ولكن بريطانيا كانت بالمرصاد للحركات الفرنسية في المنطقة فقد نجحت منذ عام ١٢٠٤هـ / ١٧٩٨م في عقد معاهدة مع سلطان مسقط تنص على " عدم السماح للفرنسيين بإقامة مراكز تجارية لهم في عمان وتوابعها ومنع سفنهم من دخول الموانئ العمانية وفي حالة حدوث حرب بين الطرفين في المياه الإقليمية لعمان يقف السلطان إلى جانب بريطانيا بالإضافة إلى السماح للشركة البريطانية بإنشاء وكالة لها في بندر عباس مع إقامة حامية عسكرية لبريطانيا فيها"^(٨٠).

ومع أن بنود هذه المعاهدة كانت في صالح الإنجليز ، إلا أن سلطان مسقط كان مضطراً لتوقيعها في ظل تنامي التهديد السعودي على الأراضي العمانية وأمل حكومة مسقط في الحصول على الدعم البريطاني لمواجهة ذلك التهديد^(٨١) . وبغض النظر عن بنود معاهدة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م وملابساتها فإنها تعد أول معاهدة تعقدها بريطانيا في التاريخ الحديث مع دولة عربية مستقلة وقد تم تجديد تلك المعاهدة وتأكيدها في عام ١٢١٥هـ / ١٨٠٠م^(٨٢).

أما بالنسبة للتسرب الفرنسي عبر فارس ، فقد بدأ مع العقد الأول من القرن التاسع عشر الميلادي إذ تمكنت الحكومة الفرنسية في عقد معاهدة مع الشاه الفارسي في عام ١٢٢٢هـ / ١٨٠٧م تنص على قطع فارس لعلاقاتها التجارية والسياسية مع الإنجليز وإخراجهم من أراضيها ، بالإضافة إلى مساعدة القوات الفرنسية إذا ما حاولت غزو الهند في مقابل أن تقدم الحكومة الفرنسية مساعدات لفارس في سبيل استعادة أراضيها التي وقعت تحت الاحتلال الروسي ، وعلى الرغم من خطورة تلك المعاهدة الفارسية على المصالح البريطانية ليس في الخليج فحسب بل في مستعمراتها الهندية إلا أن الأحداث الدولية أغلقت الباب الفارسي أمام الفرنسيين وذلك في أعقاب عقد فرنسا صلح تلس^(٨٣) مع روسيا وتخليهم عن وعودهم لشاه فارس مما جعل الأخير يرتمي مرة أخرى في أحضان بريطانيا ويوقع معاهدة أولية معها في عام ١٢٢٤هـ / ١٨٠٩م غدت اللبنة الأولى لمعاهدات لاحقة أكدت نفوذ بريطانيا السياسي والاقتصادي في فارس^(٨٤).

وما إن شارف العقد الأول من القرن التاسع عشر الميلادي على الرحيل حتى تمكنت بريطانيا من التخلص من الخطر الفرنسي ، بعد أن تمكنت عام ١٢٢٥هـ / ١٨١٠م من السيطرة على موريشيوس القاعدة الرئيسية للفرنسيين في المحيط الهندي ، وفي أعقاب هزيمة

أمين عبدالله، (سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨٢م) ص ٣٠٨.

(١٧) عبدالله الصحاري، تاريخ عمان، مكتبة الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية، ب ٢٤٧١٢-٢٤٧١٤، نسخة مصورة من الاصل المحفوظ في المجموعات الشرقية في المكتبة البريطانية، ص ١١٤-١١٥، ١١٧؛ مجهول، تاريخ أهل عمان، تحقيق سعيد عاشور، (عمان، وزارة التراث القومي، ١٩٨٠م) ص: ١٢٦-١٣٠؛ عبد العزيز عوض، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث، ج ٢ (بيروت: دار الجيل، ١٩٩١م) ص ٦٤؛ مصطفى عقيل: التنافس الدولي في الخليج العربي ١٦٢٢م-١٧٦٣م، ط ٢ (الدوحة: المؤسسة العالمية للطباعة والنشر، ١٩٩١م) ص ١١٠-١١٢.

(١٨) جلفار: يطلق عليها الحموي جُفَار وهي مدينة بناحية عمان، قامت على انقاضها مدينة رأس الخيمة الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص: ٤٩؛ سالم السياني، ايضاح المعالم في تاريخ القواسم، مراجعة: أحمد التدمري (دمشق: المطبعة التعاونية، ١٩٧٦م) ص ١٩.

(١٩) صور: مدينة ساحلية بالقرب من قلعات تقع عند مدخل الخليج وبها تبنى السفن؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٣٦٩؛ العاني، عمان في العصور الإسلامية، ص ٦٢.

(٢٠) الصحاري، تاريخ عمان، ص ١٢٧؛ مجهول، تاريخ أهل عمان، ص ١٤٥؛ صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩١م) ص ٤٥؛ عقيل، التنافس الدولي في الخليج، ص ١١٣-١١٤؛ العابد، الصراع العماني البرتغالي وتحرير الشرق الأفريقي، ص ١٢٧.

(٢١) عقيل، التنافس الدولي في الخليج، ص ١١٨-١٢٠؛ عوض، دراسات في تاريخ الخليج العربي، ج ٢، ص: ٦٤؛ العابد، الصراع العماني البرتغالي، ص ١٢٨-١٣٠.

(٢٢) الصحاري، تاريخ عمان، ص ١٢٧؛ مجهول، تاريخ أهل عمان، ص ١٤٥؛ فهمي، القواسم نشاطهم البحري، ص: ٢٣؛ العابد، الصراع العماني البرتغالي، ص ١٣٠؛ عوض، دراسات في تاريخ الخليج العربي، ج ٢، ص: ٦٥.

(٢٣) مجهول، تاريخ أهل عمان، ص ١٤٥.

Belgrave; The Pirate Coast, (Lebanon; Beirut Lidrairie Dulidan, 1972), P15

فهمي، القواسم نشاطهم البحري، ص: ٢٣؛ العابد، الصراع العماني البرتغالي، ص ١٣٢.

(٢٤) كلوة بالكسر ثم الفتح موضع بأرض الزنج، يقال إن بناءها كان على يد أحد أبناء ملوك شيراز ويدعى على وكان ذلك في عام ٤٠٠هـ، ويقال إن علي لم يطب له العيش في بلاده مع أخوته لأنه كان ابن جارية فغادر إلى شرق إفريقيا واشترى أرضها وبني عليها المدينة، الحموي، معجم البلدان، ج ٧، ص ١٥١؛ جمال زكريا قاسم، دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا ١٧٤١-١٨٦١م، (القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦٧م) ص: ١٦.

(٢٥) كيلي، بريطانيا والخليج، ج ١، ص: ١٨؛ فيليبس، تاريخ عمان، ص ٦٤؛ فالج حنظل، العرب والبرتغال في التاريخ ٧١١م - ١٧٢٠م (أبوظبي: منشورات المجمع الثقافي، ١٩٩٧م) ص ٥٢٣-٥٢٤؛ طارق الحمداني، مقاومة العمانيين للحملات الإيرانية على بلادهم ١٧٣٧م-١٧٤٤م، (مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، ع ٣٧، ص ١٠، ١٩٨٢م) ص ١١٢.

(٢٦) الصحاري، تاريخ عمان، ص: ١٢٧؛ مجهول، تاريخ أهل عمان، ص ١٤٦؛ أحمد البوريني، الإمارات السبع على الساحل الأخضر، (بيروت: دار الحكمة، ١٩٥٧م) ص: ١٢٥.

وعجائب الاسفار، تحقيق: علي الكتاني، ج ١ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م) ص ٢٩٦. عبد الرحمن العاني، عمان في العصور الإسلامية الأولى (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع، ٢٠٠١م) ص ٦٢. (٧) صحرار: تقع على خليج عمان وكانت عند ظهور الإسلام مركزاً تجارياً مهماً وتعد اليوم من أهم المدن العمانية، العاني، عمان في العصور الإسلامية، ص ٥٨.

(٨) خورفكان: تقع في وسط ساحل الشيلية على بعد ٣٣ ميلاً شمال خوركلبا و ٢٠ ميلاً جنوب الجنوب الشرقي من دبا، جي جي لوريمر، دليل الخليج القسم الجغرافي، ج ٤ (الدوحة: دار العلوم للطباعة، د. ت. ج ٤، ص ١٧٠).

(٩) هرمز يضم أوله وسكون ثانيه مدينة على البحر ولها خور وهي على مقربة من برفاس واليه ترفأ المراكب، وأهلها أخلاط من الناس ووصفها الحميري بأنها مدينة حسنة كثيرة المياه وبها أسواق وتجارات، واسمها من أسماء العجم، الحموي، معجم البلدان، ج ٨، ص ٤٧٦؛ محمد الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، حققه: إحسان عباس (بيروت: دار القلم، ١٩٧٥م) ص ٥٩٥.

(10) S.B Miles, The Countries And Tribes Of Persian Gulf, (London; Harrison And Sons, 1919) P146-150,

السالمي، نهضة الأعيان بحرية عمان ص: ١١، كيلي، بريطانيا والخليج، ج ١، ص ١٧؛ الصيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج، ص ١١٨-١٢٤؛ بدر الدين الخصوصي، دراسات في الخليج العربي الحديث والمعاصر، ج ١، ط ٢، (الكويت: ذات السلاسل، ١٩٨٤م) ص: ١٦؛ إبراهيم خوري، أحمد التدمري: سلطنة هرمز العربية المستقلة ركائزها حوزتها 'سكانه' اقتصادها هيمنتها، ج ٢ (رأس الخيمة: مطبعة رأس الخيمة الوطنية، ١٩٩٩م) ص ١٧٠-١٧٢.

(١١) صلم الشي قطعه من أصله، وقيل: الصلم قطع الأذن والأنف من أصلهما، أي الفضل جمال الدين محمد بن منظور، لسان العرب، ج ١٢ (بيروت: دار صادر، د. ت. ص) ٣٤٠.

(١٢) الصيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج، ص ١٢٢-١٢٤؛ قلعي، الخليج العربي بحر الأساطيل، ص ٣٦٥؛ صالح العابد، الصراع العماني البرتغالي وتحرير الشرق الأفريقي خلال القرن السابع عشر، ج ٢ (مركز الدراسات والوثائق في الديوان الأميري برأس الخيمة، ١٩٨٧م) ص: ١٢٦.

(١٣) الصيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج، ص ١٨٨-١٨٩.

(١٤) يرجع نسبهم إلى الأزد من أصل قحطاني، وهم أول من استوطن عمان من اليمن، حميد بن محمد بن رزيق، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعديين، ط ٧ (صحرار: الفردوس، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١)، ص: ٢٢٩؛ سالم السياني، إسعاف الأعيان في إنساب أهل عمان، (بيروت، المكتب الإسلامي، ١٣٨٤هـ)، ص: ٩٧؛ وندل فيليبس، تاريخ عمان، ترجمة: محمد أمين عبدالله، ط ٢ (عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨٣م) ص ٥٧.

(١٥) نزوى من أهم المدن الداخلية تقع في السطح الجنوبي للجبل الأخضر وتعد أكبر مدينة في القطر العماني وهي مقسمة إلى قسمين علوية وسفالية، وقال فيها الحموي "نزوى جبل بعمان، عنده قرى كبار يسمى مجموعها بهذا الاسم"، الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٨٤؛ لوريمر، دليل الخليج الجغرافي، ج ٥، ص ١٧٣٣-١٧٣٤؛ العاني، عمان في العصور الإسلامية، ص: ٦٤.

(١٦) سمائل: إحدى المدن الهامة الواقعة في وادي سمائل الذي يبلغ طوله أكثر من مائة ميل، وتعد سمائل الشريان الرئيسي للتجارة بين مسقط والمنطقة الداخلية، بي سي مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة: محمد

فاطمة الصايغ، الإمارات العربية المتحدة (العين : دار الكتاب الجامعي ، ٢٠٠٠م) ، ص: ٣٧.

(٤٥) نص المرسوم الملكي الذي صدر في عام ١٦٠٠م على منح الشركة حرية التجارة والاحتكار في الهند والمناطق المجاورة التي يدخل ضمنها منطقة الخليج ، كما حظر المرسوم منح أي امتياز في الشرق لإبموافقة الشركة ، وفي عام ١٦٦١م نجحت الشركة في الحصول على امتيازات جديدة من الحكومة البريطانية فقد صدر مرسوم آخر منح الشركة حق إعلان الحرب وعقد الصلح مع حكام الشرق غير المسيحيين باسم التاج البريطاني وتجهيز الجيوش وإقامة المستعمرات، عوض، دراسات في الخليج ، ج١، ص١٣٣، ص١٦٦، ١٦٧ مصطف النجار، شركة الهند الشرقية ملامحها وأبرز سماتها في الخليج العربي، (مجلة دراسات الخليج العربي، ص١٥، ٤، ١٩٧٨-١٣٩٨هـ) ص١٠٢.

(٤٦) النجار، شركة الهند الشرقية ملامحها وأبرز سماتها، ص١٠٢-١٠٥، لوريير، دليل الخليج التاريخي، ج١، ص١٧.

(٤٧) لوريير، دليل الخليج، ج١، ص١٧-٢٠، العقاد: التيارات السياسية، ص٦؛ عقيل، التنافس الدولي في الخليج، ص١٣٢؛ الصايغ، الإمارات العربية المتحدة، ص٤٠.

(٤٨) جاسك: تقع على رأس في داخل البحر على بعد ١٤٠ ميلاً جنوب شرقي بندرعباس و١٤٥ ميلاً شمال شرقي مسقط، لوريير: دليل الخليج الجغرافي، ج٣، ص١١٣.

(٤٩) النجار، شركة الهند الشرقية، ص١٠٢-١٠٣.

Miles, The Countries and Tribes, P185.

العقاد، التيارات السياسية، ص٢١؛ عقيل، التنافس الدولي في الخليج، ص١٣٢؛ الخصوصي، دراسات في الخليج العربي، ج١، ص٣٠؛ القهوتاني وآخرون، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر (البصرة: جامعة البصرة، ١٩٨٤م) ص٢٥.

(٥٠) لوريير، دليل الخليج التاريخي، ج١، ص٢٨، النجار، شركة الهند الشرقية، ص: ١٠٢-١٠٣؛ الداود، الخليج العربي والعلاقات الدولية، ج١، ص١٦؛ عقيل، التنافس الدولي في الخليج، ص١٣٩.

(٥١) سوروات: تقع بالهند على خليج بومباي في الشمال الغربي من العاصمة بومباي، وكانت تعد في القرن السابع عشر الميلادي المركز الرئيسي للتجارة الأوروبية في الهند، غربال، الموسوعة العربية الميسرة، ج١، ص١٠٣٢.

(٥٢) لوريير، دليل الخليج التاريخي، ج١، ص٢١.

(٥٣) ب. ج. سلوت، عرب الخليج ١٦٠٢م-١٧٨٤م، ترجمة: عايدة خوري (ابوظبي: المجمع الثقافي، ١٩٩٣م) ص٧٦، لوريير، دليل الخليج التاريخي، ج١، ص: ٤٠-٤١، العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، ص٢١، عبد العزيز عوض، التوجه السياسي لشركة الهند الشرقية في الخليج العربي في القرن السابع عشر، (مؤرخ العربي، ع ٣٢، س١٤٠٧، ١٣/هـ ١٩٨٧م) ص: ٢٠؛ العابد، الصراع العماني البرتغالي، ص٨٠-٨٤.

(٥٤) لوريير، دليل الخليج التاريخي، ج١، ص: ٣٧-٣٩، ويلسون، الخليج العربي، ص: ٢٥٢؛ عقيل، التنافس الدولي في الخليج، ص٧٧.

(٥٥) بندرعباس: تقع على مدخل الخليج العربي وتطل على مضيق هرمز، غربال، الموسوعة العربية الميسرة، ج١، ص٤٠٩.

(٥٦) سلوت، عرب الخليج، ص١٤٠. Hawley, The Trucial States, P76. (٥٧) لوريير، دليل الخليج التاريخي، ج١، ص: ٦٤-٦٧؛ الربيعي، غزاة في الخليج، ص: ٥٩-٦١، ص: ٦٩-٧٤؛ الداود، الخليج العربي والعلاقات الدولية، ج١، ص١٧؛ عقيل، التنافس الدولي في الخليج، ص١٥٨.

(٥٨) ويلسون، الخليج العربي، ص٢٨١، سلوت، عرب الخليج، ص: ٨٤-٨٦، العابد، دور القواسم في الخليج، ص: ٢٩-٣٠.

(٢٧) الصحاري، تاريخ عمان، ص: ١١٢٧-١١٢٨؛ مجهول، تاريخ أهل عمان، ص١٤٧.

(٢٨) الصحاري، تاريخ عمان، ص ١١٢٨؛ مجهول، تاريخ أهل عمان، ص: ١٤٧-١٤٨؛ عوض، دراسات في تاريخ الخليج العربي، ج٢، ص: ٦٦؛ حنظل، العرب والبرتغال في التاريخ، ص ٥٢٥، الحمداني، مقاومة العمانيين للحملات الإيرانية على بلادهم، ص١١٣.

(٢٩) لاندن، عمان، ص ٥٠-٥١؛ الحمداني، مقاومة العمانيين للحملات الإيرانية على بلادهم، ص ١١٢-١١٣.

(٣٠) زكريا، دولة البوسعيد، ص ١٩؛ العابد، الصراع العماني البرتغالي، ص ١٢٦-١٢٧.

(٣١) العابد، دور القواسم في الخليج، ص: ٤٠، لاندن، عمان، ص: ٥٠؛ عقيل، التنافس الدولي في الخليج، ص ٤٦-٤٧، ٨٠-٨٢.

(٣٢) عقيل، التنافس الدولي في الخليج، ص ٤٦؛ العابد، الصراع العماني البرتغالي، ص ١٢٦؛ فهمي، القواسم نشاطهم البحري، ص ٢٣.

(٣٣) لاندن، عمان، ص: ٥٠؛ كيلي، بريطانيا والخليج، ج١، ص ١٨؛ العابد، دور القواسم في الخليج، ص ٤٠؛ نعيسة، البحرية العمانية، مجموعة من الأستاذة الجامعيين: الخليج العربي دراسات تاريخية وجغرافية (دمشق: دار الأجدية، ١٩٩٣م) ص ١١٥-١١٦.

(٣٤) قاسم، دولة البوسعيد، ص: ٢٥؛ العابد، الصراع العماني البرتغالي، ص ١٢٦؛ عقيل، التنافس الدولي في الخليج، ص ٤٦.

(٣٥) فهمي، القواسم نشاطهم البحري، ص: ٢٤.

(٣٦) أحمد أبو حاكم، تاريخ شرقي الجزيرة العربية، (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٥) ص: ٥٣؛ العابد، دور القواسم في الخليج، ص ٥٣؛ عقيل، التنافس الدولي في الخليج، ص ١٨٧.

(٣٧) هيفاء الربيعي، غزاة في الخليج الغزو الهولندي للخليج العربي والمقاومة العربية (الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر)، ١٩٨٩م، ص: ٢١-٢٢؛ عقيل، التنافس الدولي في الخليج، ص ١٤٤-١٤٥.

(٣٨) لوريير، دليل الخليج التاريخي، ج١، ص: ١٦؛ الربيعي، غزاة في الخليج، ص: ٢٣-٢٤، محمد العيدروس، تنافس شركتي الهند الشرقية الهولندية والبريطانية في بندر عباس ١٦٢٣-١٦٤٥م (مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ع ٨٠، ١٩٩٦، ٢١) ص: ١٦٠.

(٣٩) الخصوصي، دراسات في الخليج العربي، ص ٣٦؛ الربيعي، غزاة في الخليج، ص ٢٦؛ أمين سعيد، الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة، (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت) ص: ٣٤.

(٤٠) ارنولد ويلسون، الخليج العربي، ترجمة عبد القادر يوسف (الكويت: مؤسسة مهند المزروق، د.ت) ص ٢٧١-٢٧٢، الربيعي، غزاة في الخليج، ص: ٢٩.

(٤١) العيدروس، تنافس شركتي الهند الشرقية والبريطانية، ص ١٦٢-١٦٣.

Donald Hawley, The Trucial States, (London, Unwin Brothers Limited, 1970), P76.

محمود الداود، الخليج العربي والعلاقات الدولية، ج١ (القاهرة: دار المعرفة، د.ت) ص ١٧.

(42) Miles, Countries And Tribes, P210; Hawley, The Trucial States, P76.

العابد، دور القواسم في الخليج، ص: ٢٧-٢٨.

(٤٣) اصفهان: مدينة تقع بوسط إيران، اتخذها الشاه عباس الصفوي عاصمة لحكمه، شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة، ج١ (بيروت: دار الجيل، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م) ص ١٦٨.

(٤٤) جزيرة قشم: تقع في مقابل الساحل الفارسي عند بندرعباس، وقد أطلق عليه أسماء عديدة منها لافق وجزيرة ابن كاوان وجزيرة برخت. يُنظر: الخوري، التدمير، سلطنة هرمز العربية، ج ٢، ص ٣٤.

(٧٢) كيلى ، بريطانيا والخليج ، ج ١ ، ص: ١٠١-١٠٤ : العقد ، الاستعمار في الخليج ، ص٤٩-٥١ : سعيد ، الخليج العربي في تاريخه السياسي ، ص٥٥-٥٧ .

(٧٣) لمزيد من التفصيل: فيشر ، تاريخ أوروبا ، ص: ٨٣-٨٤ .

(٧٤) كيلى ، بريطانيا والخليج ، ج ١ ، ص ١٢٦-١٤٨ : العقد ، الاستعمار في الخليج الفارسي ، ص٥٩-٦٥ : إسماعيل ، سياسة بريطانيا في الخليج والكويت ، ص ١٣ : العابد ، دور القواسم في الخليج ، ص ٢١٠ : النبراوي ، مهنا ، الخليج العربي ، ص: ٢١٠-٢١١ .

(٧٥) إسماعيل ، سياسة بريطانيا في الخليج والكويت ، ص ١٣ : العابد ، دور القواسم في الخليج ، ص ٢١١-٢١٢ : عتريس ، معجم بلدان العالم ، ص ٣٨٧ .

من الجوائز والشهادات التي حصلت عليها الأستاذة منال المربطب

- شهادة تفوق وتميز من كلية الآداب عن قسم التاريخ في عام ١٤٢٠هـ .
- شهادة تفوق من عمادة شؤون الطالبات بجامعة الملك عبد العزيز لعام ١٤٢٢هـ .
- جائزة في مسابقة الحديث الشريف .
- الترشيح لجائزة الأمير سلمان لدراسات تاريخ الجزيرة العربية عن رسالتها للمجستير "علاقة القواسم بالدولة السعودية الأولى" .
- شهادة تكريم من صاحبة السمو الأميرة الجوهرة الابراهيم للتفوق العلمي في مرحلة البكالوريوس وتحقيق الترتيب الأول على خريجات ١٤٢٠م .
- حصلت خلال تدريسي على تقدير متميز وبمعدل ٤,٢ من مركز تطوير التعليم الجامعي بجامعة الملك عبد العزيز .
- شهادات شكر وتقدير من المشرفة على قسم التاريخ للمشاركة في الأعمال الأكاديمية والإدارية الخاصة بقسم التاريخ .
- شهادة شكر وعرفان للمساهمة في دعم وإنجاح برامج المخيم الشبابي الصيفي الذي ترعاه وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد .
- شهادة شكر من عمادة القبول والتسجيل للمشاركة في إنجاز فعاليات البرنامج الإرشادي للطالبات المستجدات للفصل الدراسي الثاني من عام ١٤٢٨م .
- شهادة شكر وتقدير من وحدة دراسات البحر الأحمر للمشاركة في اللقاء الأول ١٤٢٩هـ .
- شهادة شكر وتقدير من سعادة المشرفة على قسم التاريخ د/ ثريا دمنهوري للمساهمات الفعالة في قسم التاريخ ١٤٣٠هـ .
- شهادة شكر من عميدة شطر الطالبات على المجهود المتميز في ركن "شعيرات من نجد" خلال معرض المرأة عبر التاريخ في الفصل الدراسي الأول ١٤٣١هـ .
- شهادة شكر وتقدير من سعادة المشرفة على قسم التاريخ د/ ثريا دمنهوري للمساهمات الفعالة في قسم التاريخ ١٤٣١هـ .

(٥٩) العيدروس ، تنافس شركتي الهند الشرقية الهولندية ، ص: ١٨٢-١٨٤ : فتحية النبراوي ، محمد مهنا ، الخليج العربي دراسة في تاريخ العلاقات الدولية والإقليمية (الإسكندرية: منشأة المعارف ، د ت) ص: ١٤٥ .

(٦٠) ويلسون ، الخليج العربي ، ص: ٢٨٤-٢٨٥ : الداود ، الخليج العربي والعلاقات الدولية ، ج ١ ، ص ١٧ : عقيل ، التنافس الدولي في الخليج ، ص ١٧٦-١٧٧ .

(٦١) عوض ، التوجه السياسي لشركة الهند الشرقية في الخليج ، ص: ٢١ : دراسات في تاريخ الخليج ، ج ١ ، ص ١٦٦-١٦٧ ، النجار ، شركة الهند الشرقية ص: ١٠٤ .

(٦٢) جزيرة خارج وتسمى أيضا خارك وتقع بالقرب من عبادان في خليج البصرة على مقربة من الساحل الشرقي للخليج ، المطري ، جغرافية الخليج ، ص ٥٤ .

(٦٣) ويلسون ، الخليج العربي ، ص: ٢٨٤-٢٨٥ : عقيل ، التنافس الدولي في الخليج ، ص ١٨٠-١٨٢ : نورس ، تاريخ الخليج العربي الحديث ، ص ٤٥ ، ٥٥ : عبدالله الغانم ، مولد القواسم وتاريخ بسط نفوذهم السياسي (رأس الخيمة: المؤسسة العربية للطباعة ، ٢٠٠١م) ص٤٥ .

(٦٤) لوريير ، دليل الخليج التاريخي ، ج ١ ، ص ٧٥ ، ويلسون ، الخليج العربي ، ص: ٢٨٢ ، Hawley, The Trucial States, P77 : أبو ياسين: العلاقات العمانية - البريطانية ص ٢٣ .

(٦٥) موريشوس جزيرة تقع في المحيط الهندي وتحدها من الشرق مدغشقر التي تبعد عنها ٥٠٠ ميل ومساحتها ٧٨٨ ميل^٢ واللغة الرسمية بها اللغة الإنجليزية بالإضافة إلى الفرنسية ، عاصمتها مدينة بورت لويس ، ويشكل المسلمون فيها ١٧% ، أما البربون فتقع أيضا في المحيط الهندي بالقرب من الساحل الشرقي لموزمبيق وعاصمتها سنت دنيس ، محمد الجابري ، موسوعة دول العالم (القاهرة: مجموعة النيل العربية ، ٢٠٠٠م) ص ٢٣١ ، آمنة ابوججر ، الموسوعة الجغرافية لبلدان العالم (عمان: دار اسامة للنشر والتوزيع ، ٢٠٠١م) ص ٢٨٧ : أبو ياسين: العلاقات العمانية - البريطانية ، ص ٢٣ ، العابد دور القواسم في الخليج ، ٢١١ .

(٦٦) أبو حاكم ، تاريخ شرقي الجزيرة ، ص: ٤٨ : جاكين إسماعيل ، سياسة بريطانيا في الخليج والكويت في القرن التاسع عشر ، (مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، ١٦٤ ، س ٤ ، ١٩٧٨م) ص ١٢ : فهمي ، القواسم نشاطهم التجاري ، ص ٢٩ ، محمد عتريس ، معجم بلدان العالم (القاهرة: الدار الثقافية للنشر ، ٢٠٠١م) ص ٣٨٧ .

(٦٧) لوريير ، دليل الخليج التاريخي ، ج ١ ، ص ١٢٩-٢١٤ : أبو ياسين ، العلاقات العمانية - البريطانية ، ص ٢٣ : الصايغ ، الإمارات العربية المتحدة ، ص ٤٥ : عقيل ، التنافس الدولي في الخليج ، ص ٢٥٨ .

(٦٨) ١٠هـ فيشر ، تاريخ أوروبا في العصر الحديث ، ترجمة أحمد نجيب هاشم ، وديع الضب ، ط ٩ ، (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٩٣م) ، ص: ٤٨-٥٥ .

(٦٩) كيلى ، بريطانيا والخليج ، ج ١ ، ص ٩٥ : إسماعيل ، سياسة بريطانيا في الخليج والكويت ، ص ١٢ : أبو ياسين: العلاقات العمانية - البريطانية ، ص ٢٣-٢٤ : العابد ، سياسة بريطانيا في الخليج العربي ، ص ٢٥ : جلال يحيى ، العالم الإسلامي الحديث ، (القاهرة: دار المعارف ، ١٩٦٦م) ص ٨٤-٨٧ .

(٧٠) لوريير ، دليل الخليج التاريخي ، ج ١ ، ص: ٢٦٥-٢٧٠ ، صلاح العقد ، الاستعمار في الخليج الفارسي (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٦م) ص ٣٩ ، أبو ياسين ، العلاقات العمانية - البريطانية ، ص: ٢٧ ، قاسم ، تاريخ الخليج العربي ، ج ١ ، ص: ١٦٦-١٦٧ ، عبدواني ، الحصاد ، ص ٨٣-٨٤ .

(٧١) أبو ياسين ، العلاقات العمانية - البريطانية ، ص: ٢٨ .

مقدمة

الحرب والحضارة أي علاقة؟ يبدو الأمر للوهلة الأولى كمن يحاول أن يبحث في شخصية رجل مخابرات عن شاعر، أو كمن يبحث في العلاقة بين الإيقاع الموسيقي وصليل دبابة عسكرية، إذ أي علاقة يمكن أن تقوم بين الحرب والحضارة غير تلك التي تضع الأولى مدمرة للثانية، ونافية لها، ذلك أنه من المعلوم بطبيعة المفهومين، أنه من شأن الحضارة البناء والتعمير، ومن شأن الحرب الخراب والتدمير، فكيف يمكن أن ينشأ عن هذا التضاد، في المحتوى والفعل، تفاعل إيجابي، يستخرج من ركام الحرب آليات لتواصل حضاري بناء؟ هذا ما ستحاول هذه الورقة رسم خطوطه العريضة، من خلال تقديم تصور أولي للبحث في موضوع، يحتاج بعد إثارته إلى بحث متأن وطويل، متخذاً من حوض المتوسط الغربي الوسيط، مختبراً لرصد وتحليل مجالات التقاطع بين المفهومين: الحرب والحضارة، أو بالعبارة المعنونة للموضوع: الحرب باعتبارها قناة لتواصل حضاري.

الضفتان الشمالية والجنوبية للمتوسط الغربي بين الجغرافيا والحضارة

جغرافياً: تحديد مجالي مضبوط من حيث الدلالة والمحتوى: الجزء الأوربي يمثل الضفة الشمالية، من الساحل الغربي لشبه الجزيرة الإيطالية إلى الساحل الأسباني من شبه الجزيرة الأيبيرية. والجزء الأفريقي يمثل الضفة الجنوبية، الساحل الشمالي لها يعرف ببلاد المغرب، رغم ما يعتور مفهوم بلاد المغرب نفسه من ثغرات في الإسطوغرافيا العربية الكلاسيكية. لكن حضارياً يتعقد المفهوم:

- لا يمكننا أولاً عزل الساحل الشرقي لإيطاليا عن الغربي، على الرغم من أن إيطاليا لم تكن موحدة في العصر الوسيط، لأن بعض إماراتها كانت تطل على الجهتين الشرقية والغربية.
- لا يمكننا أيضاً عزل البرتغال عن شبه الجزيرة الأيبيرية، لأن البرتغال — أو على الأقل جزء منه — كان جزءاً من الأندلس الإسلامية لفترات طويلة من العصر الوسيط، ثم لأنه، البرتغال، حتى بعد أن بنى كيانه السياسي المستقل، الذي ينظر لبحر الظلمات ويولي ظهره لأوروبا، ظل يساهم بقوة في أحداث المتوسط الغربي، علاوة على احتلاله لبعض سواحل ومدن بلاد المغرب التي تنتمي جغرافياً للمجال المتوسطي، في نهاية الفترة موضوع بحثنا.

- تشكل الأندلس/إيبيريا لوحدها معضلة تعقد مشكلة تحديد الشمال والجنوب (لاحظ أننا اليوم أيضاً نصادف نفس التعقيد عندما نريد ضبط مفهوم "الشمال والجنوب". الشمال: البلدان المتقدمة، جغرافياً لا تتوقع كلها في الشمال (نموذج أستراليا)، والجنوب: البلدان المتخلفة أو النامية أو السائرة في طريق النمو أو حتى السائرة في طريق التخلف... لا تتوقع هي أيضاً كلها في الجنوب (نموذج ألبانيا)، فهذه المنطقة، بلاد الأندلس، يمكن أن نعتبرها ولفترة طويلة جزءاً من الجنوب، ليس لتبعيةها للمغرب

الحرب قناة للتواصل الحضاري

بين ضفتي المتوسط الغربي خلال العصر الوسيط

"خطاوة للتفكير في الموضوع"



أ.د. عبد العزيز غوردو

أستاذ باحث وإطار في الإدارة التربوية

أكاديمية الجهة الشرقية

وجدة - المملكة المغربية

ghourdou.abdelaziz@voila.fr

الاستشهاد المرجعي بالهقال:

عبد العزيز غوردو، الحرب قناة للتواصل الحضاري بين ضفتي المتوسط الغربي خلال العصر الوسيط. - دورية كان التاريخية. - العدد الثامن؛ يونيو ٢٠١٠. ص ٦٠ - ٦٢.

(www.historicalkan.co.nr)



تحت مظلة الجهاد ، وما وصل العثمانيون شمال أفريقيا إلا تحت لواء الجهاد البحري مع عروج وخير الدين.

تأسيسا على هذه الملاحظة ، وانطلاقا من كل ما سبق ، يطرح السؤال: ألم تكن "الحرب" واحدة من أهم قنوات التواصل الحضاري بين ضفتي المتوسط الغربي؟ عندما نسجل أن الحرب تشكل قناة على مستوى بالغ الأهمية في هذا التواصل ، لا ينبغي أن يغيب عنا أنها ، الحرب ، في النهاية هي نفسها نتاج حضاري ، بما هي اختراع بشري أولا ، وأن انتقال آلياتها وعدتها وخطتها وتكتيكاتها... يمكنها أن تولّد لوحدها موضوع تفاعل حضاري. وأنها ، ثانيا ، يستحيل عليها التطور ، بمعنى الامتداد ، بمعزل عن القلاع والحصون والمنشآت العسكرية ، التي تجبرنا على التقاطع مع المدن في النهاية ، بما تحمله المدن/المدن من محتويات حضارية. ثم إنها ، ثالثا ، تجرّ إلى قنوات أخرى تابعة:

- فالهروب تجرّ إلى التحالف (نعرف بأن تحالفات عديدة تمت بين إمارات إسلامية/إسلامية ، ومسيحية/مسيحية ، بل وإسلامية/مسيحية ، على خلفية الحرب).
- الحرب أيضا تدعو للارتزاق (قناة أخرى للتواصل الحضاري عبر السفارات والتمثيل القنصلي ، بغية تنظيم وتسهيل حياة المرتزقة في البلاد المستقبلية) ، كما أنها ، أي الحرب ، تجرّ للاسترقاق ، ولا يخفى ما يمكن أن يلعبه الرقيق كقناة للتواصل الحضاري.
- والحرب أيضا تتحكم في قناة أخرى هي قناة التجارة (التي عادة ما تزدهر في فترات السلم ، وتراجع وتنكمش فيما عداها ، أي فترات الفوضى والحرب ، والإسلام نفسه يمنع الحربي غير المعاهد من أن يتاجر في دار الإسلام ، والقانون نفسه نجده في الإمارات المسيحية).
- من قنوات التواصل الحضاري التي تتحكم فيها الحرب أيضا ، قناة تبادل السفارات التي كثيرا ما تبادلتها الضفتان الشمالية والجنوبية لافتراء الأسرى ، أو لضمان حقوق الجاليات في بلد الخصم ، ومن ثم عبور التأثيرات الحضارية من هذه الضفة إلى تلك.
- والحرب أخيرا ، وليس أخرا ، تدفع الخصوم إلى التجسس على بعضهم البعض ، مما يستدعي من كل طرف التعرف على ثقافة "الآخر" عبر ترجمة نتاجه الثقافي والحضاري ، مما يؤدي إلى تفاعل (تأثير/تأثر) كل طرف بخصمه.



خاصة زمن المرابطين والموحدين فقط ، لكن لأنها تدخلت وتحكمت زمن قوة الأمويين في بلاد المغرب نفسها ، ولأنها ، وهذا هو الأهم ، ظلت تشكل جزءا من الجنوب حضاريا ، إلى متم القرن الخامس عشر الميلادي. (لاحظ أننا اليوم عندما نقول "الشرق والغرب" نقصد شيئا آخر غير ما يحيلنا عليه المعنى الجغرافي ، بل لا يكاد يغيب عن أذهاننا لحظة واحدة أننا لا نقصد إلا مجالين مختلفين ، متكاملين أو متعارضين ، حضاريا ، أي مستويين حضاريين متنافرين بقدر ما يدعيان ، أو يتصنعان ، عوامل الانجذاب بينهما. لاحظ أيضا وفي التاريخ بالضبط أننا عندما نريد دراسة الإمبراطورية البيزنطية ندرجها ضمن تاريخ أوروبا القديم ، وعندما ندرس الدولة العثمانية ندرجها ضمن تاريخ الشرق الأوسط على الرغم من أن مهد الدولتين معا هو بلاد الأنضول: ألا يحيل هذا على تصنيف حضاري؟ أو بسؤال أكثر إجرائية: ألا يتأسس ذلك على خلفية الصراع بين الإسلام والمسيحية؟)

الحرب قناة للتواصل الحضاري

خلال العصر الوسيط

ننتقل من حيث انتهينا عند السؤال/الملاحظة الأخيرة ، في بحثنا عن نصف موضوعنا الثاني: "التواصل الحضاري خلال العصر الوسيط". لا يحتاج الباحث إلى كبير عناء لإيجاد تحديد زمني تقريبي ، مبرر ، لما يصطلح عليه بالتاريخ الوسيط ، رغم الجدل الكبير — العنيف أحيانا — الدائر في فلسفة التاريخ بين "تصنيفاتنا" و "تصنيفاتهم" ، بسبب الإسقاطات التي ينجح إليها كل تصنيف. رغم ذلك يمكننا أن نتلمس حدودا تقريبية مشتركة بين الضفتين/الحضارتين ، لتاريخ وسيط موحد. مثلاً: سقوط روما وظهور الإسلام مرحلة لبداية هذا التاريخ. وسقوط الأندلس ، والاكتشافات الجغرافية ونهاية الدولة المركزية المغربية الوسيطة ووصول العثمانيين للمنطقة مرحلة لنهاية هذا التاريخ. لكن ماذا عن "الحرب باعتبارها قناة للتواصل الحضاري"؟

قلنا بأننا سننتقل ، في تحديد مطلبنا الثاني ، من حيث انتهينا في المطلب الذي سبقه "مفهوم الشمال والجنوب" ، أي الصراع بين الإسلام والمسيحية ، بما هما دينان وحضارتان يسعيان إلى الامتداد ، وبما أن امتداد أحدهما يعني انحسار الآخر بالضرورة ، فإن الواحد منهما لا يمكنه أن يمتد إلا على حساب مجال الثاني ، بحيث يلاحظ بأن ما اصطلاحنا على نعتة بداية لتاريخ وسيط مشترك ، أن هذه البداية سجلت "حربا مقدسة" إسلامية (الجهاد ضد "دار الحرب") والتي انتهت بسقوط الأندلس في يد المسلمين ، تتويجا لعمليات الفتوحات الإسلامية على الجبهة الغربية ، أما نهاية التاريخ الوسيط المشترك فسجلت "حربا مقدسة" عكسية (يصنفها الكثير من المسلمين على أنها "حرب صليبية" ، بينما يسميها المسيحيون "حرب استرداد") انتهت بسقوط الأندلس من جديد في يد القوى المسيحية ، أكثر من ذلك بدأت هذه القوى المسيحية تسجل تقدما على المجال الجنوبي للمتوسط ، في عملية طويلة ستنتهي باستعمارها.

وبين البداية والنهاية لم تكد الحرب تقتر بين الفريقين أهمها وقعت زمن عبد الرحمان الداخل وعبد الرحمان الناصر والمنصور بن أبي عامر ، بل ما عبر المرابطون والموحدون والمرينيون إلى الأندلس إلا

من إصدارات ٢٠١٠ كتيب

لحظات تفكير في قضايا عالم مضطرب
الهوية - الحوار الحضاري - التنمية وحقوق الإنسان

المؤلف: د. إبراهيم القادري بوتشيش

أستاذ التاريخ بجامعة مولاي إسماعيل

مكناس - المغرب

الناشر: دار رؤية للنشر والتوزيع

القاهرة ٢٠١٠ (٣٦٨) صفحة

الكتاب عبارة عن قراءة في بعض قضايا العالم الراهن التي تأثرت إلى حد كبير بسيادة الرأسمالية الليبرالية كقوة تتحكم في إنتاج قيمه وثقافته انطلاقاً من المصالح الخاصة والتفوق العسكري والتكنولوجي على حساب القيم الإنسانية، مما جعل هذا العالم يفقد توازنه ويفرخ مجموعة من الأزمات التي سببت اضطراباً ورجة عنيفة في النظام القيمي العالمي، فتغيرت المفاهيم الأخلاقية، وظهر قاموس جديد من المفاهيم المناقضة لكرامة الإنسان، خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر.

من هذا المنظور، تسعى الأبحاث الواردة في الكتاب إلى تسليط الضوء على مشاهد متعددة من تلك الاضطرابات التي عرفها العالم في منظومة القيم، لكنها لا تقف عند حد وصف المشهد المضطرب فحسب، بل تمتد مساحتها إلى مناقشة تداعياته على العالم العربي - الإسلامي، خاصة ما يتعلق بالفتن المذهبية التي زادت تأججا، والمسارات التنموية التي صارت رهنا بالاستتباع السياسي للأنظمة العربية الحاكمة، والهوية واللغة التي أصبحت مهددة تحت غطاء حرية المعتقد والتعدد الثقافي وحقوق الإنسان. ويقدم المؤلف بعض المبادئ والمقترحات التي يراها قادرة على الممانعة ومواجهة أعاصير هذا العالم المضطرب.

نشير، ونحن بصدد تسجيل خاتمة لهذه الملاحظات، أن الحرب لا تؤدي فقط إلى التفاعل الحضاري لما يمكن نعتة "بالعلاقات البرانية" (أي استفادة العالم المسيحي حضارياً من العالم الإسلامي، أو العكس) عبر المداخل التي ذكرناها أعلاه بين ضفتي المتوسط الشمالية والجنوبية، بل إنها، أي الحرب، تقيد في التلاحق الحضاري فيما بين "العلاقات الجوانية" أيضاً (أي استفادة الإمارات الإسلامية من بعضها البعض، وكذلك الشأن بالنسبة للإمارات المسيحية أيضاً)، حيث إنها كثيراً ما تؤدي إلى تشوير البنى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغيرها... داخل "دار الإسلام" وداخل "دار الحرب" - بالاصطلاح الإسلامي - كمجالين مغلقين ذاتياً، ولنا في سقوط الأندلس غرباً، وسقوط القسطنطينية شرقاً، الأدلة القوية على ما نقول: فهجرة الموريسكيين إلى مدن بلاد المغرب أدى لتطورات خطيرة على جميع المستويات بالبلدان المستقبلة، وهجرة المسيحيين من القسطنطينية، إلى غرب أوروبا، وخصوصاً إيطاليا، ساهم بشكل فاعل في نهضة إماراتها.



خاتمة

تقترح السطور المقدمة هنا البحث في الحرب باعتبارها آلية لبناء الحضارة، عكس ما يجري التفكير به عادة، حيث يتم اعتبارها آلية للهدم، ولم تتسع السطور لتقديم إجابات بقدر ما طرحت إشكالية مركزية، تفرعت عنها محاور وتساؤلات للبحث والاستقصاء. يحلو للإنسان عادة (والإنسان هنا بمعناه المفكر الهادف الواعي) أن يردد بأن دلالة تفجير السؤال تفوق كثيراً لكمة عناصر الجواب، لذلك سيظل السؤال يحاصر هذه المقال حتى النهاية، بحيث يبدو السؤال مبتداه وبالسؤال منتهاه: هل ما توصلنا إليه عبر هذه "الخطاطة" (أو الاقتراح) هي فعلاً "خطاطة" ملائمة للظاهرة المشخصة؟ أم أن التشخيص نفسه انطلق من موضوع غير مستساغة منذ البداية؟

لا نريد عبر هذا السؤال فتح باب في باب، أي فتح بحث تجريبي داخل بحث تجريبي (ميدان الخطاطة)، لكن السؤال هنا يستمد مشروعيته من هذه التجريبية (Empirisme) بالضبط، لأن طبيعة ميدان الخطاطة، أو بالأصح ميادينها، تختلف باختلاف تصورات كل باحث يعرضها للدراسة، ومعها تختلف تساؤلات وإشكاليات المنطلق قطعاً، بحيث نصل في النهاية إلى أن ما قدمناه، في موضوعنا، كان مجرد "قراءة" تستدعي بداهة وصلها بقراءات غيرها، تثريها أو تقومها، أو ربما حتى باستقصائها عبر أطروحة مستقلة، متأنية، عالمية.

أوضاع العالم الإسلامي إبان ظهور المغول

عاش العالم الإسلامي في حالة من الضعف والوهن ، جعلته مقسماً إلى عدة دول تسيطر على بعض المناطق الهامة في الشرق الإسلامي ، خاصة الخلافة العباسية في بغداد ، حيث بدأت علامات الضعف تظهر منذ سيطرة العناصر الفارسية والتركية التي تقلدت المناصب الهامة في الدولة ، فنتج عنها صراع بينها وبين العناصر العربية بسبب تطلع كل منهما إلى السلطة.

أفقد هذا الصراع هيبة الخلافة العباسية في قلوب الناس ، إذ بدأ حكام الولايات في الاستقلال بولاياتهم ، والاكتفاء بالولاء الرسمي للخليفة ، فظهرت عدة دول على الساحة نتيجة لهذا الضعف ، فظهر السلاجقة ومنهم خرج الخوارزميون ، ثم الأيوبيون فالمماليك. سيطر هؤلاء على الخلافة واتخذ حكامهم لقب "السلطان" ، ليبقى الخليفة العباسي في بغداد بلا سلطة^(١).

وإذا نظرنا عن كثب لوجدنا أن العامل السياسي كان من العوامل التي قادت إلى ضعف الكيان الإسلامي ، إلا أن العامل الحقيقي والخفي والذي كان من أكبر أسباب تدهور الأمة الإسلامية هو العامل الديني. فابتعد الناس عامة والخلفاء خاصة عن مبادئ الإسلام وتعاليمه ليتفشى الانحراف ، فعرف الخير واللهو طريقة إلى قصور الحكام فانشغلوا بأمور دنياهم عن أمور دينهم. وتجلّى صور ذلك الضعف في استعانة بعض حكام المسلمين بالصليبيين ضد بعضهم البعض ، وتراهم تارة أخرى يستعينون بالمغول ، فأين ذهبت غيرة المسلمين على دينهم وعلى حرمااتهم ، وكيف سولت لهم أنفسهم الاستعانة بأعدائهم.

قيام الدولة الخوارزمية

نشأت الدولة الخوارزمية بين أحضان دولة السلاجقة^(٢) ، التي حكمت مناطق واسعة في الشرق الإسلامي ، ويعود الفضل في تأسيس هذه الدولة إلى (أنوشتكين) ، وهو أحد العبيد الذين عملوا لدى السلطان السلجوقي في وظيفة الطشت دار^(٣) ، فحظي بتقدير السلطان ونال ثقته ، فجعله والياً على إقليم خوارزم ، وظل على ولايته حتى وفاته سنة (٤٩٠هـ) ، ثم تولى ابنه محمد وكان على مقدرة وكفاءة مثل أبيه ، فظل يحكم باسم الدولة السلجوقية ثلاثين عاماً حتى توفي سنة (٥٢٢هـ) ، ثم تولى ابنه (اتسز) بموافقة السلطان السلجوقي^(٤) ، لكن

(١) عمران / محمود سعيد ، المغول وأوروبا ، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية ، د. ط. ١٩٩٧م) ، ص ١٤-١٥.

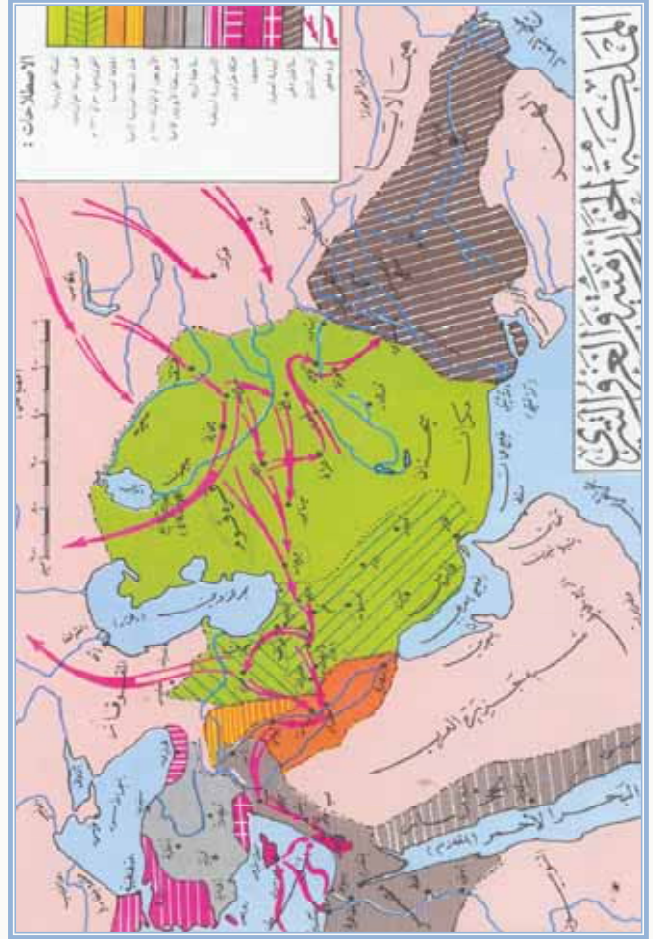
(٢) لسلاجقة: وتنسب هذه الدولة إلى مؤسسها سلجوق بن دقان ، وأشهر سلاطينها (طغرل بيك) الذي عمل على توسيع عرش بلاده ، وتوفي في السبعين من عمره.

السيد أكرم / السيد عبد المؤمن ، أضواء على تاريخ توران (تركستان) ، تقديم: أحمد محمد جمال ، (استانبول ، د. ط. ١٩٩٢م) ، ص ٥٢-٥٣.

(٣) الطشت دارية: هي إحدى وظائف "الطشت خانة" ، ومعناه بيت الطشت ، وسميت بذلك لأن فيها الطشت الذي يغسل فيه القماش ، أي أنها المسئول عن لباس السلطان وغسيله.

القلقشندي / أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ) ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا مج ٤ ، تعليق: أحمد حسين شمس الدين ، (بيروت: دار الكتب العلمية ، د. ط. د. ت. ، ص ٩-١٠).

(٤) صبره / عفاف سيد ، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ، (القاهرة: دار الكتاب الجامعي ، ط ١ ، ١٤٠٧هـ) ، ص ٣٦.



الدولة الخوارزمية ومواجهتها للزحف المغولي

ريهام المستادي

ماجستير تاريخ إسلامي

عضو جمعية الآثار والتاريخ الخليجية

جدة - المملكة العربية السعودية

riham_almistadi@hotmail.com

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

ريهام المستادي ، الدولة الخوارزمية ومواجهتها للزحف المغولي -. دورية كان التاريخية -. العدد الثامن ؛ يونيو ٢٠١٠ . ص ٦٣ - ٦٧ . (www.historicalkan.co.nr)



كانت تلك الواقعة أول احتكاك بين الدولتين ، وعلى الرغم أن الحرب بينهما لم تأخذ طابع الحرب الرسمية ، ولم تسفر عن أي نتائج إلا أنها أظهرت مدى تنظيم جيش المغول وقوته ^(١٢) ، ونستنتج من تلك المعركة أن جوجي أجبر على القتال لأن والده لم يأمره بقتال المسلمين ، وترجع رغبة جنكيز خان في عدم دخوله في حروب مع المسمين ، أنه ليس بحاجة إلى محاربتهم كي لا تتعدد جبهات القتال لديه مما يرهق جيشه ويبعثره وهذا عكس ما كان يفعله سلطان الخوارزميين .

وعلى الجانب الآخر نجد بروز دولة المغول وتعاظم قوتهم على يد جنكيز خان ، الذي أخذ يعمل على بسط سيطرته على أعداءه ، ومد بصره إلى بلاد الصين لينتهي به الأمر إلى الاستيلاء على العاصمة بكين سنة (٦١٢هـ) ، ليزيد هذا الحدث هيئته في نفوس الجميع ^(١٣) . وبعد أن قضى كلاً من الطرفين على أعداءه ، ونتيجة لتجاوز الحدود ، أصبح لا بد من وجود علاقات بين البلدين إما سلمية أو عدائية ، فكانت تلك بداية العلاقات السلمية ، حيث بدأها جنكيز خان بعلاقات تجارية ، فأرسل إليه ثلاثة من التجار المسلمين الذين توجهوا إلى بلاد المغول من أجل التجارة ^(١٤) ، فأكرمهم جنكيز خان وأحسن وفادتهم وأرسل معهم رسالة إلى السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه ^(١٥) ، نصها " ليس نخفي عليك عظيم شأنك ، وما بلغت من سلطان ، وقد علمت بسطة ملكك ، وانفاذ حكمك في أكثر أقاليم الأرض ، وأنا أرى سالتك من جملة الواجبات ، وأنت عندي مثل أعز أولادي... الخ " ^(١٦) .

عندما قرأ محمد خوارزم الرسالة استشاط غضباً ، لأنه رأى أنها تحمل صوراً من التهديد والوعيد ، وما زاده غضباً قول جنكيز خان بأن محمد خوارزم بمثابة الابن ^(١٧) ، قد يكون محمد خوارزم محقاً في غضبه وخاصة أن جنكيز خان أراد أن يعلمه انه فتح الصين ، وقد تكون هذه اشارة إلى مدى قوة المغول ، أما بالنسبة لقوله أنه بمثابة الابن ، فرغم أن جنكيز يكبره سنأ إلا أن السلطان غضب لغروره فكيف لذاك الوثني أن يكون أباً لهذا المسلم. وفي النهاية قرر السلطان خوارزم شاه عقد المعاهدة التجارية بين الدولتين ^(١٨) .



- (١٢) إقبال/ عباس، تاريخ المغول، ترجمة عبد الوهاب غلوب، (د.م، د.ن، د.ط، د.ت)، ص ٦١.
- (١٣) الصياد/ فؤاد عبد المعطي، المغول في التاريخ ج ١، (بيروت: دار النهضة العربية، د.ط، د.ت)، ص ٥٣.
- (١٤) ابن عربشاه/ أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد، (ت ٨٥٤هـ)، فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء، تحقيق: إيمان عبد الجبار البحيري، (القاهرة: دار الآفاق العربية، ط ١، ١٤٢١هـ)، ص ٥٤١.
- (١٥) المصدر السابق، ص ٥٤٣.
- (١٦) فهمي/ عبد السلام عبد العزيز، تاريخ الدولة المغولية في إيران، (القاهرة: دار المعارف، د.ط، ١٩٨١هـ)، ص ٤٩، وللاستزادة أنظر الفقي/ المشرق الإسلامي بعد العباسيين، ص ٢٢، ابن عربشاه/ فاكهة الخلفاء، النسوي/ سيرة جلال الدين، ص ٨٣-٨٤.
- (١٧) فهمي، مرجع سابق، ص ٤٩.
- (١٨) فهمي، المرجع نفسه، ص ٥٠.

اتسز كان طموحاً فتطلع إلى مد نفوذه على حساب دولة السلاجقة ، فدخل في حروب مع الدولة السلجوقية ، ولم يكتفي بذلك بل سعى للتخالف مع قبائل (الخطا) التركية ، لأنه لم يستطع أن يقف أمام جيش السلاجقة بقوته الناشئة فاحتاج إلى حليف ، وبالفعل استطاع اتسز أن يوقع الهزيمة بسنجر وان يستولي بمساعدة الخطا على بلاد ما وراء النهر ، بعد معركة حامية الوطيس ^(٥) .

وبعد وفاة اتسز اعتلي عرش الخوارزميين (أيل أرسلان بن اتسز) الذي يعد أول سلاطين الخوارزميين المستقلين ^(٦) ، الذي ترك ابنه علاء الدين تكش ومحمود فسرعان ما دب الخلاف بينهما ، فاستعان أحدهما وهو تكش بالخطا ، بينما استعان أخيه محمود بالمؤيد ملك الغوريين فانهمز جيشه أما جيش تكش ، ويؤسر الملك المؤيد ثم يقتل ويصبح الحكم في يد تكش ^(٧) الذي أصبح من أعظم من حكموا خوارزم واستطاع أثناء حكمه أن يقضي على النفوذ السلجوقي في العراق ، وأن يخضع العراق العجمي ، كما تمكن من إلحاق الهزيمة بجيش الخليفة الناصر لدين الله ، وكان السبب في العداوة التي قامت بينهم أن الخليفة طلب من تكش ترك البلاد التي فتحها ^(٨) . ولما توفي تكش سنة (٥٩٦هـ) ، خلفه ابنه قطب الدين الذي تلقب بلقب أبيه علاء الدين ^(٩) ، فكان كأبيه طموحاً يتطلع إلى توسيع دولته وبسط نفوذها ، فدخل في حروب مع جيرانه واستولى على معظم إقليم خراسان ، وقضى على دولة الخطا ^(١٠) ، وكان القضاء على هذه الدولة أكبر خطأ ارتكبه السلطان علاء الدين ، فقد كانت السد المنيع بين المسلمين وقبائل المغول والتي جاورت دولة الخوارزميين عند زوال الخطا ، ولو قدر لهم البقاء لكانت سبباً في تأخر غزو المغول على البلاد الإسلامية. وهذا التصرف من قبل السلطان علاء الدين يدل على قصر نظره ، وسوء تقديره للعواقب ، بأن يعادي جميع جيرانه ويقوم بمحاربتهم والاستيلاء على دولهم ، فقد كان شغله الشاغل هو توسيع دائرة ممتلكاته دون أن يهتم بتوطيد دعائم ملكه الداخلية ، أو إلى النظر فيمن هو عدوه الحقيقي ، وهناك دليل آخر على سوء تصرف ذلك السلطان ، فحدث أن التقى السلطان محمد خوارزم وهو في طريقة إلى إحدى الغزوات بفرقة من الجيش المغولي ، كان يقودها (جوجي) ابن جنكيز خان ، فحاول السلطان التحرش به ، لكن جوجي بعث إليه برسالة فحواها أن المغول ما قدما إلا لقمع الثوار الخارجين ، ولم يأتوا لمحاربة المسلمين ، فلم يعجب هذا الكلام السلطان بسبب غروره فأعلن الحرب على فرقة المغول ^(١١) .

- (٥) ابن الأثير/ عز الدين ابن الحسن على بن أبي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ مج ٩، تحقيق: علي شيري، (بيروت: دار إحياء التراث، ط ١، ١٤٢٥هـ)، ص ٢٨٢.
- (٦) حمدي/ حافظ احمد، الدولة الخوارزمية والمغول ، (د.م، د.ن، د.ط، د.ت)، ص ٢٧-٢٨.
- (٧) ابن الأثير، مصدر سابق، ص ٦٥-٦٦.
- (٨) السيد أكرم، مرجع سابق، ص ٥٥.
- (٩) ابن خلدون/ أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ)، العبر وديوان المبتدأ والخبر، اعتنى به: أبو صهيب الكرخي، (د.م، بيت الأفكار الدولية، د.ط، د.ت)، ص ١٢٩٥.
- (١٠) ابن الأثير، مصدر سابق، ص ٢٩٢-٢٩٣.
- (١١) الفقي/ عصام الدين عبد الرؤوف، جمال الدين/ محمد السعيد، موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي (المشرق الإسلامي بعد العباسيين ج ٤)، (القاهرة: شركة سفير للطبع والنشر، ط ١، د.ت)، ص ٢٢.

بداية الغزو المغولي

وضع جنكيز خان خطة إستراتيجية محكمة للاستيلاء على إقليم خوارزم ، فقسم جيشه إلى أربع أقسام وكل قسم يقصد جهة معينة^(١٣) ، وكانت أول ضحايا جيش جنكيز خان مدينة أترار ، فلم يقبوا على أي شخص فيها فكانت تحركهم نار الثأر والحقد على كل خوارزمي ، ثم تلاها بخارى وسمرقند^(١٤) اللتين قتل جميع من فيهما وأحرقتا. وظل جنكيز خان وجنوده في تتبع دائم للسلطان محمد خوارزم شاه ، حتى استطاعوا الحاق الهزيمة به وتملكوا بلاد ما وراء النهر^(١٥) ، أما محمد خوارزم شاه فإنه فر إلى جزيرة في بحر طبرستان ، وما لبث أن توفي حين سمع بخبر أسر والدته (تركان خاتون) ، ومقتل أبنائه فوصى بالحكم قبل وفاته إلى ابنه جلال الدين^(١٦) .

السلطان جلال الدين منكبرني

ومواصلة الصراع مع المغول

اعتلى جلال الدين عرش البلاد في ظروف قاسية تحتاج رجل أشبه بمعجزة كي ينقذ البلاد من فتك المغول. وقد استطاع جلال الدين تكوين جيش كبير في غزنه^(١٧) ، التي اتخذها معسكراً له ولولايته في حياة أبيه ، ودخل جلال الدين في حرب مع المغول فاستطاع أن يلحق بهم الهزيمة^(١٨) .

كما خاض جلال الدين معركة ثانية ضد المغول فأوقع بهم الهزيمة للمرة الثانية في منطقة تدعى (بروان) سنة ٦١٨ هـ^(١٩) ، وكان لهذه المعركة أثر في نفس جلال الدين فاسترد ثقته بنفسه ، ولكن بدلاً من أن يستفيد المسلمون من النصر الذي حققوه تفرق جيش جلال الدين ، فاقتتل الجيشان ثلاثة أيام فر بعدها جلال الدين إلى الهند ، مما جعل الطريق أمام المغول سالكاً إلى غزنه فدخلوها بلا عناء^(٢٠) .

مكث جلال الدين فترة من الزمن استطاع خلالها جمع قوة كبيرة من الجند الفارين من وجه المغول ، وكون جيشاً استطاع به أن يخضع عدداً من الأقاليم الهندية ، مما استدعى حكام أقاليم السند- بعدما تفاقم خطرهم- أن يتحدوا ضد جلال الدين^(٢١) ، فخرج من إقليم السند

ولم يمضي وقت قصير على إبرام تلك المعاهدة حتى قدم جماعة من التجار من قبل جنكيز خان إلى مدينة (اترار)^(١٩) ، التابعة للدولة الخوارزمية ، فطمع أميرها (اينال خان) ابن خال السلطان^(٢٠) ، فيما معهم من أموال وبضائع فأرسل إلى السلطان خوارزم يخبره بأن هؤلاء التجار ما هم إلا جواسيس أتوا في زي تجار ، مما دعا السلطان إلى أن يقتلهم^(٢١) ، فكانت هذه الحادثة الفتيل الذي أشعل النار بين الدولتين.

وعندما سمع جنكيز خان بما حدث لتجاره غضب ، لكنه لم يتسرع في شن هجوم على بلاد خوارزم ، بل أظهر تريثاً ، فأرسل إلى السلطان محمد خوارزم كي يقف على حقيقة ما حدث ، وطلب في رسالته من السلطان محمد ، أن يثبت حسن نيته ، ويسلم اينال المتسبب في الحادث ، ولكن السلطان هنا أظهر سؤ تصرفه وتسارعه حيث قتل رسول جنكيز خان^(٢٢) ، ورفض تسليم اينال فلو انه تمهل وأثبت حسن نيته لما حدثت المجازر لتسليمه. وسبب رفضه صلة القرابة بينهم وما يتمتع به الأخير من مكانة عالية بين جيشه ، وقد يكون هناك سبباً آخر وهو عدم رغبة السلطان محمد خوارزم ، في إظهار ضعفه وانصياعه فيما طلب منه من الانصياع لأوامر جنكيز خان.



(١٩) اترار: وجاء في معجم البلدان أطرار: وهي اسم مدينة تقع في أول حدود الترك في بلاد ما وراء النهر ، الحموي/ شهاب الدين بن عبد الله ياقوت (ت ٦٢٦ هـ) ، معجم البلدان مج ١ ، قدمها: محمد عبد الرحمن المرعشلي ، (بيروت: دار إحياء التراث العربي ، د. ط. ، د. ت.) ، ص ١٧٦ ، كما تعد هذه المدينة الواقعة على نهر سيحون مفتاح التجارة بين شرق آسيا وغربها.

(٢٠) ورد ذكر اينال خان بأنه خال السلطان في أكثر من مصدر: الديار بكري/ الشيخ حسين بن محمد بن الحسن ، تاريخ الخميس في أحوال أنفيس النفيس ج ١ ، (بيروت: مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع ، د. ط. ، د. ت.) ص ٣٦٨ ، الذهبي.

(٢١) الذهبي/ شمس الدين ابن عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ) ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق: بشار عواد معروف ، الشيخ شعيب الأرنؤوط ، صالح مهدي عباس ، (بيروت: مؤسسة الرسالة ، ط ٦٢) ، ص ٢١ ، السيوطي/ جلال الدين (ت ٩١١ هـ) ، تاريخ الخلفاء ، (بيروت: دار الكتب العلمية ، د. ط. ، د. ت.) ، ص ٣٧٥.

(٢٢) النسوي/ نور الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد المنشي ، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، تحقيق: حافظ حمدي ، (القاهرة: دار الفكر العربي ، د. ط. ، م ١٩٥٣) ، ص ٨٧.

(٢٣) الصياد ، مرجع سابق ، ص ١١٢-١١٣ .

(٢٤) القامدي/ سعد بن محمد حذيفة ، سقوط الدولة العباسية ، (د. م. ، دار ابن حذيفة ، ط ٣ ، ١٤٢٥ هـ) ، ص ١٢١ .

(٢٥) الديار بكري ، مصدر سابق ، ص ٣٦٨ .

(٢٦) حمدي/ مرجع سابق ، ص ١٦١-١٦٢ . / ابن سباط / حمزة بن أحمد بن عمر (ت ٩٢٦ هـ) ، تاريخ ابن سباط ج ١ ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري ، (طرابلس: جروس برس ، ط ١ ، ١٤١٣ هـ) ، ص ٢٧٤ .

(٢٧) غزنه: إحدى مدن خوارزم .

الحميري/ محمد عبد المنعم الصنهاجي ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق: إحسان عباس ، (بيروت: مكتبة لبنان ، ط ١ ، ١٩٧٥ م) ، ص ٤٢٨ .

(٢٨) ابي الفداء/ الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢ هـ) ، المختصر في أخبار البشر ج ٣ ، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب ، يحي سيد حسين ، (القاهرة: دار المعارف ، د. ط. ، د. ت.) ، ص ١٥٩ / ابن سباط ، مرجع سابق ، ص ٢٧٥ .

(٢٩) ابن الوردی/ زين الدين عمر ، (ت ٧٤٩ هـ) ، تنهة المختصر في أخبار البشر ج ٢ ، (النجف: المطبعة الحيدرية ، د. ط. ، د. ت.) ص ٢٠٣ / الفقي ، مرجع سابق ، ص ٩٦ .

(٣٠) ابن كثير/ ابي الفداء اسماعيل القرشي (ت ٧٧٤ هـ) ، البداية والنهاية مج ٧ ، تحقيق: عبد الرحمن اللاذقي ، محمد غازي بيضون ، (بيروت: دار المعرفة ، ط ٥ ، ١٤٢٠ هـ) ، ص ١٠٧ .

(٣١) فهمي ، مرجع سابق ، ص ٨٥ .

- ٤- ثورة عدد من البلدان الواقعة تحت السيطرة الخوارزمية بسبب ظلم الحكام^(٤٠).
- ٥- تباين عناصر السكان في الدولة الخوارزمية إذ كانوا يتكونون من ترك وعرب وفرس ، فلم يكونون متحدين إلا في العقيدة الدينية^(٤١).
- ٦- خوف السلطان محمد خوارزم شاه من المغول ففر من أمامهم.
- ٧- افتقار بلاط الخوارزميين إلى وزراء ومستشارين على درجة عالية من الثقافة السياسية.
- ٨- نشوب الخلاف بين أبناء السلطان على السلطة ، فآثر ذلك على الدولة^(٤٢).
- ٩- تقاعس البلاد الإسلامية المعرضة للغزو المغولي عن حماية أراضيهم والفرار من وجه المغول.
- ١٠- وجود جواسيس للمغول داخل بلاد الخوارزميين للوقوف على أخبارهم.
- ١١- إقدام المغول على قتل من في البلاد التي تقع تحت سيطرتهم وتخريبها ، وقد يكون لديهم سبب في ذلك ، فمثلاً عند غزوهم اترار كان الدافع هو الانتقام ، كذلك خوفهم من تكوين حاميات عسكرية تهاجم الجيش المغولي ، لذلك عمدوا إلى قتل السكان وحرقت المدن كي لا تصبح حصوناً للخوارزميين^(٤٣).
- وهناك سبب ساعد كثيراً في زوال تلك الدولة وهو قضاء الخوارزميين على دولة الخطا التي كانت تقف حاجزاً بينهم وبين المغول. وهناك دافع نستنتجه وهو إهمال سلاطين الخوارزميين في تنمية موارد بلادهم ، فقد انشغلوا بحروبهم عن إصلاحاتهم الداخلية ، فكان من الأجدى أن يوجهوا نظرهم إلى الداخل ويعملوا على توطيد دعائم حكمهم ، ثم يتجهوا إلى التوسعة في أراضي الدولة.

ومن أسباب ضعف الدولة الخوارزمية نستطيع أن نستخلص الأسباب التي جعلت من المغول دولة قوية ، وهي: لجوء جنكيز خان في بداية حكمه إلى توطيد دعائم ملكه بكل يسر وسهولة وان يضع قانون "الياسا" ليسير عليه الجميع ومن يخالفه يقتل^(٤٤) ، واهتمامه بتنمية موارد دولته خاصة عن طريق التجارة ، بعقد المعاهدات. بالإضافة إلى الطاعة التي تميز بها أفراد شعبه ، فلم يسمع عن تمردهم أو محاولة لإسقاطه. والتنظيم الذي تمتع به جيش المغول وسرعته في الوصول للبلاد المراد غزوها. زد على ذلك ؛ حسن سياسة جنكيز وحكمته في مواجهة الصعاب ، وعدم تسرعه في اتخاذ القرار ، وهذا ما افتقر إليه سلاطين خوارزم ، بالإضافة إلى حاجة شعب المغول إلى مكان مناسب للحياة ، خاصة أنهم شعب رعوي يحتاج إلى مراعي خصبة ، كبيرة تغطي احتياجاتهم المتنمية بسبب زيادة أعدادهم.

قاصداً العودة إلى خوارزم ، وفي أثناء عودته استولى على إقليم كرمان^(٣٢) ، وفي ذلك الوقت كان المغول منشغلون في اختيار خليفة بعد وفاة جنكيز خان ، فانتهمز جلال الدين هذه الفرصة شائناً عدة هجمات على المغول ، لكن (أوكتاي) خاقان المغول الجديد شنّ حرباً شامله على جلال الدين مما جعله يفر إلى جبال كردستان ليلقي حتفه هناك على يد أحد رجال الأكراد سنة (٦٢٨هـ)^(٣٣). وبمقتله سقطت الدولة الخوارزمية ، لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل الغزو المغولي على بلاد المسلمين.

أسباب ضعف الدولة الخوارزمية وسقوطها

ظهرت الدولة الخوارزمية على مسرح الأحداث دولة قوية استطاعت أن تسيطر على معظم المناطق المحيطة بها ، حتى أن محمد خوارزم من شدة غروره وما بلغه من قوة ، كون جيشاً كبيراً لمحاربة الخلافة العباسية في بغداد ، طامعاً في إقامة الخطبة فيها^(٣٤) ، حتى أنه كثيراً ما أراد عزل الخليفة الناصر لدين الله وإقامة خليفة علوي شيعي بدلاً عنه يوالي آل البيت. لكن أهدافه باءت بالفشل ، إذ وقع على جيشه ثلج عظيم ، فسره البعض بأنه غضب من الله^(٣٥) ، وكان في هذا الحدث أثر في تدهور العلاقات بين الطرفين.

وهناك عدة عوامل ساعدت على ضعف هذه الدولة منها ما كان ظاهراً للعيان وهو ضعف العالم الإسلامي ، إذ لم يكن هناك وحدة قائمة بين المسلمين ، فكان كل حاكم يتطلع إلى ما بيد الآخر من أراضي كي يستولي عليها ، كذلك اضطراب الحالة السياسية والاجتماعية داخل الدولة الخوارزمية^(٣٦) ، بالإضافة إلى الأسباب التالية:

- ١- استيلاء السلطان محمد خوارزم شاه على جيرانه ، ورغبته في تأسيس إمبراطورية قوية على حساب القوى الإسلامية المحيطة به ، فكان لذلك اثر في إضعاف باقي الدول التي وقفت عاجزة أمام الزحف المغولي.
- ٢- تدخل والدة السلطان "تركان خاتون" في شئون الحكم ، وتقريبها أفراد عشيرتها وجعلهم في مناصب عليا في الدولة^(٣٧).
- ٣- ضعف النظام الحربي رغم كثرة أعداد الجيش ، فاعتمد الخوارزميين في تكوين جيوشهم على العنصر التركي ، والذي أصبح مع مرور الوقت قوة عظيمة ضايقته أهالي البلاد منهم بسبب فسادهم وتخويفهم للأهالي وسرقة ممتلكاتهم^(٣٨) ، ونشأ النظام الإقطاعي عرف منذ عهد السلاجقة، متمثلاً في تملك أفراد الجيش أراضي تلك الدولة^(٣٩).

(٣٢) ابن الوردي ، مصدر سابق ، ص ٢٢٤.

كرمان: وهي أرض متصلة ببلاد فارس/ الحميري ، مصدر سابق ، ص ٤٩١.

(٣٣) ابن سباط ، مصدر سابق ، ص ٣٠١/ الفقي ، مرجع سابق ، ص ٣١.

(٣٤) ابن الوردي ، مصدر سابق ، ص ١٩٣/ العبود/ نافع توفيق ، الدولة الخوارزمية ، (بغداد: دن ، ط ١ ، ١٩٧٨م) ، ص ٩٧.

(٣٥) السيوطي ، مصدر سابق ، ص ٣٥٩.

(٣٦) حمدي ، الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ، (القاهرة: دار الفكر العربي ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ) ، ص ١٣٤.

(٣٧) فهمي ، مرجع سابق ، ص ٩٢-٩٣.

(٣٨) حمدي ، الدولة الخوارزمية ، ص ٢٣٣.

(٣٩) حمدي ، الشرق الإسلامي ، ص ١٣٦.

(٤٠) فهمي ، مرجع سابق ، ص ٩٦.

(٤١) حمدي ، الشرق الإسلامي ، ص ١٣٤.

(٤٢) فهمي ، مرجع سابق ، ص ٩٦-٩٧.

(٤٣) فهمي ، مرجع سابق ، ص ٩٨.

(٤٤) للاستزادة عن قوانين الألياسا ، أنظر: فهمي ، مرجع سابق ، ص ٣٤-٣٥/

المقريزي ، الخطط المقريزية ، ص ٣٨٤.

المصادر

- الصياد/ فؤاد عبد المعطي، المغول في التاريخ ج ١، (بيروت: دار النهضة العربية، د.ط، د.ت).
- العبود/ نافع توفيق، الدولة الخوارزمية، (بغداد: دين، ط ١، ١٩٧٨م).
- الغامدي/ سعد بن محمد حذيفة، سقوط الدولة العباسية، (دم، دار ابن حذيفة، ط ٣، ١٤٢٥هـ).
- الفقي/ عصام الدين عبد الرؤوف، جمال الدين/ محمد السعيد، موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي (المشرق الإسلامي بعد العباسيين ج ٤)، (القاهرة: شركة سفير للطبع والنشر، ط ١، د.ت).
- حمدي/ حافظ أحمد، الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، (القاهرة: دار الفكر العربي، ط ١، ١٤٢٠هـ).
- حمدي/ حافظ أحمد، الدولة الخوارزمية والمغول، (دم، دن، د.ط، د.ت).
- صبره/ عفاف سيد، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، (القاهرة: دار الكتاب الجامعي، ط ١، ١٤٠٧هـ).
- عمران/ محمود سعيد، المغول وأوربا، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، د.ط، ١٩٩٧م).
- فهمي/ عبد السلام عبد العزيز، تاريخ الدولة المغولية في إيران، (القاهرة: دار المعارف، د.ط، ١٩٨١هـ).



من مقالات الأستاذة ربهام المسنادي:

"رحلة قبائل المغول من التمزق إلى التوحيد"

دورية كان التاريخية - العدد الرابع: يونيو ٢٠٠٩، ص ٦٩ - ٧٣

(المغول/ التتار)

لقد عرفوا بأسماء مختلفة منها التتار والمغول، وهي مسميات عدة لشعب واحد، فنجد مثلاً أسم التتار أو التتر قد أطلق على عدة قبائل بدوية تسكن شمال جبال آسيا الوسطى، وتشمل أنحاء من سيبيريا وتركستان وبلاد القرقيز (الستبس) وبعض المناطق المجاورة لشمال الصين. وأطلق الصينيون اسم التتار على الشعوب البدائية المتنقلة والتي تعيش في شمال أسوارهم، كما أطلق هذا الاسم في الغرب الأوروبي منذ القرون الوسطى على المحاربين من المغول والترك الذين اشتركوا في فتوحاتهم مع جنكيز خان، ليتبع مدلول هذا الاسم المغول أنفسهم. أما المغول فقد برزوا على مسرح الأحداث في أواخر القرن السادس الهجري، وكقوة ذات شهرة واسعة خارج حدود منطقتهم في القرن السابع الهجري. ونستطيع أن نقول بأن المغول شيء والتتار شيء آخر، بحيث يمكننا أن نطلق على التتر مغول، ولا يمكننا القول بأن المغول تتر، لأن التتر شعبه متفرعة من المغول وليس العكس، إذن الأصل هنا هم المغول. نشأ هؤلاء القوم في صحراء جوبي القاحلة، وهم يشبهون الترك في اللغة والمظهر العام ويحدهم من الشرق أرض الخطأ، ومن الغرب الأويغوريين، وشمالاً القرقيز ونهر سلنكا وغرباً قبائل التنكت والتبت.

- ابن الأثير/ عز الدين ابن الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ مج ٩، تحقيق: علي شيري، (بيروت: دار إحياء التراث، ط ١، ١٤٢٥هـ).
- ابن خلدون/ أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ)، العبر وديوان المبتدأ والخبر، اعتنى به: أبو صهيب الكرخي، (دم، بيت الأفكار الدولية، د.ط، د.ت).
- ابن سباط/ حمزة بن أحمد بن عمر (ت ٩٢٦هـ)، تاريخ ابن سباط ج ١، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، (طرابلس: جروس برس، ط ١، ١٤١٣هـ).
- ابن كثير/ أبي الفداء إسماعيل القرشي (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية مج ٧، تحقيق: عبد الرحمن اللاذقي، محمد غازي بيضون، (بيروت: دار المعرفة، ط ٥، ١٤٢٠هـ).
- ابن عربشاه/ أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد، (ت ٨٥٤هـ)، فاكهة الخلفاء ومفاكهة الطرّفاء، تحقيق: أيمن عبد الجبار البحري، (القاهرة: دار الآفاق العربية، ط ١، ١٤٢١هـ).
- ابن الوردي/ زين الدين عمر، (ت ٧٤٩هـ)، تنمة المختصر في أخبار البشر ج ٢، (النجف: المطبعة الحيدرية، د.ط، د.ت).
- أبي الفداء/ الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ)، المختصر في أخبار البشر ج ٣، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، يحي سيد حسين، (القاهرة: دار المعارف، د.ط، د.ت).
- الحموي/ شهاب الدين بن عبد الله ياقوت (ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان مج ١، قدمها: محمد عبد الرحمن المرعشي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت).
- الحميري/ محمد عبد المنعم الصنهاجي، الروض المططار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: مكتبة لبنان، ط ١، ١٩٧٥م).
- الديار بكري/ الشيخ حسين بن محمد بن الحسن، تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس ج ١، (بيروت: مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، د.ط، د.ت).
- الذهبي/ شمس الدين ابن عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، الشيخ شعيب الأرناؤوط، صالح مهدي عباس، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٦٢).
- السيوطي/ جلال الدين (ت ٩١١هـ)، تاريخ الخلفاء، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت).
- القلقشندي/ أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ)، صبح الأعشا في صناعة الإنشا مج ٤، تعليق: أحمد حسين شمس الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت).
- النسوي/ نور الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد المنشي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، تحقيق: حافظ حمدي، (القاهرة: دار الفكر العربي، د.ط، ١٩٥٣م).

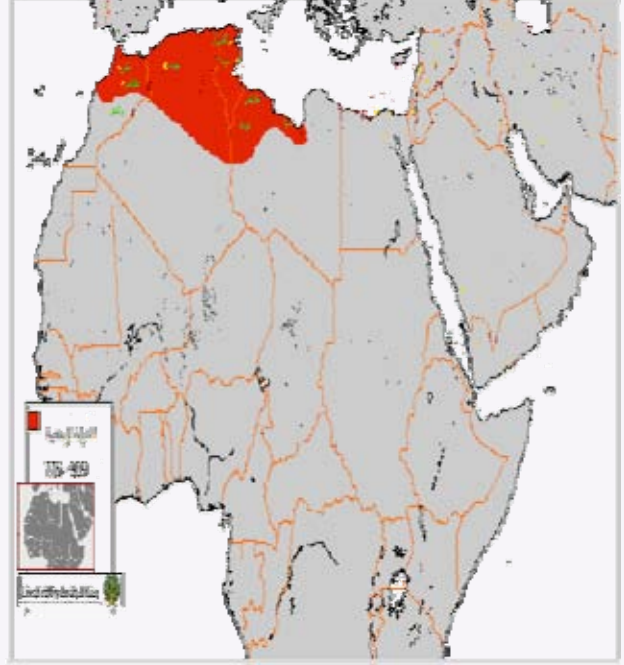
المراجع

- إقبال/ عباس، تاريخ المغول، ترجمة عبد الوهاب علوب، (دم، دن، د.ط، د.ت).
- أكرم/ السيد عبد المؤمن، أضواء على تاريخ توران (تركستان)، تقديم: أحمد محمد جمال، (استانبول، دن، د.ط، ١٩٩٢م).

العلاقات التجارية

بين الدولة الرسنمية والسودان الغربي

[160-296هـ / 777-909م]



د. خالد بلعربي

قسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الجيلالي اليابس - سيدي بلعباس

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

belarbi.tlemcen@yahoo.fr

الاستشهاد المرجعي بالهقال:

خالد بلعربي ، العلاقات التجارية بين الدولة الرسنمية

والسودان الغربي (٢٩٦ - ١٦٠ هـ / ٧٧٧ - ٩٠٩ م) -

دورية كان التاريخية - العدد الثامن ؛ يونيو ٢٠١٠.

ص ٦٨ - ٧٢ . (www.historickan.co.nr)

مقدمة

إن غنى وتنوع التراث المعرفي والتاريخي للغرب الإسلامي فتح المجال واسعاً للبحث التاريخي المعاصر في جميع الجوانب الحضارية ، ومن أبرز مجالاتها الدراسات التاريخية الاجتماعية ، الثقافية والاقتصادية. هذه الدراسات المعاصرة أعطت للبحث التاريخي عمقاً فكرياً في مجال التفسير التاريخي ، شمل الجوانب الثقافية ، الاجتماعية والاقتصادية ، بدلاً من حصره في المجال السياسي.

في هذا الإطار ، وفقاً لهذا التوجه يندرج البحث الذي نرمي إلى معالجته تحت عنوان: "العلاقات التجارية بين الدولة الرسنمية والسودان الغربي" في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي. يهدف البحث إلى إيجاد التفسير لهذا التوجه الاقتصادي للدولة الرسنمية نحو الجنوب ، عبر الصحراء الفقيرة والقاسية ، هذا التوجه الذي يشمل عاملاً أساسياً في تطور المغرب الإسلامي لمدة قرون ، يؤكد الدور الحضاري والاقتصادي للنشاط التجاري الرستمي ، الذي أهمله مؤرخو الإسلام الأوائل مثل الطبري وابن كثير وحتى ابن خلدون إماماً جهلاً أو تجاهلاً ، وأنكر فعاليته المستشرقون.

التعريف بالدولة الرسنمية

(١٦٠-٢٩٦هـ/٧٧٧-٩٠٩م)

في النصف الأول من القرن الثاني توالى ثورات الخوارج في المغرب الإسلامي مما أعطى الإباضية فرصة تأسيس الدولة الرسنمية ، والتي ارتبط أسمها بمؤسسها عبد الرحمن بن رستم - ذو الأصول الفارسية - وكذا بتأسيس مدينة "تاهرت" في المغرب الأوسط.^(١) هذه المدينة التي ستكون النواة الأساسية في بناء الدولة الرسنمية بفضل ما شهدته من تطور اقتصادي وحضاري في جميع المجالات ، الزراعية ، الصناعية و التجارية. كما أن تركيبتها الاجتماعية - رغم اعتمادها على العنصر البربري - تنوعت بفضل ما عرف عن حكمها من عدل ، وعن حياتها من ازدهار اقتصادي وثقافي ، وفي هذا المجال يقول ابن الصغير المالكي: "ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامة وعدلته..."^(٢).

انتقاد الخوارج في المغرب الأوسط وجنوب افريقية "القبروان" وحتى جبل نفوسة بطرابلس لسلطة الدولة الرسنمية التي توسعت جغرافياً وسياسياً ، حتى غدت حدودها من جبل نفوسة شرقاً حتى تلمسان غرباً ، ومن سواحل البحر المتوسط في المغرب الأوسط شمالاً حتى بلاد السودان جنوباً. إن هذا الامتداد الجغرافي أعطى الدولة الرسمية أهمية إستراتيجية في مجال العلاقات التجارية بين المشرق الإسلامي ، والغرب الإسلامي ، وبين العالم الإسلامي و بلاد السودان ، خاصة الغربي منه.

وفي هذا الإطار يقول ابن الصغير: "... استعملت السبل إلى بلد السودان ، و إلى جميع البلدان من مشرق و مغرب بالتجارة و ضروب الأمتعة ...".^(٣) ومن أبرز المدن الرسنمية التي انطلقت منها قوافل التجارة باتجاه السودان الغربي ، مدينة تاهرت العاصمة ، ومدينة "ورجلان" في الجنوب الشرقي للمغرب الأوسط.^(٤)



طرق التجارة إلى السودان

أ- الطريق عبر سجلماسة:

في أقصى الجنوب الغربي من المغرب الأقصى، وضع الخوارج الصفرية الأساس لمدينة "سجلماسة" سنة ١٤٠هـ يتزعمهم عيسى بن يزيد الأسود المكناسي السفري. هذه المدينة التي ستكون النواة الأولى في بناء دولة بني مدرار وعاصمتها سجلماسة.^(١١)

سجلماسة هذه المدينة التاريخية التي سيكون لها دوراً فعالاً في تاريخ وحضارة بلاد الغرب الإسلامي بأكمله، لعبت دوراً أساسياً في توسيع شبكة العلاقات التجارية للدولة الرستمية خاصة باتجاه السودان الغربي، ومن العوامل التي ساعدت على تقوية الروابط بينهما، التقارب المذهبي بين الاباضية والصفرية (خوارج).

تردد ذكر الطريق التجاري الرابط بين تاهرت وسجلماسة في العديد من المصادر القديمة، حيث أشار اليعقوبي في كتابه "تاريخ البلدان" إلى وجود هذا المسلك الذي يربط تاهرت لسجلماسة حيث قال أنه: "من خرج من تاهرت، سلك الطريق بين القبلة والغرب، سار إلى مدينة يقال لها أوزكا" ومنها غرباً إلى سجلماسة.^(١٢) ويقدر اليعقوبي المسافرين بين تاهرت وسجلماسة بحوالي عشرة مراحل. في حين يقدرها الاصطخري في كتابه "المسالك والممالك" فيقول: "من تاهرت إلى سجلماسة نحو خمسين مرحلة"، وأحياناً يقدرها بمسير خمسة وعشرون يوماً، كما ذكر ذلك T. Lewiki في كتابه:

L'état nord-africaine de Tahert et ses relations avec le Soudan VIII au XI siècle ويذكر البكري أنه "على مدينة وجدة طريق المارة والصادرة من بلاد المشرقة إلى سجلماسة، وغيرها من بلاد المغرب".^(١٣)

لاشك أن هذه المارة تعبر تاهرت لأهميتها الاستراتيجية، كما أن اختلاف تقدير المسافة بين تاهرت وسجلماسة يدل على تعدد المسالك، وتعدد المسالك بدورة يدل على ازدهار التجارة، كثرة القوافل، وتعدد أغراضها. كما يدل تعدد المسالك واختلاف المسافات على أن الرحلات التجارية كانت متعددة الأهداف والمقاصد، وأن القافلة كانت تجوب مناطق مختلفة، تباع وتشتري من منطقة إلى أخرى حتى تصل من تاهرت إلى سجلماسة، حيث تبدأ الرحلة الكبرى باتجاه بلاد السودان الغربي، بلاد الذهب والدقيق الأسود غايتها ومصدر غناها.^(١٤)

استخدمت سجلماسة كنقطة انطلاق جديدة نحو السودان الغربي بالنسبة لتجار تاهرت الرستمية في القرن الثالث للهجرة،^(١٥) وكذا باقي تجار المغرب الإسلامي وحتى المشرق — رغم اختلاف — مذاهبهم وأحياناً في ديانتهم حيث كان من بينهم اليهود، هذا إن دلّ على شيء فإنها يدل على التسامح الديني والمذهبي الذي ساد في إطار دولة بني مدرار وسجلماسة وحتى الدولة الرستمية بتاهرت.^(١٦)

من سجلماسة كانت تنطلق القوافل من جديد باتجاه بلاد السودان، سالكة طرق مختلفة أبرزها الطريق الساحلي وأحياناً طرق داخلية، حيث عبرت القوافل الصحراء بدون توقف خاصة خلال القرن الثالث للهجرة التاسع الميلادي، وأكدت الأبحاث الأثرية هذا الاتصال، حيث وجدت بقايا أواني رستمية في بلاد السودان الغربي.

ذكرت المسالك إلى السودان من طرف اليعقوبي (ق ٣هـ)، وابن حوقل (ق ٤هـ)، ثم صاحب "الاستبصار" وغيرهم، كما وردت عدة

بلاد السودان الغربي

يشمل السودان الغربي المنطقة الممتدة بين المحيط الأطلسي غرباً، وبحيرة تشاد شرقاً، ومن الصحراء الكبرى شمالاً حتى خليج غانا الكبير جنوباً، على حدود ١٠° شمالاً. ويعرفها القزويني في كتابه "آثار البلاد" ينتهي شمالها إلى أرض البربر، وجنوبها إلى البراري وشرقها إلى الحبشة وغربها إلى المحيط".^(٥)

في بلاد السودان ظهرت إمارات ودول مختلفة في القرن الثالث التاسع الميلادي والرابع الهجري، لعل أبرزها وأهمها من الناحية السياسية والاقتصادية وحتى العسكرية دولتين هما:

— مملكة غانة: امتد نفوذها في القسم الغربي من السودان أي شرقي السنغال الحالي، وغربي حوض بحيرة تشاد، ذكر المسعودي أن تحت يد ملك غانة عدة ملوك وممالك كلها فيها الذهب"،^(٦) بلغت غانة أوج قوتها في أواخر القرن الثاني للهجرة، الثامن للميلاد ومن أبرز ملوكها "بنتجوي دكوري (Bentigri Doukoure) "حكم حوالي ١٧٤هـ/٧٩٠م، خلفه تكلان، ثم تلوتان أو بولاتان الذي حكم من سنة ٢٢٢هـ/٨٣٧م.^(٧)

يذكر يحي بوعزيز أن أصلهم من قبيلة لمتونة الصنهاجية التي ساهمت في نشر الإسلام في بلاد السودان الغربي، وهم أسلاف المرابطين من فروع قبيلة صنهاجة الصحراء مثل: مسوفة، لمطة، مداسة وتريكة.^(٨)

— مملكة واران ونخلة: ذكر لويكي (T. Lewicki) في كتابه "Traits d'histoire du commerce" دولة نخلة تقع على الساحل الجنوبي لبحيرة تشاد. لكن هذه الممالك الكبرى غانة ونخلة تفككت في القرن الثالث للهجرة التاسع الميلادي مما فتح المجال لظهور ممالك جديدة.

اهتم الرستميون بتوثيق صلاتهم التجارية بها، وجابتها قوافلهم، منها: مملكة أوداغشت، والتي عاصرت الدولة الرسمية، ولعبت دوراً أساسياً في تجارتها. ثم مملكة "كوكو أو جوجو"، مملكة غاو Gao، هذه الأخيرة التي كانت تسيطر على طرق التجارة الصحراوية التي تربط السودان الغربي بالمغرب الإسلامي.^(٩)

إن ضبط حدود دول السودان في القرن الثالث للهجرة، التاسع للميلاد ليس بالأمر الممكن، لقلة المعلومات في المصادر وأحياناً تضاربها، واختلاف التسميات من مؤرخ إلى آخر، خاصة عند الفزاري واليعقوبي والمسعودي.^(١٠) لكن هذا لا ينفي وجود حياة سياسية في السودان، وإن تراوحت بين النظام والفوضى، تفاعلت معها التجارة الرستمية بحذر من أجل حماية مصالحها التجارية وتوسيعها.



طبيعة المبادلات التجارية

أ- الصادرات:

ذكرنا أن طرق التجارة الرابطة بين تاهرت وورجلان الرستمتين كانت تمر بمناطق مختلفة قبل وصولها إلى السودان وحتى داخله ، وبالتالي كانت تفرغ حمولتها كلما توفرت لها الأرباح المناسبة ، أي أن تجارتها كانت حركة اقتصادية ، تعددت صادراتها ومشترياتها وتنوعت حسب الحاجات الأساسية لكل منطقة. حيث كان التاجر يخرج بسلع معينة من بلاده فيبيع ويشترى باستمرار حتى يصل إلى الهدف الذي يقصده وهو مناجم الذهب ، والرقيق وطبعا الربح. هذا ما يؤكد أن تجار المغرب الإسلامي لم يكونوا مجرد وسطاء في حركة تجارية عالمية ، بل يؤكد أنهم ما رسوا نشاطا اقتصاديا مركبا ومنتجا.^(٢٣)

وأهم السلع التي حملها تجار الدولة الرستمية إلى بلاد السودان الغربي: الملح هذا المعدن النادر في بلاد السودان الغربي والضروري في حياتهم اليومية ، حيث كان يستخدم في تحفيف الأسماك والحيتان وهي غاية غذائهم حيث يقول البكري أن "تجارة أهل بلد "كوكو" بالمدح وهو تقدمهم".^(٢٤)

كان الملح يشتري من جنوب الصحراء ، في منطقة تسمى "تاغازا" وكان ثمنه مرتفعاً. يحمل على الجمال على شكل ألواح من الملح - (قطع مستوية) - ذكر أبو حامد الغرناطي صاحب كتاب: "تحفة الألباب" أنه يتم تبادله بوزن أو وزن من الذهب أو أكثر حسب حاجة السوق. وإذا علمنا أن حمل الجمل يتراوح ما بين (١٢٥) إلى (١٥٠) كلف فإن تبادله كان يتم بمقدار من الذهب يتراوح بين (٧٦٠) إلى (١١٤٠) غرام من التبر "Poudre d'or" وإذا علمنا أن مقدار الدينار الذهبي يعادل ٣,٨ غرام ذهب تأكدنا من القيمة المرتفعة للملح. ويذكر بن حوقل أن ثمن حمل الملح: "الملح في داخل بلد السودان وأقاصيه ما بين (٢٠٠) و (٣٠٠) دينار" لكن سعره انخفض فيما بعد.^(٢٥)

من الواضح أن الملح لم يكن سلعة رستمية محضة بل كان يشتري من أطراف الصحراء في بلاد السودان ، وهذا يدل على أن تجار الدولة الرستمية قد حملوا من بلادهم سلع أخرى تبادلوها في منطقة "تاغازا" بالملح ، في هذا الصدد يذكر السيد عبد العزيز سالم ، أن تجار الدولة الرستمية كانوا يخرجون من ورجلان "يحملون المنسوجات الصوفية والقطنية ، والكتانية ، وأواني الزجاج والفخار والخزف ذي البريق المعدني ...".^(٢٦)

إنها منتوجات صناعية دلت على التطور الحضاري في الغرب الإسلامي خاصة داخل الدولة الرستمية. إلى جانب المنتوجات الصناعية وجدت المنتوجات الزراعية منها خشب الصنوبر ذكره الحموي ، الحنطة (احتمال).^(٢٧) وبعض الأنواع من التمور ذات الصلاحية الطويلة ، وللملاحظة فإن الصحراء الجزائرية "أدار المنيعه" توجد بها بعض أنواع التمور التي تصدر نحو بلاد السودان الغربي حتى اليوم ، ومن بين أنواعها تمر يسمى "تاغاز" بنفس الاسم الذي حملته مدينة الملح المصدر للسودان الغربي. ويذكر "صاحب الاستبصار" أهم الصادرات لبلاد السودان فيقول "الملح ، الودع ، النحاس المسبول والتاكوت وهو أنفق شيء عندهم للدبع".

كما يورد الإدريسي صادرة المغرب الإسلامي ويذكر من ليثها ، ثياب الصوف ، العباء ، المآزر وصنوف النظم من الزجاج.^(٢٨) لكن تبقى أهم سلعة حملها التجار المغاربة والرستميون إلى بلاد السودان

أسماء لمدن هامة في السودان ذات أهمية تجارية منها: أودغشت ، ثم تاغازا Tagaza مصدر معدن الملح ،^(٢٩) وكذا أغمات. كما وردت في المصادر أسماء لشعوب وقبائل مرّت بها طرق التجارة عبر السودان منها "أنبية" ومنها مسوفة ، جدالة و لمتونة وهي فروع من صنهاجة الصحراء.

ب- الطريق عبر ورجلان

ورد ذكر هذا الطريق عند ابن حوقل (ق ٤هـ) في كتابه "صورة الأرض" ، وكذا الإدريسي في كتابه "صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس" ، ويصنف الإدريسي ورجلان "بأنها مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة و بلاد نقاوة".^(٣٠) من ورجلان جنوب الدولة الرستمية وإحدى أهم مدنها الصحراوية كانت تنطلق القوافل محملة بالسلع المختلفة إلى تادمكة مدورا بمنطقة أدرار - أفوقاس ، وهذا يعني مرور هذا المسلك بمنطقة الهقار ، نسبة إلى قبيلة هواره التي ذكرها ابن خلدون ، بأن بعض هذه القبائل قطعت الرمال إلى بلاد القفر وجاوزت لمطة من قبائل الملمثيين فيما يلي بلاد كوكو من السودان اتجاه افرقية ويعرفون بنسبهم هكارة".

لقد كانت "تاد مكة" مركزا تجاريا هاما ، شمال شرق منحى نهر النيجر ، ذكر البكري أن المسافة بينها وبين ورجلان خمسين يوما (خمسون رحلة) ، ولا زالت آثارها شمال غرب كيدال Kidal أما المسافة بين تادمكة ومدينة كوكو فهي تسع مراحل حسب البكري.^(٣١)

وتذكر المصادر أن ملك كوكو "كافر" في حين أن سكان غانة في الغرب كانوا مسلمين ، وكذا سكان "الكائم" شرقا ، ذكر ذلك أبو الغداء في كتابه مختصر تاريخ البشر.^(٣٢) وذكر ديفيز J. Devisse أن طريق ورقلة (ورجلان) - تادمكة - جاو ، من أهم الطرق التي وصلت بين الشمال الإفريقي في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي و بلاد السودان الغربي ، حيث تزدهر تجارة الملح والذهب والعبيد ، وفي القرن الثاني عشر ميلادي / السادس الهجري كتب الإدريسي يقول: "سكنت ورجلان عائلات غنية و تجار أغنياء جداً ، الذين كانوا في تجارهم يجوبون بلاد الزنوج ، وكانوا يتوغلون إلى غانة وإلى نفارة wangara " يستخرجون منها الذهب الذي يضرب في ورجلان وفي زاوية هذه المدينة ، فهم على العموم من فرقتي الوهايين والإباضيين".^(٣٣)

ومن بين التجار الذين ورد ذكرهم في هذه الفترة أبا موسى الويساني "الإباضي ، الذي يدأر رحلته من الزاب إلى غانة ، ثم إلى مدينة غيابة حوالي النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي / الثالث الهجري ، حيث مناجم الذهب ، هذا المعدن النفيس الذي يعود له الفضل في توسيع دائرة التجارة الصحراوية و حيويتها.^(٣٤) هذه القصة وغيرها تدل على أن بلاد كوكو وحتى غانة كانت بدورها المعبر للوصول إلى مناجم الذهب جنوباً ، لكن هذا لا يعني أن هذه البلاد (كوكو وغانة) لم تكن تربطها بالدولة الرستمية علاقات تجارية هامة ، فقد كانت مجالاً واسعاً لتبادل السلع ومنها الملح والرقيق وبعض المنتوجات الصناعية.



Location of Sijilmasa in Morocco

تعتبر المصدر الرئيسي في تزويد هذا النوع من التجارة أي تجارة العبيد. وأهم فئاتهم: التكرور السنغاليون، الصنوكي الغانيون والصونغاي من جو أو الصاو، نول لمطة من كانم.^(٣٨) كان العبيد بعد تدريبهم وتعليمهم يستخدمون في البيوت والمزارع، ويصدرون إلى الشرق الإسلامي والأندلس. هكذا شكل العبيد قوة منتجة وسلعة هامة في تجارة الرستميين وغيرهم من دول المغرب الإسلامي، تجارة موازية لتجارة الذهب.

إلى جانب الذهب والعبيد، كانت هناك سلع أخرى ترد إلى الرستميين من السودان الغربي وهي ذات فوائد مالية هامة منها "الدق المبطية" وهي جلد يلبسه المحارب تقية مخاطر الجروح والسهم، تصنع من جلد حيوان اللمط (تراس) وهي خفيفة لينة لا ينفذ إليها النشاب ولا يؤثر فيها السيف بيض كالقراطيس، ذكر القزويني أن سعر الواحدة منها ثلاثون دينارا. ويكشف لنا الدرجيني في كتابه "طبقات المشايخ" أن أفلح بن عبد الوهاب كان يستخدمها في حربه ضد يزيد بن فنين.^(٣٩)

كما كان تجار تاهرت يجلبون جلود النمر، جلد حيوان الظبي يضع منه المجن، الصمغ، إلى جانب العاج، ريش النعام، كحل العين، وكذا "الذبل" من ظهور السلاحف تصنع منها الأمشاط كالقرن. وقد اشتغل بالتجارة الأغنياء والمرفهون، وتحملوا المشتاق لأن الأرباح كانت عظيمة.



خاتمة

لا شك أن قيام دول مستقلة خارجية مثل الدولة الرستمية ودولة بن مدرار في سجلماسة، وكذا دولة الأدارسة الشيعية الزيدية في فاس، في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، يمثل بداية تمزق وحدة الدولة الإسلامية أي الخلافة، لكن هذا لا يمنع من إبراز دورها الحضاري الإسلامي الفعّال، خاصة في تطور الغرب الإسلامي ونشر الإسلام في بلاد السودان خاصة الغربي منه.

إن ظهور الدولة الرستمية في زمن متقدم وموقع جغرافي — بالنسبة للاتصال — بين المشرق والمغرب الإسلامي منح تاهرت حقّ السبق في توسيع دائرة التجارة الإسلامية، وفتح لها آفاقاً جديدة وهامة في تطورها كمياً ونوعياً. وفي هذا المجال يبرز دور الدولة الرستمية في تجارة الذهب، الرقيق الأسود، والملح، حيث مثلت هذه الثلاثية وحسب الأهمية مصدر دعم لاقتصاد الغرب الإسلامي، وحتى الشرق منه.

لم يكن تجار المغرب الإسلامي وسطاء فقط — كما يدعي المستشرقون — بل كانوا الأساس في قيام حركة اقتصادية منتجة متنوعة المداخل، ساهمت في تطور الغرب الإسلامي وحتى بلاد السودان ونشر الإسلام وترسيخ ثقافته، وما حركة المرابطين إلا دليلاً على ذلك. لكن السياسة كثيراً ما أفسدت ما بناه رجال المال والأعمال.

هي الملح، الذي استخدم، لها سبق الذكر في تجفيف السمك والحيتان في نهر السنغال والنيجر.^(٣٩)

ب- الواردات:

كانت الدولة الرستمية وغيرها من دول الغرب الإسلامي تستورد من السودان الغربي سلعاً، مختلفة، لكن يبدو أن تجارة الذهب والعبيد كانت من الأساس في توجه الشمال الإسلامي بتجارته نحو الصحراء رغم مصاعب المسافة وطولها ومخاطرها. وقد دلت الشواهد التاريخية على أن تجارة الذهب أي جلبه من السودان تعود إلى النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة أي الثامن الميلادي، قبل أن يرد ذكرها لدى الجغرافيين في القرن الثالث للهجرة.^(٣٠)

إن وصول الذهب إلى عاصمة الرستميين في النصف الثاني من القرن ٣ هـ / ٩ م، ربما يعطينا التفسير المنطقي والمعقول للتطور الذي حدث في تاهرت في مدة وجيزة، والذي ذكره ابن الصغير المالكي حيث قال في ذكر قصة وفد البصرة إلى تاهرت في الرحلة الثانية: "فوجدوا الأمور قد تبدلت و أحوال المدينة والأشياء، قد حالت، وذلك أنهم نظروا إلى قصور قد بنيت وإلى بساتين قد غرست وإلى أرجاء قد نصبت وإلى خيول قد ركبت وإلى حفدة قد اتخذت السور والعبيد والخدام ...".^(٣١)

وما يؤكد هـو رد عبد الرحمن بن رستم للأموال لإخوانه بالبصرة و بعد استشارة أعيان دولته.^(٣٢) ولا شك أن تجارة مثل هذه — ذات أرباح خيالية — كان من الواجب أن تحاط بالسُر والكتمان، لمدة من الزمن وهذا ما يفسر مرة ثانية عدم ذكر هذه التجارة من طرف الجغرافيين العرب، إما لأنهم تجار قد أطلعوا عليها أو أنهم لم يطلعوا عليها أصلاً.

اتسعت تجارة الذهب القادم عبر الصحراء بواسطة القوافل من بلاد السودان الغربي في القرن الثالث للهجرة / التاسع الميلادي، والتي تصل المغرب الإسلامي عن طريق سجلماسة وورجلان ثم تاهرت وباقي أنحاء العالم.^(٣٣) لا شك في أن هذا الازدهار التجاري والأرباح التي حققها تجار المغرب الإسلامي خاصة الرستميين منهم هي عامل آخر لتفسير الازدهار الاقتصادي والحضاري الذي شهده المغرب الإسلامي برمتة في القرن الثالث والرابع للهجرة، التاسع والعاشر للميلاد.^(٣٤)

أما أسلوب المعاملة فقد ذكر ياقوت الحموي في معجمه أن التبادل كان يتم بالسوق الصامتة أو "المقايضة الخرساء"^(٣٥) لكن هذا لا ينفي وجود مترجمين، وكذا تعلم التجار لغة شعوب السودان الغربي. سيطر التجار في المغرب الإسلامي على تجارة الذهب السوداني لمدة زمنية طويلة، في زمن اعتبر فيه الذهب ينبوع الأساسي للمعادن النفيسة. وقد أكد "ف-بردوال" F.Braudel "أهمية الذهب في تاريخ شمال إفريقيا بصفة عامة" في مؤلفه "الذهب الإسلامي من القرن ٧م إلى القرن ١١م" حوليات ١٩٤٧.^(٣٦) إلى جانب تجارة الذهب، شكلت تجارة العبيد سلعة هامة ذكرها يعقوبي عند حديثه عن قبيلة "زويلة"، بأن تجارها كانوا يجلبون العبيد من شمال السودان، أكد هذا القول ما ذكره الاصطخري بأن: "هؤلاء الخدم السود أكثرهم يقع إلى زويلة"، وهذا ما أشار إليه الإدريسي وصاحب الاستبصار.^(٣٧)

ورد عن صاحب الاستبصار أن السودانيات الطبخات كنّ يبعن بحوالي ١٠٠ دينار، وأزيد. وتذكر الدكتور فاطمة بلهوار في أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه بعنوان: "النشاط الاقتصادي في بلاد المغرب الإسلامي" خلال ق ٤ هـ / ١٠م أن بلاد "كانم" من السودان

الهوامش

- ١- بوعزيز، يحي، الموجز في تاريخ الجزائر، ج ١، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ١٩٨٤، ص ١٩.
- ٢- ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق و تعليق، محمد ناصر، ابراهيم بحاز، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان ١٩٨٦، ص ٣٦.
- ٣- نفسه، ص ٣٦.
- ٤- جودت عبد الكريم، يوسف، العلاقات التجارية للدولة الرستمية، طبعة المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٤، ص ٢٦٧.
- ٥- نفسه، ص ٢٣٣.
- ٦- نفسه، ص ٢٣٧.
- ٧- بوعزيز، يحي، المرجع السابق، ص ١٧٤.
- ٨- جودت، عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص ٢٤٢، ص ٢٤٣.
- ٩- نفسه، ص ٢٤٢.
- ١٠- عبد العزيز، سالم، السيد، تاريخ المغرب الكبير، العصر الإسلامي، ج ٢، مطبعة الدار النهضة العربية، ١٩٨١، ص ٥٧٣.
- ١١- جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص ٢٢٤.
- ١٢- نفسه، ص ٢٢٥.
- ١٣- اندري، برنيان وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة اسطنبولي راجح، منصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٨٤.
- ١٤- جودت، عبد الكريم، المرجع السابق، ص ٢٣١.
- ١٥- اندري، برنيان وآخرون، المرجع السابق، ص ٩٦.
- ١٦- جودت، عبد الكريم، المرجع السابق، ص ٢٤٦.
- ١٧- نفسه، ص ٢٦٦.
- ١٨- نفسه، ص ٢٦٧.
- ١٩- نفسه، ص ٢٦٧.
- ٢٠- برنيان، اندري وآخرون، المرجع السابق، ص ٩٦.
- ٢١- الحريري، محمد بن عيسى، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب و الأندلس، طبعة دار العلم، الكويت (د)، ص ٢٣٣.
- ٢٢- فيلاي، عبد العزيز، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٨٢، ص ١٠٣.
- ٢٣- جودت، عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص ٢٧٣.
- ٢٤- نفسه، ص ٢٧٣.
- ٢٥- عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٥٧٣.
- ٢٦- جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص ٢٧٢.
- ٢٧- نفسه، ص ٢٧٣.
- ٢٨- بلهاري، فاطمة، النشاط الاقتصادي في بلاد المغرب الإسلامي خلال ق ٤هـ (١٠م)، أطروحة دكتوراه دولة (مرقونة)، كلية العلوم الإنسانية، جامعة وهران، ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥، ص ٣٢٣.
- ٢٩- نفسه، ص ٣٢٥.
- ٣٠- ابن الصغير، المصدر السابق، ص ٣٨.
- ٣١- نفسه، ص ٤٠.
- ٣٢- بلهاري، فاطمة، المرجع السابق، ص ٣٢٦.
- ٣٣- نفسه، ص ٣٢٦.
- ٣٤- نفسه، ص ٣٢٧.
- ٣٥- اندري، برنيان وآخرون، المرجع السابق، ص ٩٥.
- ٣٦- جودت، عبد الكريم، المرجع السابق، ص ٢٧٩.
- ٣٧- بلهاري، فاطمة، المرجع السابق، ص ٣٢٧.
- ٣٨- جودت، عبد الكريم، المرجع السابق، ص ٢٨٠.
- ٣٩- نفسه، ص ٢٨٠.



حكاية

من قديم الزمن ومنذ فجر التاريخ وكان للحكاية ذلك السحر والتأثير في نفوس وعقول البشر، وحتى وقتنا هذا ما يزال لها تلك الجاذبية، فللحكاية هدف ومعنى، وللحكاية تسلية ومغذى، وإن اختلفت الأزمان والعصور ومهما تغير شكلها على مر الدهور، فالتاريخ ذاته حكاية، فالماضي حكاية والحاضر حكاية وللمستقبل أيضاً حكاية، وحياة كل منا حكاية.. وللحكاية بقية.....



دعوة لزيارة موقع ومنتدى حكاية

<http://hekaya.net/vb>

الإدارة

المهندس أحمد زيدان

ahmedzidan3@gmail.com



مقدمة

إذا كانت النظم العسكرية الإسلامية انبثقت عن الجهاد منذ عهد الرسول "صلى الله عليه وسلم" كنظم دفاعية وهجومية للمسلمين حتى يتمكنوا من الصمود أمام التحديات التي كانت تواجههم ، فإن النظم الإدارية والقضائية أيضاً أصبحت ضرورية في العالم الإسلامي ودويلاته مشرقاً ومغرباً. ويطلق النظام عادة على ما يدل على الترتيب والانسجام والارتباط ، ونظم الحكم هي القوانين والمبادئ والتقاليد التي عليها الحياة السياسية والعدارية والمالية لأي دولة في كل مكان وزمان.

وتعتبر الشرطة من أهم الأنظمة الإدارية التي عرفها العالم الإسلامي خلال مختلف مراحل تطوره. فقد اهتم الخلفاء والأمراء والحكام في العالم الإسلامي بنظام الشرطة. لتسيير دولهم وملكهم وحفظ أوطانهم ورعيته من المخاطر واللصوص واستتباب الأمن والاستقرار. فموضوع الشرطة مهم لأن دراسته تمكننا من الاطلاع والكشف على أهم جوانب الحياة الإدارية خاصة في الدول ، علماً أن هذا المنصب كان يجمع بين ولاية المظالم والحسبة والقضاء فهناك تداخل في المهام يبين هذه الوظائف المذكورة وفي أوقات أخرى كانت خطة الشرطة تنفصل عنهم. وقد بلغ الاهتمام بالشرطة مبلغاً عظيماً إذ كان صاحب الشرطة يتمتع بنفوذ واسع ، حيث أصبح هذا المنصب منفذاً للوزارة والحجاية ، وكانت ولايتها تمتدع للأكباس وذوي النفوذ والجاه.

وقد جاء اختيارنا لهذا الموضوع لعدة اعتبارات: أولها أهمية الموضوع ورغبتني في كتابة وتوسيع البحث في الجوانب الإدارية للمغرب الإسلامي خلال فترة القرون الوسطى ، والميل الشخصي لهذه المواضيع خاصة وأنها فترة طويلة تحتاج إلى المزيد من الدراسات المعمقة الأكثر تخصصاً ، ولأن المجالات واسعة ومتفرعة تحتاج إلى كشف المزيد من الحقائق والتنقيب ، خصوصاً وأن الدراسات والمؤلفات حول المغرب الإسلامي كانت تركز على الجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية ولا توجد دراسات مفصلة ومتخصصة حول الموضوع ، وإن كان قد أشير إليه فإن ذلك في سياق الحديث عن تاريخ المغرب الإسلامي يصفه عامة الأمر الذي دفعنا إلى البحث فيه. وأثناء هذه الدراسة تبادرت إلى ذهني عدة أسئلة ومنها: ما مفهوم الشرطة وكيف تطورت مشرقاً؟ وما هي الشروط الواجب توفرها لتولي هذا المنصب ، وما هي المهام الموكلة لصاحب الشرطة ، وما أهميتها و دورها في بلاد المغرب الإسلامي؟

مصادر ومراجع الدراسة

اعتمدت الدراسة على عدة مصادر ومراجع أهمها ابن خلدون في المقدمة ، وكتاب العبر فيما يخص التعريف بهذه الوظيفة ومهام صاحب الشرطة ودورها وأهميتها عند العباسيين والأمويين بالأندلس والعبيديين بمصر والمغرب خاصة عند الزيانيين ، وحول الأوضاع التي آلت إليها الدولة الزيانية والتي استوجبت قيام الشرطة. ثم كتاب "لسان العرب" لابن منصور في إعطاء تعريف شامل للشرطة. كما استفادت الدراسة من مصدر آخر يخص الدولة الرستمية حول الشرطة باعتبار ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية فيما يخص التعريف بصاحب الشرطة ومكانته الاجتماعية ، ومهامه في حفظ الأمن ومراقبة



الشرطة في بلاد المغرب الإسلامي



ليبدري بلخير

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة سيدي بلعباس

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

yeb1965@yahoo.fr

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

ليبدري بلخير ، الشرطة في بلاد المغرب الإسلامي. - دورية
كان التاريخية. - العدد الثامن يونيو ٢٠١٠.

ص ٧٣ - ٧٨ (www.historicalkan.co.nr).



يقوم بهذا الاستبداد وباستيفاء الحدود بعده إذا نَزَّه عنه القاضي يسمى صاحب الشرطة.^(٦)

وقد ظهرت الشرطة كوظيفة في عهد الأمويين أوجدها معاوية بن أبي سفيان لتنفيذ سياسته ، ومنذ نشأتها انفصلت عن الحرس الخاص أو حرس الليل الذي أنشأه معاوية ، ولكن بعد ذلك تطوّر المقصود من الشرطة وأصبح أساس عملها أن تكون تابعة للقضاء مؤداها كما يقول ابن خلدون "استفاء الحدود" أي تنفيذ الأحكام الذي يصدرها القاضي.^(٧)

وإذا كانت الشرطة في العهد الأموي أداة تنفيذ فقط ، ففي العهد العباسي وفي الأندلس تعاظمت اختصاصاتها حتى أعطي صاحبها حق القضاء في الجرائم ، وإقامة الحدود ، وتنفيذ أحكام القضاء.^(٨) ويقول المقرئ في كتابه "نفع الطيب" عن الشرطة في الأندلس: "وأما خطة الشرطة بالأندلس فإنها مضبوطة إلى الآن معروفة بهذه السمة ويعرف صاحبها في ألسن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل...". حتى يقول "إذا كان صاحب الشرطة في الدولة العباسية وفي الأندلس وفي الفاطميين في المغرب ومصر ينظر في الجرائم ويقيم الحدود". ويوجه الاتهام حتى ضد أصحاب الوظائف الكبرى ، وكانت متخذة إلى الوزارة والحجابه وتشبه ولاية الشرطة ولاية المظالم من حيث كونها سلطة عليا".^(٩)

آداب صاحب الشرطة و مؤهلاته

كانت مهمة الشرطة يتولاها الأكابر من رجال الدولة حتى كانت ترشيحاً للوزارة والحجابه.^(١٠) ، وأما صاحب الشرطة الصغرى فكانت أقل شأن من صاحب الشرطة الكبرى (الأندلس). وكان يُختار من عليّة القوم ومن أهل العصية والقوة ، وهو أشبه بالمحافظ في هذا العصر لأنه يتولى رئاسة الجند الذين يساعدون الوالي على استتباب الأمن.^(١١) كما نزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم (العباسيين) ، ولم تكن عامة التنفيذ من طبقات الناس ، إنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الرتب والضرب على أيدي الرداغ والعجز.^(١٢)

ولا بد على صاحب الشرطة أن تتوفر فيه بعض الشروط منها: أن يكون حكيماً مهيباً ، عميق الفكر غليظاً على أهل الريب ، شديد اليقظة فيلزم أصحابه باليقظة الدائمة. ملازمة المساجين ، يفتش الأطعمة وما يدخل السجن. يتفقد الدروب ليلاً ، ومعرفة من يدخل المدن. يمنع المظلوم من الانتصار لنفسه بيده ، معاقبة العامة والخاصة عقوبة واحدة كما أمرت الشريعة ضمن حدود الله. ويقول زياد بن أبيه: "ينبغي أن يكون صاحب الشرطة شديد الصولة قليل الغفلة... مسناً عفيفاً مأموناً". وقال الحجاج بن يوسف: "أريده دائم العبوس طويل الجلوس سمين الأمانة أعجف الخيانة قليل له عليك بعبد الرحمن عن عبيد التميمي".^(١٣)

اختصاصات و مهام الشرطة

قد يلاحظ أن هناك تداخل في الاختصاصات بين القضاء وعمال الشرطة وبين المحتسبين ، وكان القاضي وعامل الشرطة قد يضاف إليهما مهام المحتسبين حتى في عصور تالية ، ولم يتم استغلالهما بصورة عملية إلا في عصر الخليفة المهدي.^(١٤)

سلوك الرعية. إلى جانب مصادر أخرى هامة ؛ كقفه النوازل للعقباني "تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر" حول دور هذه الخطة ، والرحلة المغربية للبلسني العبدري حول العوامل التي ساعدت على تكوين وضرورة الشرطة عند الزيانيين. ومراجع أخرى ذات أهمية ، حسن إبراهيم حسن "تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية" ، ودمر مول "السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي" ، وكتاب تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي "لحسن إبراهيم حسن ، وبوزياني الدارجي عن "نظم الحكم في دولة بني عبد الواد" ، و "الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري" ، والدكتور شوقي أبو خليل في مؤلفه "الحضارة العربية الإسلامية" ، وكتب أخرى والتي استفاد منها الباحث في معرفة تطور هذه الوظيفة أو المنصب مشرقاً ومغرباً.

مفهوم الشرطة

الشرطة في السلطان من العلامة والإعداد سموا بذلك لأنهم أعدوا لذلك واعلموا أنفسهم بعلامات وهم أول كتية تشهد الحرب وتتهيأ للموت ، وهم طائفة من الجيش تشهد الواقعة^(١) . وكلمة شرطة وشرطي مشتقة من الشرط وهي العلامة لأنهم يجعلون لأنفسهم علامات يعرفون بها. وقيل من الشرط وهو ردّال المال لأنهم يتحدثون في أراذل الناس وسفلتهم مهن لا مال له من لصوص ونحوهم^(٢) . وتطلق على الذين يحفظون الأمن ويسهرون على النظام. والشرطة هي الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة أو الوالي في استتباب الأمن وحفظ النظام^(٣) والقضاء على الجناة والمفسدين وما إلى ذلك من الأعمال الإدارية التي تكفل سلامة الناس وطمأنيتهم.

تطور الشرطة في المشرق الإسلامي

مما لا شك فيه ؛ أن فعل العسس كان نواة الشرطة فقد كان عبد الله بن مسعود أميراً العسس أيام أبي بكر الصديق. وتولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه العسس بنفسه ولما تكاثر المفسدون وتظاهروا بالمنكر في وضيق النهار ، جاءت ضرورة ترصدهم وإلقاء القبض عليهم وبذلك ظهرت الشرطة ، ويذكر المقرئ في كتابه "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ١/٤٦٠" أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أوّل من اتخذ دار ضيافة في الإسلام وذلك سنة ١٧هـ ، أعدّ فيها الدقيق والسمن والعسل وغيره وجعل بين مكة والمدينة من يحمل المنقطعين من ماء إلى ماء حتى يوصلهم إلى بلد ، وتطوّر هذا حتى وصل إلى ما عرف بشرطة الطرق.

وكان "عمر بن الخطاب" أول من أدخل نظام العسكر في الليل. وفي عهد "علي بن أبي طالب" رضي الله عنهما. نظمت الشرطة وأطلق على رئيسها صاحب الشرطة^(٤) ومن هنا نستطيع أن نقول أن عمر بن الخطاب مهد لنظام الشرطة وأن علي بن طالب هو الذي أسس هذا النظام ، كما أن هناك إشارات إلى أن الشرطة تعود إلى عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء ، حيث كانوا يقومون بمهام المحتسب وحتى عصر الخليفة المهدي. أو يولكون من يقوم بها كالقضاة أو عمال الشرطة نيابة عنهم^(٥) .

وكانت الشرطة من النظم الإدارية الهامة في العصر العباسي الأول ، وكان أصل وضعها كما يقول "ابن خلدون" لمن يقيم أحكام الجرائم في حال استبدالها أولاً ثم الحدود بعد استيفائها... وكان الذي

والمقصود هنا أيضاً بالحاكم صاحب الشرطة. وقد اعتنت الدولة الفاطمية في المغرب بالشرطة كما اعتنت بمختلف الوظائف الأخرى.

أ. الدولة الرستمية:

إن المصادر التي تحدثت عن الدولة الرستمية تشير إلى أن عبد الرحمن بن رستم راعى تعاليم المذهب الإباضي في سياسته الداخلية - معتمداً على النظم الفارسية في هذا المجال - كان يختار قضاة وأصحاب شرطته ومحسبيه ممن يثق في عملهم وإخلاصهم ، ويؤكد ابن الصغير في كتابه سيرة الأئمة الرستميين "وقضاة مختارة وبيوت أمواله ممتلئة وأصحاب شرطته والطائفون به قائلون بما يجب." (٢٣)

وقد نجد ترتيب هؤلاء العمال الموظفين على الشكل التالي: القضاة ويمثلون الطبقة الأولى ، ويتلوهم أصحاب الشرطة الذين يمثلون نواب القاضي. (٢٤)

وكانت وظيفة الشرطة في الدولة الرستمية ، هي حماية الأمن العام للمجتمع والمحافظة على النظام ، وحراسة المدن ، ومراقبة سلوكيات الرعية. وقد نظمت الشرطة خلال العهد الرستمي تنظيمياً جيداً امتد إلى العاصمة تهرت وعدة مدن أخرى ، إلى درجة أن هذه المدن أصبحت محصنة من الفساد والعبث.

وقد ظهر منصب الشرطة منذ نشأة الدولة الرستمية على يد عبد الرحمن بن رستم ، إذ كان يحسن اختيار الفرد المناسب له ، إذ أشار إلى ذلك ابن الصغير قائلاً: " ... إن أصحاب شرطته والطائفون به قائلون بما يجب." (٢٥) ولكن منصب الشرطة حاد عن مهامه المكلف بها وخاصة في مدينة تهرت في عصر الإمام عبد الوهاب حيث شكت جماعة من تبادل المدينة لرؤساء قبيلتي سدراتة ومزانة فقالت لهما: "إن صاحب شرطتنا فاسق وأمامنا لا يغير من ذلك شيئاً وقد جاء الله بكم" (٢٦) فلما دخلوا على الإمام قال أحدهم إن رغبتك قد ضجت من قاضيك وصاحب بيت مالك والقائم بشرطتك. فاعزل عنهم - القبائل - وولي عليهم خيارهم."

وقد أصبح منصب الشرطة في المجتمع الرستمي على عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب ضعيفاً ليس له هيبة أو وقار خاصة بين الأثرياء والشخصيات ذات النفوذ الاجتماعي ، حيث لم يقدر أو يجزأ صاحب شرطة الإمام دخول أسواق المدينة خوفاً ومهابة من ابن وردة الأعجمي. (٢٧) وقد ظهر الفساد وكثرت الفتن في المجتمع خلال عهود الأئمة الرستميين المتأخرين ، كالشباب المنحرف وعمت الفواحش ، وكثر الخمر بين عموم الناس ، حتى أن الإمام أبا حاتم استشار شيوخ البلد من الإباضية وغيرها في من يوليه منصب الشرطة حيث يقول ابن الصغير فقال: "أي أبو حاتم" من ترون أن نوليهم الشرطة فقالوا قوم زكار وقد قتل ابنه بين بديل وله نصيحة ، وقال قوم إبراهيم بن مسكين فإن له صلتة في الحق قولاهما جميعاً ، وكان البلد قد فسدت وفسد أهلها في تلك الحروب واتخذوا المسكر أسواقاً ، والغلمان أخذنا. فلما ولي هذان الرجلان الشرطة قطعاً ذلك في أسرع من طرفة عين وحملنا على الناس بالضرب والسجن والقيود ... وشردت الغلمان ... والسرّاق وقطاع الطريق. وأمنت السبل ... و لم ينقوم على ابن حاتم شيئاً. (٢٨)

ومن هنا تتضح أهمية الشرطة في توفير الأمن للمجتمع الرسمي من الداخل ، فقد وجد لصاحبها مساعدون لأداء هذه الوظيفة والمهمة. ولم نذكر لنا المصادر التاريخية أجر صاحب الشرطة وأعوانه باستثناء فترة عبد الرحمن بن رستم ، حيث كان الإمام وأعوانه من الحشم والقضاة

وكانت الشرطة تابعة للقضاء أول الأمر تقوم على تنفيذ الأحكام القضائية ويتولى صاحبها إقامة الحدود. (١٥) ولكنها سرعان ما انفصلت عن القضاء وأصبح صاحب الشرطة مستقل في النظر في الجرائم ، وأحياناً كانت الشرطة والحسبة في عصر الدولة الفاطمية تسند لشخص واحد مما يدل على خطورة وأهمية مركز صاحب الشرطة ، وكثيراً ما كان صاحب الشرطة ينوب عنه موظفون يعملون على حفظ النظام واستتباب الأمر في الأقاليم ، ويساعد صاحب الشرطة القضاة والعمال ويقوم بتنفيذ الأحكام. وكانت أعمال المحتسب على ما ذكره الماوردي في "الأحكام السلطانية" متعددة مختلفة فكان إليه النظر في الأسواق ، والمحافظة على الآداب والفضيلة ، وإدارة الشرطة. (١٦)

وتعتبر الشرطة من الوظائف الدينية في الدولة الإسلامية ومهمة صاحبها النظر في الجرائم منذ بدايتها ، وتطبيق الأحكام التي يصدرها القاضي بحيث تعتبر قوة رادعة لتنفيذ أحكام القضاة الصادرة ، وزجر المخالفين من الناس. (١٧) وهناك من يرى أن الشرطة من الوظائف الدينية وهي تابعة أيضاً للقضاء لكونها تعمل على تنفيذ أحكام القضاة ، وبذلك تكون في خدمة القضاء ، لكنهم فصلوها عن القضاء فيما بعد لحاجة الحكام إلى ذلك لما للقضاء من قيود شرعية تحد من مرونة صاحب الشرطة. (١٨)

قال ابن خلدون عن مهمة صاحب الشرطة "وكان له النظر أيضاً في الجرائم وإقامة الحدود في الدولة العباسية والأموية بالأندلس والعباسيين بمصر والمغرب راجعاً أيضاً إلى صاحب الشرطة... يفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ويقيم الحدود الثابتة في محلها ويقيم التأديب والتعزير في حق من لم ينته عن الجريمة. ثم تنوسي شأن هاتين الوظائفيتين في المولى التي تنوسي فيها أمر الخلافة فصار أمر المظالم راجعاً إلى السلطان كان له تفويض من الخليفة أو لم يكن. وانقسمت وظيفة الشرطة قسمين: منها وظيفة التهمة على الجرائم وإقامة حدودها ، ومباشرة القطع والقصاص. وبقي قسم التعازير وإقامة الحدود في الجرائم الثابتة شرعاً." (١٩)

ومما سبق من دراسة لهذه الوظيفة مشرقاً ومغرباً يمكن أن نضيف إلى دور الشرطة أيضاً تنفيذ أوامر القضاة والمتحسين ، ومساعدة عمال الخراج ، حفظ الأمن بمراقبة الأشرار واللصوص ، حفظ النظام في الطرقات والأماكن العامة ، مراقبة الهلاهي والحانات ، إدارة السجون. وكان صاحب الشرطة في مصر يرفع تقريراً يومياً إلى السلطان يكتب فيه مطالعة جامعة لأحوال البلد. (٢٠) أما تقليد صاحب الشرطة كما أورده القلقشندي في صبح الأعشى ، فهو "اعتمد المساواة بين الناس ، ولا تجعل بين الغني والفقير في الحق فرقا ، أشمل أهل المدينة بطمأنينة تنيم الأخيار وتوقظ الأشرار ، وأمنة تساوي فيها بين ظلام الليل ونور النهار ... وأنصف المظلوم وأقمع الظالم ...". (٢١)

الشرطة في بلاد المغرب الإسلامي:

الرستمية والزيرية

ذكر ابن خلدون أن صاحبها في عهده بإفريقية يسمى بالحاكم وبالأندلس يسمى بصاحب المدينة. (٢٢) والمقصود بالحاكم هنا هو صاحب الشرطة لأنها تغير من الأمور التابعة للقضاء. وقد ذكر القاضي النعمان السلطة التي أعطاها أبو عبد الله الشعبي للقاضي المروزي بعد دخوله رقادة بأنه جعل إليه تولية الفقاة والحاكم بسائر البلدان.

صاحب شرطتك وحكام بلد حضرتك ليخبرك بما يريد في ليلتك ولا يخفي عليك شيء من أحوال رعيتك (وبلدك ليخبرك بما يزيد في ليلتك ولا يخفي عليك شيء). وبذلك من ضبط مهلكك فتسأله عن القليل والكثير والجيل من الأمر والحقير ... ولا يقع من الحاكم جور في بلد ولا ظلم لأحد... بأن الملك لا يغيب عنه شيء من أحوال بلده فيمتنع كل منهم من استطالة يده فيقف الناس عند حدودهم. (٣٦)

ونستنتج من هذه الوصية ضرورة مساءلة صاحب الشرطة فيما يقع من أحداث داخل الدولة لاتخاذ جميع التدابير للحفاظ على الأمن ، وبالتالي فالشرطة مهمتها حفظ الرعية . وفي موضوع آخر من كتابه طلب "أبو حمو موسى" من ولده بأن يتفرس في الحاكم وينظر في حاله فإن كان محبوباً من الأشرار فعندها يكون منحرفاً في أعماله ، وإن كان محبوباً من الأخيار فمعناه أنه مستقيم الحال سليم السلوك ، ثم ينصح ولي عهده بأن يتابع حال الحاكم أي صاحب الشرطة فإن رأى أنه قد ظهرت عليه علامات الغنى وزادت ثروته عن حدها ، عندئذ يعرف بأنه يأخذ الرشوة ويستغل سلفانه لأهدافه. (٣٧) ومع ذلك لم يوفق "أبو حمو" نفسه في فراسته لصاحب الشرطة "موسى بن خلف" حيث خانه في آخر الأمر مما أدى إلى حدوث فتنة مع ولي عهده ، كما تسبب في قتل كاتب سره "يحيى بن خلدون" وكانت نهاية هذا الحاكم. (٣٨)

الشرطة الحمادية

(٣٩٨ هـ - ٥٤٧ هـ / ١٠٠٧ م - ١١٥٢ م)

لقد عرفت الشرطة تطوراً مهماً في الدولة الحمادية ، حيث توسعت مهامها إلى حراسة الأسواق والأحياء ، وشوارع المدن وأبواب العاصمة ، وتأمين الطرقات الموصولة إليها ومراقبة الموانئ ، والسهر على راحة التجار والمسافرين الأجانب ، وتوفير الأمن لهم والطمانينة على أرواحهم ومتاعهم بداخل "الفنادق" التي يحلون بها . كما كانوا ينظمون دورياتهم الاستطلاعية ليلاً مصحوبين بأسراب الكلاب لتحديد أماكن المتسكعين والمتسللين بعد الإعلان عن توقف التجول بواسطة البراح ، وهذا يؤكد كثرة الزوار والحركة داخل الدولة ليلاً نهاراً ، وحرص الدولة على توفير الأمن للعامة من الزوار والمقيمين ، وإشارة إلى كثرة اللصوص وقطاع الطرق .

ونتيجةً إلى كل هذه المهام والتدابير الوقائية المتخذة في سبل حفظ النظام العام ، واستتباب الأمن وإحلال السلم بين أفراد الرعية ، نالت الشرطة "الحماية" مكانة هامة في هرم النظام الإداري للدولة وأصبح صاحب الشرطة بداخل العاصمة يخضع إلى سلفة أمير الدولة مباشرةً ، فيما أصبح مساعدوه على المدن والمقاطعات يخضعون بدورهم إلى سلفة حاكم المدينة أو حاكم المقاطعة من غير واسطة إدارية بينهما ، كما ظلت مهام الشرطة التكفل بالسجاء من الرجال والنساء .

الخاتمة

إلا أنه بعد الإطلاع ودراسة هذه الخطه أو الوظيفة انطلاقاً من مفهومها وتطورها ونماذج لها ، وصلنا إلى أن مدى أهمية هذه الوظيفة أي الحاكم أحياناً أو صاحب الشرطة أحياناً أخرى في بلاد المشرق ثم المغرب الإسلامي ، حيث اعتبرت من الوظائف الدينية في الدولة الإسلامية فقد كانت أداة تنفيذ فقط في العهد الأموي ، ثم أعطى صاحبها حق القضاء في الجرائم وإقامة الحدود . وقد أصبحت أيضاً قوة

وأصحاب الشرطة وسائر معاونيه ، فكانت أرزاقهم السنوية تقتطع من مال الجزية وخراج الأرض وما أشبهه. (٣٩) وقد بين ذلك ابن الصغير قائلاً: "يقتطع له ما يكفيه في سنته من مال الجزية ومال الخراج". (٣٠)

ب. الدولة الزيانية:

في دولة بني عبد الواد كانت خطة الشرطة موجودة وإن تعذر معرفة العهد الذي نشأت فيه بهذه الدولة ، وكما كان الحال في دول المغرب الإسلامي والأندلس فإن الدولة العبد وادبة اتخذت هي الأخرى شرطة في حاضرتها ويحق لنا أن نتساءل! ما هو الدور الذي كانت تقوم به الشرطة خلال عهد الدولة الزيانية ؟

فينبغي الإشارة إلى أن الشرطة من النظم الإدارية التي اهتم بها الزيانيون وهي مورثة عن الموحدون ، بحيث كانت مهمة صاحبها حفظ الأمن والنظام والآداب العامة ، وتتبع الجرائم وإقامة الحدود. (٣١) وقد أعطاهم بنو زيان عناية خاصة كالحسبة والمظالم ، حيث كان يعين في هذا المنصب من اتصف بالصلافة والحسم في الأمور الشرعية والسياسية حسب قول ابن خلدون. (٣٢)

ورغم أن المصادر لا تشير بوضوح إلى تاريخ نشأة هذه الوظيفة أو الخطة ، إلا أن عدم توفر الأمن في بلاد المغرب الأوسط خلال العهد الزياني دفع سلاطين هذه الدولة إلى إنشاء صاحب الشرطة ، للتصدي للأشوار والفساد والجريمة داخل مدن هذه الدولة . كما أن كتب النوازل تجيب عن الكثير من التساؤلات المتعلقة بدفع الفساد وتأمين السبل لتأكيد انعدام الأمن خلال هذه الفترة ، حيث يتبين من خلال جواب الفقيه قاسم العقباني لمرباط يستفسر عن الإقامة في مواضع كانت سابقاً بيد أهل الفساد وذلك بقوله "الحمد لله إن إقامة هذا المرباط بهذا الموضع من باب إعانة اللهفان ودفع الفساد عن أهل الأمان وأعظم المثوبة في ذلك وما هذا الإجهاد عظيم وشرق دائم مقيم. (٣٣)

أضف إلى ذلك ؛ انتشار ظاهرة اللصوصية وبعض قطاع الطرق لعدة قبائل وهجماتهم على القوافل التجارية والمسافرين ، وهي عوامل تسببت في انعدام الأمن في المسالك والطرقات وهو ما أكده العبدري قائلاً "ولما انتهينا إلى المفازة التي في طريق تلمسان وجدنا طريقاً منقطعاً مخوفاً لا تسلكه الجموع الوافرة إلا على حذر واستعداد ... ولا يمكن أن يجوز عليهم إلا مستعد يتفادون من شره ...". (٣٤)

لقد هيأت ظروف القهر الاقتصادي والاجتماعي المجال أمام توسع ظاهرة الأمن في بلاد المغرب الأوسط خلال العهد الزياني . وأمام هذه الأوضاع المتدهورة والخطيرة قام سلاطين الدولة الزيانية بمحاولات لتوفير الأمن ، فأكثرُوا من تسديد الأسوار والأبراج والقلاع لحماية المدن والضواحي ، (٣٥) كما اعتمدوا على الشرطة في حفظ الأمن ، حيث قامت هذه الشرطة بدور جبار وبحزم في تطبيق الأحكام الصادرة عن القاضي وصاحب المقالم . وكان الولاة يقومون بمساعدة صاحب الشرطة في تأدية مهامه ، وكانت الأحكام تطبق بصرامة كبيرة ، حتى جعل للأسواق شرطة خاصة يقوم صاحبها بتطبيق أحكام المحتسب والقاضي وخدمته ، ولهذا الغرض شيد بنو زيان السجون .

إن الشرطة في العهد الزياني قامت بدور كبير في الحفاظ على الأمن الداخلي وأصبحت للشرطة خصوصية ميزتها عما كانت عليه عند الحفصيين أو المرينيين ، حيث أصبحت مقننة من خلال وصية أبي حمو موسى الثاني التي يذكر فيها: أي يا صاحب الشرطة "ثم يدخل

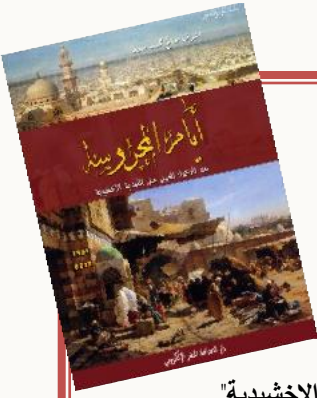
- ١٨- مرمول محمد الصالح، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية؛ جورج زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، م، ١، ص ٢٤٣ منشورات مكتبة دار الحياة، بيروت ١٩٦٧.
- ١٩- بوزياني الدراجي، نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيرية، ديوان المطبوعات الجامعية، ص ٢٣٩.
- ٢٠- ابن خلدون، المقدمة طبعة جديدة منقحة ومصححة ٢٠٠٧، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ص ٢٣١.
- ٢١- شوقي أبو خليل، الحضارة العربية الإسلامية، ص ٣١٠-٣١٤.
- ٢٢- الدكتور شوقي أبو خليل، الحضارة العربية الإسلامية، ص ٣١٤.
- ٢٣- د. مرمول محمد الصالح، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية، ص ٢٦٩.
- ٢٤- إسماعيل عبد الرزاق، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن ٤هـ، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب الأقصى ط ٢، ١٩٨٥، ص ٢٦٢-٢٦٣.
- ٢٥- سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، تاريخ دول الأغالبة، الرستميين وبني مدرار والأدراسة حتى قيام الفاطميين، منشأة المعارف، الإسكندرية، ص ٣٠٨-٣٠٩.
- ٢٦- ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق وتعليق، الدكتور محمد ناصر والأستاذ إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، ص ٤٠.
- ٢٧- ابن الصغير، المصدر السابق، ص ٤٧.
- ٢٨- نفسه ص ٤٧.
- ٢٩- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص ٩٩.
- ٣٠- سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ص ٣٠٨-٣٠٩.
- ٣١- ابن الصغير، المصدر نفسه.
- ٣٢- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج ١، دار موفم للنشر والتوزيع ٢٠٠٢.
- ٣٣- ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٧، ص ٤٤٦.
- ٣٤- العقباي أبو عبد الله محمد، تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المنابر، تحقيق محمد علي الشنوفي، نشر في Bulletin d'étude orientales، 1967، 196 Damas، TXIX، 1966، année 1965، ص ٢٨.
- ٣٥- العبدري البلسني محمد، الرحلة المغربية، تحقيق أحمد بن جدو، مطبعة البحث، قسنطينة، ص ٠٨.
- ٣٦- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني ص ١٢٨.
- ٣٧- أبو حمو موسى الثاني، واسطة السلوك في سياسة الملوك، مطبعة الدولة التونسية، تونس، ١٨٦٢، م، ص ٨٣.
- ٣٨- بوزيان الدراجي، نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيرية، ص ٢٣٩.
- ٣٩- نفسه، ص ٢٣٩.
- ٤٠- عندما اعتلى عبد الرحمن الناصر العرش، أبتدع نوعاً ثالثاً للشرطة أطلق عليه "الشرطة الوسطى" ويظهر أن صاحبها اختص بالنظر إلى جرائم الطبقة الوسطى.
- ٤١- ابن خلدون، كتاب العبر، ج ٦، طبعة بيروت ١٩٦٨، ص ٥٣٦.

تنفيذية للقضاء والخراج والحسبة، بل وكانت أحياناً تسند مع الحسبة لشخص واحد، مما يدل على خطورة وأهمية مركز صاحبها، أي صاحب الشرطة، ومما يؤكد ذلك انقسام الشرطة في مصر والأندلس إلى شرطة عليا وأخرى صفوى وأحياناً أخرى متوسطة،^(٣٩) كما أصبح هذا المنصب منفذاً إلى الوزارة والحجابة.

وتظهر أوضاع المغرب الإسلامي السياسة والاقتصادية والاجتماعية خاصة في الدولة الرستمية والزيانية حاجة هذه الدول إلى الشرطة لإحلال السلم والأمن والاستقرار، وحفظ الممتلكات والأشخاص بعد انتشار ظاهرة اللصوص وقطاع الطرق، خاصة على المسالك والطرق وحول المدن، وانتشار الفقر والمجاعات أو الحصار الذي فرض على تلمسان من قبل السلطان المريني أبو الحسن عندما اقتحم مدينة تلمسان عام ٧٣٧ هـ، وقتل السلطان أبو تاشفين عبد الرحمن الأول (٧١٨-٧٣٧ هـ)، وانتشرت أيدي النهب على البلد فلحقت الكثير من أهله في أموالهم وحرهم.^(٤٠)

الهوامش:

- ١- ابن منظور، لسان العرب، ط ٨، طبعة جديدة محققة، دار صادر بيروت، ص ٥٧.
- ٢- الفلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج ٥، ص ٤٥٠.
- ٣- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي، ج ١؛ الدولة العربية في الشرق ومصر والمغرب والأندلس، دار الجبل بيروت، مكتبة النهضة القاهرة.
- ٤- حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، ط ٣، مكتبة النهضة، القاهرة، ص ٢١٧.
- ٥- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي ... ج ١، ص ٣٧٤، الدولة العربية في الشرق ومصر والمغرب والأندلس، دار الجبل بيروت، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- ٦- موسى لقبال، الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي نشأتها وتطورها، ط ١، ١٩٧١، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- ٧- حسن إبراهيم، المصدر نفسه، المقدمة.
- ٨- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج ٢، ص ٥٧٢، ٥٧٣، تحقيق عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، ط ١، القاهرة ١٩٥٨.
- ٩- شوقي أبو خليل، الحضارة العربية الإسلامية وموجز الحضارات السابقة ط ١، ١٩٩٤، دار الفكر دمشق، ص ٣١٠-٣١٤.
- ١٠- الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي، نشأتها وتطورها، موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، ط ١، ١٩٧٠.
- ١١- د/ مرمول محمد الصالح، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٨٣، ص ٢٦٨-٢٧٠.
- ١٢- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، حسن إبراهيم حسن.
- ١٣- نفسه.
- ١٤- مرمول محمد الصالح، السياسة الداخلية، ص ١٨.
- ١٥- موسى لقبال، الحسبة المذهبية، ص ٣٣.
- ١٦- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٣١٢.
- ١٧- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد المغرب، ط ٢، ١٩٥٨. مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ص ٢٣٤.



من إصدارات ٢٠١٠ كتيب

أيام المحروسة:

"من الدخول العربي حتى التجربة الإخشيدية"

بحث وإعداد: أشرف صالح

الناشر: دار الصداقة للنشر الإلكتروني، فلسطين ٢٠١٠

تناول الكتاب سبعة مباحث من عمر مصر في العصور الوسطى، وهي فترة تزيد عن ثلاثة قرون، تعرضت مصر خلالها لتغيرات عظيمة في النواحي السياسية والاجتماعية والفكرية، بدايةً من علاقة مصر بالعرش البيزنطي وتلك الأسباب التي عجلت بالقضاء على الحكم البيزنطي ومهدت السبيل لدخول العرب إلى البلاد، وموقف الأقباط من الفتح الإسلامي. ثم بداية عصر الولاة في مصر بانتهاء الفتح الإسلامي، حيث وصل عدد الولاة منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية إلى ما يقرب من اثنين وثلاثين (٣٢) واليًا في مقابل ثمانية وسبعون (٧٨) واليًا في الفترة الممتدة من العصر العباسي حتى قيام الدولة الطولونية.

مع إلقاء الضوء على مسار رحلة الإسلام واللغة العربية داخل مصر، ومظاهر الحريات التي تمتع بها الأقباط، وما تعرضوا له من مضايقات معنوية ومالية، مما كان له أكبر الأثر في إشعال ثورات متعددة في وجه الجنرالات الأمويين والعباسيين. ووصولاً إلى قيام الدولة الطولونية في مصر على يد أحمد بن طولون أول سلسلة الحكام البارزين الذي حكموا مصر على فترات متقطعة، حيث استقل بمصر عن الخلافة العباسية وكون إمبراطورية واسعة تمتد إلى الشام وحدود الدولة البيزنطية شمالاً، وإلى النوبة جنوباً، وإلى برقة غرباً، وتخوم العراق شرقاً. وانتهاءً بقيام ثاني الدول المستقلة في مصر 'الدولة الإخشيدية' على يد محمد بن طغج الإخشيد، الذي حاول محاكاة أحمد بن طولون في مظهره ومواكبه وبلاطه، إلا أنه لم يرزق من مواهبه أي شيء، وانقضت السنوات دون أثر. ومع ذلك فإن الدولة التي أقامها الإخشيد في مصر، أتاحت للشعب المصري أن يعيش فترة من الزمن في هدوء واستقرار، بعيداً عن الفوضى والفتن التي انتابت الخلافة العباسية.

قائمة المصادر والمراجع:

- ١- عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، طبعة جديدة ومنقحة ومصححة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ٢٠٠٧.
- ٢- ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق وتعليق الدكتور محمد ناصر، الأستاذ إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٦.
- ٣- ابن منظور: لسان العرب، ط ٨، طبعة جديدة ومحقة، دار صادر، بيروت.
- ٤- العقباني أبو عبد الله محمد: كتاب تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تحقيق محمد علي الشنوفي، نشر في bulletin d'études orientales، 1967، 196 Damas، TXIX année 1965، ص ٢٨.
- ٥- العبدري البنسي محمد، الرحلة المغربية، تحقيق أحمد بن جدو، مطبعة البحث قسنطينية (ب.ت.).
- ٦- أبو حمو موسى الثاني: واسطة السلوك في سياسة الملوك مطبعة الدولة التونسية، تونس ١٨٦٢، م ص.
- ٧- جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي م ١، منشورات مكتبة دار الحياة - بيروت ١٩٦٧.
- ٨- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد المغرب ط ٢، ١٩٥٨.
- ٩- د. مرمول محمد الصالح: السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٨٣.
- ١٠- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل بيروت، مكتبة النهضة المغربية، القاهرة ٢٠٠١.
- ١١- بوزياني الدراجي: نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيرية، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٣.
- ١٢- الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن ٤هـ، محمد إسماعيل عبد الرزاق، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط ٢، ١٩٨٥.
- ١٣- سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب المغربي العربي تاريخ دولة الأغالة الرستميين و بني مدرار الأدارسة حتى قيام الفاطميين، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- ١٤- الدكتور شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز الحضارات السابقة، ط ١، ١٩٩٤، دار الفكر دمشق.
- ١٥- الحسبة المذهبية في بلاد المغرب الإسلامي، نشأتها وتطورها: موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر (دت).
- ١٦- عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزياني ج ١، دار موفم للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢.
- ١٧- رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، من إعداد الطالب: بوركة محمد، جامعة وهران، قسم الحضارة الإسلامية ٢٠٠٠، بلعربي خالد، دور الشرطة في استتباب الأمن في العهد الزياني، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، العدد ٩، ص ٥٣.

الطرقية بالمغرب

انحرافات فكرية سياسية واقتصادية

مقدمة

اتخذ التصوف المغربي على امتداد التاريخ الإسلامي أشكالاً متعددة ، وتمظهرت بمظاهر مختلفة باختلاف السياقات والخلفيات ، وظروف النشأة وأسباب التطور. وعرف المغرب قياساً إلى التسلسل الزمني للدولة المغربية من الأدارسة إلى العلويين بنايات فكرية ودينية واجتماعية وسياسية تراوحت تشكيلاتها بين التصوف الفردي والتصوف المؤسساتي ، الذي عكسته الرباطات والزوايا والطرق الصوفية ، هذه الأخيرة شكلت بؤرة اهتمام تضاف إلى الاهتمام بالخطر الأجنبي الذي كان يتهدد المغرب ، وكذا انعكاسات التخلف الذهني والاقتصادي. فصارت بذلك موضوع مواجهة وطرفا في الصراع ، وعاملاً رئيساً في نشأة السلفية الإصلاحية ، كما أضحت عاملاً مهماً في بلورة سياسة البلد في فترات عدة من تاريخ المغرب الحديث.

ولئن كان من غير اليسير الحديث في مقالة واحدة عن تلك الانتقالات التي شهدتها التصوف ذو المرجعية المغربية ، وما صاحب ذلك من صراعات بين السلطة الفكرية والسلطة السياسية ومحاولات الاحتواء والتدجين أو المهادنة والتعنيف في علاقة المتصوف بالفقيه والسلطين.

ولئن كان من غير المتيسر أيضاً رصد التطورات التي مست وظيفة الزوايا فجعلت منها مؤسسة للجهاد تارة ، كالزوايا الريسونية ، ووجهها من أوجه المخزن تارة ثانية ، كالزوايا الوزانية (القرن ١٧م) ، وسلطة بديلة تقدم نفسها محل السلطان تارة أخرى ، كالزوايا الدلائية (القرن ١٧م) والزوايا الدرقاوية^(١). فإن تحليلنا للظاهرة سيقتصر على تجلية ذلك الجانب السلبي الذي كان محط انتقاد وهجوم ليس من قبل السلاطين والعلماء فحسب بل ومن أهل الصوفية والزوايا أنفسهم ، والمتمثل في الطرق الصوفية المنحرفة وأهل البدع التي وجدت في الاستعمار خير معين ، وفي جهل العامة من الناس أخصب تربة ، وفي لحظات ضعف الدولة وانقسامها أفضل المحطات للانتشار والتوسع.

المغرب بلد المائة ألف ولي

يعد المغرب من بين أكبر البلدان الإسلامية احتضاناً لظاهرة الأضرحة والمزارات ، فلا تكاد تجد تلا ولا سهلاً ولا هضبة ولا قرية ولا مقبرة ولا مدينة إلا وقد شيد فيها ضريح أو مزار ، إلى الحد الذي وصف فيه المغرب ببلد المائة ألف ولي.

وقد كشفت دراسة أنجزت بمنطقة قلعة السراغنة حول مركز لا يتعدى تعداد سكانه ٢٠ ألف نسمة وجود ٥٠ ولياً ضمن دائرة جغرافية لا تتجاوز عشرة كيلومترات^(٢). وتشير دراسة سوسولوجية أخرى أنجزت بمنطقة دكالة إلى أن هذه المنطقة تعد الأكثر إيواء للأضرحة بالمغرب بعضها صغير كان الأصل فيه "كراكير" أو أشجار مقدسة تحمل أسماء لأولياء وهميين حولتهم الجماعة إلى رموز للهوية المحلية ببناء قبب فوقها أو حولها ، فيما البعض الآخر عمت شهرتها المنطقة برمتها لتتعداها أحياناً إلى المناطق المجاورة.

وتتميز هذه الأضرحة بحجم تجهيزاتها وأناقة زخرفها وتنجيدها ، وذلك بفضل استنادها على قاعدة اقتصادية عريضة متمثلة في عزائب فلاحية (العزيب) وعقارات تجارية ومنشآت سكنية ، بالإضافة إلى ما يقدمه الزوار من هدايا وقرابين ، أما الأضرحة الصغيرة فقد فاق عددها عدد الدواوير بنسبة كبيرة إذ قارب ألفي ضريح بمعدل ضريح في كل



محمد أفزاز

كاتب وصحفي بصحيفة العرب القطرية
محلل بقناة CNBC عربية الاقتصادية
الدوحة - دولة قطر

afzaz03@hotmail.com

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد أفزاز ، الطرقية بالمغرب: انحرافات فكرية سياسية واقتصادية. - دورية كان التاريخية. - العدد الثامن ؛ يونيو ٢٠١٠. ص ٧٩ - ٨٥. (www.historicalkan.co.nr)



حد تعبيرا - بل ساعدها على نسيان فاجعتها وأعاد لها الرغبة في مواصلة الحياة^(٦).

ويذكر الباحث محمد جنوبجي عشرات الأضرحة لأولياء اشتهرت لدى العامة من الناس بقدرتها على الإبراء والإشفاء ، وخوارقها التي لاتعد ولا تحصى ، ومن بينهم أبو العباس السبتى ، المعروف (بسيدي بلعباس) ، (وسيدي بنعاشر) ، (ومولاي بوعزة) و(سيدي بوعبيد الشرقي) ، و(مولاي عبد السلام بنمشيش) ، و(مولاي بوسلهام) ، و(عيشة البحرية) ، و(لالة محلة).

ولعل من أغرب ما ساقه الباحث محمد جنوبجي قصة (سيدي سمهروش) الذي يقام حوله موسم سنوي تتوافد قبائل المنطقة من أجل إحيائه وذبح الذبائح له ، إنهم يقولون عنه أنه ولي من الجن مسلم حافظ للقرآن عالم بأصول الشعوب وتاريخ الأنبياء تتلمذ على يد أئمة وشيوخ مثل البخاري وعبد القادر الجيلاني!! ويقولون عنه أنه كان يحيي وما يزال يحيي سكان المنطقة الوعرة والمظلمة من إصابات الجن ، لأن المنطقة التي يوجد بها الضريح تتميز بوحشيتها التي تتجاوز كل متخيل ، لذا كانت حاجة الناس إلى من هو أقوى من هذه الوحشية^(٧).

وبالرجوع إلى التاريخ المغربي الحديث ، وخاصةً خلال القرن ١٩م ، فإننا سنقف على جملة من المظاهر الشاذة والبشعة التي أدخلتها بعض الزوايا المنحرفة كالعيساوية والحمدوشية ، ومن تلك الممارسات على سبيل المثال ابتزاز أموال الناس بطرق لم يحلها الله وحتى اليوم ما تزال مواسمها تشهد على بعض منها. وأمام هذا الوضع تحركت بعض الزوايا الملتزمة بالسنة النبوية للقيام بعملية تمشيط واسعة للمجتمع من مثل هذه الممارسات الدخيلة^(٨).

وينقل الباحثون ، سلسلة من الشطحات والممارسات الشاذة التي عرفتها بعض الزوايا وما تزال تعرفها ، ليس مع مؤسسيها على الأرجح ، بل مع أتباعهم ومريديهم الذين حادوا عن السنة النبوية العطرة ، ومن هذه ما ورد عن الزاوية القادرية/ الجيلانية التي راح أتباعها من الجلائين يتوسلون بعبد القادر الجيلاني، تفتح طقوسهم بعد صلاة العشاء ، إذ يتلى الحزب على ضربات الطبول وأنغام الغبطة. وفي هذا الجو الصاخب تتصاعد الحمى ويختلط الناس من الجنسين ولا يستطيعون التحكم في أعصابهم فيتساقطون على الأرض.

أما أتباع الزاوية الحمدوشية من الجهلة فإن ممارساتهم تسترعي النظر ، يضربون رؤوسهم بالفؤوس والعصي. وبالنسبة للزاوية العيساوية فقد كان أتباعها من الجاهلين يتخذون من يوم الجمعة صبغة دينية تمتزج فيها دقات الطبول ونغمات الموسيقى ، حتى يصلوا إلى حالات هستيرية ، فيلتهمون الزجاج والصابر ويقرنون بكيفية وحشية الأكباش المهداة إليهم وهي حية^(٩).

وحتى نصل الماضي بالحاضر فإنه قد ظهر مع مطلع السنة الحالية ٢٠٠٧ رجل يكنى (بالشريف) في ضواحي مدينة الصخيرات (بالقرب من العاصمة الرباط) تأتي إليه الركبان من كل فج عميق من داخل المغرب وخارجه يعتقدون في بركاته وقدرته على إبراء جميع الأمراض. ويقدر عدد الوافدين عليه ما بين (٤) و(٥) آلاف شخص في اليوم الواحد يستوي في ذلك الفقير والفني والجاهل والمتعلم يحملون معهم السكر وقنينات من الماء ، فيقوم الشريف بلمس الماء والسلام على الحجاج ، دون أن يكلف نفسه عناء الخوض في أي طقوس للشعوذة حتى يدفع عن نفسه تهمة الدجل.

ثلاثة كيلومترات مربعة ، وضريح واحد لكل ثلاثمائة وسبعين فردا في المتوسط^(١٠). ويؤشر أيضا على كثرة الأولياء والأضرحة بالمغرب كون مدينة القصر الكبير توصف هي الأخرى ببلد التسع وتسعين وليا وضريحا ، لكل واحد منها مسجد للصلاة ولبعضها غرف للضيافة ولبعضها الآخر مقابر عائلية أو بساتين وأشجار مثمرة.

وتؤكد البحوث والدراسات السوسولوجية التي عنيت بالأضرحة والأولياء تلك العلاقة الوثيقة بين انتشار الصوفية ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي وتكاثر الأضرحة والمزارات باعتبارها إرثا لهذا الانتشار وتجسيدا واقعا لحاجة الناس الملحة لفضاءات روحانية يستمدون منها قوتهم المعنوية لمجابهة آثار التسلط السياسي وتدايعات عوامل الجفاف وما ترتب عنها من مجاعات وأمراض وأوبئة وأزمات اقتصادية خانقة ، فضلا عن الاعتقاد بقدرة هذه الفضاءات كخزانات للقداسة ، على دفع المضرات وجلب المسرات (طلب الأولاد ، العثور على غائب ، الزواج....).

وقد يكون من الأهمية الإشارة إلى أن المغرب قد تعرض خلال الفترة -١٩٣٤-١٨٤٤ لدورات من القحط والأوبئة وفيضانات وسيول واكبها غلاء فاحش في المواد الاستهلاكية ، وقلة في المؤن والغذاء. وقد خلفت هذه الكوارث موت عشرات الآلاف من المغاربة والأجانب وثلاث قبائل (حاحة وسوس) من شدة الجوع ، وهلاك ربع سكان المغرب سنة ١٨٧٩ ، وموت ٥ آلاف يهودي من (ملاح فاس) ومائة وعشرون نفسا من مدينة سلا خلال الفترة ١٨٥٤-١٨٥٧ ، نتيجة وباء الكوليرا.

أما الجدري الذي وصف حينها بالأحمر فقد حصد ٦ آلاف شخص بمراكش سنة ١٨٨٨ م^(١١). وتعود هذه المكانة التي خص بها المجتمع تلك المزارات/ الأولياء إلى عدة عوامل كتناسل القصص والروايات الأسطورية التي كانت تثبت لهذا الولي أو ذاك خوارق وهمية قام بترويجها فئة ممن كانوا يستفيدون من إتاوات وأرباح الزيارات والهبات.

أولياء بشهرة السلاطين وقدره الأنبياء؟!

ودون الغوص في ظروف نشأة العديد من الأولياء وحقيقة تصوفهم وعلاقتهم بالسلطين والمجتمع ودرجات تعليمهم وتقهمهم في الدين^(١٢) ، يجدر بنا تسليط الضوء على بعض الأولياء (دفيني الأضرحة) الذين فاقت شهرتهم كل متخيل. وقد عرف العديد من الأولياء/ أضرحتهم بتخصصه في إشفاء نوع من الأمراض ، ودفع نوع من الأضرار.

فهذا (مولاي بوشعيب الرداد) بنواحي دكالة الذي يعرف بـ "منقذ العاقرات" ، وهذا (مولاي إبراهيم بمراكش) "الواهب للصبيّة الذكور" - بحسب قولهم الكاذب - ، وذاك (سيدي مسعود بن حسين) بدكالة أيضا الذي يدفع الاضطرابات النفسية عن الرجال والنساء!! ويسوق الباحث عبد الغني منديب الكثير من القصص التي حكيت له خلال إجرائه لبحث على عينة من النسوة في منطقة دكالة ، ومن بينها أن إحدى النساء اللواتي شملها بالبحث في دراسته عن منطقة دكالة حكّت له كيف أصيبت بحبسة (تعذر في نطق الكلام) على إثر موت ولدها الصغير ذي السنّتين من لدغة عقرب قاتلة ، واستمرت هذه الأم الثكلى عاجزة عن الكلام لمدة مايزيد عن شهر حتى بكت وانتحبت في رحاب ضريح (سيدي معاشو بن سعيد) الذي لم يعد لها صوتها فقط - على

الانحرافات الفكرية والعقدية

شكلت المعطيات المرتبطة بكرامات الأولياء ومناقبهم واقعا متخيلا عن شخوص بعضها حقيقي وبعضها الآخر لم يتجاوز مرحلة التخيل الجمعي. وبصرف النظر عن دلالات الولاية وما ارتبط بها من معاني الكرامة والمنقبة، فإن المجال الصوفي المغربي يشتهر عنده تكرار العديد من الكرامات منذ العصر الوسيط وإلى العصر الحديث، ومن ذلك كرامة المشي على الماء والطيران في الهواء وطي المسافات وإبراء العلل والتننبؤ بالغيب وإفشاء المكنون واستدراغ الغيب وتحويل التراب إلى ذهب والاحتفاء عن الأنظار وإرجاع المسروق وتحويل المر إلى حلو^(١٠).

كما يشهد التدرج التاريخي على أن عددا كبيرا من أولياء منطقة دكالة في العصر الوسيط كانت علاقتهم بالثقافة والعلم ضعيفة، إن لم نقل منعدمة، ودخلوا للولاية من باب زهدهم وورعهم، وهي الصفة التي حبتهم لدى العامة، والغالب على أكثرهم ممارسة المهن الوضيعة، قليلة الكسب والمردودية، ك" صناعة أحجار الأرحاء و" صناعة القدور"، بل إن منهم من كان " لصا يقطع الطريق"، أو من كان مسرفا على نفسه يغني في الأعراس ويلعب فيها"، بل منهم من كان "مجنونا يركب على قسبة يجري بها". وكل هذه المظاهر تعطي الانطباع أن التصوف والزهد والولاية، إنما كان خطاب أزمة اجتماعية بامتياز، ومنفذا للهروب من واقع متأزم، بحثا عن بدائل تعيد التوازن بين الذات والسلطة والمال ورغد العيش المفقود^(١١).

ولعله من المفيد جدا الإشارة إلى أن تاريخ الأولياء بالمغرب تضمن بالإضافة إلى الشيوخ والعلماء والمتصوفة فئات أخرى كان الناس يعتقدون في كراماتها وخوارقها وقدراتها على الشفاء والاستبراء وما إلى ذلك، ممن وصفوا بالمجاذيب التي ربطها بعض الباحثين بالتصوف، فيما استثنائها آخرون، ومن أوصاف هؤلاء المجاذيب "الهائم" و"الغائب" و"البهلول" و"الموله" و"ساقط التكليف" و"الغائب في الله" و"دائم الغيبة". والمجذوب، كما تصفه الدكتور غيتة الخياط، عادة ما كان يرتدي ثيابا رثة وأسمالا غريبة، وقد يترك عرفا كثيفا من الشعر ولحية طويلة، ينام صيفا في العراء وشتاء في أماكن لا تخطر على بال^(١٢).

وبالإضافة إلى هذه الفئة عرف المغرب أيضا ظاهرة أخرى سميت بـ"الهلامية"، وهي فئة من الناس كانوا كثيري اللوم لأنفسهم وأسسوا على ذلك مذهبا في تذليل النفس، وتحقيرها وحرمانها من كل ما ينسب إليها من علم أو عمل أو حال أو عبادة، وما لبثت هذه الطائفة أن أدخلت فيها سلوكات وممارسات هجينة ومرفوضة^(١٣).

ويسوق الباحث الهادي الهروي كيف أنه بالإضافة إلى الأدوار الدينية التي كانت تقوم بها الزاوية المصلوحيية بنواحي مراكش على سبيل المثال أصبحت تضطلع بأدوار اجتماعية واقتصادية واستشفائية، مثل إيواء المظلوم وحماية (المزاوكين) وإعانة الضعفاء في عملية الحرث وإطعام المسكين والسهر على اليتامى والأرامل وإخصاب النساء العاقرات، والاستشفاء من بعض الأمراض عن طريق امتلاك البركة، ومنح الرزق (إعطاء الخبزة)، وقد كانت الزاوية تتلقى هدايا مثل (الديحة) التي تربط الشخص بالشريف الصالح وبالزاوية ككل، و(الزيارة) و(الغطاء) (غطاء لضريح المولى صالح)^(١٤).

وإذا كانت جل الكتابات التاريخية تثبت عكس ما تناقلته المناقب والحكايات والمرويات حول كرامات وخوارق الأولياء والصلحاء، إلا أن الكثير من الروايات والقائمين على الأضرحة قد استغلوا نفوذهم للتمويه على العامة من الناس بكرامات مصطنعة تتبع الأولياء في أضرحتهم، مثلما نسبت إليهم في حياتهم عن حق أو باطل^(١٥).

ويحرص مسيروا هذه الأضرحة (أحفاد الولي الذين يعيشون من الرأسمال الرمزي) على إشاعة قدرات جدهم في إنجاز المعجزات وينسبون إليه كل المنجزات التي تسير متطلبات العصر وتستجيب لرغبات الزوار، ويساهم الخدام والمريدون هم أيضا في تدعيم الرأسمال الرمزي للولي صاحب الضريح برواياتهم المتجددة حول حاجاتهم التي قضيت ورغباتهم التي حققت بفضل مزاي وبركات الولي^(١٦).

وترتبط زيارة الأضرحة بطقوس ثابتة متمثلة في تقبيل أركان الضريح والطواف بقدمين حافيتين حول التابوت الذي يضم قبر الولي والتمسح بالرداء الذي يوجد فوقه، ثم تقديم الهدية التي تختلف باختلاف الطلب، فهي تبدأ بعودين من الشمع أو بضعة قطع نقدية أو لبوس التابوت (الغطاء الأخضر)، وقد تصل إلى حد التضحية برأس الغنم أو البقر^(١٧).

وتعرف معظم أضرحة منطقة دكالة على سبيل الذكر عند الصوفية المنحرفة بشفائها لأمراض عضوية كالعقم أو الإجهاض المتكرر أو عدم إنجاب الذكور أو غيرها، وأمراض نفسية وعقلية ينظر إليها باعتبارها ناتجة عن مس من الجن أو عن عمل سحري كأمراض الفصام والصرع وما شابهها، بالإضافة إلى دور هذه الأضرحة في طلب التدخل لدى (الحضرة الإلهية) لترفع عنهم الظلم وتبعد عنهم الضيم — تعالى الله عما يقولون -، والقيام بالسباحة الدينية بما تعنيه هذه الأماكن من خزانات للقداسة، وتعتبر المواسم الأكثر ملاءمة للظفر بهذه النفحات القدسية والحصول على بركة الولي^(١٨).

الانحرافات السياسية

وإذا كان الاختلاف قد ظل سيد الموقف بخصوص إثبات أو نفي ما قد يصطلح عليه بالانحرافات السياسية عند بعض الطرق الصوفية بالمغرب، فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للبعض الآخر من هذه الطرق، دون أن تفوت الفرصة للتأكيد على حقيقة تاريخية قد سبق أن أشرنا إليها سابقا، مؤداها أن الروايات بالمغرب علاوة عن أدوارها التربوية كانت تضطلع في بعض المناسبات بمهام مرتبطة بمواجهة الخطر الأجنبي وإصلاح ذوي السلطة، وفي مناسبات أخرى بالخروج عن السلاطين ومعونة الاستعمار.

أ- الثورة على السلاطين

يشير الباحث الهادي الهروي إلى أن الروايات لم تقم بدور الوساطة والتحكيم وموازنة المخزن فقط بل كانت جبهة قوية لمعارضة الجهاز المركزي، خاصة وأنها استقطبت عددا هائلا من الأتباع، وهو الشيء الذي تعكسه الزاوية الدرقاوية التي أصبحت لها أكثر من أربعين ألفا من الأتباع في ظرف وجيز ١٧٢٨-١٧٨٥، ودخلت بذلك لعبة الاصطدامات السياسية معتمدة في ذلك على المقدس والرأسمال الرمزي، الأمر نفسه حصل بالنسبة للزاوية الشراعية — يؤكد الباحث — التي ألحقت بالمولى سليمان هزيمة نكراء عندما أعلن مناصرته لقبائل الرحامنة ضد قبائل الشراعية، ومن أهم تمردات الزوايا، ينقل الباحث، هزم مولاي العربي الدرقاوي (الزاوية الدرقاوية) للمخزن سنة

أنحاء البلاد سنة ١٩٣٤ بل إنها قلبت لذوي الشخصية البارزة منهم ظهر المجن، إذ هي تعرف أن تأييدهم لها لم يكن طبعياً ولا متفقاً مع العقيدة الدينية التي ينتسبون لها، ولم تستثن من ذلك- يقول علال الفاسي- إلا فردين هما عبد الحي الكتاني والحبیب الفيلالي، فقد احتفظت معهما برابطة متينة لأنها كانت تعلم بغض الأمة لهما وأنها غير قادرين على التجول في أي بقعة من بلاد حماية الفرنسيين، وفي نفس الوقت كانت تعلم أنها كاملاً الارتداد لا يتأخران عن بذل أي تصريح لتأييدها في أي وقت كان.

ويؤكد علال الفاسي مساعي الفرنسيين لاستمالة المزيد من شيوخ الزوايا فيقول: "وحيثما حالت الحرب الكبرى لم تجد فيهما غناء ولم يجدها اتصالها بهما شيئاً (عبد الحي الكتاني والحبیب الفيلالي)، فاضطرت إلى أن تخلق من جديد مشايخ يستكثرون لها المتطوعين في الجيش لتأييد حكومة "فيشي"، وهكذا أسست طريقة سميتها الطريقة العالية يرأسها شخص اسمه عبد العالي أمدته بكل ما يمكن من المال لبناء زاويتين كبيرتين بالرباط والدار البيضاء، كما حاولت اصطناع غيره من أمثاله فهاجت السلفية حينئذ وتقدمت لتشرح للشعب حقيقة الحال".

ومن الشواهد التي يسوقها علال الفاسي للتأكيد على مقدار استهزاء واستغلال الفرنسيين لعاطفة الدين في صفوف المغاربة، أن مراقبا فرنسا بمدينة إيفران أراد أن يركز السكان المغاربة الموجودين في الناحية في حي قريب من المدينة الأوروبية التي أسست حديثاً يقصد زمنه) فرأى من الضروري تأسيس زاوية ومقبرة.. وبعد أن أتم بناءها على أفخم ما يكون (ومعها المقبرة) فكر في أن الإقبال على الدفن بالمقبرة لن يقع إلا إذا كان تضم رفات واحد من أولياء الله فقد انتظر حتى مات أحد الشواش (الفراشين) بالإدارة الفرنسية فأقام له جنازة كبرى ودفنه في الضريح وبنى عليه قبة ضخمة وعمدة باسم (أي دقيق) وكلف من يكتب عن مناقبه رسالة وزعها في القبيلة ثم أرغمها على أن تقيد مولداً تذبح فيه الذبائح وتهدي النذور، كل ذلك ليحمل المغاربة على الدفن في الضريح. وقد انزعجت القبيلة -يضيف علال الفاسي- لهذه الأساليب وتوجه وفد من السلفيين بها إلى جلالة الملك يخبرونه بتفاصيل الأمر فانتقل بنفسه لعين المكان وتأكد من صدق ما روى له الوفد السلفي. فما أصبح الصباح حتى وجد المراقب صنمه قد هدم.

وذكر علال الفاسي كيف أن الإدارة الدولية في طنجة تستغل موسم السيد البقالي المعروف بأبي عراقية لتقيم باسم الدين معرضاً لأنواع المخازي والفصائح الخلقية والاجتماعية معتبرة ذلك وسيلة من وسائل الدعاية للمدينة وجلب السائحين إليها^(٢٣).

الانحرافات الاقتصادية

وقد حظيت الزوايا- خاصة الكبرى منها- عبر التاريخ الطويل بالرعاية والدعم الماليين، من خلال الامتيازات والهبات والإقطاعات. وفي هذا الصدد يذكر الباحث الهادي الهروي أن بعض رؤساء زاوية القنطرة بناحية القصر الكبير قد نالوا امتيازات ضريبية وإقطاعات أرضية بظواهر، منذ أمد بعيد، مثل ظهير السلطان السعدي سنة ١٥٨٦، الذي خص رؤساء تلك الزوايا بعائدات الضرائب الدينية (الزكاة والعشور)، وب(حكرة المنتج الفلاحي للأرض)، واحترام طرق الزوايا. وقد جدد ظهير المولى إسماعيل (١٦٧٣) هذه الامتيازات، وأضاف إليهم عزيب الدشر برجاله الذين يعملون به.

١٨١٨، وقتل ابن السلطان المولى إبراهيم، وحصار مكناش من قبل أبو بكر أمهاوش، وتمرد الدرقاوي بوعزة الهبري في نواحي وجدة وتازة، ومهاجمة الشريف الدرقاوي لمدينة فاس في ٢٥ ماي ١٩١٢ ومعارضة الزاوية الدلائية لمخزن المولاي إسماعيل. أما زاوية تازروالت فقد ظلت إمارة مستقلة لمدة طويلة ولم تعترف بسلطة المخزن إلا تحت ضربات حركات المولى الحسن الأول خلال سنة ١٨٨٢-١٨٨٦، قبل أن يجري تعيين شيخها ابن الحسن بن هاشم قائداً.

ولعل من أهم الطرق الصوفية التي خاضت غمار المعارضة السياسية الدينية ضد المخزن- يرى الهروي- الطريقة الكتانية التي رأت أن المخزن قد أصبح عاجزاً على مواجهة الظروف المأساوية التي عرفها المغرب، وتزايد عجزه على ضبط الأحوال الداخلية، وقد اتخذت هذه الطريقة ذريعة التحالف مع الكلاوي^(٢٤).

ولم يقف الأمر عند هذا الحد من الانحرافات السياسية بل تعداه إلى إيواء الأمراء والمتمردين كما حصل للزاوية أمهاوش مع المولى يزيد الذي ثار ضد أبيه ١٧٩٢- ١٧٩٠ وتحريض القبائل ضد السلاطين والمخزن كما هو الشأن بالنسبة لأبي بكر أمهاوش سنة ١٨١٨، الذي كان قد سعى إلى تأليب قبائل السهلية (قبيلة كروان وزمور)^(٢٥).

هذا الوضع حمل بعضاً من رجالات الطرق الصوفية على معاتبة السلوكيات المناهضة للسلاطين التي كان ينهجها البعض الآخر، ومن شواهد ذلك ما ساقه الباحث أحمد الطريق بشأن الزاوية الدلائية التي اضمحلت مع مرور الزمن بفعل عوامل سياسية لتندمج في كل من الزاوي الفاسية بفاس والزاوية الناصرية، يقول الباحث إننا نستحضر نتفا من المراسلة السياسية الصوفية التي جرت بين أحمد بن عبد القادر التستاوي، وبين آخر ثائر ينحدر من سلالة الزاوية (يقصد الزاوية الدلائية)، وهو أحمد بن عبد الله الدلائي، وكان يومها يمثل الصيحة الأخيرة، من جيش الفلول، على عهد التوطيد والتأسيس، في ملك السلطان إسماعيل.

هكذا ينقل الباحث عن التستاوي قوله "ولا أرضي لك ملك الدنيا بحذاقيرها، بل بكلمة من كلماتك في هذه الوصية تساوي جميع زخارفها، ثم إن كنت صادقاً فعلاصته أن تستعمل في أحب لك من النسك، وتجنب ماترأودك به نفسك من الملك.."^(٢٦).

ب - معاونة الاستعمار

استعان الفرنسيون في احتلال المغرب ببعض شيوخ الزوايا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر كالدعم الذي قدمه الشيخ الحاج العربي الوزاني، والزاوية التجانية، والزاوية الوزانية والدرقاوية مع بعض الاستثناءات، قبل أن تعود هذه الزوايا لتعلن عن قطيعتها مع الفرنسيين وتأييدها للمخزن مجدداً وتحارب من ثم إلى جانبه، مما جعل مواقف هذه الزوايا تكتسي طابعاً من الغموض والثنائية الصارخة في التعاطي مع الخطر الأجنبي والتهديدات الخارجية. وهو ما تحيل إليه الشواهد التاريخية من كون زوايا أخرى جاهدت إلى جانب الدولة السعدية لمواجهة الخطر البرتغالي ورد العدوان الإسباني على مدينة تطوان، كما هو الشأن بالنسبة للزاوية الريسونية^(٢٧).

ويذكر علال الفاسي كيف أدارت سلطات الحماية ظهرها لبعض شيوخ الزوايا بعد ما قضت منها حاجتها ووقع الاحتلال. يقول علال الفاسي إن السلطات الفرنسية التي شجعت الطريقة في عهد المقاومة المسلحة المغربية لأنها كانت تجد من أغلب المشايخ تأييداً وعضداً، لم يعد يهيمها أمرهم شيء بعد أن تم الاحتلال العسكري الكامل لكل

أجمعين إلى أشكال الانحرافات عن السنة النبوية العطرة. فعندما لمس المولى سليمان الآثار الوخيمة لانحرافات الطرفين- يقول علال الفاسي- دعا إلى العودة للسلفية الأولى ومقاومة الطرق وتشعباتها واستجاب للروح الحنبلية التي كان سلفه السلطان محمد بن عبد الله أول المعنيين بنشرها والدعوة إليها.

وقد كان للرحلة الاستطلاعية التي قام بها الأمير إبراهيم بن سليمان إلى الحجاز لأداء فريضة الحج سنة ١٢٢٦ يابعا من والد المولى سليمان ، الذي أكد عند عودته أن الحركة الوهابية ليست شيئا غير ما يرمي إليه المصلحون من تطهير العقيدة وتطبيق الشريعة ، كان لهذه الرحلة- يؤكد علال الفاسي- أثرها في تشجيع المولى سليمان على مواصلة كفاحه ضد المتمشخين والمفتقرة كما يسميهم ، فظل يوجه الرسائل لتقرأ على المنابر في سائر مساجد المغرب يتحدث فيها عن متصوفة الوقت ويحذر الناس فيها من الخروج عن السنة والتغالي في البدعة ، كما يشرح آداب زيارة الموتى ويحذر من تغالي العوام في ذلك مغلظا القول.

وواصل جميع الملوك الذين تعاقبوا على عرش المغرب الدعوة إلى السلفية في كل تصرفاتهم ولكنهم لم يستطيعوا في الواقع أكثر من التخفيف من وطأة الخرافة على العلماء ورجال الدين ، ولعل ذلك راجع لكونهم لم يتعدوا فيما فعلوه أسلوب الوعظ والإرشاد ومنع بعض المراسيم التي كانت تتسم بالمغالاة.^(٢٨)

ويسوق علال الفاسي تلك الانتفاضة التي سجلها جلالة الملك محمد الخامس ضد الزاوية العالية التي أسسها الاستعمار فيقول: "وقام جلالة الملك قومة الملك المخلص بمجرده ما علم باستغلال عبد العالي هذا الدين والتصوف في سبيل خدمة غايات استعمارية بغضبة"، وانتهى الأمر بأن أصدر جلالة السلطان أوامرا للمحكمة الشرعية بالرباط لتنظر في شأن عبد العالي المذكور ، وبعد أن استعملت المحكمة كل الإجراءات الشرعية أصدرت قرارها بضرورة إقفال الزاوية العالية واستتابة رئيسها من دعواه الخرافية ، وأرسل جلالة الملك لباسا الرباط فأقفل الزاوية العالية كما أقفل باشا البيضاء (مدينة الدار البيضاء) الزاوية الأخرى ، ثم أرسل جلالة السلطان مرسوما بمنع تأسيس أية طريقة جديدة بغير إذن من جلالتهم الخاص وعدم جواز إعطاء هذا الإذن إلا بشروط تدخل في إطار ما اشترطه العلماء والشيخ المريدون ، كما يقتضي هذا المرسوم منع الشيخ المريدون من تأسيس أية زاوية بغير إذنه.

وقد أدى صدور هذا المرسوم سنة ١٩٤٦ إلى قيام أزمة شديدة بين الإقامة الفرنسية والقصر الملكي ، ولكن الملك صمم على تطبيق المرسوم على الرغم من رفض السلطة الفرنسية نشره بالجريدة الرسمية المغربية^(٢٩) . ولم تقف مبادرات الملك محمد الخامس- يؤكد علال الفاسي- عند هذا الحد بل لقد أصدر عدة أوامر بمنع خروج الطوائف العيساوية والحمدوشية على الصفة التي كانوا يخرجون بها ، ثم منع إقامة مواسمهم إلا في أضيق دائرة ممكنة وتحريم النحائر التي تقدم للصالحين في مختلف المناسبات التي تحيي فيها ذكراهم بكيفية لا يرضون عنها ، وانتشرت الدعوة في الأوساط الشعبية إلى حد أن الأمة بدأت تقيم الأفراح وتزين الأسواق كلما صدر مرسوم ملكي بمنع بدعة من هذه البدع ومحوها من الوجود.

وعلى الرغم من المحاولات التي بذلتها الإدارة الفرنسية بخلق حركة رجعية أو المشاغبة على هذه الأعمال الإصلاحية فإن استجابة

أما ظهير ١٧١٩ ، فقد منح به مولاي إسماعيل إقطاعيات لفقيهين من الزاوية تمتد على ما قدره ثلاثين "زوجا" من أراضي المخزن ، يختارونها في مكان يحددهن بنفسيهما ، وعشر زوجات من ملكية سكان "القصر" (مدينة القصر الكبير). وقد أكد (مولاي عبد الله وسيدي محمد بن عبد الرحمن والمولى عبد الرحمن والمولى سليمان) للقطار هذه الامتيازات ، إلا أن هذه الامتيازات ستراجع فيما بعد لاعتبارات سياسية. ويشير الهادي الهروي إلى أن الزاوية المصلوحيية بضاحية مراكش قد نالت هي الأخرى امتيازات الإعفاء الضريبي وإقطاعات أرضية وحصص من الماء وظهائر التوقير والاحترام ، وقد قدرت الممتلكات العقارية للزاوية المصلوحيية ، حسب إحصاء ١٨٧٦م الذي حدد ممتلكات المخزن بـ ١٥٠٠ هكتار^(٢٤).

ومن الشواهد التاريخية التي تسلط الضوء على المطامع الاقتصادية لبعض الزوايا والطرق الصوفية بالمغرب باعتبارها وجها من أوجه الانحراف ، تلك التي ساقها باحثون مغاربة كابراهيم حركات ومحمد ضريف ومحمد بوسلهام. فقد كان شيوخ الزوايا منذ ما قبل القرن التاسع عشر شديدي الاهتمام بمسألة الإعفاءات التي تخولها لهم الظهائر ، ومن ذلك الزويزة التي أثارها أبناء المسمى خالد المصمودي في وجه السلطان السعدي محمد الشيخ الذي أمرهم بدفع الخراج على الأرض قبل أن يتم التوقيع على ظهير مكتوب يحدد كل طرف وواجباته.

أما "الريسونيون" فقد حصلوا على مكافئة هامة تمثلت في الأرض التي دارت عليها معركة الملوك الثلاثة نظير بدر العطاء إلى جانب الجيوش السعدية خلال هذه المعركة ، المسلسل نفسه سيتكرر مع الزاوية الدقاوية التي أعقد عليها المولى إسماعيل بالامتيازات التي تجلت في الإعفاءات من خلال ظهير لهذا السلطان ، والزاوية الوزانية التي صار نفوذها الاقتصادي يتجاوز المغرب باتجاه السودان ، والزاوية الناصرية خلال القرن السابع عشر التي كانت تعد سوقا تجاريا للتبادل والبيع والابتاع وممرا استراتيجيا لسفن الرمال القادمة من أعماق السودان ، والزاوية التجانية التي منحها المولى سليمان بناية جاهزة لإقامتها ، فضلا عن حقوق تسيير الأراضي والاحتفاظ بالأعشار والزكوات وتوقيع اتفاقات تجارية مع الأجانب. هذه الوضعية ستخلق في ما بعد حالة من البوار والكساد لخزائن الدولة ووضعا متريدا لهايتها^(٢٥).

وقد كانت الموارد المختلفة للزوايا تدر على المشرفين عليها أموالا طائلة جعلها عرضة لانتقادات الفقهاء وبعض شيوخ الزوايا الأخرى. فهذه زاوية أبي الجعد كان بإمكانها خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر إطعام ما يقرب الألف شخص على مدى سنة كاملة من خلال ما تجمعها في ظرف أسبوعين فقط ، كما أن الزاوية الناصرية بتمكروت كانت سنة ١٨٤٧ عبارة عن قصر كبير مسور بأوي ما يناهز ٢٥٠٠ نسمة^(٢٦).

مواجهة السلاطين لانحرافات الزوايا

ولئن كان معظم السلاطين المغاربة قد حاربوا البدع والخرافات وانحرافات الزوايا ، على اختلاف بينهم في قوة المواجهة ، فإن دعوة السلطان المولى سليمان الذي تأثر بالحركة الوهابية في المشرق تظل الأقوى بينهم بل والمنشأ لحركات إصلاحية ستأتي فيما. وإلى ذلك يشير علال الفاسي في كتاباته^(٢٧) ، من أن الحركة السليمانية شكلت بداية قومية لتنبية الوعي الإسلامي والاجتماعي في نفوس المغاربة

الوعاظ يغربون في جمعها وابتكارها تملقا للجمهور وتحببا للناس المصدر.^(٣٣)

إضاءات

وفي خضم الاتهامات التي وجهت لبعض الطرق الصوفية خاصة ما تعلق منها بدعمها للاستعمار والتطلع إلى السلطة والتعلق بالكرامات، كانت تنبني بين الفينة والأخرى كتابات تدفع هذه التهم وتدعو إلى ضرورة عدم تعميم الأحكام، ومن ذلك إثبات أن الطرق الصوفية ابتعدت عن الخصومات والصراعات والرهانات السياسية والتصقت بالمقابل بهيكل المجتمع وظلت تضطلع بأدوارها التربوية والدينية والتعليمية. وفي هذا الصدد يقول حسن السباعي الإدريسي: "إنه منذ ما يناهز الأحد عشر قرنا وطيلة هذه المدة كلها لم يسبق لأحد من شيوخ الطرق أن سعى إلى الوصول إلى السلطة ولا أن اختلف مع أحد حول ذلك، لأن هدفها كان ولازال هو التربية الروحية وتوجيه القلوب إلى ربها". بحسب قوله

وينقل الكاتب أن (الرجال الذين سلكوا الطريقة وشهد لهم التاريخ بإشعاعهم المغربي والإسلامي كان لهم دور رائد في نشر الإسلام في كافة أصقاع الدنيا وبالأخص في إفريقيا، حيث نشروا الدين الحق، واستطاعوا ترسيخه في قلوب الأفارقة ووجدانهم، مما منع الصليبية من أن تنجح في تنصيرهم).^(٣٤)

وينقل الكاتب (الدور الوطني للطرق الصوفية في مواجهة الاستعمار بقوله " اتخذ البعض من الافتراء على الماضي ومحاولة طمس وتزوير الحقائق التاريخية وسيلة للبلبل والتشويش على الحاضر، واعتادوا كلها دار الحديث عن الخيانة والخونة، إحياء خطاب يدعي أن الطرق الصوفية تعاملت مع الاستعمار متحركة بذلك لمشاعر المغاربة ولتعلقهم بلادهم، وهذا يدفع إلى الدهشة والاستغراب خصوصا حين نرى نفس الأوساط لا تتحدث أبدا عن الجهات التي ارتبطت فعلا بالاستعمار والتي استفادت من امتيازاته وعملت على رعاية مصالحه. ويعلم أصحاب هذه الاتهامات أكثر من غيرهم- يزيد الباحث- صدق رجال التصوف وحسن نيتهم وغيرهم على وطنهم وتزعمهم حركات المقاومة لحماية الوطن ومواجهة فلول المعتدين على إحياء الدين الحق، وإيقاظ الهمم بذكر الله تعالى وبالسير على نهج نبيه الكريم). "بحسب قوله"

خاتمة

مثلا أشرنا إلى ذلك في مقدمة المقالة، فإن تحليلنا انصب على الجانب السلبي من تجربة التصوف بالمغرب الأقصى، وهو ما لم ينكره حتى أهل التصوف أنفسهم، وإلا فإن هذه التجربة جديرة بالدراسة والتحليل من جميع جوانبها لأخذ صورة كاملة عن تأثيرها في جميع مناحي الحياة وتداعياتها على الحقول الأخرى إن في الفترات التاريخية الماضية أو في التاريخ المغربي الحديث أو في الوقت الراهن. ومن منطلق السياقات الأنفة يصير من الأهمية بمكان أن نستشرف مستقبلا جديدا للصوفية بالمغرب في ضوء ما كتب خلال الفترات القليلة الماضية من أهل التصوف أنفسهم عن ضرورة بعث تصحيحي ورؤية متجددة لهذا التصوف.

الأمة لدعوة الإصلاح كانت تعفى على كل الدسائس والأغراض، بل الدعوة تسربت حتى إلى كثير من رجال الطرق المخلصين فقروا العدول عن بعض البدع التي تبين لهم أنها ليست من الدين ولا من الطريقة في شيء، فأصدرت الطريقة التجانية تعليمات بمنع الرقص في زواياها وفعلت ذلك الطريقة الخلوتية بفاس مكتفية بقراءة أورادها في صمت وهدوء.^(٣٥)

دور الحركات الإصلاحية

جسدت الحركة السلفية الإصلاحية بالمغرب استمرارا لإرث سلطاني في مواجهة الزوايا كما يذكر ذلك علال الفاسي أحد رجالات السلفية من الجيل الثاني للوطنيين المغاربة. علال الفاسي عرض مصارعة العلماء المصلحين للزوايا مع نهاية القرن ١٩م، وبداية القرن ٢٠م، وقسمهم إلى أسماء من الجيل الأول وتضم أبي شعيب الدكالي ومولاي محمد بالعربي العربي ثم محمد غازي، وأسماء تنتمي إلى الجيل الثاني وعلى رأسهم هو (علال الفاسي)، دون أن يلقي الدور الذي كان يضطلع به رواد الفكر السلفي خارج الإطار التاريخي للمغرب.^(٣٦)

فهذا أبي شعيب الدكالي وبرغم ما قيل عنه من تعاون مع سلطات الحماية، كان قد جمع حوله عددا كبيرا من الشباب النافع يوزعون الكتب التي يطبعها السلفيون في مصر ويطوفون معه لقطع الأشجار المتهرك بها والأحجار المعتقد فيها، أما تلميذه محمد بلعربي العلوي فقد شكل نقطة تحول في أشكال المواجهة والصراع مع الزوايا، ويجسد بذلك منهجا جديدا انطبع بها أسماء علال الفاسي بالسلفية الجديدة. وكان محمد بالعربي العلوي متعاطفا مع الزاوية التجانية، إلى أن قرأ مجلة المنار التي كان يديرها رشيد رضا، وكتب ابن تيمية، فتحول بذلك إلى داعية سلفي بالمغرب والتصق اسمه حينها بالثورة على الخرافة والبدع. وكان محمد بالعربي العلوي يسخر من أرباب الزوايا أو الذين يلجأون إلى الأضرحة أو يربطون أنفسهم بورد عن إمام أو شيخ. وقد ربط العربي العلوي بين التخلف العقلي والديني والاستعمار ومسؤولية الطريقين عن ذلك، فكانت دروسه بمثابة مواجهة ضد الطريقين والزوايا والطوائف التي كانت تشوه سمعة المغرب الحضارية والإسلامية من جهة، ومواجهة الاستعمار من جهة ثانية.^(٣٧)

ولعل من بين المراكز التي قامت عليها دعوة العلماء، تلك التي تمثلها محمد بلحسن الوزاني أحد رجالات النخبة الوطنية كمبررات لتحديد موقفه من هذه الزوايا، فهي بالنسبة إليه منافقة وخادعة وماركة ومشعوذة، تعيش عالة على المجتمع، تستنفع دون أن تنفع، فهي بذلك دور للرقص والطعام لا يعترف لها بالوجود لأن الإسلام لا يعترف بالوساطات بين الله والعباد، كما أنها معينة للاستعمار.

وواصلت النخبة المغربية إبان الاستعمار الفرنسي - يقول علال الفاسي- نشر فصولها السلفية ومحاربة خصومها في صحف تونس والجزائر والمغرب خاصة مجلة شهاب التي كان يصدرها صديقي المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس. وقد ألفت في ذلك كتب عديدة تقضخ خيانات بعض الطرق الصوفية، وبذلك أضحت هذه الحركة عملا موازيا للكفاح الذي قام به المجاهدون في الجبال.

وتبع هذا الإصلاح تجديد في أسلوب الوعظ والخطابة الدينية فاستفادت اللغة العربية منه وانبعثت الأحاديث الصحيحة وأخبار السلف النقية من مرقدها لتحل محل الخرافات والمناقب التي كان

من إصدارات ٢٠١٠ كُتب

الحرم القدسي الشريف

إعداد: د. خالد عزب، شيماء السايح

دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ٢٠١٠

عدد الصفحات: ٨٣ صفحة.

المقاس: ٢٢ × ٢٣.٥ سم.

للحرم القدسي الشريف مكانة سامية عند المسلمين، فهو يرتبط بالعقيدة الإسلامية وخاصة المسجد الأقصى فهو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وفيه صلى الرسول بالأنبياء، وكذلك الحال بالنسبة لقبة الصخرة التي تقع في قلب الحرم القدسي الشريف، وهي على قدر كبير من الأهمية من الناحية الدينية، فهي موقع معجزة الإسراء والمعراج، ومن ناحية فنية زخرفية فهي معلم يؤرخ للفن الإسلامي في مراحل تكوينه وتشكيله المبكرة، ومن ناحية معمارية فهي تحفة فريدة لم يبن مثلها من حيث التصميم ولا من حيث الوظيفة في العمارة الإسلامية، فضلاً عن أنها تعد أقدم معلم من معالم الحضارة الإسلامية، وهي تشكل أعلى بقعة في الحرم القدسي الذي يتضمن العديد والعديد من المنشآت المعمارية الإسلامية التي ألحقت به في فترات تاريخية مختلفة.. نتعرف على تلك المنشآت تاريخياً ومعمارياً من خلال صفحات كتاب "الحرم القدسي الشريف" والتي بلغ عددها ثمان وثمانون صفحة تضمنت وصفاً مفصلاً لمعائر الحرم القدسي الشريف وعلى رأسها المسجد الأقصى وقبة الصخرة، هذا الكتاب الذي يعد سجلاً لعمارة الحرم، بتكوينه المعماري بالتفصيل، وبما يتضمنه من لوحات وصور ملونة لتلك الأبنية، هذا إلى جانب احتوائه على عدد هائل من صور الرحالة الذين حرصوا على زيارة مدينة القدس في فترات زمنية مختلفة، وسجلوا مشاهداتهم في رحلاتهم التي يزرع بها التراث العربي والإسلامي.

المراجع

- ١- عبد الله بن عتو، "التصوف المغربي من عمق السياق إلى قوة الرمز"، مجلة مناهل ٢٠٠٧.
- ٢- محمد جنوبي، "الأولياء بالمغرب" ص ١٠.
- ٣- عبد الغني منوديب، "الدين والمجتمع دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب"، ص ٨٣-٨٥.
- ٤- الهادي الهروي: القبيلة، الإقطاع والمخزن مقارنة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث ص ٢١١-٢١٥.
- ٥- شهدت معظم الكتابات التاريخية لهؤلاء بزهدهم وتقواهم ومقاومتهم للأجانب.
- ٦- عبد الغني منديب، مرجع سابق، ص ١٥٢.
- ٧- محمد جنوبي، "انظر التفاصيل في فصل كامل من كتاب الأولياء".
- ٨- مني الحسن: الزوايا بالمغرب بحث لنيل الإجازة من جامعة محمد الخامس الرباط دون تأريخ ص ٢٥.
- ٩- الزوايا بالمغرب، مرجع سابق ص ٩-١١.
- ١٠- عبد الله بن عتو، مرجع سابق ص ٣٠١.
- ١١- عبد الله بن عتو، مرجع سابق ص ٣٠٥.
- ١٢- محمد جنوبي، مرجع سابق، ص ٢٣.
- ١٣- محمد جنوبي، مرجع سابق، ص ٢٦.
- ١٤- الهادي الهروي، مرجع سابق، ص ١٧٤.
- ١٥- محمد جنوبي، مرجع سابق، ص ٤١.
- ١٦- عبد الغني منديب، مرجع سابق، ص ١٥٠.
- ١٧- عبد الغني منديب، مرجع سابق، ص ١٥١.
- ١٨- عبد الغني منديب، المرجع السابق، ص ١٥٤-١٥٧.
- ١٩- الهادي الهروي، ص ١٢٣-١٢٦.
- ٢٠- الزوايا بالمغرب، مرجع سابق، ص ٤٣-٤٤.
- ٢١- أحمد الطريقي، "الزوايا الصوفية مصدر لإشعاع الخطاب"، مجلة مناهل وزارة الثقافة ٢٠٠٧، ص ٣١٩.
- ٢٢- الزوايا بالمغرب، مرجع سابق، ص ٤٥.
- ٢٣- علاال الفاسي، "الحركة السلفية بالمغرب"، مجلة المناهل ٢٠٠٧، وزارة الثقافة، ص ٤١٢-٤١٥.
- ٢٤- الهادي الهروي، مرجع سابق، ص ١٧٣.
- ٢٥- الزوايا بالمغرب، مرجع سابق، ص ٣٠-٣٣.
- ٢٦- الزوايا بالمغرب، مرجع سابق، ص ٣٠-٣٣.
- ٢٧- علاال الفاسي، "الحركة السلفية في المغرب"، مجلة مناهل ٢٠٠٧، ص ٤٠١-٤٠٢.
- ٢٨- علاال الفاسي، المصدر نفسه، ص ٤٠٣.
- ٢٩- علاال الفاسي، المرجع نفسه، ص ٤١٣-٤١٤.
- ٣٠- علاال الفاسي، المرجع نفسه، ص ٤١٠.
- ٣١- نور الدين، الطاهري "الزوايا والحزب"، ص ٦١.
- ٣٢- نور الدين، مرجع سابق، ص ٦٣-٦٤.
- ٣٣- علاال الفاسي، مجلة مناهل، ص ٤١٠-٤١١.
- ٣٤- لحسن السباعي الإدريسي، "حول التصوف والمجتمع"، منشورات الإشارة مارس ٢٠٠٧، ص ٥٨-٦٠.

دولة الأدارسة في المغرب الأقصى (172-311هـ)

ورثت

الدولة العباسية الدولة الأموية في حكم الأقاليم الإسلامية التي فتحها المسلمون في المشرق والمغرب ، وقد ورثت الدولة العباسية خلافة مترامية الأطراف تمتد نفوذها من الهند والصين شرقا إلى جنوب فرنسا غربا ، وكان لهذا الاتساع وبعد أطراف الخلافة عن مركزها في بغداد بالإضافة إلى سياسة القوة والعنف التي اتبعها الخلفاء العباسيين ولشخصيات هؤلاء الخلفاء المتناقضة أحيانا بين خليفة وآخر أثره في نشوء الفكر الاستقلالي عند الكثير من القادة والأمراء في العديد من أقاليم الدولة العباسية وبالتالي تكوين دول وإمارات خاصة بهم وهو ما عُرف باسم الدويلات المستقلة.

قيام دولة الأدارسة وإمامة إدريس بن عبد الله الحسن

في سنة ١٤٥هـ خرج محمد بن عبدالله الحسن بن حسن السبط بن علي بن أبي طالب المعروف بالنفس الزكية على أبي جعفر المنصور مطالبا بحقه في الخلافة فأجمع أهل الحجاز على نصرته فاستولى على المدينة^(١) وعلى مكة ثم بعث أخاه إبراهيم إلى البصرة ، فتغلب إبراهيم على البصرة والأهواز وفارس^(٢) ولما بلغ المنصور خروج محمد بن عبد الله الحسن سير جيشا بقيادة ابن أخيه عيسى بن موسى للمدينة لمقاتلة محمد والقضاء على حركته فتحصن محمد بن عبد الله الحسن في المدينة لكن أهل المدينة تخلوا عنه وبقي في شردمة قليلة من الناس وظل يقاتل جنود عيسى بن موسى حتى استشهد سنة ١٤٥هـ .

وأما أخوه إبراهيم فقد قام المنصور بحاربته فاشتبك إبراهيم مع جيش المنصور بقيادة عيسى بن موسى في باخمري^(٣) في قتال عنيف انتهى بهزيمة إبراهيم ومقتله سنة ١٤٥هـ^(٤).

لكن هذه الهزيمة لم تثني هذه الهزائم المتوالية عزم العلويين فقد أخذوا ينتظرون الفرصة المواتية للخروج على الخلافة العباسية فلما توفي المنصور وآلت الخلافة إلى المهدي ثم إلى ابنه الهادي خرج العلويين في مكة والمدينة بزعامه الحسين بن علي بن الحسن "المثلث" بن الحسن "المثنى" بن الحسن "السبط" بن علي بن أبي طالب سنة ١٦٩هـ بسبب سوء معاملة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر عامل المدينة من قبل الهادي لهم^(٥) وقد بوع الحسن بالخلافة في المدينة وأقام بها ١١ يوما ثم سار إلى مكة فالتقى مع الجيش العباسي بقيادة سليمان بن منصور في موضع فخ^(٦) فانهمز العلويون في هذه المعركة.

وكان قد اشترك في القتال مع الحسين عماد إدريس بن عبد الله الحسن ويحيى ، وقد نجح إدريس في الإفلات مع المنهزمين من بني الحسن^(٧) فاستتر بعض الوقت وألح العباسيون في طلبه فخرج به مولاه راشد بعد أن غير زيه فسلما حتى دخلا مصر ليلا^(٨) ، ويختلف المؤرخون في رواية الطريقة التي تمكن بواسطتها إدريس من الوصول إلى المغرب الأقصى ، حيث أن هناك روايتان في هذا الشأن:

الرواية الأولى: رواها البكري حيث ذكر أنهما -أي إدريس وراشد- قد مرا في مصر بدار مشيدة يدل ظاهرها على نعمة أهلها فجلسا في دكان على باب الدار فرأهما صاحبها فعرف من لهجتهما أنهما من الحجاز فأخذ عليه راشد موثقا أن يقوم بأحد أمرين ، إما إيوائهما أو التستر عليهما



عماد البحراني

باحث وأستاذ تاريخ بوزارة التربية والتعليم
عضو هيئة تحرير دورية كان التاريخية
مسقط - سلطنة عمان

imad-80@hotmail.com

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عماد البحراني ، دولة الأدارسة في المغرب الأقصى (١٧٢ - ٣١١هـ). - دورية كان التاريخية. - العدد الثامن ؛ يونيو ٢٠١٠. ص ٨٦ - ٨٩. (www.historicalkan.co.nr).



عن اسمه ونسبه ووطنه وسبب قدومه إلى المغرب ، فذكر له أنه من بعض موالى أبيه وقد قدم رغبة منه في خدمته بسبب محبته لآل البيت فأنى إليه إدريس وسر به واتخذها صاحباً^(١٦) . وأخذ الشماخ يترصده الفرصة لاغتيا ل إدريس بالسهم فلم يتحقق له ذلك حيث مولاه راشد كان لا يفارقه وظل الشماخ منتظراً إلى أن آتته الفرصة أخيراً بغياب راشد ذات يوم فدخل على إدريس فوجده وحيداً فجلس بين يديه فتحدث معه ملياً فقال له: " يا سيدي جعلت فداك إني جئت من المشرق بقارورة طيب أتطيب بها ثم إني رأيت هذه البلاد وليس بها طيب فرأيت أن الإمام أولى بها مني فخذها تتطيب بها فقد أثرتك على نفسي وهو من بعض ما يجب لك علي " ، ثم أخرجها من وعاء ووضعها بين يديه فشكره إدريس على ذلك ثم أخذ القارورة وشمها فتمت حيلته فيه وخرج إلى منزله وركب فرسه وخرج من مدينة ويلي وكان القارورة مسمومة ولها استنشقه إدريس صعد السم في خيشومه وانتهى إلى دماغه فغشي عليه وسقط بالأرض على وجهه ، وقضى إدريس في غشيته النهار فتوفي سنة ١٧٥هـ ، وانتبه راشد مولى إدريس إلى غياب الشماخ فعلم أنه سمه فركب راشد في طلبه حتى أدركه بوادي ماوية فضربه بسيفه ضربتين قطع بهما يده ولكنه لم يستطع أن يجهز عليه إذ كى به فرسه ونجح الشماخ في عبور الوادي واحتوى بالبريد^(١٧) . فأمن الشماخ من مطاردة راشد وعصب جراحه ووصل إلى بغداد فولاه الرشيد على بريد مصر^(١٨) . أما إدريس فقد دفن بخارج باب ويلي في صحن رابطه ليتبرك الناس بتربته.

إمامة إدريس الثاني

توفي إدريس بن عبد الله دون أن يترك ولداً ولكنه ترك جارية له اسمها كنزة حاملاً فجمع راشد قبائل البربر فذكر لهم ما كان من أمر هذه الجارية ، فقالوا له: " أيها الشيخ المبارك تقوم بأمرنا كما كان إدريس يفعل فينا حتى تضع الجارية فان وضعت غلاماً ربناه وبابعناه تبركا بأهل البيت بيت النبوة وذرية الرسول — صلى الله عليه وسلم — وان كانت جارية نظرنا لأنفسنا " .

فقام راشد بأمرهم حتى وضعت كنزة مولودها سنة ١٧٥هـ وكان غلاماً أشبه الناس بأبيه إدريس فأخرجه إدريس إلى رؤساء البربر فأعجبوا من شبهه الكبير بأبيه فقالوا: " هذا إدريس كأنه لم يمت "^(١٩) . فسمي لذلك باسم أبيه . وقام راشد بأمره وكفله إلى أن فطن وشب فأحسن تأديبه ، ولما أتم إدريس من العمر ١٠ سنوات جدد له راشد البيعة بجامع ويلي سنة ١٨٦هـ ، ويذكر ابن خلدون أن إبراهيم بن الأغلب صرف همه إلى تمهيد المغرب الأقصى إذ ساءه استفحال أمر إدريس براشد فلم يزل يدس إلى البربر ويسرب فيهم الموال ويستميلهم حتى قتلوا راشداً وسبق رأسه إليه^(٢٠) . وذلك سنة ١٨٦هـ .

وتجمع معظم المصادر أنه قام بكفالة إدريس بعد مقتل راشد رجل يدعى أبو خالد بن يزيد بن الياس العبدى^(٢١) . وقد جددت البيعة لإدريس سنة ١٨٧هـ وهو ابن ١١ سنة وبايعته جميع القبائل من زناته وأوربه وضمها له وغمارة وبقية قبائل البربر فاستقام له الأمر بالمغرب الأقصى وتوطد ملكه وعظم سلطانه وقوي عسكره^(٢٢) .

واصل إدريس الثاني سياسة أبيه في تقويه نفوذه في الداخل والتوسع في الخارج مسانداً بقوة البربر أولاً ثم العناصر العربية الوافدة من أفريقية والأندلس ، وبرغم اعتماد إدريس الثاني على العرب الوافدين وبرغم ما سبب ذلك من إثارة حفيظة البربر فان إدريس

ففعل فأخبره فأدخلهما الرجل واختبأ عنده فترة من الوقت إلى أن تهيأ لبعض أصحابه الخروج إلى أفريقية واتفق معهما على أن يسير هو مع إدريس في طريق غامضة غير طريق القوافل الهامة بمسالك مصر خشية أن يكتشف أمر إدريس عند تفتيش المسافرين ويمضي راشد مع القافلة فيلتقيان في موضع قريب من أفريقية ، ورحل الرجل مع إدريس حتى حدود أفريقية ومن هناك اخترقا بلاد البربر حتى انتهيا إلى بلاد فاس وطنجة^(٢٣) .

الرواية الثانية: يذكرها بقية المؤرخين فيتفقون على لأنها نزل بمصر وكان على بريدها آنذاك واضح مولى صالح بن المنصور ويعرف واضح هذا بالمسكين وكان يتشيع لعلي وبلغه وصول إدريس إلى مصر فأنابه إلى الموضع الذي كان متخفياً به وساعده على الفرار إلى المغرب فحملة على البريد إلى المغرب الأقصى هو ومولاه راشد فنزلا بوليلي من أعمال طنجة^(٢٤) .

وفي اعتقادنا أن الرواية الثانية اقرب إلى الحقيقة والواقع ، فمن المنطقي ألا يبعث راشد بسر إدريس في مصر إلا لرجل من دعاة الشيعة وأغلب الظن أنها كانا يعرفان واضح قبل ذلك فنزلا عنده ، والأمر الآخر هو أن الخليفة الهادي عندما بلغه الدور الذي قام به واضح أمر بضرب عنقه وصلبه^(٢٥) . وبعد ذلك نزل إدريس بمدينة ويلي سنة ١٧٢هـ فنزل على اسحق ابن عبد الله الأوروبي أمير أوربا وكبيرهم فأجاره وأكرمه فأقام عنده قرابة الستة أشهر. تمكن خلالها من نشر دعوته ، وتمكن بفضل فصاحة لسانه وبلاغته من التأثير في نفوس البربر خاصة بعد أن عرفوا قرابته من الرسول - صلى الله عليه وسلم - فاجتمعت عليه قبائل زناته وهي لواته وغمارة ومكناسة ونفزة وبايعوه بالامامة ، وقد تمكن إدريس من تكوين جيش كبير غزا به بلاد تامسنا فافتتح ساه ووسائل حصون تامسنا حتى وصل إلى تادلا ، فافتتح حصونها ثم بلغ ماسه^(٢٦) .

وبعد هذا الغزو عاد إدريس إلى ويلي سنة ١٧٢هـ ثم خرج في العام التالي للغزو مرة أخرى فغزا حصون فندلاده ومديونه وبهلولة وقلاع غياثة وبلاد فازاز ثم توجه إلى مدينة تلمسان لمحاربة قبائل مغرواة وبني يفرن الخوارج فحاصرها فخرج إليه صاحبها محمد ابن خزر الزناتي مستأثماً ومبايعاً ، وبايعته قبائل البربر فقبل إدريس بيعتهم ودخل تلمسان وبني فيها مسجداً ثم عاد إلى ويلي^(٢٧) . وبذلك استطاع إدريس من إقامة دولة قوية في المغرب الأقصى ، وبلغ الخليفة هارون الرشيد ما آلت إليه الأمور في المغرب من دخول البربر في طاعة إدريس وسيطرته على مدن المغرب الأقصى فخشي الرشيد أن يقضي الأدارسة على النفوذ العباسي في أفريقية وطرابلس وأن يمتد نفوذهم إلى مصر ففكر الرشيد في القضاء على هذه الدولة الناشئة ولكن الأمر لم يكن سهلاً فالنفوذ العباسي لم يتجاوز حدود مصر الغربية فاستشار الرشيد وزيره يحيى بن خالد البرمكي فأشار عليه يحيى أن يبعث إلى إدريس رجلاً تتوافر فيه صفات المكر والدهاء مع البلاغة والجرأة ليقتاله^(٢٨) عوضاً عن أن يبعث إليه بجيش لقتاله.

ووقع اختيار يحيى على سليمان بن جرير ويعرف بالشماخ^(٢٩) . وكان هذا الرجل من أهل الشجاعة والدهاء والفصاحة فأخبره يحيى بالمهمة التي عهد بها إليه ووعد برفع منزلته وأعطاه أموالاً جزية وجهزه بها يحتاج إليه وأعطاه قارورة فيها غالية مسمومة فانطلق سليمان إلى القيام بمهمته حتى وصل إلى ويلي فاتصل بإدريس فسأله

إلى القاسم في طنجة وقامت الحرب بينهما فانتصر عمر واستولى على طنجة وسائر أعمال القاسم وأصبح الريف البحري كله تابعا لعمر من بلاد وسلا وأزمور وبلاد تامسنا وكلها بلاد مطنلة على المحيط^(٢٩). وبعد هذه الأحداث وفي سنة ٢٢١ هـ مرض الإمام محمد ثم توفي ودفن بشرقي جامع الشرفاء بفاس.

خلفاء محمد بن إدريس حتى سقوط الدولة

كان الإمام محمد قد استخلف ابنه عليا الملقب بجيدرة أثناء مرضه وكان لا يتجاوز عمره ٩ سنوات فقام بأمره الأولياء والحاشية من العرب وأوروبا وسائر البربر وصنائع الدولة^(٣٠). وبايعوه بالإمامة وهو غلام فسار سيرة أهل العدل والفضل والدين وتمتع الناس في عهده بالأمن وقد توفي سنة ٢٣٤ هـ وعهد بالأمر من بعده إلى أخيه يحيى بن محمد^(٣١). تولى يحيى بن محمد الإمامة بعد وفاة أخيه وشهدت فاس في عصره القصير ازدهارا في العمران ففي عهده أسست أم البنين فاطمة بنت محمد الفهري المسجد الجامع بعدة القرويين بفاس وبعد وفاة يحيى بن محمد خلفه ابنه يحيى بن يحيى وكان ماجنا محبا للشراب معجبا بالنساء فأساء السيرة وخالف طريق سلفه فثارت عليه العامة وعلى رأسهم عبد الرحمن بن أبي سهل الجذامي فأخرجوه من عدوة القرويين إلى عدوة الأندلسيين وقد توارى بهذه العدو ليلتين ثم توفي . وبلغ خبر وفاته علي بن عمر صاحب الريف واستدعاه أهل الدولة من العرب والبربر والموالي قدم إلى فاس ودخلها وبايعه أهلها بالإمامة^(٣٢). وبذلك انتقلت الإمامة من بني محمد بن إدريس إلى بني عمر بن إدريس واستقام الأمر لعلي بن عمر إلى أن ثار عليه عبد الرزاق الفهري الخارجي الصفري ودرات بينه وبين علي بن عمر حرب انتهت بهزيمة علي وفراره إلى بلاد أوربه واستولى عبد الرزاق على عدوة الأندلسيين ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على عدوة القرويين وبعث أهالي عدوة القرويين إلى يحيى بن القاسم فولوه على أنفسهم فلم يزل بها حتى قتله ربيع بن سليمان سنة ٢٩٢ هـ^(٣٣).



Idrisids coin

ولما قتل يحيى بن القاسم خلفه يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس سنة ٢٩٢ هـ فبايعه أهل فاس في العدوين ، ولم يزل يحيى قائما بأمر دولة الأدارسة حتى قدم مصالة بن حبوس الكتامة قائد عبيد الله المهدي سنة ٣٠٥ هـ فخرج إليه يحيى بن إدريس بجموع من بربر أوروبا وسائر القبائل والتقى الطرفان في مكناسة الزيتون فانهمز يحيى هزيمة منكرة ورجع مفلولا إلى فاس فحاصره فيها مصالة فصالحه يحيى على مال يؤديه إليه وعلى مبايعة عبيد الله المهدي ورحل عنهم مصالة إلى إفريقية سنة ٣٠٧ هـ بعد أن أقام موسى أبي العافية المكناسي أميرا على فاس وكانت بين يحيى وموسى عداوة قديمة فلما عاد مصالة إلى المغرب الأقصى في غزوته الثانية سنة ٣٠٩ هـ قبض على يحيى ثم اعتقله موسى بن أبي العافية وسجنه لمدة ٢٠ سنة ثم أطلق سراحه بعد ذلك وأرسله إلى عبيد الله المهدي سنة ٣٣١ هـ^(٣٤). حيث توفي جوعا أثناء حصار أبي يزيد بن كيداد للمهدي سنة ٣٣٢ هـ.

الثاني استطاع أن يوازن بين القبائل فأستمال زناتة ضد أوربه بعد أن تمكن من راب الصدع داخل القبائل الزناتية نفسها^(٣٥). وبذلك تمكن إدريس الثاني بفضل دهائه السياسي من النجاح في لعبة الموازنة باقتدار وقد تجلى ذلك فيما وصلت إليه مدينة فاس من بهاء وازدهار في عهده حتى غدت قبلة للمشاركة والمغاربة والأندلسيين^(٣٦).

على أن اهتمام إدريس الثاني بحاضرته الجديدة بعد الانتقال إليها أثار سخط أوروبا التي راعها انتقال العاصمة من ويلي ، ولما كانت أوروبا عاجزة عن مواجهة إدريس علانية عبرت عن تذررها عن طريق المكائد والمؤامرات مما أدى إلى تقجر الصراع بين الطرفين وقد قام إدريس الثاني باغتيال زعيمها اسحق بن عبد الحميد مما اضطرها إلى الرضوخ له وبذلك استطاع إدريس الثاني أن يضع حدا لمؤامرات أوربة ، كما قامت قبيلة مططرة الصفرية بإتباع الأسلوب نفسه ففقدت العزم على الثورة متواطئة في ذلك مع دولة بني مدرار ، لكن انشغال المردارين بمشكلاتهم الداخلية جعلهم يولوا وجههم نحو الأغلبة. ويبدو أن إدريس الثاني كشف عن المراسلات المتبادلة بين الطرفين في هذا الصدد لذلك أثنى في مططرة قتلا وسببا فاضطر زعيمها إلى اللجوء بمن معه إلى إفريقية الأغلبية^(٣٧).

وقد دفعت هذه الأخطار إدريس الثاني إلى تعميق سياسة التوازن القبلي والتي نجحت في وضع حد للمؤامرات داخل دولة الأدارسة حتى وفاة إدريس الثاني سنة ٢١٣ هـ ، وكان سبب وفاته أنه أكل عنباً ففص بحبة منه فلم يزل مفتوح الفم سائل اللعاب حتى مات^(٣٨). في حين ذكر البعض أنه توفي مسموما^(٣٩).

إمامة محمد بن إدريس

وتقسيم الدولة في عهده

بعد وفاة إدريس الثاني خلفه ابنه محمد والذي عول على اتخاذ سياسة جديدة تضمن وضع حد للقوى المناوئة من البربر والعرب على السواء وتكمن هذه السياسة في إسناده حكم الولايات إلى إخوته. وتذكر المصادر أن جدته كنزة هي من أشارت عليه بذلك. فولى أخاه القاسم سبته ووطنجه وقلعة حجر النسرو وبسكرة ونيطاون وما يلحق بهذه المدن من بلاد وقبائل واختص أخاه عمرا ببلاد صنهاجه الهبط وغمارة وولى داود بلاد هوارة وغمارة وتسول وتازي وما بينهما من القبائل مكناسة وغيانة أما عبدالله فولاه أغمات وبلد نفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطه وولى يحيى على أصيلا والعراش وبلاد زواغه وخص عيسى بشاله وسلا وأزمور وتامسنا وبر غواطه وما إلى ذلك ، وخص أحمد مدينة مكناسة ومدينة تادلا وما بينهما من بلاد فازاز وولى حمزة على ويلي وأعمالها وأبقى تلسمان لابن عمه سليمان بن عبدالله ، أما الباقيون فقد أبقاهم في كفالة جدته كنزة لصغر أعمارهم عن الولاية أما هو فقد اكتفى بحاضرته فاس^(٤٠).

ولكن لم يلبث أن ثار عيسى في بشالة مما دفع بمحمد بن إدريس إلى أن يكتب لأخيه القاسم صاحب طنجة يأمره بمحاربة عيسى ولكن القاسم امتنع عن ذلك وخالف أمر أخيه فاضطر محمد بن إدريس إلى أن يكتب إلى أخيه عمر صاحب صنهاجه وغمارة والذي سارع إلى نصرته بسبب خلافه مع أخيه عيسى فزحف عمر في حشد هائل من بربر صنهاجه وغمارة صوب عيسى واشتبكت قوات عمر مع قوات عيسى وهزمتها وكتب عمر إلى الإمام محمد يخبره بهذا الانتصار فولاه على ما فتحه من أعمال عيسى وأمره بالسير لمحاربة القاسم فزحف عمر

الهوامش

- (١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - القاهرة - ١٣٥٧هـ - ج ٥ - ص ٢ - ٨.
- (٢) د. السيد عبد العزيز سالم - تاريخ المغرب في العصر الإسلامي - مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع - الإسكندرية - ط ٢ - ١٩٨٢ ص ٣٧٩.
- (٣) باخمري موضع بين الكوفة وواسط.
- (٤) ابن الأثير - مصدر سبق ذكره - ص ٧.
- (٥) ابن طباطبا (محمد بن علي) - الفخري في الآداب السلطانية - بيروت - ١٩٦٠م - ص ١٩٠.
- (٦) فخ وادي في طريق مكة يبعد عنها حوالي ٦ أميال .
- (٧) ابن الأثير - مصدر سبق ذكره - ص ٧٦.
- (٨) البكري - المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب - الجزائر - ١٩١١ - ص ١١٨.
- (٩) نفس المصدر - ص ١١٩.
- (١٠) ابن عذاري - البيان المغرب في أخبار المغرب - دار صادر - بيروت - ١٩٥٠ - ج ١ - ص ١٠١.
- (١١) ابن الأثير - مصدر سبق ذكره - ص ٧٦.
- (١٢) د. السيد عبد العزيز سالم - مرجع سبق ذكره - ص ٣٨٣.
- (١٣) ابن الخطيب (لسان الدين محمد) : أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام - القسم الثالث - الدار البيضاء - ١٩٦٤م.
- (١٤) د. السيد عبد العزيز سالم - مرجع سبق ذكره - ص ٣٨٥.
- (١٥) ابن عذاري - مصدر سبق ذكره - ص ٢٩٩.
- (١٦) ابن الخطيب - مصدر سبق ذكره - ص ١٩٣.
- (١٧) د. السيد عبد العزيز سالم - مرجع سبق ذكره - ص ٣٨٧.
- (١٨) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : العبر وديوان المبتدأ والخبر - ج ٤ - دار الكتاب اللبناني - بيروت - ١٩٥٨م.
- (١٩) ابن الخطيب - مصدر سبق ذكره - ص ١٩٦.
- (٢٠) ابن خلدون - مصدر سبق ذكره - ص ٢٥.
- (٢١) البكري - مصدر سبق ذكره - ص ١٢٢.
- (٢٢) د. السيد عبد العزيز سالم - مرجع سبق ذكره - ص ٣٩٠.
- (٢٣) د. محمود إسماعيل: الأدارسة في المغرب الأقصى - الفلاح للنشر والتوزيع - الكويت - ١٩٨٩م - ص ٨٢.
- (٢٤) نفس المرجع - ص ٨٣.
- (٢٥) نفس المرجع - ص ٨٥.
- (٢٦) ابن الخطيب - مصدر سبق ذكره - ص ٢٠٢ ، البكري - مصدر سبق ذكره - ص ١٢٣.
- (٢٧) ابن عذاري - مصدر سبق ذكره - ص ٢٩٩.
- (٢٨) ابن خلدون - ص ٢٧ ، ٢٨ - البكري - ص ١٢٤ - ابن الخطيب - ص ٢٠٤ - ابن عذاري - ص ٣٠٠.
- (٢٩) ابن خلدون - مصدر سبق ذكره - ص ٢٨.
- (٣٠) نفس المصدر - ص ٢٩.
- (٣١) ابن الخطيب - مصدر سبق ذكره - ص ٢٠٧.
- (٣٢) ابن خلدون - مصدر سبق ذكره - ص ٣٠.
- (٣٣) ابن عذاري - مصدر سبق ذكره - ص ٣٠١.
- (٣٤) البكري - مصدر سبق ذكره - ص ١٢٦ ، ابن خلدون - مصدر سبق ذكره - ص ٣٢.
- (٣٥) نفس المصدر - ص ٣٢.
- (٣٦) د. السيد عبد العزيز سالم - مرجع سبق ذكره - ص ٤٠٠.

أما فاس فقد ثار بها حسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجام بعد ثلاثة أشهر من ولاية ربحان بسنة ٣٠٩ هـ ، فقدم إلى فاس في حشد كبير من أتباعه فاستولى على فاس ونفى ربحان منها فملكها عامين ثم قام بينه وبين موسى أبي العافية خلاف ، فزحف الحسن إلى موسى سنة ٣١١ هـ واشتبك معه على مقربة من وادي المطاحن بين فاس وتازي فهزم الحسن^(٣٥) . ثم تمكن موسى بن أبي العافية من الاستيلاء على عدوة الأندلسيين وقتل عبد الله بن ثعلبة ثم محارب وابنيه محمد ويوسف وانقرضت بذلك دولة الأدارسة بفاس وخضعت بلادهم لموسى بن أبي العافية الذي انتقم من الأدارسة وأجلاهم عن مواضعهم ونفاهم بمدينة حجر النسر^(٣٦) .

الخاتمة

تناول هذا البحث دولة الأدارسة والتي قامت في المغرب الأقصى في الفترة ما بين ١٧٢ - ٣١١ هـ ، حيث استعرضنا أسباب وعوامل قيامها مروراً بأبرز الأحداث التي وقعت أثناء فترة تواجدها وأبرز الحكام الذين تولوا حكمها ، وعلاقة هذه الدولة بمركز الخلافة العباسية في بغداد ، وانتهاءً بضعف الدولة وسقوطها بيد الفاطميين وأسباب ذلك .

وقد رأينا من خلال البحث كيف استطاع إدريس بن عبد الله الحسن - والذي كان أحد الناجين من معركة فخ التي هزم فيها العلويين أمام العباسيين - رغم كل الصعاب التي واجهته أن يؤسس هذه الدولة ، حيث رأى الموت بأم عينه في فخ ثم غامر بالخروج مستترا هو ومولاه راشد من الحجاز مروراً بمصر حتى انتهى به المطاف بمدينة ويلي في بلاد المغرب الأقصى ، وكيف استطاع أن ينشر دعوته ويجمع حوله البربر من قبائل أوربة وزناتة وغيرها حتى بويغ بالإمامة سنة ١٧٢ هـ وتكون دولة قوية في المغرب الأقصى جعلت الخليفة هارون الرشيد في حالة من الخوف من إمكانية قضاء إدريس على النفوذ العباسي في إفريقية والتفكير في وسيلة للخلاص من هذا الخطر ، حتى تم اتخاذ القرار باغتيال إدريس بعد أن أشار يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد عليه بهذه الفكرة .

لكن دولة الأدارسة لم تنهار كما توقع وخطط لها العباسيون ، حيث استطاع راشد مولى إدريس أن يسير أمور الدولة بعد وفاة إدريس حتى شب إدريس الثاني ابن إدريس الأول والذي واصل سياسة أبيه ، ففوى نفوذه في الداخل وقام بالتوسع في الخارج ، وقد استطاع إدريس الثاني أن يوازن بين القبائل البربرية والعرب الوافدين إلى فاس من إفريقية والأندلس ، وقد ازدهرت مدينة فاس في عهده ، ثم استعرضنا فترة حكم محمد بن إدريس والذي خلف أباه إدريس الثاني في حكم الأدارسة والذي أقدم على اتخاذ قرار خطير مهد إلى ضعف الدولة ، وكان أحد عوامل سقوطها وهو تقسيم الدولة إلى عدة ولايات يحكمها أخوته ، وقد اتضح لنا سلبية هذا التقسيم حيث قام الأخوة بمحاربة بعضهم البعض مما سهل المهمة للفاطميين في القضاء على هذه الدولة نهائياً وذلك في عام ٣١١ هـ .

أولاد الناس بمجتمع عصر سلاطين المماليك

الملف

Respectable People In The Society of Mamluk Sultans Era

د. نهلة أنيس محمد مصطفى

استاذ التاريخ الإسلامي المساعد
كلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر
القاهرة - جمهورية مصر العربية
dr_na_mostfa@hotmail.com

■ الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

نهلة أنيس محمد مصطفى، أولاد الناس في مجتمع عصر سلاطين
المماليك: الحياة الدينية والعلمية لأولاد الناس. - دورية كان
التاريخية. - العدد الثامن؛ يونيو ٢٠١٠.
ص ٩٠ - ١٠١. (www.historicalkan.co.nr)

الحياة الدينية والعلمية لأولاد الناس

تمهيد

حظيت مصر في عصر سلاطين المماليك بأهمية دينية خاصة ، ونشاط علمي كبير فقد قصدها العلماء والطلاب من مختلف البلدان الإسلامية من المحيط الأطلسي حتى بلاد الهند والصين ، وقد ساعد وجود الخلافة العباسية وإحيائها مرة أخرى في القاهرة على إذكاء الأهمية الدينية لمصر في ذلك الوقت ، وكذلك أصبحت باعثاً أساسياً لتدفق العلماء عليها من كل حذب وصوب

ومن الأسباب الهامة التي ساعدت على النشاط الديني والنهضة العلمية في مصر رعاية السلاطين والأمراء المماليك للفقهاء والعلماء وتبجيلهم واحترامهم ، فكانوا يحرصون على مجالستهم ، ومنهم من كان يميل إلى التاريخ وأهله ويعتبر أن سماع التاريخ من أعظم التجارب. ومنهم من كان يحرص على عقد مجالس كل أسبوع يتدارس فيها مع العلماء والفقهاء في مختلف المسائل العلمية والدينية.

ومن الجدير بالذكر أن كثيراً من الأمراء المماليك وأبنائهم (أولاد الناس) قد اشتغلوا بالعلم ومدارسه والإقبال عليه ، وبرع الكثير من أولاد الناس في مختلف فنون العلم والأدب والعلم الشرعي ، وجلس العديد منهم لتعليم الطلاب والتدريس في مدارس القاهرة المختلفة وبرعوا أيضاً في مجالات العلوم الشرعية والعلمية مثل الفقه والحديث واللغة والتاريخ.

هذا وبالرغم من أن الأمراء المماليك ليسوا مصريين في الأصل ولغتهم الأصلية ليست العربية ، إلا أن تواجدهم في مصر وبلاد الإسلام وإسلامهم المبكر ومنذ أن كانوا أرقاء في الطباقة قد جعلهم حريصين كل الحرص على التربية الصحيحة لأبنائهم حتى غدا أبنائهم يكونون فئة أساسية من فئات المجتمع المصري تتسم بسمات إسلامية أساسية في الدين واللغة والتاريخ المشترك مع بقية طبقات المجتمع ، وأخذ هؤلاء أولاد الناس يتجاوزون مع كافة معطيات المجتمع المصري وقد حرص أبائهم على أن يكتسب أبنائهم السمات الإسلامية الصحيح ، وأهم المظاهر الدالة على ذلك تسمية أبنائهم بأسماء إسلامية ، فمن خلال مدارة مصادر التراجم والحواليات لم نجد إلا القليل النادر من أولاد الناس الذين تسموا بأسماء تركية أو جاركسية ، وجملة من جاء بين طيات هذه المصادر من أولاد الناس يحملون أسماء إسلامية ، والشاهد على ذلك هو أسماء السلاطين الذين قلدوا السلطنة أمثال الناصر محمد بن قلاوون وكافة أبنائه وأحفاده الذين قلدوا السلطنة وغيرهم من سلاطين العصر المملوكي.

ولعلنا هنا لابد أن ندحض ما جاء عند بعض المؤرخين الغربيين من أن السلاطين والأمراء المماليك لم يرعوا أولاد الناس الذين تسموا بأسماء إسلامية وخاصة أسماء الصحابة والأنبياء وهذا مما يثير الدهشة لأن هؤلاء لم يدركوا أن أسماء أولاد الناس - غالبيتهم تقريباً - لا تخرج عن كونها إما أسماء صحابة أو أنبياء ، وهؤلاء قد وصلوا إلى مراتب سامية في الدولة المملوكية لا كما يشير هؤلاء إلى أن بعض السلاطين رفضوا النفقة على أولاد الناس الذين يحملون أسماء إسلامية في حين أن أولاد الناس كانوا من أهم الفئات التي تشكل طبقة المماليك ويحملون أسماء إسلامية.

وإن كان طافور قد أطلق على أولاد الناس "بمكثري شرع محمد" صلى الله عليه وسلم ، وكما يقول أن أولاد المماليك الذين يولدون أحراراً فيصبحوا مسلمين أحراراً كل ذلك بغية زيادة عدد المسلمين ، ولعلنا ندرك أن طافوراً نظراً إلى أولاد الناس نظرة ضيقة

جداً ، وخاصة أنه قد لَمَحَ إلى أن آباءهم قد جلب بعضهم من البحر الأسود ومن جميع الأماكن التي يبيعهم فيها المسيحيون فهو يرى أن بعض هؤلاء يبع من قبل المسيحيين - ونسي أو تناسى أن هؤلاء المماليك جاءوا إلى مصر صغاراً وتربوا تربية إسلامية صحيحة ، وعاشوا في قلب المجتمع المصري ، وتزوجوا وأنجبوا أولادهم وهم مسلمون ، وبالنظر إلى نسبتهم في المجتمع المصري بل والإسلامي بوجه عام نرى أنهم لا يشكلون نسبة عالية ، بل العكس فلا سبيل لأن يكونوا مكثري شرع محمد كما زعم ، وإلا كان الأتراك والجراسية في وسط آسيا وفي الأناضول أيضاً من مكثري شرع محمد ، بل هؤلاء المماليك وأولادهم أصبحوا مسلمين وكما سنرى جزءاً لا يتجزأ من المجتمع المصري.

وإذا أمعنا النظر في تاريخ دولة المماليك لوجدنا أن أولاد الناس قد ساهموا بشكل واضح في مسيرة الحياة الدينية والعلمية في مصر خلال العصر المملوكي منذ نعومة أظفارهم وتلقيهم العلم في الكتاتيب والمدارس ، إلى أن حمل الكثير منهم مشعل العلم وقاموا بالتدريس كما أشرنا في مدارس القاهرة ، والأمثلة على ذلك كثيرة نحاول تسليط الضوء عليها خلال الصفحات التالية لنرى دور أولاد الناس في الحياة الدينية والعلمية ومشاركاتهم لبقية طبقات المجتمع المصري المملوكي

رحلات الحج

الحج ركن من أركان الإسلام الحنيف وقد فرضه الله سبحانه وتعالى فقال جل وعلا "فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ" وجاء في حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم "بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَالْحَجَّ وَصَوْمُ رَمَضَانَ" وقد أوجبها الفقهاء بشروط ضرورية وهي الإسلام والعقل والبلوغ والحربة والإستطاعة ، وفضل الحج والعمرة ومكانتهما كبيرة في الإسلام ، فالحج امتثال لشرع الله واستجابة لأمره سبحانه ، ومن هنا وجبت المبادرة إلى الحج إذا تحققت شروطه . وقد شارك أولاد الناس في إقامة هذا الركن الأساسي وفي كثير من الأحيان التي كانت تدور في رحلات الحج وركب الحج المصري الذي كان يخرج من القاهرة إلى بلاد الحجاز ، وأيضاً حرصهم الشديد رجالاً ونساءً على تأدية فريضة الحج.

تقلد أولاد الناس إمرة الحج.

تقلد أولاد الناس إمرة ركب الحج وخاصة ركب الحج الأول ، وفي العادة كان أمير ركب الحج يكون أمير مئة ومقدم ألف ، أما أمير الركب الأول فمن الممكن أن يكون أمير طبلخانة ، وخلال العصر المملوكي الأول ، قلد عدد قليل من أولاد الناس إمرة ركب المحمل أولهم الأمير المجاهد آص بن الملك العادل كتبغا عام ٩٤ هـ / ١٢٩٤م وقيل في إمرته للحج أنه أعقد العطايا لأهل مكة فأعطى الشريف أبو نهي صاحب مكة عشرين ألف درهم ، وأنعم على أولاده بعشرة آ فلا ، وطوال طريق الحج كان يقيم الموائد والأسمطة لركب الحجيج وتوزيع الحلوى والسكر ، وخلع العطايا على كل الأمراء والمماليك والجند وسائر من صحبه في رحلته.

ومن الجدير بالذكر أن إمرة الأمير أنص كانت في عهد والده العادل زين الدين كتبغا. الأمير سيف الدين أبو بكر بن سنقر الذي ولي إمرة الحاج بعد وفاة خاله الأمير بهادر عام ٣ هـ / ١٣٤٤م وقد قلدوا إمرة

ولكي نرسم صورة أوضح لهذا الاحتفال نرصد موكب الشهابي أحمد ابن السلطان إينال العلاني عندما خرج على إمرة الحاج المصري عام ٨٦١هـ/١٤٥٦م حيث خرج من داره على الثُجُب وهذه كانت عادة أمراء الحج ، حيث خرج من الصليبية وشق الرميلة وبين يديه هجانة السلطان أمراء العرب بالأكوار الذهب والكتايش المغطاة بالأطلس الاصفر ، وركب معه جماعة من الأمراء ، وسار ابن السلطان في موكبه من تحت القلعة إلى جهة خليج الزعفران. خارج القاهرة وظل هناك حتى صلاة العشاء ثم عاد إلى الرميلة في زيه البهيج إلى الغاية ، صورة رسمها لنا أبو المحاسن لنرى مدى ما كان يمثل أمير ركب الحج من أهمية وخاصة إذا كان ابن السلطان.

ولعله من الممكن القول أن أمير الركب كان يتحمل كثيراً من الأعباء المالية التي كان يفرضها عليه السلطان عند خروجه بالمحمل ، أدركنا ذلك من شكاية الأمير عمر بن المنصور عثمان بأن حاله لا يتحمل نفقة السفر والمحمل لفقره ، فضلاً عن أمر السلطان للأمير محمد بن علاء الدين علي بن خاص بك بأن يتحمل نفقة المحمل كاملة ومن الجائز أن إمرة الركب كانت في بعض الأحيان تعتبر إلى حد ما عقاب من السلطان للأمير الركب.

خروج أولاد الناس لأداء الحج

حرص أولاد الناس على الخروج لأداء فريضة الحج ، وإن كانت هذه الفريضة واجبة الأداء على كل من توفرت فيه شروطها من كافة المسلمين ، إلا أننا نود سوق طرف من أخبار أولاد الناس وخروجهم إلى الحج ورغبتهم الملحة والأكيدة في أداء الفريضة ، وإن كان هذا ناتج عن شئ فإنها نتج عن كونهم بالفعل ولدوا مسلمين أحراراً من آبائهم المماليك وتربوا على حب الإسلام وفروضة وواجباته ، ولسنا هنا بصدد حصر أولاد الناس الذين خرجوا للحج مع ركب المحمل ولا من قبيل إجراء إحصائية عنهم ، ولا يمكن لنا إجراء مثل هذا الحصر والإحصائية لأننا لم نجد في طيات المصادر إلا ذكر من اشتهر من أولاد الناس وسطرت أخبارهم في المصادر ، ولعلنا نضرب بذكرهم مثالا على مراعاة أولاد الناس واهتمامهم بأداء الحج والخروج في ركب الحجيج ، وربما مجاورة بعضهم في بلاد الحجاز عدة سنين وذلك حرصاً منهم على التقرب لله سبحانه وتعالى والعبادة وطلب العلم ، ولم يكن هذا قصراً على الرجال من أولاد الناس دون النساء ، فقد شاركت الخوندات من بنات الأمراء المماليك في الحج والمجاورة وكان لهن تواجد ملحوظ في هذه الرحلات التي تشد الرجال فيها إلى الأماكن المقدسة في أرض الله المباركة بلاد الحجاز ، وهذا به دلالة واضحة على ارتباط أولاد الناس بحياة دينية تنبعث من صميم إسلامهم الحنيف.

ومن جملة الأمثلة على أولاد الناس من الرجال الذين حرصوا على حج بيت الله الحرام الأمير أحمد بن بكتمر الساقى والذي خرج في صحبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٣٣هـ/١٣٣٢م ، وقد توفي في أثناء عودته من الحج في شهر الله المحرم ومن أشهر أمراء العصر المملوكي الأ ول الذي طح الدنيا خلف ظهره وترك الإمرة والنيابة بعد أن وصل إلى أرقى المناصب في الدولة ، الأمير أحمد بن آل ملك الجوكندار ، حيث عاش زاهداً "وحج كثيراً وجاور" في مكة المكرمة ثم عاد إلى مصر وتوفي عام ٧٩٣هـ/١٣٩٠م.

وفي دولة المماليك الجراكسة كان خروج العديد من أولاد الناس في ركب الحج المصري ولعل أشهر من خرج منهم هو المقر الشهابي أحمد بن إينال في عام ٨٦١هـ/١٤٥٦م عندما قلد إمرة الحج وصحب

الحاج المصري مرات عديدة ومنها في عام ٧٩١هـ/١٣٨٨م ، وكان هذا الأمير يستطیع معاملة العربان في طريق الحج وسياستهم بالترهيب تارة والإحسان تارة أخرى ، حتى استطاع السيطرة على طريق الحج طوال فترات إمرته على ركب الحجيج.

وفي عام ٨٤٠هـ/١٤٣٦م كان ركب الحج المصري ثلاثة ركوب وظن الناس في البداية وعند المنادة على ركب الحج أن الحاج قليل ولكن اجتمع في بركة الجب (الحاج) خلائق كثيرة فجاء الركب على ثلاثة ركوب تأمر على الأول ناصر الدين محمد بن الأمير أركماس الدوادار ، وكان أمير الحج الامير غرس الدين خليل بن شاهين (المؤرخ) فقد خلعت عليه الوزارة مع إمرة الحج بعد خلعه من نيابة الإسكندرية ، وكل من أمير الحج وأمير الركب الأول من أولاد الناس.

وفي عام ٨٦٨هـ/١٤٦٣م أمر المقر الشهابي أحمد بن العيني على إمرة الحاج والأمير الشرفي يحيى بن يشبك الفقيه أمير الركب الأول ، وصحب هذا الركب جملة كثيرة من أكابر الأمراء والأعيان وفي عام ٨٩٧هـ/١٤٩١م تولى الأمير محمد بن الأمير ليمش والذي يقال له جُحُق إمرة الحاج وكان يوم خروجه "يوماً مشهوداً ، وخرج الأمير ناصر الدين محمد بن الأتابك أربك من ططخ على إمرة الركب الأول عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م وكان أمير الحاج الأمير قانصوه خمسمائة وفي عام ٨٩٩هـ/١٤٩٣م استقر الأمير ناصر الدين محمد بن علاء الدين علي بن خاص بك في إمرة الركب الأول في عهد الأشرف قايتباي ، وقلد كذلك إمرة الركب الأول عام ٩٠٤هـ/١٤٩٨م.

وتولى إمرة الركب الأول من أولاد الناس في عهد الأشرف قانصوه الغوري الأمير الركن عمر بن الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق في عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م على تضر منه لأنه كان فقيراً ولا يتحمل تبعات الركب والنفقة عليه ، غير أنه لم ينظر إلى حاله ونفذ أمر السلطان وخرج بالركب. وآخر من قلد ركب الحج الأول في الدولة المملوكية كان من أولاد الناس وهو الأمير المقر العلاء علي ابن الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال العلاني ويبدو أن الأشرف قانصوه الغوري أراد إشراك هؤلاء (الأسباد) في إمرة الحج للانفاق على ركب الحج من أموالهم فنراه يولي ابن المنصور عثمان وابن المؤيد أحمد بن إينال.

وكان يخرج مع ركب الحج جملة باشاات وهؤلاء هم الذين يسوقون المحمل وكان منهم أبو المحاسن يوسف بن تغري عام ٨٤٩هـ/١٤٤٥م باشا في ركب المحمل ، أما الأمير علي باي الأشرفي فكان باشا في الركب الأول وقد ساق الأمير يحيى بن يشبك المحمل عدة سنوات مع الباشاات ، وفي عام ٨٥١هـ/١٤٤٧م خرج الناصري محمد بن السلطان جقمق بل الميسرة في ركب الحج .

وبعد يوم الاحتفال بدوران المحمل من الأيام المشهورة في مصر وهو من أجل الاحتفالات التي ينتظرها الناس بالمجتمع من العام إلى العام ، وقبل دورانه بثلاثة أيام ينادي بتزيين شوارع القاهرة وأزقتها وحوانيتها حتى البيوت من الداخل والخارج. وعادة يكون دوران المحمل في السنة مرتين الأولى في النصف الثاني من شهر رجب على أن يدار المحمل يوم الإثنين أو الخميس فقط ، ودورانه الثاني في النصف الثاني من شهر شوال ويخرج بعدها إلى بركة الحاج ، فيركب القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب وناظر الكسوة ، ويركب معهم أعلام الفقهاء وأعيان الرؤساء وأرباب الدولة ويقصدون جميعاً باب القلعة.

بن المرة ناظر جدة وفي عام ٨٠٥هـ/١٤٠٢م حجت خوند أخت السلطان الملك الظاهر برقوق والددة الأمير الكبير بيبرس. وكان الحجاج أحياناً يخرجون للزيارة في شهر رجب وهؤلاء يطلق عليهم الحجاج الرجبية وركب الرجبية غير أن هذه الرحلة لم تكن منتظمة كل عام ، وربما انقطعت لسنوات وسنوات ، وذكر أن بعض أولاد الناس قد خرجوا مع حج الرجبية لدفع أذى عرب قبيلة بلى المفسدين في طريق الحجاز ، فتوجه الأمير علي بن إينال أمير شكار لهذا الغرض صحبة ركب الرجبية عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م.

وشارك أولاد الناس في أعمال معمارية للحرم الشريف فقد كلف السلطان الأشرف شعبان الأمير علاء الدين بن كلف بالتوجه إلى مكة المكرمة ، وعمارة مئذنة باب الحزوة ، فأقام هذا الأمير بمكة فترة طويلة بعد عودة الحجاج من الحج وبعد الانتهاء مما كلف به عاد إلى القاهرة. ونذرت خوند عائشة أخت الظاهر برقوق في محتته أثناء فتنة الناصري ومنطاش بتجهيز كسوة للحجرة النبوية الشريفة ، وبعد عودة السلطان وفي عام ٧٩٢هـ/١٣٨٩م خرجت في موكب الحج وحملت "كسوة جليلة للحجرة الشريفة وستارة زركش لباب الحجرة الشريفة" وكان أمير ركب الحج الأمير عبد الرحمن بن منكلي بفا.

وعلى الجانب الآخر ربما اشتكى الحجاج من سوء سيرة بعض أمراء الركب ، ففي عام ٧٩٢هـ/١٣٨٩م أصاب الحجاج كثير من المشقة نظراً لسوء سيرة الأمير عبد الرحمن بن منكلي بفا الشمسي فيهم وفساده وتطاوله على حجاج الركب ، وما أصاب الجمال من وباء في أثناء عودتهم.

أولاد الناس وطلب العلم الشرعي

لم يكن طلب العلم الشرعي جديداً على طبقة المماليك بشكل عام ولا على أولادهم ، بل كان طلبهم للعلم والقراءة والكتابة وخط القرآن ومدارسة الفقه ، يتدربون على ذلك منذ قدومهم إلى مصر وهم صغار السن ، فقد حرص السلاطين على رعاية مماليتهم وتعليمهم القراءة والكتابة وطرف من العلم الشرعي في الفقه والحديث والقرآن الكريم وشعائر الصلاة ، مع إجادة فنون الحرب والرمي والسهام ولعب الرمح وقد اصطلح على تسمية أول ما يبدأ به المملوك في تعليمه برسم الكتاتبة ، وإن جاز فالمقصود به تعليم المماليك ، وهذا راجع لأن أكثر مشروعات هذا العصر من المماليك كانوا صغار السن ولذلك أطلق عليهم المماليك الكتاتبة فكان المملوك يبدأ بحفظ أجزاء من القرآن الكريم ، وجعل لكل طائفة فقيه يحضر إليها كل يوم ويقوم بتعليمهم القرآن والخط وأداب الشريعة والصلوات والأذكار ، فإذا بلغ مبلغاً من العمر أخذ في تعليمه أنواع الحرب والرمي بالسهم ولعب الرمح ، وينتقل بعد تدريبه وتمينه وعثقه إلى الخدمة ، وينتقل بها رتبة بعد رتبة حتى يصبح من الأمراء ، وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه ، وربما جنح بعض المماليك إلى الدراسات الفقهية وغيرها من الدراسات العربية أو المدنية ، فيصبح منهم "فقيه عارف ، أو أديب شاعر ، أو حاسب ماهر".

برز العديد من أولاد الناس الذين سلكوا طريق العلم واتخذوه منهاج حياتهم ، وكرسوا له وقتهم ، وخاصة إذا توفرت لديهم عدة أسباب جعلتهم ينتهجوا هذا النهج منها أحوالهم الهادية المسيرة التي وفرت لهم سبل العيش وكفتهم مشقة ومؤونة البحث عن لقمة العيش ، وكذلك محبتهم للعلم ورغبتهم في الاستزادة من تحصيله ، وطلب العلم الشرعي يعتبر من أهم ما بدأ به طلاب العلم حيث تستقيم به

معه إخوانه ووالدته خوند زينب "وخرجوا في تجميل زائد" مع ركب الحج وأيضاً الأمير غرس الدين خليل بن الناصر فرج بن برقوق حيث كان محبوباً بغير الإسكندرية وأرسل في طلب الإذن من السلطان الظاهر جقمق لأداء فريضة الحج ، وخرج إلى الحج في صحبة محمل الحج في عام ٨٥٦هـ/١٤٥٢م وكذلك المنصور عثمان بن جقمق والذي استأذن من السلطان الأشرف قايتباي في الخروج للحج فأذن له السلطان واستقبله في القاهرة استقبلاً حسناً وخلع عليه وخرج في حج عام ٨٧٤هـ/١٤٦٩م ومن أولاد الناس أيضاً ركن الدين بيبرس بن العللاء علي بن محمد سبط الأمير بيبرس الكبير ابن أخت السلطان برقوق ، وكان خروجه بصحبة والدته عام ٨٨٦هـ/١٤٨١م وتكرر حجه مع والدته أيضاً عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م وجاور السنة التالية عليها عام ٩٩٩هـ/١٤٩٣م وكانت سيرته طيبة وأيضاً الأمير منصور بن السلطان الظاهر خشقدم الذي خرج صحبة ركب الحج عام ٨٨٩هـ/١٤٨٤م وكان مع زوج أمه الأمير برسباي العللائي.

هذا ومن مواكب الحج التي حازت اهتمام المؤرخين ركب الحج الذي خرج فيه ابن السلطان الأشرف قانصوه الغوري عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م الأمير الناصري محمد بن قانصوه وكان أمير ركب الحج الأول الأمير ركن الدين عمر بن المنصور عثمان ، ووصل من اهتمام السلطان بأمر الركب خروجه إلى بركة الحاج وإشرافه على نصب الوطاق. لأمراء الحج واختار لابنه وطاقاً بين وطاق كاتب السر محمود بن أجا ووطاق الأمير قططباي أمير الركب ، ووصف لنا ابن إياس يوم خروج المحمل فكان يوماً مشهوداً "لم يقع

مثله قط فيما تقدم من السنين الماضية" فقد خرج فيه أربعة أطلاب حافلة الأول طلب جاني بك قرا باش المجاورين ، ثم طلب الأمير علي بن المنصور عثمان أمير الركب الأول ، ثم طلب المقر الناصري محمد بن السلطان الأشرف وخرج أمامه طبلين وزمرين وصناجق سلطانية "وغير ذلك مما يحير الأبصار" أما محفة زوج السلطان فكانت غاية في الحسن قيل أن مصروف هذه المحفة فوق العشرين ألف دينار وبلغ طلب ابن السلطان ووالدته ألف جمل ما بين زاد وقرب ماء "وغير ذلك من اليرق الحافل" ، ثم جاء طلب الأمير قططباي أمير ركب المحمل وكان غاية في الحسن ، وهذه الصورة التي قدمها لنا ابن إياس تظهر مدى ما كان يصل إليه الحد في الترف الزائد إذا خرج أحد أفراد عائلة السلطان إلى بلاد الحجاز وكيف أن الأمراء والأعيان يتسابقون في الخروج ضمن ركب ابن السلطان أو السلطان لأداء الفريضة.

وعلى الجانب الآخر فقد خرجت الخوندات بنات الأمراء إلى بلاد الحجاز لأداء الفريضة ، عدد منهن السخاوي عدد لا بأس به فذكرهن على سبيل المثال لا الحصر ، فاطمة ابنة طيغا البدري فقد حجت هي وابنتها صحبة ابن خالتها كمال الدين بن البارزي ، وفاطمة ابنة قانباي العمري حجت مع ابنها وزوجها وتكررت حجاتها ومجاوراتها بمكة المكرمة ، وكذلك حجت خوند فاطمة ابنة الظاهر جقمق مع زوجها وحجت فاطمة ابنة إينال الأحمدى أكثر من مرة أخرى بعد وفاة زوجها الأمير يشبك من مهدي الدوادر الكبير ، وكذلك خوند آسية ابنة المؤيد شيخ الحمودي ، قد سافرت إلى الحج مع زوجها الأمير يشبك الفقيه ، وذهبت للحج بعد وفاته مرة أخرى وجاورت هناك ، أما خديجة ابنة الأمير بسيري فقد خرجت لأداء الفريضة مع زوجها سعد الدين إبراهيم

العادلي ، فسمع الحديث من ابن الشحنة وست الوزراء ، وقد حدث بمصر مراراً. أما أبناء كشتغدي بن عبد الله المعزي فقد برز منهم أكثر من واحد في علوم شرعية شتى ، منهم محمد بن كشتغدي والذي سمع العلوم الشرعية من عدة مشايخ وحدث بما سمع بيد أنه توفي مبكراً في عام ٧٢٩هـ/١٣٢٨م وأخوه أحمد بن كشتغدي تتلمذ على جملة من العلماء والفقهاء منهم أحمد بن عبد الله بن النحاس والمعين أحمد بن علي الدمشقي ، والنجيب التنيسي ، وأبي حامد الصايوني وغيرهم ، "وكان صحح السماع نجيب في تلقي العلم" وكان من أجناد الحلقة وجمع حوله عدد من طلبة العلم.

ومن أولاد الناس أيضاً ناصر الدين محمد بن أزبك البديري درس عدة علوم منها الفقه الحنفي والمغازي وكتب بخطه جزءاً كبيراً من المغازي ونسخ تفسير الفخر الرازي مرتين ، وكان من شيوخه محمد بن عبد المؤمن المنصوري ، وذكر ابن حجر وفاته فضلاً عن جعفر بن الكوك عام ٨٠٦هـ/١٤٠٣م. ولأزم ناصر الدين محمد بن طيغافا التنكزي مشايخ العلم مثل شهاب الدين بن الحباب ، وحفظ الحاوي وكان يقرأ البخاري ويقوم بشرح بعض الأحاديث عند قراءته ، وجمع بعض علوم الفقه والحديث والتفسير ، وكان زين الدين تغري برمش بن يوسف بن عبد الله التركماني من الحنفية ، مع محبته لأهل الحديث قرأ على الجلال القباني ، وكان شديد التعصب للحنفية وأهل السنة ، ويحط من قدر متصوفي الفلاسفة وخاصة ابن العربي وتقرب من المؤيد شيخ بعد سلطنته وجاور بمكة منذ عام ١١٧هـ/١٤١٤م حتى توفي عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م أما ناصر الدين محمد بن بكتمر القبباني الحنفي فقد حفظ القرآن الكريم وواظب على حضور دروس الشيخونية

وقد ذكر ابن إياس عدد من أولاد الناس وصفهم بقوله وله "اشتغال بالعلم على مذهب أبي حنيفة" أو قوله "وكان عالماً فاضلاً من أعيان أولاد الناس" أو قوله "من أعيان الحنفية" وأيضاً "واشتغل بالعلم على مذهب الحنفية" ومن هؤلاء الزيني خضر بن سنان النوروزي الجركسي كان رئيساً حشماً من أعيان أولاد الناس والشيخ نظام الدين محمد بن الحي بغا الحنفي التركي ، والشيخ شمس الدين محمد الكماجي بن حسين بن قطلو بك الحنفي ، والناصري محمد بن أيتمش وغيرهم.

وقد ذكر السخاوي جملة من أولاد الناس تلقوا العلم على يديه وعلى أيدي علماء آخرين ، وكانوا على قيد الحياة حين ترجم لهم ، منهم ناصر الدين محمد بن شاذي حجا المحمدي ، درس في علوم كثيرة فحفظ القرآن الكريم وطلب النحو والفقه عند شمس الدين بن خلف الحنفي ، وابن الديري والأقصرائي وغيرهم ، وصار من المولعين بالأدب وفنونه ، فمدح الأكابر وجالسهم مثل ابن البارزي وابن مزهر وأيضاً الزيني خضر بن شومان النوروزي الحنفي ، حفظ القرآن الكريم منذ صغره ، ودرس العربية وعلومها من صرف ونحو وأجاد في شروح الإرشاد في النحو ، وكذلك طلب الفقه الحنفي والزين مصطفى بن تقطمر والذي درس صحيح البخاري على النجم بن رزين بمدرسة الجاوي وعلى شيخ الألفية.

وذكر ابن حجر أحد أولاد الناس ، ولقبه بالحافظ وهو محمد بن علي بن أبيك السروجي أبو عبد الله ، عني بالرواية فسمع الكثير من محدثي الديار المصرية مثل الدبوسي وابن المصري ولأزم ابن سيد الناس وغيره حتى مهر وبلغ غاية كبرى في الحفاظ ، واشتهر بسرعة الكتابة والقراءة أديباً بارعاً ، قرأ الكتب الكبيرة مثل معجم الطبراني

حياتهم الإسلامية ويتعرفون من خلاله على أمور دينهم ، وقد أجاد كثير من أولاد الناس في علوم شرعية متعددة ، وأصبحوا على قدر كبير في معرفة علوم الفقه والحديث والتفسير وعلوم اللغة وغيرها ونرصد من خلال هذه الصفحات بعض هؤلاء الذين انتهجوا هذا الطريق وأجادوا فيه وأصبحت تراجمهم تسطر بالمصادر المملوكية.

ومن أولاد السلاطين الذين عنوا عناية خاصة بالعلم وأهله الأمير ناصر الدين محمد بن الظاهر جقمق ، دأب على محبة العلم وأهله مقرباً لهم راجياً صحبتهم عن غيرهم ، ودرس غالب العلوم في الفقه والفرائض والتفسير والحديث وعلم المنطق ودرس علوم اللغة العربية حتى صار من نوابغ الفضلاء وعندما تولى أبوه السلطنة راج أمره وأصبح كثير من العلماء والفقهاء من خاصة جلسائه "وزاد في طلبه للعلم حتى كانت غالب أوقاته مصروفة فيه" فكان مجلسه لا يخلو من أفاضل العلماء والفقهاء من مشايخ الإسلام مثل قاضي القضاة الشافعي شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني ، وقاضي قضاة الحنفية سعد الدين الديري وكان كل من العلامة شمس الدين الكافي الحنفي والعلامة قاسم الحنفي يلازمانه غالب الأوقات وغيرهم من الطلبة والأعيان وهكذا "كان له صيت عظيم وحرمة عظيمة يتردد إليه الناس" و"يجتمع عليه أهل المملكة وأهل العلم وأهل الصلاح وأهل الفضل ، وأهل الأدب ، فإنه جمع بين ما ذكرنا".

واعتبر الأمير شهاب الدين أحمد بن الأشرف برسباي من الأسياد الذين تلقوا العلم وطلبوه ، وخاصة أنه ولد بعد وفاة أبيه فقام زوج أمه الأمير قرقماش الأشرفي برعايته وتربيته ، وأحضر له من علمه القرآن الكريم وأقرأه العلم ، وكان يكتب الخط المنسوب ، غير أنه لم يكن يخرج من بيته متباعدة عن الناس وذلك لأمر سياسي. أما الأمير أمير حاج عمر بن المنصور عثمان بن الظاهر جقمق وهو أكبر أبناء أبيه ، فقد تلقى العلم منذ صغره وحفظ القرآن الكريم ، واهتم بحفظ النقابة والألفية وكان ملازماً للحفظ على عهد السخاوي حين ضم ترجمته إلى كتابه.

ومن الأمراء أولاد الناس الذين تقلدوا مناصب في الإدارة المملوكية ، ورغم متطلبات وظائفهم إلا أنهم حرصوا على تلقي العلم والاستفادة منه ، نذكر منهم عدة من الأمراء على سبيل المثال لا الحصر ، مثل الأمير ناصر الدين محمد بن طرنتاي الذي درس علوم الحديث والفقه وأجازه بعض علماء مصر مثل الدمياطي والأبرقوهي ، وقام بإلقاء دروس في الحديث وتوفي عام ٧٣١هـ/١٣٣٠م.

ومن أولاد الناس الشهابي أحمد بن الأمير ثاني بك والذي كرس حياته طالباً للعلم مستصحباً لأهله ، فقد كان من جملة شيوخه الزين عبد الغني الأشليمي ، وأحب علم الحديث وأخذ عن جملة من مشايخ عصره منهم السخاوي وقرأ عليه التقريب والتقريب وشرح النخبة ، ومن شيوخه أيضاً الشادي البخاري وفي الفقه الصلاح الطرابلسي ، وحج وجاور عامين وتردد فيهما على السخاوي في أثناء مجاورته بمكة وعلى الجملة فهو ممن اتخذ العلم طريقاً وسار في دربه ونهل من علوم ومعارف علماء وشيوخ ذلك العصر.

وعلى الصعيد الأشمل حيث بقية فئة أولاد الناس وجدنا العديد منهم قد نهجوا طريق العلم ، وبرعوا في علوم شتى من العلوم الشرعية والعلمية ، منهم خليل بن كيكلي العلائي الذي طلب علم الحديث فسمع صحيح مسلم علي شرف الدين الفزاري وصحيح البخاري علي ابن مشرف ، وطلب الفقه وعلوم اللغة العربية ، أما خليل ابن طرنتاي

العالم الفاضل ناصر الدين محمد بن خاص بك التركي الحنفي وهو جد الخاص بكية الموجودين على عهد ابن إياس وصف بأنه أحد الفضلاء المتميزين ، أكثر من الإشتغال بالفقه والحديث ، وكتب كثيرا وجمع ودرس ، حتى صار علامة في علوم الحنفية ، وتصدى للإفتاء والتدريس مدة ، وانتفع به الطلبة مع وجاهته عند الأكابر من الأمراء وغيرهم أثنى عليه المقريزي فقال : أحد أعيان الحنفية ومقدمي الماليك السلطانية ، ومن أساتذته الشيخ أكمل الدين الحنفي ، وكان قانعا بما يتحصل من إقطاعه زاهداً في الدنيا وقد توفي عام ١٤١٣هـ/١٠١٣م .

الإمام العالم زين الدين أبو العدل قاسم بن قطلوبغا السوداني ، نزيل الأشرفية وأحد صوفيتها ، واشتهر بقاسم الحنفي ، كان محباً لطلب العلم والإستزادة منه فأخذ القرآن الكريم على شمس الدين محمد بن أحمد الزرطاني إمام البروقية ، والتفسير على علاء الدين محمد بن محمد البخاري الحنفي ، وعلم الحديث عن تاج الدين أحمد بن محمد النعماني والحافظ ابن حجر العسقلاني ، والفقه عن سراج الدين عمر بن علي بن فارس المعروف بقارئ الهداية ، ومجد الدين إسماعيل الزمزمي المعروف بالمجد الرومي ، ونظام الدين يحيى بن يوسف السيرامي ، وعز الدين بن عبد السلام القبلي ودرس أصول الفقه على العلاء البخاري ، والسراج قارئ الهداية وشرف الدين السبكي وسعد الدين الديري ، وأخذ علم الفرائض والميقات عن ناصر الدين البارباري ، وكان من جملة أساتذته ابن الهمام وتقي الدين أحمد بن علي المقريزي المؤرخ ، وحسين بن علي المالكي البوصيري ، وناصر الدين محمد بن حسن المعروف بابن الفاقوسي وغيرهم ، ودرس طرفا من كتب الأدب والشعر وأجازه بعض أساتذته وهو في مقتبل العمر ، وأذن له مشايخه بالإفتاء والتدريس ، وقد أثنى عليه بعض علماء عصره فذكره ابن الديري بالشيخ العالم الذكي ، وابن حجر بالإمام العلامة والمحدث الفقيه الحافظ ، وكان قد قرأ على ابن حجر كتابه الإيثار بمعرفة رواة الآثار ، وذكره البقاعي وهو أحد تلامذته ، كان فريداً في علوم كثيرة في الفقه والأصول والحديث وغيرها أما الإمام السخاوي فقال عنه " هو إمام علامة قوي المشاركة في فنون ، ذاكر الكثير من الأدب ومتعلقاته " صحبه السخاوي وسمع منه وكتب عنه ، وكان من أمثل تلامذته وكانت بينهما مودة .

هذا وقد حصر محقق كتابه تاج التراجم مؤلفات الشيخ قاسم فبلغت نحو من مئة وثلاثة مصنف في كثير من العلوم ما بين المفقود والمخطوط والمطبوع ومن أشعاره التي رد فيها على المتطاولين على المذهب الحنفي رداً على من قال : ومن الفقهاء أولاد الناس الذين قلدوا مناصب قضائية وجلسوا للإفتاء والتدريس في مصر وغيرها من حواضر الدولة المملوكية المختلفة جملة كثيرة غير ما ذكرنا من فقهاءهم ، وإن كان هؤلاء قد قاموا بالتدريس في أكثر من مدرسة خلال العصر المملوكي ، فمنهم من يأتي .

علاء الدين علي بن بلبان الفارسي الحنفي من شيوخه الديمياطي ، ومحمد بن علي بن مساعد ، وبهاء الدين بن عساكر ، وتقفه على الفخر بن التركماني ، وكان مصاحباً لأرغون النائب ، إلى أن عظمت منزلته في دولة الظاهر بيبرس وقام بشرح الجامع للخلاطي ، ورتب صحيح بن حيان ، ومعجم الطبراني الكبير ، وقد كلفه بذلك القطب الحلبي ، وعين مرة للقضاء لها يتصف به من سكون وعلم مع شدة عفاف .

الكبير ، ومستخرج أبي نعيم ، وقال عنه الصلاح الصفدي في معجمه ما رأيت بعد ابن سيد الناس من يقرأ أسرع منه ولا أفصح ، وما سألته عن شيء من تراجم الناس ووفياتهم وأعمارهم وتصانيفهم إلا وجدته يعلمه ، وكان يستحضر من الشعر القديم والحديث جملة كثيرة وهو معدود من الحفاظ ولو عَمَّرَ لكان من أعجوبة الزمان .

هذا وامتد الأمر ليس فقط لأولاد الناس بل تجاوزهم إلى الأحفاد وأولاد الأحفاد الذين نهجوا سبيل العلم محبة ورغبة في طلب العلم الشرعي والتفقه في أمور الدين ، نذكر منهم ممن استطعنا إدراكهم في المصادر المملوكية ، ناصر الدين محمد بن أمير حاج بن أحمد بن آل ملك ، واشتهر باسم قُوزي ، وهو من بيت إمرة ورياسة ونشأ في بيت صلاح فجده أحمد بن آل ملك الذي ترك الإمرة وجاور بمكة وصار من الزاهدين ، تتلمذ ناصر الدين محمد على يد كبار العلماء فختم الصحيح على الصلاح الزرقاوي وابن الشحنة وحفظ القرآن الكريم وحدث وقد سمعه السخاوي وهو يحدث توفي عام ٨٥٥هـ/١٤٥١م وكانت جنازته حافلة .

ومن عائلة الشرف البكتيري كان كل من أحمد وعبد الرحمن أبناء محمد بن يونس بن محمد بن عمر بن الشرف البكتيري من طلاب العلم وجدهما لأمهما كان الزين قاسم بن قطلوبغا الحنفي ، وسمعا من أم هانئ جدة أبيهما ، وحضر عبد الرحمن على السخاوي دروسه في الصرغتمشية وذلك في حوالي عام ٨٩٠هـ/١٤٨٥م . ومن أحفاد الأمير أربك من طوطخ الشيخ الفاضل جمال الدين يوسف بن محي الدين بن الأمير أربك الجركسي الحنفي ، قرأ شرحي الشيخ خالد على الأجرومية ، والقواعد الالفيه على ابن طولون ، وكتبت له إجازة ، وأخذ الفقه على الشيخ قطب الدين بن سلطان ، ثم رحل إلى مصر حيث يدرك نصيبه في أوقاف جدة ، ومات بها ودفن بمقربة جدة صاحب الأربكية .

الفقهاء والحياة الدينية

عرضنا فيما سبق لأولاد الناس من طلبة العلم وراينا أنهم حرصوا على تلقي العلم وخاصة العلوم الإسلامية ، وهؤلاء خرج منهم كثير من الفقهاء والذين صنفهم أصحاب كتب التراجم بأنهم فقهاء وأئمة عصرهم وحفاظ زمانهم ، وبالباحث توصلنا إلى الكثير منهم الذين تركوا للمكتبة الإسلامية مصنفات إسلامية تعد اليوم أصولاً ومصادر أساسية أمام الباحثين ، وهي في نفس الوقت شاهدة على ما وصل إليه هؤلاء أولاد الناس من درجة عالية في التفقه في علوم الدين المتنوعة وصنوفه الكثيرة ، وأيضاً وجد العديد منهم من تقلدوا التدريس والإفتاء في المعاهد العلمية المختلفة في ذلك العصر والمثلة في مدارس العصر المملوكي بمصر وبلاد الشام .

وإتماماً للفائدة نسوق طرفاً من أخبار هؤلاء الفقهاء الذين أثروا الحياة الدينية في العصر المملوكي بكثير من المصنفات الإسلامية ، وشكلوا قيمة ثقافية عالية في تلك الحقبة الهامة من تاريخ مصر المملوكية .

الشيخ الإمام العالم شهاب الدين أحمد بن كُندُغدي الفقيه الحنفي ذكره ابن حجر " بأنه أحد الفضلاء المهرة من الحنفية اشتغل في عدة علوم وفاق فيها " والسخاوي بقوله " نزيل الحسينية كان عالماً فقيهاً ديناً ينزى بزي الجند " وممن تقفه على يديه ابن حجر العسقلاني أخذ عنه فوائده ، ومجد الدين بن مكائس المقامات حيث كان يجيد تقريرها توفي عام ٨٠٧هـ/١٤٠٤م .

الطلبة ، ولم يذكر السخاوي ، تاريخ وفاته مما يدل على أنه كان يعيش حتى ذلك العهد ، وقد قرر الأمير محمود بن العيني عضد الدين محمد بن أركماس الشبكي في خزن الكتب بمدرسة جده البدر العيني ، وكان عضد الدين ممن تفقه على ابن الديري والزين قاسم بن قطلوبغا ، وعلى الحافظ بن حجر وغيرهم ، وبرع في الفقه والحديث وعلوم الدين "وكان لطيف الذات كثير الأدب".

ولنختتم هذه النخبة من أولاد الناس الذين برزوا في أهم مجالات الحياة الدينية بالعصر المملوكي بالسيفي محمد سيف الدين بن عمر بن قطلوبغا بن الركن البكتيري الحنفي ، عالم فاضل من أسرة وصفت بالعلم وبتخريج جماعة كبيرة من العلماء ، -فوالده أم هانئ الهرونية- برع في علوم عدة في الفقه والأصول والعربية ، وذكره شيخه ابن همام بقوله محقق الديار المصرية ، حفظ القرآن الكريم وجوده والعمدة والشاطبيتين وألفية ابن مالك ، وأخذ الفقه عن التقي ابن عبد الباري وسمع من ابن حجر العسقلاني ، وناب عن أستاذه ابن همام في مشيخة الشيوخونية عند حجه ، وتولى مشيخة الجامع المؤيدي ، وراجع السخاوي في كثير من المسائل ، وأخذ عنه الجلال السيوطي وغيره ، وقد رثاه السيوطي بأبيات شعرية بدأها بقوله :

مات سيف الدين منفرداً وغدا في اللحد منغمداً
عالم الدنيا وصالحها لم تزل أحواله رَشداً
ناصر دين النبي إذا ما أتاه ملحد كهدا

ولم يقتصر دور أولاد الناس في الحياة الدينية على ما قدمناه فقط بل ظهر منهم من برع في قراءة وتلاوة القرآن الكريم بالقراءات السبع ، وممن اشتهر بالقراءات وأجاد التلاوة شمس الدين محمد بن صارم الدين قايماز الدمشقي ، تلا بالسبع على جملة من الشيوخ ، "وكان خيراً متواضعاً حسن السمات" توفي عام ٧٠٢هـ/١٣٠٢م وفي العصر المملوكي الثاني ذكر من أحفاد الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب الأمير أمير علي بن شهاب الدين بن بيبرس الحاجب قرأ بالسبع قراءات على والده شهاب الدين أحمد "وكان حسن الأداء طري النغمة" وقد لقبه ابن إياس بالمعزى ، أم الناس هو ووالده بخانقاة سعيد السعداء في قيام رمضان فترة من الزمان توفي عام ٨٠١هـ/١٣٩٨م وقد تقدم به السن واشتغل لشهاب أحمد بن نوكار بالتجويد وبرع وحظي عند الظاهر جقمق حتى أعطاه نظر جامعة وصحب في آخر حياته الجلال السيوطي وأخذ عنه كثير من الفنون.

ومن المعروف أن غالبية المماليك كانوا على المذهب الحنفي الأمراء والفقهاء والعلماء ، ودائماً ما كانوا يُنسبون في ترجماتهم إلى مذهبهم الحنفي ولكن برز منهم عدد من أولاد الناس تفقهوا على المذاهب السنية الأخرى ، ونخص منهم العلماء والفقهاء ، وبالرغم من قلة عدد هؤلاء الذين تركوا المذهب الحنفي إلى غيره ، إلا أننا أترنا تتبع سير بعضهم لإدراك مدى ما وصل إليه أولاد الناس من الإطلاع على كافة المذاهب السنية التي كانت تدرس في أروقة المعاهد العلمية المملوكية وأهمها الأزهر الشريف والمدارس الأخرى ، وأنهم لم يقيموا بمذهب آبائهم ويغلقوا فهمهم عليه بل أثروا التعرف على المذاهب الأخرى فتحول العديد منهم إلى الشافعي والحنبلي والمالكي.

فمن الأمراء أولاد الناس شهاب الدين أحمد بن بيلك المحسني والي دمياط وكان أديباً شافعياً "ونظّم التنبيه على روي الشاطبية فجاء قصيدة بديعة" وكان يعرض ما ينظمه أول بأول على الشيخ تقي الدين السبكي صاحب طبقات الشافعية إلى أن كمل النظم وكان الأمير ناصر

الفقيه الفاضل برهان الدين إبراهيم بن لاجين بن عبد الله الرشدي برع في القراءات وتلمذ فيها على يد الشيخ تقي الدين بن الصائغ وأخذ الفقه عن علم الدين العراقي والأصول على تاج الدين البارنباري ، وكان حفظ الكثير من الكتب مثل الحاوي والجزولية وعرف طرفاً من الطب والحساب وصنف الخطب وله نظم غير مشهور ، وكان مشهوراً بالصالح والتواضع ، واستمر خطيب جامع أمير حسين بحكر جوهر النوبي خارج القاهرة ، عرض عليه عام ٧٤٥هـ/١٣٤٤م قضاء المدينة المنورة والخطبة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فامتنع ولم يوافق بعدما اجتمع مع السلطان وولاه ، وظل بالقاهرة إلى أن توفي بها في عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م.

ومن الفقهاء الذين قاموا بتولي التدريس الشيخ عمر بن بلبان بن عبد الله الجوزي والذي اشتهر بحسن الخلق والخلق فقيهاً فاضلاً وأديب المعنى له نظم ومعرفة بالعربية ، تنازل له المزني عن مشيخة المعزية وأيضاً الشيخ الحافظ الفقيه صلاح الدين خليل بن كيكليدي بن عبد الله العلائي الدمشقي تلقى العلم وبرع في الفقه والحديث وقرأ بنفسه وصار له يد طول في فن الحديث وذكره جمال الدين بن الأسنوي في طبقاته وقال عنه كان حافظ عصره إماماً في الفقه والأصول ، عاش في القدس وجلس للفتيا والتدريس تولى دروس الصلاحية وظل بها فترة ، وله مصنفات منها كتاب النظائر الفقهية توفي عام ٧٦١هـ/١٣٥٦م أما الحافظ علاء الدين بن مغلطي بن قليج بن عبد الله البكجري ، إمام وفقيه وحافظ عصره والذي تلقى العلوم الشرعية عن ابن عمر الكردي والعراقي وتولى مشيخة الحديث بالمظفرية ، والبيبرسية ومدرسة أبي خليفة والصرغتمشية والناصرية ، وميعاد آسنقر الناصري ، وصنف الكثير من التصانيف منها شرح البخاري في نحو من عشرين مجلد وإكمال تهذيب الكمال في ثلاثة عشر مجلداً ، وكتب في المؤلف والمختلّف وشرح بعض من سنن ابن ماجه ، وكتب في السيرة النبوية مؤلفه الذي أسماه "الزهر الباسم في سيرة نبينا أبي القاسم" وتوفي عام ٧٦٢هـ/١٣٦٠م.

وشهد العصر المملوكي الثاني العديد من أولاد الناس الذين تقلدوا مناصب في مدارس القاهرة منهم مصطفى بن زكريا بن أيدهميش القرمانى ، شارك في الفقه والفنون ، درس الفقه الحنفي بالصرغتمشية ، وقرره سودون من زاده في مدرسته ، واستقر بعدها في مشيخة مدفن الأمير قبا السلحدار وتوفي عام ٨٠٩هـ/١٤٠٦م وقام زين الدين أمير حاج بن طنبا بالتدريس في الجمالية وأصبح إمامها "والمتصدر بها" ، وكان من شيوخه الإمام ابن حجر العسقلاني قرأ عليه البخاري ، وأخذ عن الشمسي بن عمران السبع قراءات إلى آخر سورة (ق) وكان موصوفاً بالصالح والبر توفي عام ٨٣٤هـ/١٤٣٠هـ.

هذا وقد قرر السلطان الأشرف برسباي الشيخ على بن طيغابا بن حاجي بك الترمكاني الحنفي مدرساً وخطيباً بمدفنة الذي أنشأه بالصحرَاء وقد توفي عام ٨٣٨هـ/١٤٣٤م أما نظام الدين محمد بن الجيغاف المشهور بالنظام فقد أخذ العلم عن العديد من فقهاء القاهرة ولازم حسن القدسي شيخ الشيوخونية إلى أن أجازه شيوخه ومنهم تقي الدين المقرئزي ، وناصر الدين الفاقوسي وتصدر للإقراء وحدث بالصحيحين ، واستقر في تدريس الفقه بالجامع الطولوني وأيضاً بالحسنية ، وبعد ذلك رفض تولي التدريس لأن تنبك قرا الدوادار الثاني أعطي مشيخة الجانكية بعد الأمين الأقصري لمن هو من أصاغر طلبته وقنع برزقه من إقطاعه ، ولم ينقطع عن يتردد عليه من

العامه ، نحاول إلقاء الضوء على مشاركتهم في إذكاء الحركة العلمية في مصر خلال العصر المملوكي.

ففي علوم العربية والأدب برز من أولاد الناس من الذين صنفوا وكتبوا الشعر والنثر ، وإن كان يؤخذ على الأدب والشعر بعض الضعف الذي اعتراه نتيجة للاختلاط بالأعاجم من ترك ومغول وأرمن وغيرهم ، ودخول كثير من الألفاظ العامية في التصنيف والكتابة ، وأصبح بجانب الفصحى بعض التراكيب الغريبة على أذن المستمع العربي.

ومن هؤلاء العلماء الإمام صلاح الدين خليل بن الأمير عز الدين أبيك بن عبد الله الألبكي المعروف بالشيخ صلاح الدين الصفدي ، وكان "إماماً بارعاً كاتباً ناثراً شاعراً" برع وساد في الرسائل والنظم والنثر "وكتب الخط المنسوب" أي الفائق الجودة ، ولي عدة وظائف في الإدارة المملوكية منها كتابته بيت المال بدمشق وكتابه الإنشاء بها وبالديار المصرية ، ثم كتابه السر بحلب وبأشرف وجيلة ، وكان بينه وبين علماء عصره مكاتبات ومراسلات مثل الحافظ أبي الفتح ابن سيد الناس ، وجمال الدين بن نباته المصري ، والشيخ زين الدين عمر بن الوردي وغيرهم ومن مصنفاته التي ذكرها أبو المحاسن كتاب جنان الجنس ، وفرض الختام عن التورية ، والاستخدام والمهارة والمجازة في مجلدين ، نصرة الثائر على المثل السائر ، وخلوة المحاضرة في جلوة المذاكرة ، وجر الذيل في أوصاف الخيل ، وكتاب نكت الهميان في نكت العميان ، وأهم ما كتب كتاب الوافي بالوفيات ، وكتاب أعيان العصر في أعوان النصر ، وقد عدد أبو المحاسن من تصانيفه ما يقرب من اثنين وثلاثين مصنفاً ، وقال "إن له تصانيف غير ذلك".

ومن نظمه في زيادة النيل:

زادت أصابع نيلنا وطمت فأكدت الأعادي
وأنت بكل جميلة ما ذي أصابع ذي أيادي

وكان مولده بمصر المحروسة عام ٦٨٦هـ/١٢٨٧م في رفاق القناديل. وكانت وفاته بدمشق عام ٧٦٤هـ/١٣٦٢م ودفن بالصوفية. ومن علماء العربية الذين صنفوا في العربية الإمام العالم العلامة زين الدين عمر بن الأمير سيف الدين قُذَيْد القلمطاوي ، كان إمام عصره في النحو والعربية والتصريف ، وله مشاركات في فنون أخرى كثيرة ، وكان حريصاً على ارتداء زي الأجناد ولا يتعاطم في أحواله ، وقد توفي بمكة المكرمة في مجاورته للبيت العظيم عام ٨٥٦هـ/١٤٥٢م "ولم يخلف بعده مثله في علم العربية والتصريف" واشتهر في علوم العربية ناصر الدين محمد بن قرقماش الأقمري من أعيان الحنفية ، أخذ عن كثير من شيوخ عصره منهم العز عبد السلام البغدادي ، وصنف في الأدب ونظم الشعر فمن مصنفاته كتاب "زهر الربيع في شواهد البديع" وله "الجمان على القرآن" ، وكتب بخطه كتب كثيرة ، وكان ملازماً للكتابة ، وأكثر رزقه منها ، وكان يكتب بالليل على ضوء القمر وقد نظم شعراً في الإمام شهاب الدين ابن حجر عندما تولى قضاء الشافعية قال فيه:

إن كنت خنتك في الهوى فجحدت من قاضي القضاة نواله المبذولا
وجعلت في علم الحديث نظيره من يجهل المعقول والمنقول

وله في ابن حجر أيضاً:

يا حبذا النيل المبارك جارياً بمصر كجري الفضل من علمائها
والاكجود العسقلاني من غدا شهابا لذي العليا بأفق سمائها

الدين محمد بن أرغون المارداني عالماً بارعاً في العلوم على المذهب الشافعي.

ومن أولاد الناس شافعية المذهب أيضاً أبو سعيد صلاح الدين بن كيكلي الشافعي كان فقيهاً شافعيًا حافظاً ذكره المقرئ بقوله "إنه لم يخلف بعده في الحديث مثله" ومن مصنفاته في فقه الشافعي "المجموع المذهب في قواعد المذهب" وكذلك صنف كتاب "الأربعين في أعمال المتقين" وكان برهان الدين إبراهيم بن لاجين من أعيان الفقهاء الشافعية وتوفي عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م.

ومن تحول من الحنفية إلى الشافعية جمال الدين ابن الشيخ الفقيه علي بن بلبان الفارسي تفقه على مذهب والده الحنفي ثم تحول شافعيًا وقد تألم والده كثيراً لذلك ، واعتبر والده من أعيان الحنفية في زمنه وأيضاً الشهاب أحمد بن تاني بك وقد تتلمذ على عدد كبير من الحفاظ في زمانه ذكر ذلك بنفسه للسخاوي. ونرى أيضاً بعض أحفاد أحفاد أولاد الناس تفقهوا على المذهب الشافعي منهم زين الدين عبد اللطيف بن أبي بكر بن عبد القادر بن أبي بكر بن إبراهيم بن منجك نائب الشام "كان شافعي المذهب حسن الاعتقاد".

ومن المذاهب السنية الأخرى التي تفقه عليها أولاد الناس المذهب الحنبلي ، فقد كان الأمير محمد بن جنكلي بن محمد بن البابا حنفياً ثم تحول حنبلياً ، وحدث واشتغل في عدة فنون وكتب بخطه أبيات من نظمه منها:

بك استجار الحنبلي محمد بن جنكلي
فاغفر ذنوبه فأنت ذو الفضل

فقد كان له ذوق وفهم جيد في الأدب والشعر ، وكان كثير البر والإيثار لأهل العلم.

وقد وجدنا أسرة من أسر أولاد الناس قد جمعت بين جنباتها عدداً من المذاهب السنية ، وهي أسرة حسام الدين محمد بن ركن الدين عمر بن قطلوبغا البكتيري ، فكان حسام الدين محمد حنفي المذهب وزوجه أم هانئ الهورنية سبطه القاضي الشافعي فخر الدين محمد بن محمد القاياتي شافعية المذهب وأخذت عن جدها وأبيها ، وقد انجبت للحسام محمد بن عمر بن قطلوبغا أولاداً هم شجاع الدين محمد الشافعي وشرف الدين يونس مالكي ، ومنصور حنبلي ، وبرز منهم الشيخ محمد بن محمد بن عمر بن قطلوبغا الحنفي وكان من علماء عصره ومن أعيان فقهاء الحنفية وذكرنا طرفاً من سيرته في فقهاء أولاد الناس.

العلماء والحياة الثقافية

ازدهرت الحركة العلمية في مصر خلال عصر سلاطين المماليك ، وأصبحت البلاد بؤرة النشاط العلمي يقد إليها من كافة أنحاء البلاد الإسلامية ، ويرجع السبب في ذلك إلى ما أصاب بغداد على أيدي المغول ، وما حدث للهدن الإسلامية في الأندلس من تخريب وتشريد لأهلها ، وأيضاً ما عاناه أهل الشام من تعدد المغول والصليبيين وعدم استقرار بلادهم ، فلم يجد علماء الشرق والغرب إلا مصر بلداً آمناً مستقراً ، وأصبحت داراً لإحياء الخلافة العباسية ، فوفدوا عليها جماعات وأرسالاً ، وقد حرص سلاطين مصر على رعاية العلماء وتشجيعهم فكان لذلك أبلغ الأثر في ازدهار الحياة العلمية في مصر.

وقد شارك أولاد الناس في بعض هذه المعارف والفنون فكان منهم علماء للعربية والأدب والشعر والتاريخ وغيرها من علوم المعارف

إلى آخر القصيدة التي ذكرها ابن إياس كاملة ودلّل فيها ناصر الدين محمد بن قانصوه من صادق على الأصل العربي المزعوم للجراكسة.

ومن الشعراء أولاد الناس من اتصف شعرهم بالمجون والخلاعة منهم أبو بكر بن عبد الله بن قطلوبك شاعر ومنجم، وكان بارعاً في نظم الشعر الماجن، وله مطارحات مع أدباء عصره، وقد اشتهر بخفة الروح والنوادر المطربة، ومن نظمه:

**حنفي مدرس حاز خذاً كرياض الشقيق في التنميق
لوراه النعمان في مجلس درس لقال النعمان هذا شقيق**

وبعد شهاب الدين أحمد بن قرطاي المعروف بابن بكتمر من الذين عنوا بالشعر والشعراء وكان يقتني الكتب النفيسة بالخطوط المنسوبة الفاتكة الجودة ذات الجلود وصفه أبو المحاسن بقوله "كان فاضلاً أديباً شاعراً لطيفاً ذا محاضرة حسنة" وساق صاحب المنهل العديد من أشعاره، ومنها فيمن اسمه إبراهيم.

**إن إبراهيم أروى في الحشا منه ضراما
ليت قلبي يلقاه نال برداً وسلاماً**

ومن شعراء العصر المملوكي الثاني علاء الدين علي بن خليل بن حسن بن خاص بك، كان من أعيان أحفاد أولاد الناس، اشتهر بنظمه الشعر وطلب العلم، وكان على بن بيبرس من أولاد الناس الذين يهتمون كثيراً باستحضار أشعار المتقدمين والمتأخرين وكذلك مدارس التواريخ والموانع وكان له فصاحة في التمثيل بالشعر والاستحضار بالبيت النادر.

وكان أيضاً من أولاد الناس من له شغف بجمع القصائد والمدائح النبوية على صاحبها الصلاة والسلام، فقد كان عند الأمير علاء الدين علي ابن أمير حاجب والي مصر (الفسطاط) خمسة وسبعون مجلداً كلها مدائح نبوية وجدت في تركته عندما توفي عام ٧٣٩هـ/١٣٣٨م.

وكان بعض أولاد الناس يجيدون النسخ والكتابة منهم بدر الدين محمد بن بكتوت القرندي الذي اشتهر بالنسخ والكتابة، وكتب على ابن خطيب بعلبك ونسخ من المصاحف، وكتب كثير من تصانيف العلم المختلفة، وكان من إتقانه لصنعة يضع المحبرة في يده الشمال والمجلد على يده ويكتب وهو يغني وكان شرف الدين غازي ابن قطلوبغا التركي كاتباً مجوداً جوّد الخط على شمس الدين ابن رقيبه المحتسب ثم نبغ وخالف شيخه في طريقته وابتدع لنفسه طريقة أخرى، وكان يجلس بالمدسة الظاهرية ببيبرس ليكتب للناس احتساباً واعتبر كذلك ناصر الدين محمد بن أزيك البدري الخازنداري ممن كتب الخط وجود فيه وأصبح من مشاهير النساخ، وقد نسخ تفسير الفخر الرازي مرتين.

على أن أبرز العلوم في عصر سلاطين المماليك كان بحق علم التاريخ حيث ظهر من بين علمائه عدد لا بأس به من أولاد الناس تركوا لنا تراثاً ضخماً نهل من فيضه إلى وقتنا الحاضر بل أن جزءاً كبيراً من المادة العلمية لهذه الدراسة هي من بين ثنائيا ما كتب أولاد الناس مؤرخو عصر دولة سلاطين المماليك.

وأهم ما ميز المدرسة التاريخية في مصر والتي بدأت تتبلور في نهايات القرن الثامن لتصبح في أوج ازدهارها طوال القرن التاسع الهجري هو المؤرخون الذين اهتموا بكتابة التاريخ والتصنيف فيه هؤلاء ولدوا وعاشوا وتربوا في خيرها، وإن كان منهم من ليس من أصل مصري مثل أولاد الناس من المؤرخين إلا أنهم أصبحوا مصريين

وله كثير من النظم الرقيق العذب كقوله:

**إذا منّ من تهوى عليك بنظرة أمارت الجوى من نار قلبك والبلوى
فكن شارباً صبراً لمر صدوده فما ذاق من الوصل من هم بالسوى**

وكان يتزيا بزي الجند من أولاد الناس ذي شكل نضر بهيج وسكينة ووفاً، مجباً للفقراء، واعتقاد حسن بل كان الناس يتردون عليه للزيارة توفي عام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م.

ومن الشعراء أولاد الناس الذين ذاع صيتهم العلاء علي بن سودون اليشبغاوي الحنفي درس كثير من العلوم بعد حفظه للقرآن الكريم بالشيخونية فأخذ الفقه عن سعد الدين بن الديري، وعلم الميقات من ابن المهدي والعروض على الجلال الحصني، ثم شارك مشاركة جيدة في فنون كثيرة، وأمّ ببعض المساجد، وصنف في الأدب وبرع فيه ونظم الكثير ومن نظمه في فتح خوخة الجسر في فيضان النيل:

**ذلك البشارة باب الجسر قد فتحا وطائر البشر في أغصانه صدحا
وجاءنا فرج من بعد آيسية وعن جرائنا سلطاننا صفحا**

وعرف أيضاً خير الدين محمد بن قرابغا العلائي بقرض الشعر، وامتهان الأدب ووصف بالإمام العلامة العالم الأديب البارع وورد من نظمه:

**يا غزالا ليس لي عنه اضطراباً لا ولم يسلم فؤادي عنه غادة
بحر صبري مذ تنافرت ووجدني ذا وهذا في احتراق وزيادة**

وكان ناصر الدين محمد بن قانصوه من صادق من الشعراء المهجدين، وقد وصفه ابن إياس في أكثر من موضع بكتابه بالأديب البارع واستشهد بكثير من أشعاره في وصف وقائع معينة كتب فيها ناصر الدين محمد بعض النظم الذي يصف أحوال الواقعة، فكان منها في وصف المصادرات التي قام السلطان الغوري بها ضد أولاد الناس وإخراج إقطاعاتهم منهم فقال:

**أيا بني الأتراك أزاكم ما قطعت إلا لأمر عجيب
لا تضجروا من قطعها واصبروا ستكشف القمّة عنكم قريب
لا تضجروا ترجع فادعوا بنا في السر والجهر السميع المحجب
واحسبوا من رموا سهام الدعاء فكل سهم حيث يُرقي مصيب**

وله في نهر النيل السعيد:

**اضمُرْ على النيل فانظر ما تُسرُّ به إذا ضَمَرْتَ فما في الفال إشكال
لنالك الماء رملٌ والنسيم به مُبدي ضميرك والتجعيد أشكال**

وله أيضاً في النيل عندما فتح السد ليلاً، وأصبح الناس يلرللمياه في الخليجان والبرك وفُوت على الناس فرحتهم بكسر الخليج وفتح السد.

**منذ للسلطان قالوا للورى بالكسر جبر
كسر السد لبلى فعدا للناس كسر**

وله قصيدة كاملة يشرح فيها نسب الجراكسة وأن أصلهم من العرب المهاجرة من نسل جيلة بن الأيهم، وسموا بذلك نسبة لجركساء جيلة بن الأيهم، جاء في أولها:

**حبذا من زانه أدب جركسي قانصوه أبي
جركسي نسل الملوك وما أيهم المذكور جدّهم
وله من جركس نسب نسل سلطان كسا نسب
عزهم في مصر مكتسب من إلى غسان ينتسب
وبصدقي تشهد الكتب هذه بالحق نسبتهن**

البلاط من الامراء المماليك ، واتصاله بالمصاهرة مع أهم علماء عصره ، هذه الحياة التي ساعدته على إطلاق العنان لشغفه بالبحث والدراسة والانقطاع للكتابة التاريخية ، وتعرف الشؤون والنظم الإدارية ، والوقوف على أسرار الدولة والبلاط في عصره وذلك لإجادته اللغة التركية لغة قومه ، فاستطاع أن ينفذ إلى دوائر الدولة السياسية ، وأن يتفهم نفسية وعقلية البلاط المملوكي ، وأن يتعرف على أحوال طوائف المماليك ، ولم لا وهو واحد من أولادهم .

وعلاقة ابن تغري بردي بسلاطين الدولة في هذه الحقبة واتصاله بهم ومعيشته في بلاطهم ، حتى عد في بعض الأوقات من ندمائهم أتاحت له الإطلاع على كثير من الأمور ومعاشية أحداثها وتسجيلها في مصنفاته بمنتهى الدقة ، وبصبح حديثه عنها وثيقة تاريخية في تحليل أحداث تلك الفترة من تاريخ مصر الإسلامية .

وقد قرأ أبو المحاسن ابن تغري بردي الشعر ولكنه لم يوجد فيه فجاء شعره ضعيفاً نسبياً ، ومن نظمه في سلاطين الدولة المملوكية .

إيبك قطز يعقبو بيبس ذو الإكمال بعدو قلاوون بعدو كتبغا الفضال
لاجين بيبس برفوق شيخ ذو الأفضال ططر برساي جقمق ذو العلا إينال
توفي جمال الدين أبو المحاسن يوسف في عام ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م بسبب مرض ألم به وقاس فيه آلام شديدة ، ودفن بمقبرته التي بناها بالقرب من مدفن الأشرف إينال . هذا وقد أشرنا من قبل للناصر محمد بن أحمد المعروف بابن إياس باعتباره من الذين قرضوا الشعر في الدولة المملوكية ، بيد أن ابن إياس في الأصل من أهم مؤرخي مصر المملوكية الإسلامية بل لقب باسم مؤرخ الفتح العثماني .

نشأ ابن إياس في مدينة القاهرة ومال لدرس التاريخ والجغرافية وكتب وصنف فيهما فمن مؤلفاته "نشق الأزهار في عجائب الأقطار" ، أما أهم ما صنف ابن إياس كتاب "بدائع الزهور في وقائع الدهور" ، والذي أُنح فيه لتاريخ مصر واهتم اهتماماً كبيراً بالفترة الأخيرة من تاريخ الدولة المملوكية منذ عهد الأشرف قايتباي حتى عهد الأشرف طومان باي آخر سلاطين الدولة ، وذلك لأنه يعتبر شاهد عيان رئيسي عايش هذه الأحداث التي رصدها يوماً بيوم وخاصة علاقة بني عثمان بسلاطين مصر وتطور العداء بينهم حتى غزوهم للشرق الإسلامي وانتصارهم في مرج دابق ، ثم زحفهم إلى القاهرة ، ومقاومة الأشرف طومان باي لهم إلى أن ظفروا به وشنقوه على باب زويلة ، هذه الأحداث أرخ لها ابن إياس بدقة تامة واعتبر تاريخه وثيقة أساسية يعتمد عليها باحثو تلك الفترة .

ومن أولاد الناس الذين اعتنوا بدراسة علم التاريخ والمطالعة فيه محمد بن بردك الأشرفي سبط الأشرف إينال كان "ممن اعتنى بمطالعة التاريخ" وأيضاً أحمد بن حسين التركماني الحنفي المعروف بالمرجعي أحد تلامذة أبو المحاسن يوسف وممن نسخ له كتبه وخاصة كتاب النجوم الزاهرة ، وأيضاً البدري حسن بن الطولوني "معلم المعلمين كان ريساً حشماً من أعيان أولاد الناس" أحب مطالعة التاريخ وكتب تاريخاً في ضبط الوقائع وكان على دراية بكثير من العلوم والفنون . ومن الجدير بالإشارة أن كتاب زيتير شتين الذي أطلق عليه "سلاطين المماليك" نسبه بعض المحدثين لمؤلفه إبراهيم بن مغلطاي وهو أحد أولاد الناس المعاصرين للسلاطين الناصر محمد بن قلاوون .

بالمولد والتربية والنشأة ، ولا يمكن أن نميز بينهم وبين المصريين الأصل ، فقد أخذ هؤلاء المؤرخون من أولاد الناس العلم والتاريخ عن أساتذة لهم على رأسهم تقي الدين المقريزي والبدري العيني ، والحافظ ابن حجر العسقلاني ، بل كان منهم من هو ملازم لهؤلاء ، وإن كان تقي الدين المقريزي قد اعتبر أستاذ المدرسة التاريخية الجليلية التي نشأت في مصر ، فإن بعض أولاد الناس قد قاموا بتدوين التاريخ قبل عهد المقريزي ، وأتت مصنفاتهم على قدر جيد من الكتابة والعرض لأحداث الفترات التي عاشوا فيها .

ومن أولاد الناس الذين صنفوا في علم التاريخ أبو بكر عبد الله بن الأمير عز الدين أيبك الخطائي الدوادار فقد صنف ابن أيبك كتابه كنز الدرر وجامع الغرر أو المسمى الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية ، وهو من تسعة أجزاء ويشمل تاريخ الدولة المملوكية . وصارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيمن بن دقماق ، وكان جده لاييه أحد أمراء الناصر محمد بن قلاوون وتنقل في وظائف الدولة المملوكية إلى أن ولي نقابة الجيوش المنصورة ونشأ صارم الدين في فئة أولاد الناس وترباً بزي الجند وتفقّه كغالب أولاد المماليك على المذهب الحنفي ، وأحب الأدب واشتغل به ، ثم حجب إليه التاريخ فانكب عليه حتى كتب نحواً من مئتي سفر من تأليفه ، وقد وصفه ابن حجر العسقلاني بمؤرخ الديار المصرية في وقته وكان ابن حجر قد اجتمع به كثيراً ونقل عنه . وقد نقل عن ابن دقماق من مؤرخي مصر مثل ابن الفرات والمقريزي وابن حجر وبرد الدين العيني والإمام السيوطي وغيرهم .

وبالرغم من أن غرس الدين خليل بن شاهين الصفوي كان من رجال الدولة وتقلد الكثير من الوظائف الديوانية السلطانية وتنقل فيها إلا أنه قد شارك مشاركة فاعلة في الحركة العلمية بمصر المملوكية ، واعتبر أحد أولاد الناس الذين اهتموا بالعلم ودراسته والتفقّه الصحيح على أعلام عصره من العلماء ، وقد أجازه الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني للفتيا والتدريس وكانت بينهما علاقة طيبة ومراسلات كثيرة عندما يكون الفرسي خليل متقلداً للوظائف في خارج مصر ثم بدأ في التأليف والتصنيف والنظم ، ومن مصنفاته التاريخية زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك وله أكثر من ثلاثين مؤلف — كما ذكر ذلك ابنه للسخاوي — في التفسير والتعبير والإنشاء وغيرها ، وذكر له الموهاب في اختلاف المذاهب في الفقه ، والمنيف في الإنشاء الشريف ، والكوكب المنير في أصول التعبير ، والإشارات في علم العبارات ويعتبر كتابه زبدة كشف الممالك من أهم كتاباته ، توفي الفرسي خليل عام ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م .

ومن أعلام علماء علم التاريخ في القرن التاسع أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي البشغاوي ، والذي وقف حياته على التنقيب في مصر الإسلامية حتى أطلق عليه المؤرخون المحدثون اسم مؤرخ مصر ومؤرخ النيل وهو التلميذ النجيب لتقي الدين المقريزي ، ومن أعظم من سار على دربه وأصبح من أساتذة المدرسة المقريزية المشهورين .

وقد تتلمذ أبو المحاسن على أهم علماء عصره مثل الجلال البلقيني الذي رُي في حجره ، والحافظ بن حجر العسقلاني ، وشهاب الدين ابن عرب شاه وبرد الدين العيني ، وقد صادق تقي الدين المقريزي ولازمه ، واقتبس من مناهجه وأساليبه في البحث والرواية وزاد عليه التعليق برأيه الخاص على ما لا يروق له من أحوال السلاطين المماليك وكانت حياة أبي المحاسن تدور في فلك علاقاته مع رجالات الدولة وكبار رجال

وكان الصارم إبراهيم تزييا بزى الجند كهادة أولاد الناس ، وكان يحب مجالسة أهل الفضائل ويحب الآداب ويكتب الخط المنسوب المتقن ، توفي في عام ٨٣٣هـ/١٤٢٩م .

وتولى منصب نظر الأوقاف بالديار المصرية شهاب الدين أحمد بن أرغون شاه الذي قلد المنصب في عام ٨٣٣هـ/١٤٢٩ في عهد الأشرف برسباي وتولى أحمد بن مغلطي بن عبد الله الشمسي شد الأوقاف وتوفي عام ٧٦٤هـ/١٣٦٢م . أما وظيفة قاضي العسكر فلم نعتز إلا على واحد فقط من أولاد الناس الذين قلدوا هذا المنصب وهو صارم الدين إبراهيم بن حاجي ابن شيخ مدفن السلطان برقوق ، وكان حنفي المذهب . وقد تقلد بعض أولاد الناس وظائف أخرى ارتبطت بالمساجد وبالحياة الدينية منها ولاية الأمير جمال الدين عبد الله بن بكتمر الحاجب نظر المشهد النفيسي عليها رضوان الله عوضاً عن الخليفة العباسي عام ٧٦٦هـ/١٣٦٤م .

المنشآت الدينية والعلمية

من المعروف أن مصر شهدت في العصر المملوكي نشاطاً دينياً منقطع النظير كانت له أسبابه المتعددة منها محاولة السلاطين المماليك مواصلة سياسة الأيوبيين في محاربة التشيع ، مما أدى إلى وجود تيار ديني قوي خلال العصر المملوكي ، وهو التيار الذي ظهر بوضوح في إنشاء المساجد والجوامع والخنقاوات والأربطة والأسبلة . فمن المنشآت الدينية التي أقامها أولاد الناس بالقاهرة المساجد والزوايا وقد أشرنا أن الزاوية في مصر المملوكية حلت تقريبا محل الخانقاة وكانت تبني للفقراء وأهل السبيل والصوفية الذين يقيمون بها . فمن المساجد التي أقيمت في ذلك الوقت المسجد الذي أنشئ في الجزيرة المستجدة في نهر النيل وأنشأته ابنة الملك الظاهر بيبرس في عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م وعمرت بجواره أملاكا كثيرة .

ومن الأربطة التي أنشئت في عصر سلاطين المماليك رواق البغدادية أنشأته خوند تذكاري باي خاتون ابنة الظاهر بيبرس البندقداري في عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م ، وهذا الرباط بني بجوار خانقاة بيبرس الجاشنكير داخل درب الأصفر .

ومن الزوايا والخنقاوات ، خانقاة المهنديارية وهي التي أنشأها الأمير شهاب الدين أحمد بن أقوش العزبي المهنديار نقيب الجيش في عام ٧٢٥هـ/١٣٢٤م ، وزاوية الحمصي والتي أنشأها الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير فخر الدين الطنبغا الحمصي عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م ، وكان أحد الأمراء في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، وقد رتب بهذه الزاوية عشرة فقراء وجعل شيخهم منهم وأوقف عليها بعض القرى في ساحل الشام وأنشأ أيضا ناصر الدين محمد بن قرطاي ابن بنت الأتابكي بكتمر الساقى خانقاة بالقرافة عند حوش الظاهر بيبرس ، وأوقف عليها ربع بعض أوقاف جده والتي آلت إليه عن طريق الميراث . أما المنشآت العلمية والتي تمثلت في المدارس التي وجدت بكثرة في مصر المملوكية ، وقام الأمراء والسلاطين المماليك بتشيدتها ووقف الأوقاف عليها وتعيين المدرسين على المذاهب المختلفة لإلقاء الدروس بها فكان لأولاد الناس نصيب أيضا في هذه القرى إلى الله عز وجل ببناء المدارس ومن الذين عنوا ببناء المدارس الأمير سيف الدين أسنغ بن بكتمر الأيوبي الذي أنشأ المدرسة الأيوبركية عام ٧٢٢هـ/١٣٧٠م ، وهو من أمراء السلطان الناصر حسن وهذه المدرسة بجوار درب العباسي قريبا من حارة الوزيرية بالقاهرة ، وقفها الأمير سيف الدين على الفقهاء الحنفية ، وبني بجوارها حوض ماء سبيلا

ومن أحفاد أولاد الناس الذين صنعوا في التاريخ محمد بن محمد بن محمد بن بهادر المؤمني ، تلقى تعليمه بالقاهرة وعاش بها إلى أن توفي ، وصنف عدة كتب منها "فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر" ، كتب فيه حوادث تاريخ ملوك مصر حتى عام ٧٥١هـ/١٣٥٠م ، وكتب رسالة في ترجمة شيخه "جلال الدين المحلي" وكتاب "مجموعة تواريخ التركمانية" .

واهتم أولاد الناس بدراسة علوم أخرى غير التي ذكرنا منها علم الحساب والرياضيات ، فكان الأمير عماد الدين إسماعيل بن الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ممن عنوا بدراسة هذا العلم ، وكان فطنا أعطى أمره في عهد ابن عمه الأشرف شعبان أما من برع في الحساب والهيئة والجبر والمقابلة حتى عد من علماء علم الفلك شهاب الدين علي بن طيغا واعتبر جمال الدين إبراهيم بن أبيك الصفدي من أعلام علم الحساب ، "وكان ذهنه في الرياضي جيدا ، واشتغل أحمد بن محمد بن عبد الله البكتمري بعلم الميقات وكان ماهراً في فنه .

ودرس الناصري محمد بن قرقماش الحنفي علم الكيمياء ، وكان عالما فاضلا أما الناصري محمد بن منكلي فقد برع في علوم الملاحة وفن القتال الحربي ، وصنف عدة مؤلفات في هذا المجال منها "الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية في فن قتال البحر" وكتاب "التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية" "والخيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب" وكتاب "الأدلة الرسمية في التعايي الحربية" ووقد توفي في عام ٧٧٨هـ/١٣٧٧م ، ومن أولاد الناس كذلك الذين برعوا في فنون الفروسية محمد بن لاجين بن عبد الله الحسامي المعروف بالرماح صنف عدة كتب منها "بغية القاصدين في العمل بالميادين" في الفروسية ، وغاية المقصود في العلم والعمل بالنود ، وكتاب الرماح وتوفي تقريبا عام ٧٨٠هـ/١٣٧٩م .

ولايتهم للوظائف الدينية

جاءت الوظائف الدينية في دولة المماليك من الولايات الهامة التي تدخل في نطاق الضرب الثاني من الوظائف الديوانية التي يتولاها أعيان المملكة وأرباب المناصب من حملة الأقلام والذين قسموا إلى قسمين أرباب الوظائف الديوانية وأرباب الوظائف الدينية .

وقد مثل أولاد الناس في بعض هذه الوظائف الدينية وإن كان تمثيلهم جاء ضعيفا وذلك لسبب مباشر وهو أن من يتولى هذه الوظائف يشترط فيه أن يكون من أرباب الأقلام أي العلماء ، بيد أنه أحيانا كان يمكن التحايل على هذا الشرط وخاصة في العصر المملوكي الثاني وعندما أصاب الدولة بعض الخلل الإداري نتيجة لما ساد خلال تلك الفترة من الوصول إلى هذه المناصب عن طريق البذل والبرطلة فوصل الأمراء الأتراك وأولادهم إلى هذه المناصب الدينية وإن كانت القاعدة الأساسية لتولي المنصب ظلت هي السائدة في أغلب العهود المملوكية .

ومن أهم الوظائف الدينية التي تقلدها أولاد الناس من أبناء الأمراء وظيفة الحسبة تولاهما محمد بن طقتمر عندما خلع عليه السلطان الأشرف شعبان عام ٧٧٥هـ/١٣٧٣م عوضا عن علاء الدين بن العرب والذي تضرر منه الناس بسبب البراطيل التي كان يأخذها ، ولا يهتم بتسعين البضائع ويعتبر محمد بن طقتمر من أوائل الناس من المماليك الذين تقلدوا هذا المنصب وفي عهد المؤيد شيخ المحمودي تقلد منصب الحسبة في القاهرة صارم الدين إبراهيم بن الأمير ناصر الدين محمد بن الحسام الصقري الوزير في عهد دولة الظاهر برقوق

فئات المجتمع المصري ، وإن كانت تتبع طبقة المماليك باعتبارهم أبنائهم ، فقد تميز العديد منهم في مجالات شتى .

ففي الحياة السياسية والإدارية كانوا أعضاء عاملين في السلك السياسي العسكري ، وشغلوا مراتب عالية في الإمارات المملوكية . وقد ساهم أولاد الناس في الأحداث السياسية سواء في الأحداث والصراعات الداخلية أو في الأحداث الخارجية أو في السفارات الودية بين السلطنة المملوكية والدول الإسلامية المجاورة لها ، أو لإصلاح مناهل الحج والضرب على أيدي العربان المفسدين الذين يتصدون لركب الحج بالترويع والنهب .

ومن خلال أوضاع أولاد الناس الاقتصادية وضعنا كيف كان يعيش هؤلاء ومن أين كانت تأتي مصادر دخلهم التي تمثلت في الإقطاعات والجوامك والنفقة والأزاق والأوقاف ، وتعرضهم في كثير من العهود للمصادرات ، أو تأثرهم بالأحداث الداخلية والفتن والإضطرابات التي كان تأثيرها يمتد لقطع جوامكهم ورواتبهم .

ومن الممكن القول أن أولاد الناس في المجتمع المملوكي وضع دورهم السياسي والإقتصادي والاجتماعي والديني والعلمي وأنهم لم يعيشوا حياة مترفة ونشؤوا مدللين في "حجور النساء" ، "وحجور أمهاتهم" . وليس معنى هذا أن نحاز لفئة أولاد الناس خاصة وللمماليك بصفة عامة ، ولكن ننظر نظرة موضوعية فاحصة مدققة لتاريخ دولة المماليك وتاريخ هؤلاء أولاد الناس لنرى إن كانوا يستحقون أن تلصق بهم هذه الأوصاف وينعتوا بها ، أو أن مسيرة حياتهم منذ أن بدأت هذه الفئة من طبقة المماليك تظهر في بدايات القرن السابع الهجري وحتى زوال دولتهم التي زال معها عزهم ومجدهم وآل أمرهم وأمرها إلى ما يمكن أن يوصف به حال مصر في تلك الأيام من آيات قرضها شاعر مصر الشيخ بدر الدين الزيتوني في زوال دولة المماليك .

نبكى على مصر وسكانها قد خربت أركانها العامرة
وأصبحت بالذل مقهورة من بعد ما كانت هي القاهرة

وعلى الجملة يمكن القول أن أولاد الناس بأمرائهم وعلمائهم وفقهائهم وصالحهم وطالحهم ، قد كانوا مصريين حملوا مصر في أفئدتهم وولدوا وعاشوا وترعرعوا في ربوعها ، وكونوا مع شعبها نسيجاً واحداً لا يمكن أن ينفصموا عنه بحال من الأحوال حتى ذابوا في هذا المجتمع المصري القادر على أن يضم فئات متغايرة ويحتويها بين جنباته .

وسقاية ومكتباً للأيتام ، وجددت عمارة هذه المدرسة عام ١٤١٢هـ/١٨١٥م وأنشأ بها منبراً وأقيمت فيها الجمعة .

أما بناء الأضرحة فقد انتشر في عصر دولة المماليك واهتم السلاطين والأمراء المماليك وأولادهم على حد سواء بإنشاء أضرحة ومدافن لهم توارى فيها أجسامهم بعد وفاتهم ، ومن الأمثلة على ذلك بناء الأمير قانباي الجركسي على ضريح ابنه محمد الذي توفي عام ٨٤٦هـ/١٤٤٢م "قبة عظيمة ليس لها نظير في مقابر مصر والقاهرة" وكان هذا المدفن يخص الأمير جركس المصارع وقام المؤرخ جمال الدين أبو المحاسن ابن تغري بردي بإنشاء "تربة هائلة بالقرب من تربة إينال" ووقف كتبه وتصانيفه بها وقام ابن تغري بردي بإنشاء وثيقة وقف لهذا المدفن لضمان رعايته بعد وفاته . وأشار السخاوي إلى أن ابنة أخت الأشرف قانباي والتي تزوجت من قانباي شلاق بأنها "دفنت بتربتها" وكانت وفاتها عام ٨٨١هـ/١٤٨٦م .

وقد ساهم أولاد الناس في العمل على رعاية المنشآت الدينية والعلمية التي أقاموها بتجديدها ، وزيادة أوقافها ، فقد قام الناصر فرج بوقف ناصية إنبابة (منبابة) بالجيزة على المدرسة الظاهرية والتي دفن بها غالب عائلته . كما ساهم أولاد الناس في بناء وتشيد المدارس بمصر فقد ثبت أن الذي شيد مدرسة السلطان الناصر حسن من أولاد الناس وهو الأمير محمد بن بيلك المحسني هذا الصرح الهائل والبناء الضخم ، والذي وصفته كثير من المصادر بأنه من أعظم الأبنية في دولة الإسلام وقد أجمع على هذا الرأي جميع المؤرخين والرحالة الذين زاروها فيذكر أبو المحاسن "أن هذه المدرسة ومئذنتها وقبتها من عجائب الدنيا ، وهي أحسن بناء بني في الإسلام" وإذا لم يكن محمد ابن بيلك المحسني مهندساً فذاً لها استطاع بناء هذه المدرسة وما سمح له بوضع اسمه بجانب اسم السلطان .

وبعد ؛ فقد تبين أن لأولاد الناس مساهمات في الحياة الدينية والعلمية التي ازدهرت في مصر خلال العصر المملوكي ، وقد أدرك أولاد الناس هذه الحقيقة ، فعاشوا في رحابها ينهلون من فيض علمائها المتدفق إلى أن أصبح منهم العلماء والفقهاء الذين أسهموا وشاكوا في ركب مسيرة الحياة العلمية والدينية في مصر الإسلامية المملوكية .

شهد العصر المملوكي في مصر والشام تنوع في طبقات الشعب التي كانت تحكم من قبل سلاطين المماليك ، وكان هؤلاء السلاطين وأمراءهم يمثلون الطبقة الممتازة التي هي قمة الهرم السكاني ، وقد خرجت منهم فئة هي جزء أساسي من نفس طبقتهم هؤلاء هم أولاد الناس . وإن كان أولاد الناس في الأصل ينتمون إلى طبقة المماليك إلا أنهم عاشوا بالمجتمع المصري وتفاعلوا معه حتى أصبحوا في قلب نسيج هذا الوطن ، وإن كان آباؤهم قد جلبوا من بلاد لا يعرفونها وآباء وأمهات لا يعلمون عنهم شيئاً ، فإن أولادهم ولدوا وعاشوا وتربوا من خير مصر وعلى أرضها وكان لابد أن يترك فيهم أثراً ظاهراً ومسحة من عطائه .

ومن خلال هذه الدراسة تبين أن أولاد الناس لم يمثلوا كمّاً مهملًا في المجتمع المصري أو أنهم نشؤوا مدللين في مرتع خصب ينعمون بما ترك لهم آباؤهم من أموال وأوقاف وغير ذلك مما تستقيم معهم أحوالهم الاقتصادية ليصبحوا كالمصطلح الحديث في التعبير (عاطلين بالوراثة) ، بل أدركنا أن أولاد الناس ومنذ بداية ظهورهم كقوة عاملة من

Theory And Philosophy OF Conservation And Preservation In Islamic Civilization

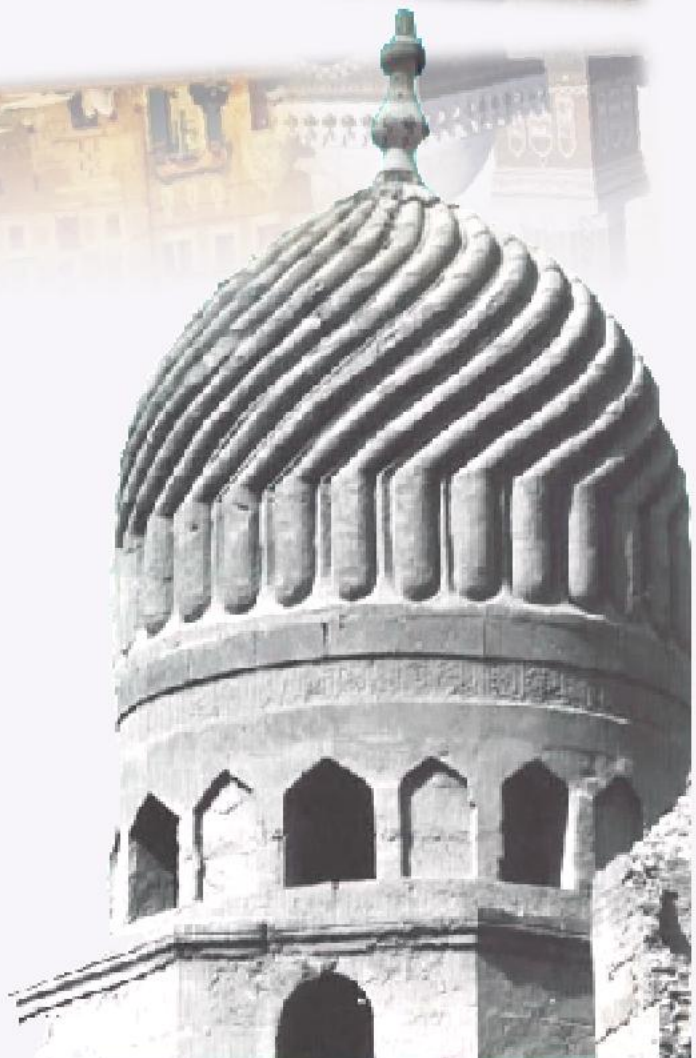


Dr. Badi al-Abed

Consultant Architect & Former Dean
Faculty Of Engineering, Al-Isra` University
Vice President Of The Jordanian Society
For The History Of Science
Amman - Jordan
badi@go.com.jo

Citation:

Badi al-Abed, Theory And Philosophy Of
Conservation And Preservation In Islamic
Civilization.- *Historical Kan Periodical*.- Issue (8)
June 2010.
P.101 – 131. (www.historicalkan.co.nr)



Introduction

Architectural conservation is a new cultural phenomenon in Western civilization. It was initiated as an emotional concept in Athens charter in 1931, classified as a cultural phenomenon after the Second World War and partly rationalized in the sixties of the twentieth century. But it is a very old, original and rational phenomenon in Islamic civilization, born in the uterus of its *shari'a* الشريعة (Islamic legislation) and associated with the philosophy of Islamic history, particularly with the concept of historical continuity. Architectural conservation participates in keeping the vocabulary of the architectural and urban fabrics of Arabic and Islamic cities running, operating and functioning proper. It activates, enhances and sustains investment in Arabic and Islamic cities. It integrates, complement and not contradict economic development in Arabic Islamic Cities.

Architectural conservation is known in Arabic as *al-ibqa'* أو الإبقاء or *al-istibqa'* الاستبقاء and recently known as *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation). The whole phenomenon of *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation) is as old as Islamic civilization itself. It was originated in *al-waqf* الوقف (endowment) institution of Islamic *shari'a* الشريعة (Islamic legislation). The first two terms were coined in *al-waqf* الوقف (endowment) documents; they means: maintaining the premises of *al-waqf* الوقف (endowment); and keeping them in good shape in order to functioning proper for good as required by the *ash-shari'a* الشريعة (Islamic legislation); and the third term *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation) is a new one and means the same, I shall use it in this paper.

As a consequence of the phenomenon of the *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation) on premises of *al-waqf* الوقف (endowment), major parts of the architectural and urban fabrics of Arabic and Islamic cities remain operating and functioning on the course of time. Furthermore theoretical notions of conservation were originated in the phenomenon of *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation), like: project management, budgeting, investment and economical development, records of architectural and urban fabrics of cities; so much so practical techniques of conservation were also originated in the phenomenon of the *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation).

Goals and Methodology

This paper argues that the phenomenon of the *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation) was originated in Islamic civilization, and is still functioning with its full intellectual and technical body. This paper will emphasize that the phenomenon of the *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation) was born in the uterus of Islamic *shari'a* الشريعة (legislation) and is associated with the concept of historical continuity of the philosophy of Islamic history.

This paper will highlight the philosophical, theoretical and technical body of this phenomenon. It will display the theoretical and technical notions of *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation) as they were coined and initiated in *ahkam al-waqf* أحكام الوقف (rules of endowment) in Islamic *shari'a* الشريعة (legislation); and in the elaboration and contribution of Arab and Muslim jurists, legislators, scholars and architects. It will demonstrate that the *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation) phenomenon integrates, complements and not contradict investment and economic development. Furthermore it will prove that the phenomenon of *al-hifadh* الحفاظ (conservation) was a major source for the economy of Arabic and Islamic cities.

In doing so I shall examine *al-waqf* الوقف (endowment) documents, *ash-shari'a* (Islamic legislation) books, and demonstrates the concept and institution of *al-waqf* الوقف . I shall examine also the administrative books of civil policies, history books, *al-khtat* (urban planning) books, *Sijillat* سجلات , plural of *sijill* سجل , (record) of *al-qadat* القضاة , plural of *qadi* القاضي (judge) and civil *dawawiyn* دواوين , plural of *diwan* ديوان , (archive of state), architectural and engineering reports. I shall first highlight the relation between *al-hifadh* الحفاظ (conservation) and the philosophy of Islamic history.

Al-hifadh الحفظ (conservation) and the philosophy of Islamic history

Philosophy of history¹ in my view is the way in which civilization sees and imagines itself; expresses its entity, structure and universal context. In other words it is the way that civilization exegesis and interpret its phenomena, the world and the universe. Yet philosophy of history is the whole theoretical, cultural, and intellectual approaches, concepts and notions that govern the formation of the civilization phenomena. And at the same time, philosophy of history is the way by which civilization expresses its structure and cultural phenomena. As a consequence philosophy of history determines the intellectual approaches and frames of the phenomena of civilization; and gives them identity in form and context, which in turn distinguish each high civilization from others. More to the point, philosophy of history is the measure by which it scales consciousness of its followers; and decides their cultural commitment via their reactions to events and epistemological phenomena that might disturb their consciousness.

On these grounds our reaction to the phenomenon of *al-hifadh* الحفظ (conservation) in general and architectural conservation in particular must sprung from our civilization and its philosophy of history that consist of four concepts² as recorded in the holy Quran:

1-*At-Tawasul at-tharikhiy* التواصل التاريخي (historical continuity)

2-*At-Tafaker waat-t`amol* التفكير والتأمل (thinking and speculation)

3-*Ad-Duroose waal-`iber* الدروس والعبر (lessons and eruditions)

4-*At-Tanaw' dakhil al-wihda* التنوع داخل الوحدة (variety within unity)

My concern here is devoted to *at-tawasul at-tharikhiy* التواصل التاريخي (historical continuity) that requires, demands and imposes continues and endurance presence of the phenomena of civilization as indicated in Islamic religion, particularly architectural phenomenon; that its permanent and endurance presence demands continues conservation. Yet the general goal of Islamic philosophy of history represented by its four concepts requires sustainable *hifadh* الحفظ (maintenance, conservation, preservation and restoration) for all cultural phenomena, particularly environmental, cultural and architectural ones. Yet *al-hifadh* الحفظ (conservation) is a religious requirement and a cultural necessity. Islamic legislation devoted institution, namely *al-waqf* الوقف (endowment), set out and issued *ahkam* أحكام (rules) for upkeep its cultural phenomena, as I shall demonstrate in the following discussions.

Al-waqf (endowment)

I shall highlight the essence of *al-waqf* الوقف (endowment) and emphasize that it is just a virgin of *al-hifadh al-m'imariy* الحفظ المعماري (architectural conservation). I shall first define it; demonstrate the structure of *kutob* كتب, plural of *kitab al-waqf* كتاب الوقف (endowment document); and emphasize its legislative rules together with the conditions of *al-waqif* الواقف (endower) that both constitute the backbone of *al-hifadh al-m'imariy* الحفظ المعماري (architectural conservation). Because of what they denote and connote of the elements of *al-hifadh al-m'imariy* الحفظ المعماري (architectural conservation) like: management of the project of *al-waqf* الوقف, administratively and technically; finance resources, budgeting and expenditure plan; **assigning and giving absolute priority of expenditure for maintenance, conservation and preservation; and consolidation of finance resources.** I shall also highlight techniques of documentations of *al-waqf* الوقف premises, which are in their turn represents the techniques of *al-hifadh al-m'imariy* الحفظ المعماري (architectural conservation) like: designation of *al-waqif* الواقف (endower) and disclose his position in society, recording function and use of premises of *al-waqf* الوقف, dates of their construction and endowment, building materials, their location and borders in the architectural fabric of cities, their description and depiction.

Al-waqf الوقف (endowment)³ is a humanitarian act made by endowers (men or women) who wants to do humanitarian things or charity for public interest or for certain beneficiaries, like: building *masajid* مساجد, plural of *masjid* مسجد (mosque); or *jawami'* جوامع, plural of *jami'* جامع (mosque); *baymaristanat* بيمارستانات (hospital); *madaris* مدارس, plural of *madrassa* مدرسة (school); *zawaiya* زوايا, plural of *zawiya* زاوية (private worship and teaching place); *khawanq* خوانق, plural of *khaniqa* خانقة (elderly home for men); *ribtatat* رباطات, plural of *ribat* رباط (elderly home for women); *mayatem* مياتم, plural of *maytim* ميتم (orphanage); *takaya* تكايا, plural of *takiya* تكية (private and public restaurants) ... etc.

Al-waqf institution combined two core elements⁴ of charitable practice, those are *habis al-`a'iyān* حبس الأعيان (the sequestration of the principal) and *at-tasadduq bil-manfa'a* التصديق بالمنفعة (the giving away of the profits for a pious purpose). Yet those two elements guarantee that devolution, of the second core element, of endowed property from one generation of beneficiaries to the next; because *al-waqf* الوقف (endowment) is an irrevocable act or endowment and supposed to exist till the Day of Judgment.

The two core elements are part of the rules of *ash-shari'a* الشريعة (Islamic legislation) and private conditions of endowers where both constitute *al-waqf* الوقف institution, as I shall be demonstrating in the course of discussions. Yet *al-waqf* الوقف (endowment) is subject to a legal⁵ process; it must be recorded and documented in the court before the *al-qadiy* القاضي (judge) in a diploma or document known as *kitab al-waqf* كتاب الوقف or *al-waqfiyy* الوقفية. This document has a coherent structure draw up the goals, purpose and use of the premises that *al-waqif* الواقف (endower) endowed or denoted; so much so it record name of endower, location of endowed premises in the architectural fabric of Arabic and Islamic cities; descriptions, depictions and devolution of those premises until became *waqf* الوقف (endowment). And most important are the conditions of perpetually of *al-waqf* الوقف and the *al-hifadh* الحفاظ (conservation) of their premises (principals).

It is from this structure that the whole phenomenon of *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation) was originated as I shall be demonstrating after I highlight the types of *al-waqf* الوقف (endowment) in the following discussions.

Types of *al-waqf* الوقف (endowment)

There are three types⁶ of *waqf* وقف (endowment), those are:

1- *Al-Waqf al-khayriy* الوقف الخيري (humanitarian endowment) is the act that *al-waqif* الواقف (endower) assigns the benefit of his *waqf* وقف (endowment) for public interest or for certain beneficiaries of the public.

2- *Al-Waqf adh-dhoriy* الوقف الذري (endowment for progeny) is the act that *al-waqif* الواقف (endower) assigns the benefit of his *waqf* وقف (endowment) for his progeny or part of them, in spite of the fact that progeny have the right to inherit *al-waqif* الواقف (endower-donor) according to the rules of heritage in the *ash-shari'a* الشريعة (Islamic legislation).

3- *Al-Waqf al-mushtarak* الوقف المشترك (combined endowment) is the *al-waqf* الوقف (endowment) that comprises both: *al-waqf al-khayriy* الوقف الخيري (humanitarian endowment) and *al-waqf adh-dhoriy* الوقف الذري (endowment for progeny) in the same project of *al-waqf* الوقف (endowment) and in one document.

Three of them are subject to the *ash-shari'a* الشريعة (Islamic legislation) rules of the *al-waqf* الوقف (endowment) and the conditions of *al-waqif* الواقف (endower). My concern in this paper will focus upon the first one *al-waqf al-khayriy* الوقف الخيري (humanitarian endowment), as I shall be demonstrating in the following discussions.

Al-waqf al-khayriy الوقف الخيري (humanitarian endowment)

This type of *waqf* وقف (endowment) comprises two kinds⁷ of *waqf* وقف (endowment) premises; and both are integrating each other, those are:

1- *Waqf al-ist'imāl* وقف الاستعمال (endowment of premise for use), like: *masajid* المساجد or *jawami'* الجوامع (mosques), *baymaristanat* بيمارستانات (hospitals), *madaris* مدارس (schools), *zawaiya* زوايا (private worship and teaching places), *khawanq* خوانق (elderly homes for men), *ribtatat* رباطات (elderly homes for women), *mayatem* مياتم (orphanages), *takaya* تكايا (private and public resident and restaurant for dervishes-*sofiy* Sheikhs) شيوخ الصوفية ... etc.

2- *Waqf at-tmwheel* وقف التمويل (endowment of premise for finance), like: *al-qayasir* القياسر, plural of *qaysariyya* قيسرية, (shopping center); *al-aswaq* الأسواق, plural of *suq* سوق (market); *wekalat* وكالات, plural of *wekala* وكالة, (trade complex consist of *khan* خان-hotel- and wholesale trade center); *al-hammamat* الحمامات, plural of *hammam* حمام, (public bath); *as-subbanat* الصبانات, plural of *subbana* صبانة, (soap factory); *al-ma'asur* المعاصر, plural of *m'sura* معصرة, (olive and sesame press); *al-arhiya* الأرحية, plural of *raha* رحي, (grain mill); *al-madhabigh* المدابغ, plural of *madhbigha* مدبغة (tannery); ...etc.; and farms.

It is interesting to indicate that the second *waqf* وقف (endowment) is assigned to finance the first one in order to keep it running and functioning proper. Yet both premises are considered as principals of the project of *al-waqf* الوقف (endowment), consequently both are subject to the same rules of the *ash-shari'a* الشريعة (Islamic legislation) and *al-waqif* الواقف (endower) must be conserve and preserve.

Having highlighted the types of *waqf* وقف (endowment) and demonstrating the kinds of *al-waqf al-khayriy* الوقف الخيري (humanitarian endowment), I shall take the time here to emphasize the structure of *kitab al-waqf* or *al-waqfiyya* الوقفية أو الوقفية (endowment diploma or document).

The structure of *kitab al-waqf* or *al-waqfiyya* الوقفية أو الوقفية (endowment diploma or document)

The structure⁸ of *kitab al-waqf* كتاب الوقف (endowment document) is composed from two components: the rules of the *ash-shari'a* الشريعة (Islamic legislation) and the conditions of the *al-waqif* الواقف (endower). Each component is complementing the other; and both have the same executing power; most important that both are constituting the phenomenon of *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation), as I shall be highlighting in the following discussions, starting with the first one.

1-The rules of the *ash-shari'a* الشريعة (Islamic legislation)

There are two types of rules of *ash-shari'a* الشريعة (Islamic legislation):

1-1- The first is concerned with *al-waqif* الواقف (endower)⁹ himself and constitutes that: he must be in a perfect state of health and mental power before he makes his endowment. He must disclose as to how ownership of the premises, that he want to make them *waqf* وقف (endowment), passed or devolved to him. And he must prove his legal ownership of the premises he wants to make them *waqf* وقف (endowment), in the court before the *al-qadiy* القاضي (judge). When *al-waqif* الواقف (endower) signs the document that he devolves in it his ownership of the premises of *al-waqf* الوقف (endowment) to public interest or private beneficiaries, as *waqf* (endowment), he has no right to regain his ownership of the premises that became *waqf* وقف (endowment).

1-2-The second is concerned with endowed¹⁰ premises; *al-waqfoon* الواقفون, plural of *al-waqif* الواقف (endower) designate in clear and definite terms the **irrevocable, endurance, permanent and perpetual** role of the projects of *al-waqf* الوقف (endowment). The *kitab al-waqf* or *al-waqfiyya* الوقفية أو الوقفية (endowment document), in fact all *kutob* كتب, plural of *kitab* كتاب, (book = diploma = document) *al-waqf* الوقف (endowment) record those rules in the same clear and definite terms. As a case in point, I shall quote those terms as indicated in *kitab waqf* كتاب وقف (endowment document) of the Mamluk Sultan Qaytbay¹¹ (872-901H/1468-1496 AD):

“...hadha kitab waqf sahih shar'ayy صحيح شرعي [this is a right and legitimate endowment document] wahabis sahih mar'iy وحبس صحيح مرعي [and a right approved sequestration]; la yonsakho hukmuho wala yindariso rasmuho wala yinqati'o birruho لا ينسخ حكمه ولا يندرس رسمه ولا ينقطع بره [its rule is irrevocable, their principals must not gone in ruins and remain existing, and its pious must uninterrupted] ... he [the endower] waqafa, wasabbla wa-tasuddaqa, wa-harma, wa-'abida وأبد وصدق وحرم وأبد [endowed, gave away of the profits of the principal for a pious purpose, forbade and perpetuated of what he possessed that will be mentioned, marked described and depicted in the course of documentation...the *kitab al-waqf* كتاب الوقف (the book or diploma of endowment) recorded and indicated all the endowed premises together with their, descriptions, depictions, locations and borders in the architectural fabric of the city/ies (this documentation of the endowed premises constitute the notion of records in the process of *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation) as I shall be demonstrating later in this paper) and after the documentation of premises the document continued to indicating the rules of *ash-shari'a* الشريعة (Islamic legislation) as follow:] ... waqfain sahihin shari'ayin wa-habsin sahihin mar'a'ayan وفقاً صحيحاً شرعياً وحبساً صحيحاً مرعياً [a right legitimate endowment and a right approval sequestration] ...”.

Furthermore, the rules of the *ash-shari'a* الشريعة (Islamic legislation) requires, demands and necessitates that *al-waqf* (endowment) premises *la yoba' usoluho wala yowarth wala yowhab wala yomalko wala yorhano wala yonaqal*¹² لا يباع أصوله ولا يورث ولا يملك ولا يرهن ولا يناقل (their principals must not sell, or inherit, or giveaway as a gift, or possess, or secure or exchange) ... until God inherit the earth with its total landscape, in other words to the Day of Judgment.

More to the point they must not trade in unless the benefit of *al-waqf* الوقف (endowment) necessitates such trade in; and taking such action must be in favor of *al-waqf* الوقف (endowment) and with the permission of the *al-qadiy* القاضي (judge) of the city and the legal authority of the state.

And most important is that the rules of the *ash-shari'a* الشريعة (Islamic legislation) also demands¹³: “*baqa' 'ayniha wadawam manf'atho la yonsakh hukmuho wala yindariso rasmuho* بقاء عينها ودوام منفعتها لا ينسخ حكمه [the keep alive principals of *al-waqf* (endowment); sustain and pursue their role of giving away their benefits for pious purpose; their rule is irrevocable and their principals must not gone in ruins] ...”. Those rules were crowned by the most important legislative rule that emphasize that: “*la yajozze taghiyyer sifat al-waqf* لا يجوز تغيير صفة الوقف [the change of entity, form and function of the premises (principals) of *al-waqf* (endowment) project are not allowed, prohibited and forbidden – in other words, the state of the premises in the time of the founder of the endowment project should be not changed; and this state has to be conserved, preserved, restored and maintained after any destruction]¹⁴”. As a consequence of this rule, their function must remain active, their physical state must not change; and *al-waqf* الوقف (endowment) premises must remain functioning and operating for good, until the Day of Judgment.

It is clear that the terms that are used in the conditions of *ash-shari'a* الشريعة (Islamic legislation) demarcate, designate and underline the perpetual role of *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation) in Islamic civilization. Yet the conditions of the *ash-shari'a* الشريعة (Islamic legislation) strongly emphasize that the phenomenon of *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation) was originated and deeply rooted in Islamic civilization; and closely tie with the philosophy of Islamic history, as I mentioned earlier. Furthermore those conditions are determining the conditions of the second component, namely the conditions of *al-waqif* الواقف (endower), as I shall be highlighting in the following discussions.

2-The conditions of the *al-Waqif* الواقف (endower)

The conditions of the *al-waqif* الواقف (endower) are concerned in the first place with assigning the beneficiaries of *al-waqf* الوقف (endowment) project. Then they are designed in order to complement the rules of *ash-shari'a* الشريعة (Islamic legislation); and to emphasize the perpetual role of *al-waqf* الوقف (endowment). Yet they constitute the process of keeping the premises of *al-waqf* الوقف (endowment) functioning and operating to meet, complement and integrate the conditions of the first component. They comprises all theoretical and practical techniques of *al-'ibqa'* الإبقاء, *al-istibqa'* الاستبقاء or *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation, preservation and restoration). The major conditions of *al-waqf* that constitute the theoretical techniques of *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation) are:

2-1-Appointing management team to run the project of *al-waqf* الوقف (endowment) with job description for each person, starting with *mutwalliy* or *nazir al-waqf* متولي أو ناظر الوقف (general manager of the project of endowment) and ended with the *al-haris* الحارس (custodian) of the project. I shall highlight the role of this team later on this paper.

2-2-Endowing and assigning *waqf at-tmwheel*¹⁵ وقف التمويل (endowment of premises for finance) to run *al-waqf* الوقف (endowment) project like: *hammam* الحمامات, plural of *hammam* حمام, (public bath); *ma'asur*, plural of *m'sura* معصرة, (olive and sesame press); *subbanat* صابانات, plural of *subbana* صابانة, (soap factory); *khanat* خانات, plural of *khan* خان, (hotel and wholesale trade center); *wekalat* وكالات, plural of *wekala* وكالة, (shopping center); *qayasir* قياسر, plural of *qaysariyya* قيسرية, (shopping center); *afra* أفران, plural of *furn* فرن, (oven); *hawaneet* حوانيت, plural of *hanoot* حانوت, (shop); *al-madhabigh* المدابغ, plural of *madhbigha* مديغة, (tannery); *al-arhiya* الأرحية, plural of *raha* الرحي, (grain mill); *at-tawahiyn* الطواحين, plural of *tahunna* طاحونة (grain mill)... etc.; and farms.

2-3-Drawing budget¹⁶ for the project of *al-waqf* الوقف (endowment) and assigning mechanism for spending the revenue of *al-waqf* الوقف (endowment) that comprise payroll for the beneficiaries and employees and program for other daily, monthly or other expenditures as recorded in *kitab al-waqf* كتاب الوقف (endowment document).

2-4-Assigning part of the revenue, by some endowers, as an obligatory reserve in the budget for *al-hifadh* الحفاظ (conservation, preservation and restoration).

This condition is optional and subject to the wish of the endower, as in *kitab waqf* كتاب الوقف (endowment document) of as-Sultan Qaytbay¹⁷ السلطان قايتباي.

2-5-Giving absolute priority of spending the revenue of *al-waqf* الوقف (endowment) for the *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation, preservation and restoration) of the premises - principals- of the *al-waqf* الوقف (endowment), after any occurred destruction, no matter how much it cost, even if the total revenue of *al-waqf* الوقف (endowment) is consumed in conservation and preservation.

It is important to indicate here that this condition is an obligatory one. It must be recorded in all *kutob al-waqf* كتب الوقف (endowment documents) by all endowers.

And after *al-hifadh* الحفاظ (conservation, preservation and restoration) took place; the *al-fuqha* الفقهاء (jurists) formulated, as part of the conditions of the *al-waqif* الواقف (endower), a list of priorities determining as to how the redundant of the revenue of the endowment to be spent. Thereafter the redundant, according to those priorities, should be spent for what is closest to material upkeep, conservation and preservation in order to perpetuate the role of *al-waqf* الوقف (endowment) project.

For instance if the endowment project is a *baymaristan* بيمارستان (hospital) the priority of spending, the redundant of the revenue, after conservation must be forward to: buy *'qaqier* عقاقير, plural of *'qar* عقار, (medicine), other medication requirements and food for patients; then to pay the salaries of *al-'atiba* الأطباء, plural of *tabib* طبيب, (physician) according to their ranks; then to the next closest; and so on.

2-6-Consolidating *waqf al-ist'imal* وقف الاستعمال (endowment of premise for use), by buying¹⁸ new premises for *waqf at-tmwheel* وقف التمويل (endowment of premise for finance).

This condition is optional, and not necessarily found in all *kutob al-waqf* كتب الوقف (endowment documents). It is conducted by the *al-waqif* الواقف (endower) in order to consolidate the condition of perpetuity of *al-waqf* الوقف (endowment).

2-7-Locating¹⁹ sites of *al-waqf* الوقف (endowment) premises, marking and delineating their borders in the architectural and urban fabric of cities; describing and depicting them, as I indicated earlier in the conditions of the *ash-shari'a* الشريعة (Islamic legislation).

This condition initiated the beginning of forming the architectural and urban records, not just in Islamic civilization but in the world urban history, as I shall be demonstrating later in this study.

2-8-Defining²⁰ function, use, social and cultural role and historical value of *al-waqf* الوقف (endowment) premises (principals); and recording the exchange of their ownership until they became *waqf* وقف (endowment). And documenting names of endowers and their position in society; and names of their employees. This condition integrates the former one.

It is clear by now that the conditions of *al-waqif* الواقف (endower) integrate and complement the conditions of the *ash-shari'a* (Islamic legislation). It is also clearer as to how those conditions, particularly condition number 2-5, emphasize the theoretical techniques of the phenomenon of *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation) in Islamic civilization.

Having gone so far as to interpret the structure of *kitab al-waqf* or *al-waqfiyya* الوقفية (endowment diploma or document), and highlight the theoretical techniques of *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation) that originated in *kitab al-waqf* كتاب الوقف (endowment document) or *al-waqfiyya*. I shall take the time here to highlight the structure of *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation).

The structure of *al-hifadh al-m'imariy* الحفظ المعماري (architectural conservation)

It is clear by now that in order for *al-waqf* الوقف (endowment) institution to attain, pursue and carry on its role, of doing sustainable and perpetual humanitarian act and economic development; it must upkeep, maintain, conserve and preserve premises (principals) of *al-waqf* الوقف (endowment) functioning and operating. It is also clear that *al-waqf* الوقف (endowment) institution with its two components is in a case of intervention with the phenomenon of *al-hifadh al-m'imariy* الحفظ المعماري (architectural conservation). Both are two faces of the same coin; each one of them is complementing the other; and the structure of *al-hifadh al-m'imariy* الحفظ المعماري (architectural conservation) is synonymous of that of *al-waqf* الوقف (endowment) institution. So to speak that *al-hifadh al-m'imariy* الحفظ المعماري (architectural conservation) starts when the legal procedures of *al-waqf* الوقف (endowment) ended.

To materialize this intervention I have already indicated and emphasized the perpetual role of the first component, the rules of the *ash-shari'a* الشريعة (Islamic legislation), in the structure of *kitab al-waqf* كتاب الوقف (endowment document); and mentioned that the second component, the conditions of *al-waqf* الوقف (endowment), are designed, in order, to constitute the process of upkeep premises (principals) of *al-waqf* الوقف (endowment) functioning and operating, so to speak they form the theoretical techniques of *al-hifadh al-m'imariy* الحفظ المعماري (architectural conservation) as I mentioned earlier. In the following discussions I shall highlight this process and focus upon the theoretical techniques from the point of view of *al-hifadh al-m'imariy* الحفظ المعماري (architectural conservation), starting with the management of the project of *al-hifadh al-m'imariy* الحفظ المعماري (architectural conservation).

The theoretical techniques of *al-hifadh* الحفظ (conservation)

1-The management of *al-hifadh* الحفظ (conservation)

The management of *al-waqf* الوقف (endowment) projects is concerned with the upkeep of the project, functioning and running. A number of employees are assigned by the *al-waqif* الواقف (endower) for this purpose; part of this team in some *waqf* (endowment) projects are technicians, like *m'imar* معمار (architect), *bana'* بناء (builder), *murrkhim* مرخم (marble mason), *najar* نجار (carpenter), *qanawatiy* قنواطي (pipe fitter) ... etc., as I shall demonstrate in the course of discussions in this paper.

The number is differing from one *waqf* الوقف (endowment) project to another; but in each case the number of employees shall be sufficient to run the work of the project. For instance the number of the management team of *waqf al-madrasa* وقف المدرسة (endowment of the school)²¹ of the Mamluk Prince Surghtmush (756 H-1355 AD) was 78 employees; and the number of the management team of *waqf aj-jami' wa al-madrasa* وقف الجامع والمدرسة (endowment of the mosque and the school)²² of the Mamluk Sultan al-Ghuri الغوري (911 H -1505 AD) was 65 employees; and the number of the management team of *waqf al-'imara al-'amira* وقف العمارة العامة²³ of Khassakiy Sultan خاصكي سلطان (959 H-1552 AD) was 48 employees; it is worth mentioning here that a lady called Noor al-Hidaiyya Khatoon²⁴ نور الهداية خاتون (1043 H-1633 AD) was the *al-mutwalliy* المتولي (general manager) of this project.

All the previous numbers are limited to those who work only in *waqf al-ist'imal* وقف الاستعمال (endowment for use). Beneficiaries of this *waqf* وقف (endowment) together with workers in *waqf at-tmwheel* وقف التمويل (endowment for finance) are excluded from those numbers.

More to the point those numbers gives clear idea about the investment movement and economical development that *al-waqf* الوقف (endowment) initiated; and partly is still initiating in Arabic Islamic cities. Given the fact that this is a sustainable investment and economic development; and this sustainability is attained by *al-hifadh al-m'imariy* الحفظ المعماري (architectural conservation). Therefore the management team is concerned directly and indirectly with *al-hifadh* الحفظ (conservation) of the project of *al-waqf* الوقف (endowment) in general and *al-hifadh al-m'imariy* الحفظ المعماري (architectural conservation) in particular. I shall focus here upon the major jobs that are common in all the *al-waqf* الوقف (endowment) projects that are concerned directly and indirectly with *al-hifadh* الحفظ (conservation).

It is important to remind here that the management team is consisted of two parts: administrative and technical. The first is obligatory in all *kutub al-waqf* كتب الوقف (endowment documents), while the second is optional and assigned according to the will of the *al-waqif* الواقف (endower). Furthermore it should be

understood that the technical team is assigned for daily maintenance and partial preservation work; and not for conservation, major preservation and restoration works or reconstruction. This kind of works is left for professionals. I shall begin with the administrative team.

1-1-The administrative team *al-hifadh* الحفظ (conservation)

1-1-1- *Al-mutwalliy* المتولي (the general manager)

The head of the management²⁵ team is called the *al-mutwalliy* المتولي or *an-nazir* (general manager) of the project of *al-waqf* الوقف (endowment). He assigned by the *al-waqif* (endower) in the first time. The *al-mutwalliyon* المتولون, plural of *mutwalliy* المتولي (general manager), that followed were appointed according to a specific hierarchy put by the *al-waqif* الواقف (endower) in *kitab al-waqf* كتاب الوقف (endowment document). If this hierarchy breaks down for any reason, the *al-qadiy* القاضي (judge) of the city in which the *al-waqf* الوقف (endowment) project is located become in charge of *al-waqf* الوقف (endowment) temporally until he, the *al-qadiy* القاضي (judge), and later in the Ottoman Empire the Sultan, appoint a new *mutwalliy* المتولي (general manager).

Duties of the *al-mutwalliy* المتولي (general manager)

The duties of the *al-mutwalliy* المتولي (general manager) begin after recording the *al-waqf* الوقف (endowment) project in the court before the *al-qadiy* القاضي (judge); and after appointing the management team that assigned by *al-waqif* الواقف (endower) and recorded in *kitab al-waqf* كتاب الوقف (endowment document). He pursues his duties according to the conditions of *al-waqif* الواقف (endower).

1-1-1-1-The first duty of the *al-mutwalliy* المتولي of *al-waqf* (general manager of the project of the endowment) is *al-hifadh 'ala al-'a'iyān al-muqofa* الحفاظ على الأعيان الموقوفة [conservation of the principals of the endowment]. This is clearly emphasized in all *kutob al-waqf* كتب الوقف (endowment documents), I shall quote here *kitab waqf* وقف (endowment document) the Mamluk Sultan Qaytbay²⁶ قايتباي:

“*yabda` min riy` al-awaqaf* يبدأ من ريع الأوقاف [plural of *waqf* وقف], *bi'amartho ... wamarmtho fima fih baqa` iynoho wadawam manf'atho* وبممارتها ... وممرتها بما فيه بقاء أعيانها ودوام منفعتها **[to begin the spending from the revenue of *waqf at-tmwheel* وقف التمويل (endowment of premises for finance) to make the required maintenance, conservation and preservation that sustain, preserve and keep alive the principals of *waqf al-`st'mal* وقف الاستعمال; and make their use, function and benefit uninterrupted, perpetual and never end]**”.

This in turn emphasizes the intervention between the *al-waqf* الوقف (endowment) institution and the phenomenon of *al-hifadh* الحفظ. Therefore the *al-mutwalliy* المتولي is not just the general manager of the project of *al-waqf* الوقف (endowment), he also the general manager of the project of *al-hifadh* الحفظ (conservation). On this ground, from now on, I shall refer to *al-waqf* الوقف (endowment) project as *al-hifadh* الحفظ (conservation) project.

It is worth mentioning here that the *al-mutwalliy* المتولي (general manager) is not necessarily being a technician; so to speak a *tabib* طبيب (physician) or *imam* إمام (the *Sheikh* شيخ who lead the pray) or *mudrres* مدرس (tutor or scholar) or *m'imar* معمار (architect), but just an administrator. He must be wise, decent, honest, and has a record of good conduct and well reputation. Furthermore the *al-mutwalliy* المتولي (general manager) is not necessarily being a man, where in many cases women²⁷ were assigned for this job.

1-1-1-2-Collecting the revenue of *waqf at-tmwheel* وقف التمويل (endowment for finance) and invest it, where different schemes²⁸ of investment were coined and mentioned in *kutob al-waqf* كتب الوقف (endowments document); and others initiated by *al-mutwalliyon*, plural of *mutwalliy* (general manager) and *al-fuqha`* الفقهاء (jurists) in the course of time, in order to sustain investment and attain *al-hifadh 'ala al-'a'iyān al-waqf* الحفاظ على أعيان الوقف (conservation of principals of endowment). I shall demonstrate those schemes later in the finance resources.

1-1-1-3-Making annual budget; in which the *al-mutwalliy* المتولي (general manager) must keep in mind that the absolute priority of spending the revenue of *al-waqf* الوقف (endowment) should be assigned for *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation, preservation and restoration) of the premises (principals) of *al-waqf* الوقف (endowment), whiter *al-hifadh* الحفظ (conservation) ordinary maintenance or

reconstruction, as in condition number 2-5 of the conditions of *al-waqf* (endower) that I indicated earlier.

If he failed to make budget the *al-qadiy* القاضي (judge) or the ruler²⁹ forces him to do so. And if he ignores maintenance and conservation they also force him to do so. Because both the *al-qadiy* القاضي (judge) and the ruler have the authority to inspect the premises of *al-waqf* الوقف. The *al-qadiy* القاضي (judge) form a committee³⁰ from the *al-muhtasib* المحتسب (mayor) together with a *m'imar* معمار (architect) or more and other concerned bodies to inspect the principals of *al-waqf* الوقف (endowment); and report him about the situation of the principals of *al-waqf* الوقف (endowment). In certain case the committee forms upon the request of the *al-mutwalliy* المتولي (general manager) or any beneficiary of *al-waqf* الوقف (endowment).

If the budget experience lack of revenue, the *al-mutwalliy* المتولي (general manager) should proceed the spending according to the priorities that indicated in the conditions of *al-waqf* الوقف (endower). The first priority is given for *al-hifadh* الحفاظ (maintenance, conservation, preservation and restoration), no matter who much it costs, even if it consumes the whole revenue. The second priority should be given to what is closest³¹ to *al-hifadh* الحفاظ (conservation) or material upkeep, like the salaries of: *al-imam* الإمام (leader of prayers) for *al-waqf* الوقف (endowment) of mosques; *al-mudrres* المدرس (tutor or scholar) for *al-waqf* الوقف (endowment) of school ...etc., then third closest and so on in the chain of employees and beneficiaries, as I indicated earlier. If the revenue is not sufficient due to any reason, the *al-mutwalliy* المتولي (general manager) and the *al-qadiy* القاضي (judge) should consider other schemes of investments as I shall be demonstrating later in the resources of finance.

By this process one can judge the role that *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation) is playing in perpetuating the role of *al-waqf* الوقف (endowment) in doing endless humanitarian act.

In general, the duties of the *al-mutawaliy* المتولي (general manager), first and for all, is to upkeep, conserve and preserve the endowment project functioning and running for good. In other words his duties is to perpetuate the existence of the premises (principals) of *al-waqf* الوقف (endowment) project in order to make the role of *al-waqf* الوقف (endowment) permanent, endurance and endless according to the conditions of *ash-shari'a* الشريعة (Islamic legislation) and *al-waqf* الوقف (endower).

1-1-2-*Shad* شاد (administrative manager)

The job³² of the *shad* شاد (administrative manager) is a common one in all *kutob al-waqf* كتب الوقف (endowment documents), his main duty is controlling and supervise the management team of the project of *al-hifadh* الحفاظ (conservation). He should have experience in administration, engineering, construction and building works.

1-1-3-*Musharif* مشرف (finance manager)

The *al-musharif* المشرف (finance manager) job is also a common one in all *kutob al-waqf* الوقف (endowment documents), his duty is to collect the revenue of *al-waqf* الوقف (endowment) and supervise its expenditure.

1-1-4-*Shahid* شاهد (witness) This job is also common one in most of *kutob al-waqf* الوقف (endowment documents), his duty is to witness upon the paying of the salaries of the employees and the allocated expenditures of the beneficiaries of *al-waqf* الوقف (endowment) as indicated in *kutob al-waqf* الوقف (endowment documents).

1-1-5-*Katib* كاتب (accountant)

This job is also a common one in all *kutob al-waqf* كتب الوقف (endowment documents), his duty is accounting. He is responsible for all accounting work, the income and the outcome, of the *al-waqf* الوقف (endowment) project.

1-1-6-*Aj-Jabiy* الجابي (collector)

This job is also a common one, the duty of *aj-jabiy* الجابي (collector) is to collect the revenue of *waqf at-tmwheel* وقف التمويل (endowment for finance) from their leasers.

1-1-7-*Khazen* خازن (store keeper)

This job is also common in all *kutob al-waqf* كُتُب الوقف (endowment documents).

1-1-8-*Khazen al-kutob* خازن الكتب (librarian)

This job is limited³³ to `awqaf أوقاف, plural of *waqf* وقف (endowment), *aj-jawami' waal-masajid* الجوامع والمساجد (mosques) and *al-madaris* المدارس (schools). His duty besides being a librarian is *tarmiem al-kutob* ترميم الكتب (preservation of books).

1-1-9-*Farashien wakawama* فراشين وقومة, plural of *farash and kawam* فراش وقوام (servant and clean worker)

Those jobs are also common in all *kutob al-waqf* كُتُب الوقف (endowment documents), their duties are daily cleaning and maintenance.

1-2-The technical team of *al-hifadh* الحفاظ (conservation)

This team is optional as I indicated earlier, in other words it is not found in all *kutob al-waqf* كُتُب الوقف (endowment documents). The reason for this is, perhaps, due to the different understanding of the fact that the first priority of expenditures is given for *al-hifadh* الحفاظ (conservation). Some endowers interpreted this condition by assigning permanent technical team in their endowments; others suffice themselves by hiring technicians for maintenance, preservation or conservation when necessary.

Nonetheless the permanent technical team is in fact elevated and values the presence of the phenomenon of *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation) in Arabic Islamic Civilization. However the technical team is varied from one endowment project to another.

1-2-1-For instance the technical team of *al-madrasa* المدرسة (school) and *at-tankaziyya*³⁴ التكية of the Mamluk Prince Tankiz تنكز in Jerusalem (727 H-1326 AD) was consisted of: *m'imar* معمار (architect).

1-2-2-The technical team of *al-madrasa* المدرسة (school) *as-Surghtmushiyya*³⁵ الصرغتمشية (756 H-1355 AD) in Cairo of the Mamluk Prince Surghtmush صرغتمش was limited to: one *najar* نجار (carpenter).

1-2-3-The technical team of *jami'* جامع (mosque) *almu'ayyad*³⁶ المؤيد (823 H-1420 AD) in Cairo of the Mamluk Sultan *al-Mu'ayyid Sheikh* المؤيد شيخ (815-824 H/1412-1421 AD) was consisted of: *muhandis* مهندس (architect or engineer), *murrkhim* مرخم (marble mason), *sabak* سباك (pipe fitter) and *tabib* طبيب (physician).

1-2-4-The technical team of *jami' wamadrasat*³⁷ جامع ومدرسة (mosque and school) (911 H- 1505 AD) in Cairo, of as-Sultan al-Ghuriي الغوري was consisted of: *muhandisiyn* مهندسين two (engineers or architects), *sabakiyn* سباكين two (pipe fitter), *murrkhimiyn* مرخمين two (marble masons) and one *najar* نجار (carpenter).

1-2-5-The technical team of *al-'imara al-'amira*³⁸ العمارة العامرة (959 H-1552 AD) of Khassakiy Sultan خاصكي سلطان in Jerusalem was assigned and described as follow:

"*rajul najar bana` hajar yaqoom bikhdm it ta'mier al-awqaf wamarmatoha wa`islah al-mahlat birmiha yt'ahdo` ahwaliha fi kul hienin wa`awan min ghier taksulin watawan wamahma waqfa` ala khlalin yasier yosari` ila al-maramth waat-t'amier kiyla yo`dhiy at-taswief waat-ta`akhier` ila dhararin`aziem washrin kathier ... warajul maramtiy yat'ahdo birum ma`ikhtla min`abniyt al-hammamiyn`la al-wajih al-mastur downa taqsiyr wala qusor ... warajul qanawatiy yaqoom bimasalih qanatiy al-hammamiyn waal-'imara ma`saiyr ma yahtaj`iliyh min`iysal al-ma`iliyhma*

"رجل بناء نجار يقوم بخدمة تعمير الاوقاف وممرتها وإصلاح المحلات برمها يتعهد أحوالها في كل حين واوان من غير تكاسل وتوان ومهما وقف على خلل يسير يسارع الى المرممة والتعمير كيلا يؤدي التسويف والتأخير الى ضرر عظيم وشرن كثير ... ورجل مرمتي يتعهد برم ما اختل من الابنية والحمامين على الوجه المسطور دون تقصير وقصور ... ورجل قنواطي يقوم بمصالح قناتياحمامين والعمالة مع ساير ما يحتاج اليه من اصال الماء اليهما ...".

[one man who is qualified to be a carpenter, builder (stonemason) and stonecutter, capable of serving, conserving and preserving the stores and looking after them on and on and every time, without carelessness and delaying; and whenever he find any defect no matter how small is it, he must immediately conserve and preserve it, in order for laziness and delaying not to cause great harm and big bad for the principals of the endowment ... one man who is expertise in preservation taking care and preserve what deteriorate from the construction of the two baths up to the standards without laziness and imperfectness ... one man pipe fitter taking care and looking after the two canals and the conservation together with what he needs to bring water for the two baths ...]”.

I intended to indicate the description of the duties of each person of the technical team in order to emphasize the presence of the phenomenon of *al-hifadh al-m'imariy* الحفظ المعماري (architectural conservation) in Arabic Islamic civilization. It is interesting to mention here that *al-'imara al-'amira* العمارة العامة is still existing and functioning, as part of a big vocational school for orphans inside the traditional center (historical center or the old city) of Jerusalem.

However the *al-waqfoon* الواقفون (endowers) who assigned technicians are more than I have place to enumerate in this paper. I just indicated the above mentioned technical jobs in order to show that all aspects and issues of *al-hifadh* الحفظ (conservation) are covered in *kutob al-waqf* الوقف (endowment documents).

By now, I have tried to show the role of the management team in the phenomenon of *al-hifadh al-m'imariy* الحفظ المعماري (architectural conservation). In the course of discussions, I demonstrated the two types of the management team, administrative and technical. I recorded the major and common jobs that correspond directly to the phenomenon of *al-hifadh* الحفظ (conservation). I elaborated on the duties of the *al-mutwalliy* المتولي (general manager) and focus upon the role of the technical team in the phenomenon of *al-hifadh* الحفظ (conservation). In conclusion, as I indicated in the beginning of discussions, the management team represents the theoretical techniques in the phenomenon of *al-hifadh* الحفظ. In the following discussions I shall be highlighting the technical techniques of *al-hifadh al-m'imariy* الحفظ المعماري (architectural conservation) but after I discuss the finance resources of *al-hifadh* الحفظ (conservation).

2-The finance resources of *al-hifadh* الحفظ (conservation)

I indicated earlier that the finance resources are attained from *waqf at-tmwheel* وقف التمويل (endowment for finance); I also indicated in the conditions of the *al-waqif* الواقف (endower) and in the duties of the *al-mutwalliy* المتولي (general manager) that the absolute priority of spending the revenue of *al-waqf* الوقف (endowment) must be given to “*al-hifadh 'ala al-'a'iyān al-muqofa* الحفظ على الأعيان الموقوفة [conservation of the principals of the endowment]”. Then the second priority in the chain of the closest in the process of upkeep the project of *al-hifadh* (conservation) and so on.

I also mentioned that different schemes of investment were coined and recorded in *kutob al-waqf* كتب الوقف (endowment documents). And others were initiated by *al-mutwalliyon* المتوليين, plural of *mutwalliy* متولي (general manager) and *al-fuqha'* الفقهاء (jurists) in the course of time, in order to attain “*al-hifadh 'ala al-'a'iyān al-waqf* الحفظ على أعيان الوقف [conservation of principals of endowment]”; in order to sustain and perpetuate the role of *al-waqf* الوقف (endowment). I shall indicate first the schemes that recorded in *kutob al-waqf* كتب الوقف (endowment documents), those are:

1-Saving the surplus of the revenue of *waqf at-tmwheel* وقف التمويل as in *kitab waqf* كتاب وقف (endowment document) Qaytbay³⁹ قايتباي and Barsbay برسباي .

2-Buying new premises by the surplus of the revenue of *waqf at-tmwheel* وقف التمويل (endowment for finance) and adding them to it as in *kitab waqf* كتاب وقف (endowment document)⁴⁰ of The Mamluk Sultan-Naser Mohamed Ibn Qalawun ناصر محمد بن قلاوون (698-708 H/ 1298-1308 AD).

3-Adding new premises as new *waqf tamwheel* وقف تمويل (endowment for finance) to the old one in order to consolidate it, as in *kutob waqf* كتب الوقف (endowment documents), Sultan-Naser Mohamed Ibn Qalawun ناصر محمد بن قلاوون and the Mamluk Sultan al-Ashraf Barsbay⁴¹ الأشرف برسباي (825-841 H/1422-

1437 AD). And *kutob waqf* وقف (endowment documents) *aj-jawami' wa al-masajid* الجوامع والمساجد (mosques) like *al-haram ash-sharif* الحرم الشريف (grand mosque) in Mecca مكة, *al-haram ash-sharif*⁴² الحرم الشريف in al-Madina al-Monawra المدينة المنورة, *al-masjed al-Aqsa* المسجد الأقصى in Jerusalem, *aj-jami' al-'amawi* الجامع الأموي in Damascus and *aj-jami' al-azhar*⁴³ الجامع الأزهر in Cairo ... etc.

4-Preserveing amount⁴⁴ of the revenue of *al-waqf* الوقف (endowment) for future maintenance, conservation and preservation. This is an obligatory condition in some *waqf* وقف (endowment) projects and optional in others, in order to consolidate; and not to contradict the obligatory condition that required in all *al-waqf* الوقف (endowments) projects that absolute priority of spending the revenue of *al-waqf* الوقف must be given to *al-hifadh* الحفاظ (conservation).

The other schemes that were coined by *al-mutwalliyyon* المتولون, plural of *mutwalliy* متولي (general manager) together with *al-fuqha* الفقهاء, plural of *faqih* فقيه (jurist) and not recorded in *kutob al-waqf* وقف (endowment documents) were instrumented, in order to compensate the shortage of the revenue of *waqf at-tmwheel* وقف التمويل (endowment for finance); when it is no longer enough to make and attain "*al-hifadh 'la' a'iyān al-waqf* الوقف أعيان الحفاظ على أعيان الوقف [conservation of principals of endowment]", those are:

5-*Al-khlo*⁴⁵ الخلو (evacuation), this is an invented scheme of investment. It occurred when *'a'iyān al-waqf* أعيان الوقف (the principals of endowment) destructed and the revenue of *al-waqf* الوقف (endowment) no longer sufficient to conserve, preserve or reconstruct the principals of endowment. The *al-mutwalliy* المتولي (general manager) of the *al-hifadh* الحفاظ (conservation) project either asks investors to conserve, preserve or reconstructs the principals; or investors offer to do so by themselves. The investor pays the equal value of the premise (principal) that need conservation, preservation or reconstruction in order to make the required conservation, preservation or reconstruction.

The return of this investment is that the investor has the right to lease the reconseved, represerved or reconstructed principal for his life by paying equal rent every year as similar premises. The *al-mutwalliy* المتولي (general manager) cannot evacuate him as far as he pays the equal rent. He also has the right to sell *al-khlo* الخلو (evacuation) with all his privileges.

This scheme was coined in the period of the Mamluk Sultan al-Ghuri الغوري (911 H -1505 AD), who lease his *hawaneet* حوانيت, plural of *hanoot* حانوت (shop) by *al-khlo* الخلو (evacuation)⁴⁶.

6-*Al-hakr*⁴⁷ الحكر (preserve in hand), this is also an invented scheme of investment. It is similar as *al-khlo* الخلو (evacuation), but investor has the right to build or rebuild; plant or replant the *al-'qar* العقار (premise or land - principal- of endowment) and posses the right of lease for his life. He also has the right to inherit it to his sons and *whabho* وهبه (to giveaway it as a gift). Here it should be understood that *al-muhtkir* المحتكر (preserver in hand) does not possess the principal but the right of lease. This scheme was coined during the Mamluk era (648-923 H/1250-1517AD).

7- *Al-'ijaratiyn*⁴⁸ الإجاريتين (the two lease contract), this is also an invented scheme of investment. The first *'ijara* إجارة (lease contract) is a permanent one; its value is similar to the value of the premises (principals) of *al-waqf* الوقف (endowment) and paid on the spot in order to be used in conserving, preserving or reconstructing the principals of *al-waqf* الوقف (endowment). The second *'ijara* إجارة (lease contract) took place after the reconstruction of the principals and its value is equal to similar premises. Its rules are the same as *al-hakr* الحكر (preserve in hand). This scheme was coined during the regime of the Ottoman Sultan Sulaiman al-Qanuni (926-974 H/1520-1566 AD).

Those schemes were and still are instrumented in favor of *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation). Here one must realize that *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation) is a core issue not just in perpetuating the role of *al-waqf* الوقف (endowment) in doing humanitarian act, but in urbanism as well.

One aspects of urbanism is that the three schemes of investment cannot be performed without the permission of the *al-qadiy* القاضي (judge). He must give his approval; and before that he assigns a technical committee⁴⁹ to report upon the situation of principals of *al-waqf* الوقف (endowment). The committee consists of a *m'imar* معمار (architect) or more and other expertise persons together with *shahd* شاهد (witness) or more; and according to their report the *al-qadiy* القاضي (judge) decides whiter to approve the deal or not. In the

following discussions I shall displayed the role of reports in *al-hifadh al-m'imariy* الحفظ المعماري (architectural conservation), particularly upon the technical techniques of conservation.

***At-Taqarier al-handasiyya* التقارير الهندسية (the technical and engineering reports)**

The *at-taqarier* التقارير (reports) of the technical committees played a remarkable role in the kind of conservation, the premises (principals) of *al-waqf* الوقف (endowment) required. It is worth mentioning here that most of the technical techniques of conservation were the outcome of those reports. Some of them were very highly professional; and constitute, in my view, an artistic, architectural and engineering documents and records of conservation, like the report of: *as-sukariya fi as-sukariya* السكرية في السكرية, that was made to state the case of *dar al-hadeith as-sukariya*⁵⁰ دار الحديث السكرية (the school of the tradition of prophet Mohamed, peace be upon him) in Damascus (785 H-1383 AD). For although this report is not the first in the course of time; but it is perhaps and up to my knowledge, the most comprehensive one. I shall limit discussions⁵¹ in this topic to this report.

The *at-taqarier* التقرير (report) of *as-sukariya fi as-sukariya* السكرية في السكرية

This report, by all means in my view, is considered a historical and technical record. Partly because the great jurist and *faqih* فقيه (legislator) *al-imam* Ahmed Ibn Tiymiya الإمام أحمد بن تيمية (661-728 H/ 1262-1320 AD) was teaching in the school. And partly because it was a very highly professionals report, put by three of the famous *m'imariyat* معمارية, plural of *m'imar* معمار (architect), *aj-jami' al-'amwaiy* الجامع الأموي in Damascus.

The report began by locating the site of the school among the architectural fabric, marking and defining its boundaries in the urban structure of Damascus; and recorded its set of values. Then the report described its planning and architecture depicted its artistic qualities and stated its construction quality. The report proceeded by suggesting the required techniques of conservation that varied between: reconstruction, renovation and addition. Then the report indicated the privileges that the school would attain by doing the suggested conservation; and the name of the donator for doing the conservation. Finally the report ended by recording that the report was written upon the request of the donator and the order of the *al-qadiy* القاضي (judge) and registered in his court; and entailed by the date of the report (785 H-1383 AD) and the signature of the three architects together with the ratification of the *al-qadiy* القاضي (judge).

I must emphasize here, once again, that no major conservation of the premises (principals) of *al-waqf* الوقف (endowment) is allowed or commence without the permission of the *al-qadiy* القاضي (judge), or higher authority. Who must form a committee as I described earlier, then a technical report must be presented before him and accordingly the process of conservation took place as described in the report, where techniques of conservation were coined as I shall be demonstrating in the following discussions.

The technical techniques of *al-hifadh* الحفظ (conservation)

In the course of discussions in this paper I presented too many key terms that denote and connote conservation and preservation of the premises of *al-waqf* الوقف (endowment); like: *baqa' 'iyanho* بقاء عينها (keeping alive their principals); *la yindaris rasmuha* لا يندرس رسمها (their principals must not gone in ruins); *wala yughier rasmuha wahiya qa'ma 'ala usoliha* ولا يغير رسمها وهي قائمة على أصولها (their principals must not change and should remain as it was when endowed) ... etc. In addition to the terms of *al-'imara* العمارة (preservation) *waat-tarmiem* والترميم (conservation) that were clearly recorder in the documents of *al-waqf* الوقف (endowment). All those terms and rules were crowned by the legislative rule that indicates that: "*la yajoze taghiyyer sifat al-waqf*" لا يجوز تغيير صفة الوقف (the change of the entity, shape and function of *al-waqf* الوقف premises is not allowed, prohibited and forbidden).

Those terms and rules impose the degree, level and kind of the required interference to the conservation process to sustain and perpetuate the principals of *al-waqf* الوقف (endowment). In surveying the technical reports, *sijillat al-waqf* سجلات الوقف (records of endowments) and *kutob al-khattat* كتب الخطط (urban planning books) and other sources. I found seven techniques that were used in the process of conservation to meet the conditions of *ash-shari'a* (Islamic legislation) and *al-waqif* الواقف (endower), the first two techniques was put by *al-waqif* الواقف (endower) and documented in *kutob al-waqf* كتب الوقف (endowment documents). I shall demonstrate them in the following discussions.

1- *Al-'Imara* العِمارة (conservation and preservation)

This term⁵² came in *kutob al-waqf* كتب الوقف (endowment documents) as I indicated earlier. It means to repair, maintain, and conserve the premises (principals) of *al-waqf* الوقف (endowment). Yet it means to make all the necessary require works that conserve and preserve principals of *al-waqf* الوقف (endowment) according to the legislative rule: “*la yajوزه taghiyyer sifat al-waqf* لا يجوز تغيير صفة الوقف [the change of entity, form and function of the premises (principals) of the *al-waqf* project is not allowed, prohibited and forbidden]”. Yet *al-'imara* العِمارة implies all repairs that required to ensure application of the previous rule; therefore it is equal in meaning to conservation and preservation. But *al-'imara* العِمارة, as a concept and in terms of time, is earlier than both of conservation and preservation; it went back in time and use in Islamic civilization to the (1st century H/7th century AD) that was applied in *al-ka'ba al-mushrafa* الكعبة المشرفة (holy shrine) in the city of Mecca. However the best definition and application of this technique is found in item 1-2-5 of the technical team of *al-hifadh* الحفاظ (conservation).

2- *At-Tarmiem* الترميم (conservation)

*At-tarmiem*⁵³ الترميم is the repairing of the ruinous, deteriorative and destructive elements or parts of premises (principals) of *al-waqf* الوقف (endowment), no matter how large the repairing, as far as it did not reach total demolition or destruction that required reconstruction of the whole premise (principal); in other words *at-tarmiem* الترميم is the keeping in safety of the premises (principals) of *al-waqf* الوقف (endowment).

The *al-faqih*⁵⁴ (jurist) Omer ash-Shibaniy al-Khasaf الفقيه عمر الشيباني الخصاف (died 261H-874 AD) defined *at-tarmiem* الترميم s: “*tathiyn usthuh or t'azier hithan or taghier ajduo' fi al-'asquf* أو تآخير اسطح أو تآخير حيطان أو [repairing of ceilings or strengthening of walls or changing part/s of the roof] ...”.

It is worth mentioning here that secondary or partial demolition of buildings does not consider reconstruction but *tarmiem* ترميم (conservation). Yet the *at-tarmiem* الترميم (conservation) is the partial repairing of buildings in order to keep their original entity as much as possible. The *at-tarmiem* الترميم (conservation) is not limited to buildings, it include books and furniture.

In the previous discussions I displayed the two technical or practical techniques of *al-hifadh* الحفاظ (conservation) that were conditioned by *al-waqif* الوقف (endower) and emphasized in *kutob al-waqf* كتب الوقف (endowment documents) namely: *al-'imara waat-tarmiem* العِمارة والترميم (preservation and conservation). In the following discussions I shall demonstrate the rest of the technical techniques that were indicated in the *at-taqrier* التقارير (reports), *sijillat al-waqf* سجلات الوقف (records of endowment) and *kutob al-khattat* كتب الخطط (urban planning books) and other sources.

3- *At-tajdied* التجديد (renovation)

*At-tajdied*⁵⁵ التجديد (renovation) means to renew or to improve the quality of an object, element in a building or more, or the whole building. This term came abstract in some sources and detailed in others. Yet its limit as a technical technique is not defined clearly. It varied from improving the quality of certain elements as in the case of *tajdied* تجديد (renovating) the doors⁵⁶ of *aj-jami' al-'amouiy* الجامع الأموي in Damascus by cladding them with brass (607 H-1210 AD); to partial demolition, as in the case of the southern wall⁵⁷ of the same *jami'* جامع (mosque) that was demolished and built from anew with new building material (728 H- 1327 AD); to total demolition as indicated by the Egyptian urban historian al-Maqrizi (766- 845 H/1364- 1441 AD), that the Mamluk Sultan al-Ashraf Barsbay الأشرف برسباي ordered (832 H-1428 AD) the demolishing of *hawaneet as-saiyarfa*⁵⁸ حوانيت الصيارفة (shops of money exchangers) and *souq al-kutob* سوق الكتب (books market) ...etc. *watajdiedaha* وتجديدها (renovating them). The last case was clearly mentioned in *taqrier* تقرير (report) of *as-sukariya fi as-sukariya* السكرية في السكرية, the report indicated that parts of the school need “*tajdied 'imara wafak wa'i'ada* تجديد عمارة وفك وإعادة [renovating architecture by dismantling the old structure and rebuild it again].

The examples of this technique are very wide and more than I have place to enumerate in this paper. However *At-tajdied* التجديد (renovation) is a kind of *tarmiem* ترميم (conservation) with different levels of interference, It could be done by the same material or by new one, it depends on the case of the original material. But in both cases the legislative rule that says “*la yajوزه taghiyyer sifat al-waqf* لا يجوز تغيير صفة الوقف

الوقف [the change of entity, form and function of the premises (principals) of the *al-waqf* project is not allowed, prohibited and forbidden]”.

4- *Al-Idhafa* الإضافة (addition)

Al-Idhafa الإضافة⁵⁹ (addition) is the process of adding a new building or architectural and structural elements-either for enlargement or for consolidation - under sever restriction and with permission and approval of the *al-qadiy* القاضي (judge). In both cases a technical committee must report upon the case of the building, as to whether the new addition affects passersby or neighboring buildings. If the new addition does not harm others the *al-qadiy* القاضي (judge) give his permission.

The oldest additions⁶⁰ in the history of Islamic architecture were those of *al-ka'ba* الكعبة and *al-masjid al-haram* المسجد الحرام (the holy shrine) in Mecca (64 H- 684 AD). The additions for *al-masjid al-haram* المسجد الحرام continued until our present time; currently the largest addition, perhaps in the history of urbanism in the world, is taking place in the heart of Mecca to enlarge *al-masjid al-haram* المسجد الحرام.

Many additions were recorded in *kutob al-khtat* كتب الخطط (urban planning books); one of them is the addition of a new hall for the *al-baymaristan*⁶¹ (hospital) *al-mansuoriy* المنصوري in the year (726 H- 1325 AD) in Cairo. One of the additions in *aj-jami' al-'amwaiy*⁶² الجامع الأموي in Damascus was the addition of *miharab* محراب (niche) *al-hanabila* الحنابلة (730 H- 1329 AD).

However additions do not contradict with the former indicated legislative rule. Because they implemented in order to consolidate premises of *al-waqf* الوقف (endowment), physically and financially. Physically additions must not cause any radical change in *sifat al-waqf* صفة الوقف (entity and form of endowment); original form should sustain its features as much as possible.

5- *Ar-Raq'* الرقع (restoration)

Ar-Raq' الرقع⁶³ is the replacement of fallen building materials and deteriorated ones, with new ones from the same kind. This technique was coined and suggested by *al-faqih* الفقيه (jurist) Ibn Abass for the conservation of the *al-ka'ba al-mushrafa* المشرفة (holy shrine) in Mecca مكة , when the governor of Mecca Ibn az-Zubier الزبير (63-73H/682-692AD) decided upon demolishing it (64H/683AD) and rebuilding it from anew.

Yet *ar-raq'* الرقع is a partial *tarmiem* الترميم (conservation) process with the use of new building material from the same kind when necessary. This technique used frequently in different *waqf* وقف (endowment) project under the same term and other techniques terms. *Ar-raq'* الرقع is perhaps equal to the English term restoration.

6- *Al-Qal' wa'an-nasib* القلع والنصب (taking out and re-erecting)

*Al-Qal' wa'an-nasib*⁶⁴ القلع والنصب is the process of taking out the deteriorated or unfixed building material and the reuse of the good ones; and the replacement of the deteriorated ones with new ones of the same kind. This technique was coined by the urban historian al-Azraqi الأزرقى (died 250 H- 864 AD) when the Baghdadian *m'imar* معمار (architect) Isaq Ibn Salama made the conservation of *al-ka'ba al-mushrafa*⁶⁵ المشرفة (holy shrine) in Mecca (241-242H/846-861AD) where he took out the old and deteriorated marble of the *al-ka'ba* الكعبة and replace it with the new marble he brought from Baghdad.

This technique is similar to *ar-raq'* الرقع, it is a partial *tarmiem* ترميم (conservation) process but with the use of old building material together with new ones of the same kind when needed. In certain cases old architectural elements and building material were taken from famous buildings and fixed in others. As a case in point the Mamluk Sultan al-Ghuriy⁶⁶ الغوري (911 H- 1505 AD) took out the floor marble of one of the famous palaces in Cairo, namely, *qa'ath nusif ad-duniya* قاعة نصف الدنيا and fixed it in his very famous *qa'ath ad-dihisha* قاعة الدهيشة. It is interesting to mention here that the Ottoman Sultan Salim⁶⁷ سليم (918-928 H/1512-1520AD) when he occupied Egypt (922 H- 1516 AD) took out the same marble floor of *qa'ath ad-dihisha* قاعة الدهيشة and shipped it to Istanbul and erected it in his school.

Many examples of this kind were occurred; some of them were performed as antique trade. For instance as-Sultan al-Ghuriy⁶⁸ الغوري bought the marble floor of *qa'at ath-thabundi* قاعة الطنبدي in Cairo for its artistic

value and fame where he erected it in his palace. This trade was recorded and documented in the court before the judge.

Yet *al-qal' wa'an-nasib* القلع والنصب is a partial *tarmim* ترميم (conservation) process; conceptually it is associated with richness of material, value and fame. It is difficult to find an equal term to it in English.

7- *Al-Hadim wa'i'adit al-bina'* الهدم وإعادة البناء (demolishing and reconstructing)

Many terms were used for this technique and all of them have the same meaning or concept and that is: the partial or total demolishing of the premises of *al-waqf* الوقف (endowment) and reconstructing it from anew. This technique is used when no other technique of the previous ones is fit for the conservation process. The reconstructing must coincide with the legislative rule "*la yajوزه taghiyyer sifat al-waqf* لا يجوز تغيير صفة الوقف [the change of entity, form and function of the premises (principals) of the *al-waqf* project is not allowed, prohibited and forbidden]".

The first use of this technique was made by the governor of Mecca, Ibn az-Zubaier⁶⁹ ابن الزبير (63-73H/682-692AD), where he demolished *al-ka'ba al-Mushrafa* الكعبة المشرفة (holy shrine) and reconstructed it from anew. He brought the stones from the same stone pit of the old ones and used the same lime for mortar. Furthermore Ibn az-Zubaier ابن الزبير consulted the people of Mecca before the demolition; he took their approval and witnessed the elderly of them on the whole process of conservation. Yet Ibn az-Zubaier ابن الزبير initiated the notions of public participation and authenticity in the *al-hifadh* الحفاظ (conservation) process.

This technique used frequently in all Arabic cities like: Damascus⁷⁰ دمشق, Cairo⁷¹ القاهرة, al-Qirawan⁷² القيروان...etc. But in all cases the legislative rule was taking, almost always, in account in this technique.

Finally one can argue that the seven techniques of *al-hifadh* الحفاظ (conservation) were practiced with different levels of interference. And in spite of their intervention all of them were and still are bound by the conditions of the *ash-shari'a* الشريعة (Islamic legislation) and the conditions of *al-waqif* الواقف (endower).

In the previous discussions I demonstrated a remarkable element in the phenomenon of *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation) of Islamic civilization; in the following discussions I shall come to the end of this paper by highlighting the notion of the *as-sijill* السجل (record).

As-Sijill السجل (record)

As-sijill al-m'imariy السجل المعماري (architectural record) in its simplest meaning is the history of building/s that have architectural, aesthetic, technical, social, religious, educational, cultural and political values. In short *as-sijill* السجل (record) is the comprehensive information about every building of any importance that has values as those indicated.

The structure of *as-sijill* السجل (record)

In the course of discussions in this paper I referred to many elements that constitute essential and major factors in the recordation process like: **techniques of documentations of *al-waqf* الوقف (endowment) premises, designation of *al-waqif* الواقف (endower), his position in society, function and use of premises of *al-waqf* الوقف (endowment), dates of their construction and endowment, building materials, their location and borders in the architectural fabric of cities, their description and depiction. More to the point, management of the project of *al-waqf* الوقف (endowment), administratively and technically; finance resources, budgeting, expenditure plan and consolidation of finance resources.** Those elements in fact constitute the structure of *as-sijill* السجل (record).

Types of the *as-sijillat* السجلات (records)

As-sijill al-m'imariy السجل المعماري (architectural record) is as old as Islamic civilization. In fact it is older than Islam; its sources go back in history to al-Jahilliyya الجاهلية (pre-Islamic) verse. Yet it is, by all means, the oldest in the history of urbanism. There is no civilization in the world history concerned itself in writing the history of its architecture and documenting, coherently and comprehensively, what comes up on its buildings of additions, maintenance and conservations like Islamic civilization. I shall refer to those sources and display the role of each one of them in the following discussions.

1- The al-Jahilliyyha الجاهلية (pre-Islamic) verse

The beginning of recordation of architecture, in my view, could be ascribed to the contribution of al-Jahilliyyha verse⁷³. One of the genres of al-Jahilliyyha verse was *an-nasib* النسيب or *at-tashbib* التشبيب (memory of the houses and places of residence of poets' beloveds). This genre, namely *an-nasib* النسيب wove the interaction of poets with their environment. This interaction resulted in drawing the relation between poet and place. It took the form of absolute documentation that was based on close seeing, personal association, examining gaze, critical notice and analytical description; and spelled it out through comprehensive commentary.

Its outcome was a *sijill* سجل (record) of architecture of Arabian Peninsula; which set out the techniques of writing history of architecture that in its turn introduce one to: place and its environment, climatic factor, type of architecture (antiquities) and its function, name of patron and his social position, the history of making architecture and the period of construction, building material, construction techniques, dimensions, area of premises and characteristics of form.

This is the first and simple record in Arabic architecture; other sophisticated records were initiated in Islam. They took many forms and they were the outcome of many sources, those are:

2- *Kutob al-waqf* كتب الوقف (endowment documents)

Kutob al-waqf كتب الوقف (endowment documents) are the oldest and accurate *sijill* سجل (record) known in human civilization. Each document represents a record in itself for a group of buildings. I displayed its structure earlier in the course of discussions in this paper. I emphasized that its structure is contained all elements of *as-sijill* السجل (record) except the upkeep and conservations works that comes up after recorded the document. Those new works were documented and recorded in the architectural and engineering reports that were kept in the courts of judges, the books of history and *kutob al-khttat* كتب الخطط (urban planning books) as I indicated earlier in this paper.

The value of this record is attained from the value of endowments themselves. It is not just a record for certain buildings; in fact *al-waqf* الوقف (endowment) documents represent the history of urbanism in Arabic and Islamic cities. The history of this record go back to the first *al-waqf* الوقف (endowment) document put by *al-imam ash-Shaf'iy*⁷⁴ الإمام الشافعي (150-204 H/767-819 AD). It sets out principles of documentation and recordation of *al-waqf* الوقف (endowment) as I indicated earlier.

2- *Sijillat al-qudat* سجلات القضاة , plural of *sijill* سجل and *qadiy* قاضي , (records of judges)

I indicated that *kutob al-waqf* كتب الوقف (endowment documents) were and are still written in the court before the judge. In many cases a copy of each document⁷⁵ was kept with the judge who wrote and ratified it. Those documents, together with the technical reports that *al-qudat* القضاة (judges) kept are of great value. Because judges are those who put and documented all the conditions of *ash-shari'a* الشريعة (Islamic legislation) and *al-waqif* الواقف (endowers) that constitute the structure of *al-waqf* الوقف (endowment); that in their turn constitute the structure of records. Furthermore Judges are forms the technical committees and keep their technical reports for the conservation of the premises of *al-waqf* الوقف (endowment) in their courts.

Yet records of judges are richer than individual *waqf* الوقف (endowment) document, because they contained technical reports of conservation and their application on the premises of *al-waqf* الوقف (endowment). The documents and contracts of trade of real estate properties; and contracts of trade of building material, artistic and architectural elements. Those records document the history of each building and facilitate understanding its physical state, its location in the architectural fabric and the urban structure of cities.

3- *Diwan al-ahbas* ديوان الأحباس (archive of endowments) in al-Fatimied State

This *diwan*⁷⁶ ديوان (archive) was a *sijill* سجل (record) for endowment. It was found by al-Khalifa al-Fatimiy al-Mu'is liDean Ullah الخليفة الفاطمي المعز لدين الله (341-365 H/952-975 AD), where he ordered in the year (363 H-973 AD) to keep and preserve the revenues of *al-waqf* الوقف (endowment) in *beit al-mal* بيت المال (treasury). He assigned *qadiy al-qudat* القاضي القضاة (the judge of judges or the grand judge) as chairman for this *diwan* ديوان (archive). This *diwan* or *sijill* ديوان أو سجل (archive or record) contain all *al-awqaf* الأوقاف (endowments) of public interest like, *jawami* الجوامع, *baymaristanat* البيمارستانات, *madaris* المدارس, *hawaneet* الحوانيت,

hamammat ... etc. But those of *al-waqf al-khayri* (endowment) that assigned for certain beneficiaries were recorded in *sijill diwan al-ahbas* سجل ديوان الأحباس but their management remained on the hands of *al-mutwalliyon* المتولون (general managers).

This *sijill* (record) is more comprehensive than the previous ones, because it contained all *Sijillat al-qudat* سجلات القضاة (records of judges) beside the documents of the new *awqaf* أوقاف (endowments), the new technical reports, dates and types of techniques of conservation that took place during the regime of the Fatimied State.

The revenue of *al-waqf* الوقف (endowment), according to the urban historian al-Maqrizi⁷⁷ was 1,500,000/- *dirham* درهم. The *sijill diwan al-ahbas* سجل ديوان الأحباس organized the budget and assigned payroll for the employees of *al-waqf* الوقف (endowment); allocated the daily, monthly and yearly expenditure of the premises of *al-waqf* الوقف (endowment) like: *aj-jawami* الجوامع, *al-mashahed* المشاهد, *baymaristana* البيمارستانات, *al-madaris* المدارس and all *al-waqf* الوقف (endowment) premises. And most important is the required and occasionally expenditure of *al-imara waat-tarmiem* العمارة والترميم (conservation and preservation) of the premises of *al-waqf* الوقف (endowment).

The *diwan al-ahbas* ديوان الأحباس remained functioning until the end of the Fatimied state (567 H-1171 AD). In my view this *sijill* (record) was the first comprehensive record in the history of the phenomenon of *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation) in particular and urbanism in general. It was a rich source for the books of history and *al-khttat* الخطط (urban planning).

4-Mal al-masalih مال المصالح (the interest money)

This *sijill*⁷⁸ (record) was a private one and devoted for *awqaf aj-jami' al-amwaiy* أوقاف الجامع الأموي (endowments of Umayyad mosque) in Damascus. It was found by prince Noor ad-Dean Zankiy نور الدين زنكي (541-569 H/1146-1173 AD) where he ordered in the year (461 H-1068 AD) to rewrite all *kutob waqf aj-jawami* كتب الجامع الأموي (endowments documents of the mosque). He also ordered to add to them all the *al-awqaf* الأوقاف (endowments) that their *waqifon* الواقفون (endowers) were unknown and as a consequence their conditions no longer known.

This *sijill* (record), in spite of being private and limited for *aj-jami' al-amwaiy* الجامع الأموي, it was of great importance because it saves and preserves *kutob awqaf* (endowments documents) of *aj-jami' al-amwaiy* الجامع الأموي; that was renewed in the year (699 H-1299 AD) by the Mamluk governor of Damascus as-Sahib Baha' ad-Dean⁷⁹ . He also added the documents of the new *awqaf* (endowments) to the *sijill* (record).

This *sijill* (record) was a rich source for all the works of *al-hifadh* الحفاظ (conservation) that took place in *aj-jami' al-amwaiy* الجامع الأموي; and valuable source for a great part of *awqaf* أوقاف (endowments) Damascus. It was also a magnificent source for books of history and *al-khttat* الخطط (urban planning).

5- Diwan al-ahbas ديوان الأحباس (archive of endowments) in al-Mamluk state

After the end of the Fatimied state in Egypt and abortion of Noor ad-Dean نور الدين regime in Damascus the documents of *al-waqf* الوقف (endowment) went back to judges. This case remained during the 'Ayobied state and the beginning of the Mamluk state. Then according to al-Maqrizi⁸⁰ the Mamluk state reformed the *sijill diwan al-ahbas* سجل ديوان الأحباس (record of the archive of endowment) and divided it into three parts:

5-1-Diwan 'ahbas (archive of endowment) of as-Sultan ديوان أحباس السلطان

This *sijill* (record) was devoted for *awqaf* أوقاف (endowments) of as-Sultan. It was headed by *hajib* (secretary of) as-Sultan together with *nazer or mutwalliy al-waqf* (general manager of endowment); and a group of *kutab* كتاب, plural of *katib* كاتب (accountant) and *jubat* جباة, plural of *jabi* جابي (collector).

5-2-Diwan al-awqaf al-hakmiyya ديوان الأوقاف الحكيمة (archive of al-masjid al-haram in Mecca and al-masjid an-Nabawiyy in al-Madina al-Monawra)

This *sijill* سجل (record) was devoted for *awqaf* أوقاف (endowments) that belong to *al-harmiyn ash-sharifiyn* الحرمين الشريفين (the two holy mosques) in Mecca and al-Madina, the poor and the captive soldiers. The *al-mutwalliy* المتولي (general manager) of this *sijill* سجل (record) was *qadiy al-qudat ash-shafi'iy* قاضي قضاة (the judge of judges of the sect of *al-imam ash-Ashafi'iy* الإمام الشافعي). In certain cases the authority of the *al-mutwalliy* المتولي was extended to include the *al-awqaf* الأوقاف (endowments) of Cairo and all Egypt. A management team consisted of a group of *kutab* كتاب, plural of *katib* كاتب (accountant) and *jubat* جباة, plural of *jabi* (collector) together with *shad* شاد (administrative manager), *musharif* مشرف (finance manager) and *shahid* شاهد (witness) or more were working in the this *diwan* ديوان (archive) or *sijill* سجل (record).

The revenue of those *awqaf* أوقاف (endowments) was allocated for *'imarth watarmiem* العمارة والترميم (conservation and preservation); and the daily, weekly, monthly and yearly expenditure of *al-harmiyn ash-sharifiyn* الحرمين الشريفين (the two holy mosques) in Mecca and al-Madina.

This *diwan* ديوان (archive) was a comprehensive *sijill* سجل (record) for all the buildings that were *waqf* الوقف (endowment) in Cairo and Egypt for *al-harmiyn ash-sharifiyn* الحرمين الشريفين (the two holy mosques in Mecca and al-Madina). It was also a record for all the working of conservation and preservation that took place or executed in that era together with their costs. Fortunately those parts of this record were indicated by the Egyptian urban historian al-Maqrizi المقرئ and other urban historians.

5-3-Diwan al-awqaf al-*hliya* الأوقاف الأهلية (archive of humanitarian endowment)

Al-awqaf al-ahliya الأوقاف الأهلية means *al-awqaf al-khayriya* الخيرية (humanitarian endowments). I highlighted this *waqf* وقف (endowment) earlier and emphasized that it was conducted by *al-mutwalliyon* المتولون (general managers) and recorded in the court of the judge. Yet all *al-awqaf al-khayriya* الخيرية (humanitarian endowments) were recorded in this archive in much the same way there was recorded in *Sijillat al-qudat* سجلات القضاة (records of judges).

Furthermore recent studies⁸¹ on this archive emphasized that all *kutob al-waqf* كتب الوقف (endowment documents) were written in a book known as *al-mizbatha* المظبطة (record) and signed by *as-shuhod* الشهود, plural of *shahid* شاهد (witness) and *al-qadiy* القاضي (judge); and a brief of *kutob al-mizbatha* كتب المظبطة were recorded in another book known as *as-sijill*⁸² سجل (record).

The famous historian, sociologist and *qadiy al-qudat* القاضي القضاة (the judge of judges) Ibn Khaldun ابن خلدون (732-808 H/1332-1406 AD) indicated that there was a profession known as *al-adalla*⁸³ (attorney). The role of this profession was writing contracts⁸⁴ of trade, documenting and recording them in the records of judges.

The sad thing is that all those records were lost during the occupation of Egypt by the Ottoman Sultan Salim سليم (922 H- 1516 AD). And what remained was that kept on the hands of *al-mutwalliyon* المتولون (general managers), judges and what was documented in the books of history and urban planning.

6-The Ottoman *dafter at-tahrier* دفتر التحرير (*sijill* سجل or record book)

In the Ottoman Empire the *as-sijill* سجل (record) of *al-awqaf* الأوقاف (endowments) was more advanced than all the previous records. Its name was *dafter at-tahrier*⁸⁵ دفتر التحرير (record book). A main *dafter* دفتر (record) was in Constantinople, and secondary *difter* دفتر (record) was devoted for each city in the Empire. The procedures of documentation of *al-waqf* الوقف (endowment) premises were so accurate and sophisticated; and it is beyond the endeavor of this paper.

The management of the projects of *al-awqaf* الأوقاف (endowments) together with Budgeting and expenditures were under direct supervision of the state. Complete records for the architectural fabric and urban structure of Arabic and Islamic cities were documented in records. By the year 1826 AD a ministry⁸⁶ for *al-awqaf* الأوقاف (endowments) was found in the Ottoman Empire, all *dafter at-tahrier* دفاتر التحرير, plural of *difter* دفتر (record) were kept in the ministry. The records of *al-awqaf* الأوقاف (endowments) premises from this year start to be part of the archives and diplomats of the government; it remained as such until the fall of the Ottoman Empire (1917-1923 AD). The Arab and the Islamic worlds fall under colonialism and the *al-awqaf* الأوقاف (endowments) premises were treated according to the interest of the colonial powers. And after

liberation from colonialism every Arab state formed a ministry for *al-awqaf* (endowments) and has its own endowments record.

In general and in the course of history many of the records very important and valuable buildings were lost; and many others were saved, whether their *kutob al-awqaf* (endowments documents) were preserved or recorded in *dafter at-tharier* (record books) that are still preserved and kept in the archive of the Turkish government; or in the books of history and urban planning which will be the next and the final subject in this paper.

It is worth mentioning here and before I demonstrated the role of the books of geography, history and urban planning to indicate that great amount of *al-awqaf* (endowments) documents were carved⁸⁷ on stones in the facades of many endowments premises in: Jerusalem, Damascus, Aleppo, Cairo and many other cities; and that help in keeping them as individual records.

7-Geographical, historical and urban planning sources

Those sources are very rich in recording and documenting data about historical buildings, architectural fabric and urban structure of Arabic and Islamic cities, like Mecca, Jerusalem, Damascus, Cairo and all major cities in the Arab and Islamic world. I shall elaborate here, as a case in point, on some of the books of *al-khtat* (urban planning).

The oldest book of urban planning that reached us was of al-Azraqi⁸⁸ الأزرقى (died 250 H- 864 AD), *akhbar Mecca wama Ja' biha min al-athar* أخبار مكة وما جاء بها من الآثار. It is the oldest architectural and urban record, not just in Islamic Civilization, but perhaps in the World Civilizations. Al-Azraqi الأزرقى recorded every single architectural element in the architectural fabric of *al-ka'ba al-musharfa* (holy shrine) and *al-masjid al-haram* (grand mosque) in Mecca. He described them physically, depicted their artistic features, documented their history, dates of construction and reconstruction, their patrons, architects, builders, building material, costs and techniques of conservation.

He also did the same in the urban structure of the city of Mecca. He described its planning scheme that was planned by the governor of Mecca Qusay Ibn Kilab قصي بن كلاب in the 5th AD. He divided Mecca into quarters and determined the form of buildings to be circular in plan and cylindrical in form in order to distinguish them from the cubical form of the *al-ka'ba* (holy shrine). Al-Azraqi الأزرقى located every building in the architectural fabric of the city and defined their borders. He nominated the roads net works, the city hall, markets, the mill, the cemetery ... and all the urban elements in the city.

In fact and by all means, in my view, the book of al-Azraqi الأزرقى is considered, not just a remarkable record, but it was the one that initiated the concept or notion of recording process and mark the beginning in this field.

Other important and more comprehensive book of urban planning was that of al-Maqrizi⁸⁹ المقرئ (766-845 H/1364- 1441 AD), *al-mawa'iz waal-itibar bidhikr al-khtat waal-athar* المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. Al-Maqrizi المقرئ book in fact considered as a record for the whole country of Egypt. He recorded all the urban centers in Egypt and focused on Cairo. He recorded all the urban elements of the city of Cairo, its *khtat* (neighborhoods), roads net work, open areas, gardens and public parks, and all the architectural fabric of the city together with the history of the major buildings, like: *masajid* (mosques), *jawami'* (mosques), *baymaristanat* (hospitals), *madaris* (schools), *zawaiya* (private worship and teaching place), *khawanq* (elderly homes for men) *rihtatat* (elderly homes for women) ... etc. He recorded their history of construction, dates and types of conservation, owners and donators and the devolution of ownership from one to another,

In general al-Maqrizi المقرئ used all techniques of documentation that I mentioned earlier. His sources were *al-awqaf* (endowments) documents, *Sijillat al-qudat* (records of judges) and contracts of trade.

The credibility and authenticity of al-Maqrizi المقرئ documentation came from being himself a *mouhtasib* (mayor) of Cairo, he also worked in the *diwan al-insha'* (archive of the state); where *diwan al-ahbas* (archive of endowments) was part of it. Yet all documents and contracts were exposed to him, particularly the Fatimied, 'Ayopied and Mamluk endowments documents. It is for those

reasons that the book of al-Maqrizi المقيزي was the most comprehensive and highly authentic record for the city Cairo.

A third comprehensive and very authentic record for the city of Jerusalem was made by the Palestinian *qadiy* (judge) Mujier ad-Dean al-'aiylmiy⁹⁰ القاضي مجير الدين العليمي (900 H- 1494 AD), *al'onis 'aj-jaliyl fi tariekh al-quds waal-khaliyl* القدس والخليل , the الأئس الجليل بتاريخ القدس والخليل. He surveyed all the architectural fabric and urban structure of the city of Jerusalem. The book is very similar to that of al-Maqrizi المقيزي. His sources were the 'Ayopied and Mamluk endowments documents, his personal association and daily participation in the life of the city.

His book is very comprehensive and very highly authentic record for the Muslim and Christian vocabulary of the architectural fabric of the city. He described the planning of Jerusalem, indicated its *khattat* خطط and *harat* حارات (neighborhoods), located them and defined their borders in its urban structure. He delineated the roads net work, open areas, walls and doors of the city. He recorded all the vocabulary of the architectural fabric of the city together with their position and borders in the neighborhoods. Their functions and names of the donators of the premises of *al-waqf* الوقف (endowment), dates of their construction, techniques and dates and types of their conservation.

In general the book of Mujier 'ad-Dean الدين مجير is the most reliable record for the architectural fabric and urban structure of Jerusalem until the end of the 15th AD century.

The last record in this paper is the comprehensive and authentic one that was made by the Damascusian historian an-N'aimiy⁹¹ النعيمي (died 978 H-1570 AD), *ad-daris fi thariekh al-madaris* الدارس في تاريخ المدارس. The value of this record is being devoted to schools buildings in Damascus. He classified it alphabetically and surveyed 465 schools; the number was including all teaching buildings, like the three schools of medicine, public schools, the schools in mosques, schools in *zawaiya* الزوايا (private worship and teaching place), schools in *khawanq* الخوانق (elderly homes for men), schools in *ribtatat* الرباطات (elderly homes for women), schools in *mayatem* الميتم (orphanages) and the like.

He also recorded in the book the premises of *awqaf at-tmwheel* أوقاف التمويل (endowments for finance) that belonged to each school. Therefore the book was a main record for the educational buildings (schools) and a secondary one for the premises of *waqf at-tmwheel* وقف التمويل (endowment for finance). He delineated their location, marked and defined their borders in the architectural fabric of Damascus. He authenticated their endowment documents, emphasized the conditions of endowers and their biographies; the dates of endowments and the construction of the premises. He described and depicted them physically, spatially and aesthetically, demonstrated types, techniques and dates of conservation. He highlighted the biographies of the famous tutors of the schools, the curriculums of education that differ from one school to the other, period and time of teaching and the hierarchy of the teaching staff.

In general the book was a very authentic record for the schools of Damascus in the 16th century and other vocabulary of the architectural fabric of Damascus.

Finally architectural records in Islamic Civilization are great in number and more than I have place to enumerate in this paper. I demonstrated the seven previous records as a case in point, in order to demonstrate that techniques of architectural records were found and originated in Islamic Civilization. So much so the phenomenon of *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation).

Summary and conclusion

In outlining the theory and philosophy of *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (conservation and restoration) in Islamic Civilization; discussions highlighted so many topics. It began by drawing the relation between *al-hifadh* الحفاظ (conservation) and the philosophy of history in Islamic civilization. Discussions displayed its four concepts and emphasized that the concept of *at-tawasul at-tharikhiy* التواصل التاريخي (historical continuity) requires, demands and imposes continues and endurance presence of the phenomena of civilization, particularly architectural phenomenon, that its permanent and endurance presence demands continues conservation. It emphasized that the general goal of Islamic philosophy of history requires sustainable *hifadh* الحفاظ (maintenance, conservation, preservation and restoration) for all cultural phenomena, particularly environmental, cultural and architectural ones. And concluded that *al-hifadh* الحفاظ (conservation) is a religious requirement and a cultural necessity.

The discussions that follows demonstrated the structure of *kutob al-waqf* كتب الوقف (endowment documents); and displayed the types of *al-waqf* الوقف (endowment); and focus upon *al-waqf al-khayriy* الوقف الخيري (humanitarian endowment), that in its turn comprise two kinds of premises of *al-waqf* الوقف (endowment) one for use and the other for finance. Discussions highlighted the conditions of the *ash-shari'a* (Islamic legislation) together with the conditions of the *al-waqif* الواقف (endower); and emphasized that both designate in clear and definite terms the irrevocable, endurance, permanent and perpetual role of the projects of *al-waqf* الوقف (endowment); that in their turn constitute the backbone of *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation).

The discussions turned to demonstrate the structure of *al-hifadh al-maimariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation). It argued that it is in a case of intervention with the *al-waqf* الوقف (endowment) institution and delineated that both are two faces of the same coin. Furthermore it came to the conclusion that the phenomenon of *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري was propagated from the *al-waqf* الوقف (endowment) institution; particularly from the perpetual role of *al-waqf* الوقف (endowment) institution. Discussions emphasized that the management team of *al-waqf* الوقف (endowment) project is the same of *al-hifadh* الحفاظ (conservation) project. More to the point discussions demonstrated that the all the theoretical techniques of *al-hifadh* الحفاظ (conservation), that indicated, in the course of discussions, in this paper, like the management team; the duties of the general manager; the technical team and the investments schemes ... etc.; were derived or propagated from the structure of *kitab al-waqf* كتاب الوقف (diploma or endowment document).

Discussions proceeded to display that *at-taqarier al-handasiyya* التقارير الهندسية (the technical and engineering reports) were originated in Islamic Civilization by the virtue of *al-waqf* الوقف (endowment) institution. The discussions that followed demonstrated seven technical techniques of the *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation). It emphasized that two of them, namely *al-'imara waat-tarmiem* العمارة (conservation and preservation) were derived from *kitab al-waqf* كتاب الوقف (endowment document). And the rest of them were initiated coined in *at-taqarier al-handasiyya* التقارير الهندسية (the technical and engineering reports) by the endless, endurance and perpetual rules of *al-waqf* الوقف (endowment) institution.

Finally discussions demonstrated seven types of the *as-sijillat al-m'imariya* السجلات المعمارية (architectural records) and emphasized that the notion of *as-sijill* السجل (record) was originated in Arabic Islamic Civilization and ascribed its beginning to the *al-Jahilliyya* الجاهلية (pre-Islamic verse) before Islam.

In conclusion discussions in this paper strongly prove that the phenomenon of *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation) was coined and originated in Islamic civilization. It is coinciding and tie-in with the concept of historical continuity in the philosophy of Islamic of history.

Finally one hope that the contribution f Islamic Civilization in the phenomenon of *al-hifadh al-m'imariy* الحفاظ المعماري (architectural conservation) as presented in this paper, would strengthening, enhancing and widening the world phenomenon of architectural conservation; deployed and implemented together with the international charters of conservation, particularly with the UNESCO constitution.

Notes:

- 1-See: Al-Abed, B. (2008), *al-Fiker al-M'mariy al-'Arbiy al-'Islamiy*, published in *kutob wighatnazar. magazine*, issue No.: 116, September, Cairo, p.:32-37.
- 2-See: Ibid
- 3-See: Ash-Shaf'iy, M. (died 204 H-819 AD), *al-'Am*, 7 vols., annotated by M. an-Najar, 2nd edition, published by *dar al-m'arifa*, Beirut, vol., 4/51-61.
:Ibn Qudama, M. (630 H-1232 AD), *al-Mughniy waash-Sharah al-Kabier*, 12 vols., annotated by a group of scientists, published by *dar al-kitab al-'Arabiyy*, Beirut, vol., 6/185-246.
:Al-Kasaniy, A. (587 H-1191 AD), *Bada'i as-Sana'i*, 7 vols., published by *dar al-kutob al-'almiyya*, Beirut, vol., 6/218-221.
:At-Tanukhiy, S. *Al-Mudawana al-Kubra*, 4 vols., publishe by *dar al-fiker*, Beirut, (1406 h- 1986 AD), vol., 4/341-348.
- 4-See: Ibid
- 5-See: Ibid
- 6-See: Al-Muhtadiy, A. (2004 AD), *Awqaf al-Quds*, published by *dar majdalawiy*, Amman, Jordan, p.:26

7-The two kinds of *waqf* (endowment) were mentioned in all *kutob al-waqf al-khayriy* (humanitarian endowment documents). And all the *al-fuqha`* (legislators) divided *al-waqf al-khayriy* (humanitarian endowment) to the two kinds: *waqf al-ist`imal* and *waqf at-tmwheel*.

See: Az-Zuhiliy, W. (1966 AD), *al-Wasaiya waal-Waqf fi al-Fiqh al-Islamiyy*, published by *dar al-fiker*, Damascus, p.: 53.

: Al-Muhtadiy, A., (2004 AD), former reference, p.: 224-27

: The references in note No.: 3

8-See: Ash-Shaf`iy, M., former reference, vol.:4/59-61

: An-Noweriy, Sh., (733 H-1085 AD), *Nihaiyat al`Irab fi Funon al`Adab*, 33 vols., published by the Ministry of Culture, *al-moasasa al-Misriyya al-`ama lilkitab*, No history of publication, vol., 9/156-159.

9-See: Ibid

10-See: Ibrahiem, A. (1956 AD), *Sillsilat al-Wata`q at-Tarikhiyya waal-Qawmiyya, Watiqat al-`Amir `Akhorr Qaraqja al-Hassaniy*, *the magazine of the school of art*, University of Cairo, vol., 18, part 2/199-218.

: Ibrahiem, A. (1959 AD), *Watiqat Waqf Masror aj-Jamdar*, *the magazine of the school of art*, University of Cairo, vol., 21, part 2, p.: 133-173.

: Daraj, A. (1963 AD), *Watiqat al-Ashraf Barsbay*, published by *the press of French Institute of Science for Oriental Archealogy*, Cairo, p.:41-45.

11-See: `Amien, M. *Watiqat Waqf as-Sultan Qaytbay*, Without history of publication, p.: 57

12-See: Ibrahiem, A. (1971 AD), *Watiqat Yashbak Adawdar*, *the magazine of the university of Cairo* in Khartoum, Issue No.:2, p.: 59.

: Daraj, A. former reference, p.: 29, 34, 41, 45.

13-See: Ibid

14-See: Ibn Hanbil, A. *Musnad Ahmad Ibn Hanbil*, printed on a CD

: Az-Zuhiliy, (1966 AD), W., former reference, p.: 65, 97.

15-See: Ibrahiem, A. (1956 AD), former reference, *Watiqat al-`Amir `Akhorr Qaraqja al-Hassaniy*

: Ibrahiem, A. (1959 AD), former reference, *Watiqat Waqf Masror aj-Jamdar*, p.: 142-149.199-217.

: Daraj, A. (1963 AD), former reference, *Watiqat al-Ashraf Barsbay*, p.: 1-69.

: `Amien, M. *Watiqat Waqf as-Sultan Qaytbay*, former reference, p.: 353-366.

16-See: Ibid

17-See: `Amien, M. *Watiqat Waqf as-Sultan Qaytbay*, former reference, p.: 366

18-See: Al-Maqriziyy, A. (766- 845 H/1364- 1441 AD), *as-Suluk fi M`irifat al-Muluk*, 4 vols., 12parts, published by *matb`at lajnat at-t`life waal-nashr*, Cairo, 1956 AD, vol.: 1/3/ 806-957.

19-See: The location of the premises of *al-waqf* (endowment) in the architectural fabric of cities and defining their borders in the urban structure of cities is a main element in the structure of all *kutob al-waqf* (endowment documents), see for instance: notes No.: 12, 15, 17.

20-See: This condition is found in all *kutob al-waqf* (endowment documents), see for instance notes No.: 12, 15, 17.

21-See: Ibrahiem, A. (1966 AD), *Nasan Jadeadan min Watiqat al-Amir Surgtmush*, published in *the magazine of the school of art*, University of Cairo, vols.: 1 & 2, p.:143-210.

22-See: Mubark, A. (1888-1889 AD), *al-Khttat at-Tawfiqiyya*, 7 vols., published by *al-hiyy`a al- al-`ama lilkitab*, 2nd edition, Cairo, 1980, vol.: 5/146-149.

23-See: Al-`Asaliy, K. (1983 AD), *Wata`q Maqdisiyya*, 3 vols.: published by *matb`at at-tawfiq*, Amman, Jordan, Vol., 1/128-144.

: Al-Muhtadiy, A., (2004 AD), former reference, p.: 110, 355, 507-524.

24-See: Al-Muhtadiy, A., (2004 AD), former reference, p.: 355.

25-The administrative team is assigned by *al-waqif* (لواقف) (endower) is indicated in all *kutob al-waqf* (endowment documents) together with the hierarchy of certain jobs.

See: notes No.: 12, 15, 17, 21.

26-See: Amien, M. *Watiqat Waqf as-Sultan Qaytbay*, former reference, p.:353-390

: Daraj, A. (1963 AD), former reference, p.: 57.

27-See: `Isheikh Khaleil, `A. (2006 AD), *Waqf al-Mar`a fi Liwa` Damascus fi al-Qarn 10th H- 16th AD*, a research paper presented in the 7th Conference in Bilad ash-Sham held in the University of Jordan, 17th -21st Sh`aban 1427 H- 10th -14th 2006 AD, Amman- Jordan, p.:34-37.

: Al-Muhtadiy, A., (2004 AD), former reference, p.: 355.

- 28-See: Al-Maqriziy, A. (766- 845 H/1364- 1441 AD), *al-Mawa'iz waal'Itibar bidhikr al-Khttat waal-Athar*, (*al-Khttat al-Maqriziyya*), 2 vols., published by *dar sader*, no history of publication, Beirut, p.: vol.: 2/406-407.
- : An-Noweriy, Sh., (733 H-1085 AD), former reference vol.: 32/64.
- : Mubark, A. (1888-1889 AD), former reference, vol.: 5/145-149, 269-274.
- : Daraj, A. (1963 AD), former reference, p.: 52, 57.
- : Ibrahiem, 'A. (1966 AD), former reference, p.:178, 182 .
- 29-See: An-N'imiyy, A. (died 978 H- 1570 AD), *ad-Daris fi Tariekh al-Madaris*, 2 vols., annotated by Ibrahiem, Sh., published by *dar al-kutob al-'ilmiya*, Beirut, 1990, p.: vol. :2/314-315
- : Al-Maqriziy, A. (766- 845 H/1364- 1441 AD), *as-Suluk fi M'irifat al-Muluk*, former reference, p.: vol.: 2/part 2/126.
- 30-See: Al-Azraqiy, M. (died 250 H-864 AD), *'Akhbar Mecca wama Ja' biha min al-'Athar*, 2vols., annotated by Malhas, R., published by *dar al-andalus*, Beirut, 1983, p.: vol.: 2/78-81.
- : Dahman, M. (1982 AD), *fi Rihab Damascus*, 1st edition, published by *dar al-fiker*, Damascus, p.: 142-147.
- : An-N'imiyy, A. (died 978 H- 1570 AD), former reference, vol.: 2/303-304, 312.
- 31-See: Al-Qasmiy, M. (2001 AD), *al-Waqf – Buhooth Mukhtara min Nadwat Majma'i al-Fiqh al-Islamiy fi al-Hind*, *dar al-kutob al-'ilmiya*, Beirut, p.: 70, 97.
- 32- This job together with the rest of the indicated jobs are assigned by the *al-waqif* (endower) together with their job description and recorded in all *kutob al-waqf* (endowment documents) as I indicated in note No. 25 that all the administrative and technical teams are assigned in the same manner.
- See: notes No.: 12, 15, 17, 21.
- 33-See: Daraj, A. (1963 AD), former reference, p.: 4.
- : Mubark, A. (1888-1889 AD), former reference, vol.: 5/148, 290
- 34-See: Badran, A. (1328 H- 1910 AD), *Munadamat al'Athlal waMusamart al-Khial*, published by A. Badran, *al-majm'i al-Arabiyy lil-t'aliif waat-tarjama*, (1406 H-1986 AD), Damascus, p.: 65.
- : Al-'Asaliy, K. (1983 AD), former reference, vol.: 1/108-121.
- 35-See: Ibrahiem, 'A. (1966 AD), former reference, p.: 165.
- 36-See: Mubark, A. (1888-1889 AD), former reference, vol.: 5/ 290-291.
- 37-See: Ibid., p.:vol. 5/149
- 38- : Al-'Asaliy, K. (1983 AD), former reference, p.: vol.: 1/138.
- : Al-Muhtadiy, A., (2004 AD), former reference, p.: 519-520.
- 39-See: Amien, M. *Watiqat Waqf as-Sultan Qaytbay*, former reference, p.: 366.
- : Daraj, A. (1963 AD), former reference, p.: 52, 57.
- 40-See: Al-Hajiy, H. (1983AD), *as-Sultan an-Naser Mohamad Ibn Qalawun waNidham al-Waqf fi 'Ahdih*, published by *maktabat al-falah*, Kuwait, p.: 293-294.
- : Ibrahiem, 'A. (1966 AD), former reference, 178, 182.
- : Daraj, A. (1963 AD), former reference, p.: 33.
- 41-See: Al-Hajiy, H. (1983AD), former reference, 293.
- : Daraj, A. (1963 AD), former reference, p.: 33.
- : Amien, M. *Watiqat Waqf as-Sultan Qaytbay*, former reference, p.: 366.
- 42-See: Ibrahiem, A. (1959 AD), former reference, *Watiqat Waqf Masror aj-Jamdar*, p.: 139.
- 43-See: Mubark, A. (1888-1889 AD), former reference, vol.: 5/ 269-274.
- 44-See: References in note No.: 40.
- 45-See: Al-Muhtadiy, A., (2004 AD), former reference, p.: 196-197.
- : Az-Zuhiliy, (1966 AD), W., former reference, p.: 194-195.
- 46-See: Ibrahim Ahmad, (1930), *'Ahkam al-Waqf waal-Mawarieth fi al-Qahira*, p.: 152.
- 47-See: Qahf, M. (2000 AD), *al-Waqf al-Islamiy, Tathuworho, 'Idaratuho, Tanmiyatho*, published by *dar al-fikr al-mu'asir*, Beirut, p.: 247-252.
- : Al-Muhtadiy, A., (2004 AD), former reference, p.: 180-192.
- 48-See: Qahf, M. (2000 AD), former reference, p.: 250-252.
- : Al-Muhtadiy, A., (2004 AD), former reference, p.: 176-179.
- 49-See: Ibn Katheir, H. (died 774 H- 1372 AD), *al-Bedaiya waan-Nihaiyya*, 14 vols., 6th edition, published by *maktabat dar al-m'arif*, Beirut, 1985, vol.:14/133.

- Al-Maqriziyy, A. (766- 845 H/1364- 1441 AD), *as-Suluk fi M'irifat al-Muluk*, former reference, p.: vol.: 3/part 1/8.
- : An-N'imiy, A. (died 978 H- 1570 AD), former reference, vol.: 2/303
- : Dahman, M. (1982 AD), *fi Rihab Damascus*, former reference, p.: 143.
- 50-See: Dahman, M. (1982 AD), *fi Rihab Damascus*, former reference, p.: 142-147.
- 51- For more reports and techniques of conservation see the following references:
- : Othman, N. (2000), *Masajid al-Qirawan*, 1st edition, published by *matb'at dar'ikrima*, Aleppo, p.: 315-546.
- : note 49.
- 52-See: Az-Zuhiliy, (1966 AD), W., former reference, p.: 196.
- : Qahf, M. (2000 AD), former reference, p.: 91, 97-98, 174, 223.
- : see also all *kutob al-waqf* (endowment documents), for instance those mentioned in note No.: 15
- 53-See: Ibn Mandhur, J. (died 711H-1311 AD), *Lisan al-Arab*, 15 vols., published by *dar sader*, no history of publication, see the entry of *rammam*.
- 54-See: Al-Khasaf, A. (died 261 H- 874 AD), *Ahkam al-Waqf*, annotated by Shahien, M., published by *dar al-kutob al-'ilmiya*, Beirut, (1420 H- 1999 AD), p.: 59, 113.
- 55-See: Ibn Katheir, H. (died 774 H- 1372 AD), former reference, p.: vol.:13/57.
- 56-See: Ibid
- 57-See: An-N'imiy, A. (died 978 H- 1570 AD), former reference, vol.: 2/302-304.
- 58-See: Al-Maqriziyy, A. (766- 845 H/1364- 1441 AD), *as-Suluk fi M'irifat al-Muluk*, former reference, p.: vol.: 4/part 2/803.
- 59-See: Al-Azraqiy, M. (died 250 H-864 AD), former reference, vol.:1/201-226, vol.:2/98-104.
- 60-See: Ibid
- 61-See: Al-Maqriziyy, A. (766- 845 H/1364- 1441 AD), *as-Suluk fi M'irifat al-Muluk*, former reference, p.: vol.: 2/part 1/273.
- 62-See: Dahman, M. (1982 AD), *fi Rihab Damascus*, former reference, p.: 142-145.
- 63-See: Al-Azraqiy, M. (died 250 H-864 AD), former reference, vol.:1/201-205.
- 64-See: Ibid., vol. 1/298-307.
- 65-See: Ibid
- 66-See: Ibn 'Iyas, M. (died 928 H-1521 AD), *Bada'i az-Zuhour fi Waqa'i ad-Duhour*, 5vols., annotated by Mustafa, M., *al-hiyy'a al- al-'ama lilkitab*, Cairo, (1402 H-1982 AD), vol.: 4/80.
- 67-See: Ibid., vol.: 4/179.
- 68-See: Al-Maqriziyy, A. (766- 845 H/1364- 1441 AD), *al-Mawa'iz waal'Itibar bidhikr al-Khattat waal-athar (al-Khattat al-Maqriziyya)*, vol.: 2/255.
- 69-See: Al-Azraqiy, M. (died 250 H-864 AD), former reference, vol.:1/201-226.
- 70-See: An-N'imiy, A. (died 978 H- 1570 AD), former reference.
- 71-See: Al-Maqriziyy, A. (766- 845 H/1364- 1441 AD), *as-Suluk fi M'irifat al-Muluk*, former reference.
- 72-See: Othman, N. (2000), *Masajid al-Qirawan*, former reference.
- 73-See: Al-Abed, B. (1989 AD), *al-Fikr al-M'imariy al-Arbiy al-Islamiy*, *The Arab City Magazine*, The Arab Cities Organization, Kuwait, issue No.: 39, p.: 6-26.
- 74-See: Ash-Shaf'iyy, M., former reference, vol.:4/59-61
- 75-See: Al-Khasaf, A. (died 261 H- 874 AD), former reference, p.:114.
- : Al-Maqriziyy, A. (766- 845 H/1364- 1441 AD), *as-Suluk fi M'irifat al-Muluk*, former reference, vol.:3/part 2/766.
- 76-See: Ibn Katheir, H. (died 774 H- 1372 AD), former reference, p.: vol.:12/278.
- : An-N'imiy, A. (died 978 H- 1570 AD), former reference, vol.: 1/471.
- 77-See: Ibid
- 78-See: An-N'imiy, A. (died 978 H- 1570 AD), former reference, vol.: 2/314-315.
- 79-See: Ibid., vol., 2/315.
- 80-See: Al-Maqriziyy, A. (766- 845 H/1364- 1441 AD), *al-Mawa'iz waal'Itibar bidhikr al-Khattat waal-Athar, (al-Khattat al-Maqriziyya)*, former reference, vol.:295-296.
- 81-See: Ibrahiem, 'A. (1957 AD), *at-Tawatiqat ash-Shar'iya waash-Shadat fi Daher Watiqat al-Ghuriy, the magazine of the school of art*, University of Cairo, vol.:19/part 2/335.
- 82-See: Ibn Khaldun, (779 H-1377 AD), *al-Muqaddima*, *moasasit al-'alamiy lilmatbo'at*, Beirut, no history of publication, p.: 224-225.
- 83-See: Ibid., 224.

- 84-See: Ibrahiem, 'A. (1957 AD), at-*Tawatiqat ash-Shar'iya*, former reference, p.:336.
- 85-See: Al-'Asaliy, K. (1983 AD), *Wata'q Maqdisiyya*, former reference, vol.: 1/25-31, 47-51, vol. 2/284
: Dumper, M. (1992 AD), *Siyasat Isra'il tijah al-Awqaf fi Filastin*, 1st edition, published by *moasasit al-dirasat al-Filastiniyya*, Beirut, p.: 18-24.
: Al-Bakhiet, A. & as-Sawriyya, N. (2006 AD), *Awqaf al-Madaris fi Madinat al-Quds*, a research paper presented in the 7th Conference in Bilad ash-Sham held in the University of Jordan, 17th-21st Sh'aban 1427 H- 10th-14th 2006 AD, Amman- Jordan, p.: 1-2.
- 86-See: Abu Baker, A. (2006 AD), *Tanziem Aradhi al-Awqaf fi Falstine*, a research paper presented in the 7th Conference in Bilad ash-Sham held in the University of Jordan, 17th-21st Sh'aban 1427 H- 10th-14th 2006 AD, Amman- Jordan, p.: 15.
- 87-See: Ghusha, M. (2006 AD), *al-Awqaf al-Islamiyya fi al-Quds min Khilal an-Nqush al-Hajariyya*, a research paper presented in the 7th Conference in Bilad ash-Sham held in the University of Jordan, 17th-21st Sh'aban 1427 H- 10th-14th 2006 AD, Amman- Jordan, p.: 1-24.
- 89-See: Al-Azraqiy, M. (died 250 H-864 AD), former reference, vols.: 1-2.
- 90-See: Al-'Aiylmiy, M. (900 H- 1494 AD), *al'onis 'aj-jaliyl fi tariekh al-quds waal-khaliyl*, maktabit al-muhtasib, Amman, Jordan, 1973, vol.: 2.
- 91-See: Al-Maqriziyy, A. (766- 845 H/1364- 1441 AD), *al-Mawa'iz waal'Itibar bidhikr al-Khttat waal-Athar*, (*al-Khttat al-Maqriziyya*), former reference, vol.: 1-2.
: An-N'imiyy, A. (died 978 H- 1570 AD), former reference, vol.:1-2.

Glossary

A

'abda	أبد		perpetuated
wa-'abda	وابد		perpetuated
al-'iber	العبر		eruditions
al-'atiba'	الأطباء	plural of <i>tabib</i> طبيب	physician
afran	أفران	plural of <i>furn</i> فرن	oven
'ala	على		on
ahkam	أحكام		rules
ajduo'	الجدوع	plural of <i>jidi'</i> جدع	roof tree beam
al-arhiya	الأرحية	plural of <i>raha</i> رحا	grain mill
'amartho	عمارتها		its conservation
al-'a'iyān	الأعيان		Principal
al-'asquf	الأسقف	plural of <i>saqf</i> سقف	ceiling
al-'aswaq	الأسواق	plural of <i>sug</i> سوق	market

B

bana'	بناء		builder-stonemason
baqa'	بقاء		keep alive
baymaristanat	بیمارستانات	plural of <i>baymaristan</i> بیمارستان	hospital
birr	بر		pious
birruho	بره		its pious

C

D

dafter at-tahrier	دفتر التحریر (سجل)		or record book
dakhil	داخل		within
dawawiyn	دواوين	plural of <i>diwan</i> ديوان	archive of state
diwan	ديوان		archive of state
ad-duroose wa al-'iber	الدروس والعبر		lessons and eruditions

E

F

farash	فراش		servant or clean worker
farashien	فراشين	plural of <i>farash</i>	servants or clean workers <i>al-hanabila</i>
furn	فرن		oven

G

H

<i>habis</i>	حبس		sequestration
<i>habis al-`a`iyan</i>	حبس الأعيان		the sequestration of principal
<i>wa-habis sahih mar`aiy</i>	وحبس صحيح مرعي		and a right approval sequestration
<i>al-hadeith</i>	الحديث		the tradition of prophet Mohamad
<i>hadha</i>	هذا		this
<i>al-hadim</i>	الهدم		demolition
<i>al-hadim wa`i`adit al-bina`</i>	الهدم وإعادة البناء		demolition and reconstruction
<i>hajar</i>	حجر		stonecutter
<i>hajib</i>	حاجب		secretary
<i>al-hakr</i>	الحكر		preserve in hand - the right of use the principal of <i>al-waqf</i> (endowment) after conserving it for good as a leaser and not as an owner
<i>hammam</i>	حمام		bath
<i>al-hanabila</i>	الحنابلة	from <i>hanbaliy</i> حنبلي	Muslim school of jurisprudence found by <i>al-imam</i> Ahmed Ibn Hanbil
<i>al-hammamat</i>	الحمامات	plural of <i>hammam</i> حمام	bath
<i>hanoot</i>	حانات		shop
<i>al-haris</i>	الحارس		custodian
<i>harma</i>	حرم		forbade
<i>wa-harma</i>	وحرم		and forbade
<i>hawaneet</i>	حوانيت	plural of <i>hanoot</i>	shop
<i>hithan</i>	حيطان		walls
<i>hukm</i>	حكم		rule
<i>hukmuho</i>	حكمه		its rule

I

<i>al-`ibaqat</i>	الإبقاء		conservation
<i>`i`adit al-bina`</i>	إعادة البناء		reconstruction
<i>al-`idhafa</i>	الإضافة		addition
<i>al-`ijaratiyn</i>	الإجارتين	double of <i>`ijara</i> إيجارة	lease contract
<i>al-`imara</i>	العمارة		conservation and preservation
<i>al-istibqa</i>	الاستبقاء		conservation
<i>al-ist`imal</i>	الاستعمال		use

J

<i>jawami`</i>	الجامع	plural of <i>jami`</i> جامع	mosque
<i>jidi`</i>	جذع		roof tree beam

K

<i>kawam</i>	قوام		servant and clean worker
<i>kawama</i>	قومة	plural of <i>kawam</i>	servants
<i>Khan</i>	خان		hotel
<i>khaniqa</i>	خانقة		elderly home for men
<i>khawanq</i>	خوانق	plural of <i>khaniq</i>	elderly homes for men
<i>al-khayriy</i>	الخيرى		humanitarian
<i>al-khttat</i>	الخطط	plural of <i>khtta</i> خطة	neighborhood
<i>kitab al-waqf</i>	كتاب الوقف		endowment document
<i>kitab waqf sahih shar`aiy</i>	كتاب وقف صحيح شرعي		a right and legal endowment document
<i>al-khlo</i>	الخلو		evacuation – the payment of money for conserving principal of <i>al-waqf</i> (endowment) in order to get the right of lease.
<i>kutob</i>	كتب	plural of <i>kitab</i> كتاب	book=document

L

<i>la</i>	لا		no
-----------	----	--	----

M

<i>madaris</i>	مدارس plural of <i>madrasa</i> مدرسة	school
<i>ma'asur</i>	معاصر plural of <i>ma'sura</i> معصرة	olive and sesame press
<i>madhbigha</i>	مدابغة	tannery
<i>al-madhabig</i>	مدابغ plural of <i>madhbigha</i>	tanneries
<i>mamluk</i>	مملوك	slave
<i>manfa'a</i>	منفعة	benefit
<i>manf'atho</i>	منفعتها	its benefit
<i>mar'iy</i>	مرعي	approved
<i>marmtho</i>	مرمتها	its preservation
<i>masajid</i>	مساجد plural of <i>masjid</i> مسجد	mosque
<i>miharab</i>	محراب	niche
<i>m'sura</i>	معصرة	olive and sesame press
<i>m'imar</i>	معمار	architect
<i>min</i>	من	from
<i>al-muhtasib</i>	المحتسب	the mayor
<i>mudrras</i>	مدرس	tutor or scholar
<i>al-muhtkir</i>	المحتكر	preserver-the one who has the right of use
<i>murrkhim</i>	مرخم	the principal
<i>mutwalliy</i>	متولي	marble mason
<i>myatem</i>	مياتم	general manager

N

<i>najar</i>	نجار	carpenter
<i>an-nasib</i>	النصيب	refixation
<i>nazir</i>	الناظر	general manager

O

P

Q

<i>qadiy</i>	القاضي	judge
<i>al-qal' wa an-nasib</i>	القلع والنصب	taking out and refixation
<i>qanawatiy</i>	قنواتي	pipe fitter
<i>'qaqier</i>	عقار plural of <i>'qar</i> عقاقير	medicines
<i>'qar</i>	عقار	medicine
<i>al-qayasar</i>	القياسر أو القياصر plural of <i>qaysariyya</i> قيسرية	shopping center
<i>qaysariyya</i>	قيصرية أو قيصرية	shopping center
<i>al-qudat</i>	قاضى plural of <i>qadiy</i> القضاة	judges

R

<i>raha</i>	رحى	grain mill
<i>rajul</i>	رجل	man
<i>ar-raq'</i>	الرقع	restoration
<i>ribtatat</i>	الرباطات	elderly homes for women
<i>riy'</i>	ريع	revenue
<i>rasm</i>	رسم	principal
<i>rasmuho</i>	رسمها	its principal

S

<i>sabak</i>	سباك	pipe fitter
<i>wa-sabbla</i>	وسبل	uninterrupted
<i>sahih</i>	صحيح	right
<i>as-saiyarfa</i>	الصيارفة plural of <i>saraf</i> صراف	money exchangers
<i>saqf</i>	سقف	ceiling
<i>shad</i>	شاد	administrative manager
<i>Sheikh</i>	شيخ	a person who is specialized in Islamic legislation
<i>ash-shari</i>	الشريعة	Islamic legislation

<i>sifat</i>	صفة	entity – shape
<i>sijill</i>	سجل	record
<i>Sijillat</i>	سجلات plural of <i>sijill</i>	records of judges and civil <i>diwan</i> archives of state
<i>sofiy</i>	صوفي	a follower of mysticism sect
<i>as-subbanat</i>	الصبايات plural of <i>subbana</i> صبا	soap factory
<i>suq</i>	سوق	market
T		
<i>tabib</i>	طبيب	physician
<i>at-tafaker wa at-t`amol</i>	التفكر والتأمل	thinking and speculation
<i>taghier</i>	تغير	to change
<i>taghiyyer</i>	تغيير	change
<i>at-tahrier</i>	التحرير	the authentication process (liberation)
<i>tahunna</i>	طاحونة	grain mill
<i>At-tajdied</i>	التجديد	renovation (to make a new)
<i>takaya</i>	التكايا	private and public restaurants
<i>at-tanaw` dakhil al-wihda</i>	التنوع داخل الوحدة	variety within unity
<i>at-tasadduq bil-manfa`a</i>	التصدق بالمنفعة	the giving away of the profits for a pious purpose
<i>wa-tasuddaqa</i>	وتصدق	giveaway
<i>tathiyn</i>	تطيين	plaster
<i>t`azier</i>	تأزير	framing building in order to resist or prevent buckling
<i>tharikh</i>	تاريخ	history
<i>at-tmwheel</i>	التمويل	the finance
<i>at-taqrier</i>	التقرير	the report
<i>at-tarmiem</i>	الترميم	the conservation
<i>at-tawasul at-tharikhiy</i>	التواصل التاريخي	the historical continuity
<i>tawahiyin</i>	طواحين plural of <i>tahunna</i> طاحونة	grain mill
U		
<i>usoluho</i>	أصوله	its principals
<i>usthuh</i>	اسطح	roofs
V		
W		
<i>wadawam</i>	ودوام	and to sustain its role \ and to pursue its role
<i>wa-la</i>	ولا	and no
<i>wala yindaris rasmuho</i>	ولا يندرس رسمها	and its principal must not gone in ruins and remain existing
<i>wala yinqati`o biruho</i>	ولا ينقطع بره	and its pious must not interrupted and never end
<i>waqafa</i>	وَقَفَ	endowed
<i>waqf</i>	وَقْفَ	endowment
<i>al-waqf adh-dhoriy</i>	الوقف الذري	the endowment for progeny
<i>waqf al-ist`imal</i>	وقف الاستعمال	endowment of premise for use
<i>al-waqf al-khayriy</i>	الوقف الخيري	humanitarian endowment
<i>al-waqf al-mushtarak</i>	الوقف المشترك	the combined endowment\
<i>waqf at-tmwheel</i>	وقف التمويل	endowment for finance
<i>al-waqfiyya</i>	الوقفية	endowment diploma or document
<i>al-waqfoon</i>	الواقفون plural of <i>al-waqif</i>	endowers - donors
<i>al-waqif</i>	الواقف	endower - donor
<i>watajdidaha</i>	وتجديدها	renovating – make it new
<i>wekala</i>	وكالة	trade complex consist of <i>khan</i> -hotel- and wholesale trade center
<i>wekalat</i>	وكالات plural of <i>wekala</i>	trade complex consist of <i>khan</i> -hotel- and wholesale trade center
<i>whabho</i>	وهبه	gaveaway as a gift
<i>al-wihda</i>		unity

Y

yabda`	يبدأ	start - begin
yajoze	يجوز	to permit – to allow
'yanho	عينه	its principal
yindaris	يندرس	deteriorated - gone in ruins - destructed
yinqati'o	ينقطع	interrupted
la yinsakho hukmuho	لا ينسخ حكمه	its rule is irrevocable
yoba'	يباع	sell
yomalko	يملك	possess
yonaqal	يناقل	exchange – trade in
yonsakh	ينسخ	irrevocable
yorhano	يرهن	secure
yowarth	يورث	inherit
yowhab	يوهب	to giveaway as a gift

Z

zawaiya	زوايا	private worship and teaching place
---------	-------	------------------------------------

نظرية وفلسفة الحفاظ المعماري في الحضارة العربية الإسلامية

Theory And Philosophy Of Architectural Conservation

An Preservation In Islamic Civilization

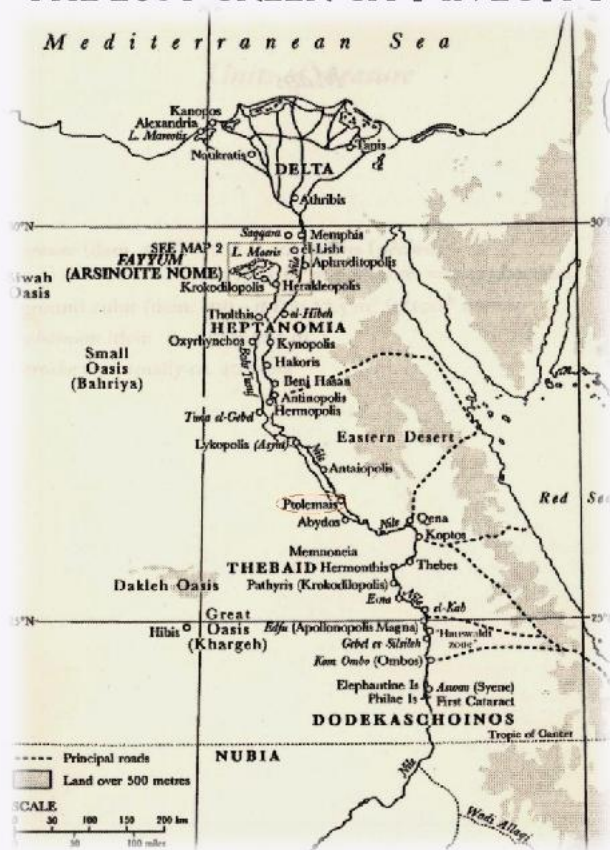
ملخص:

الحفاظ المعماري مفهوم مستجد في الحضارة الغربية ، بدأ كمفهوم عاطفي في ميثاق أثينا سنة 1931م ، وتبلور كظاهرة علمية نظرية وفلسفية بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية ، وأكتسب شكلاً مؤسسياً في بداية الستينيات من القرن الماضي. لكنه مفهوم عقلاني قديم وأصيل في الحضارة العربية الإسلامية ، ولد في رحم شريعته وارتبط بفلسفة تاريخها ، وتحديداً بمفهوم التواصل التاريخي. عمل على إبقاء مفردات النسيج المعماري والعمراني في المدن العربية والإسلامية على حالها من الصلاح ، كم عمل على تفعيل التنمية الشاملة. ولما كانت انجازاتها العلمية والثقافية العربية الإسلامية مغيبة ووعينا مستلب ، ومرجعيتنا العلمية والثقافية غربية وليست عربية تبيننا المنجزات العلمية والفكرية والثقافية الغربية ، ومنها الحفاظ المعماري بمفاهيمه الغربية ، وأهملنا انجازاتها في هذا المجال .

تهدف هذه الدراسة إلى توضيح ظاهرة الحفاظ المعماري في الحضارة العربية الإسلامية وبيان أسسها وعناصرها وتقاناتها وكشف مدى معاصرتها وتوظيفها في الثقافة العالمية ، كما تهدف إلى بيان تكامل منظومة الحفاظ المعماري في الحضارة الإسلامية مع التنمية الشاملة والدائمة. ولتحقيق ذلك ستعرض الدراسة لفلسفة وتقانات الحفاظ النظرية والعملية ، ولدور الحفاظ في عملية التنمية ، كما وردت في كتب الفقه والسياسة المدنية وكتب التاريخ والخطط وسجلات الدواوين وكتب ووثائق الوقف. وستبين الدراسة ارتباطه بفلسفة التاريخ الإسلامي وتحديداً بأحد عناصرها وهو التواصل التاريخي ، أي بديمومة الحضارة وظواهرها الثقافية ، ومنها العمارة التي تعتمد ديمومتها وتواصلها على الحفاظ على النسيج المعماري والعمراني. وتخلص إلى ضرورة توظيفه في منظمة اليونسكو جنباً إلى جنب مع: ميثاق اليونسكو UNESCO Constitution والمواثيق الدولية الأخرى.

PTOLEMAIS*

THE LOST GREEK CITY IN EGYPT



Radwa Zaki

Research Specialist

Calligraphy Center

Bibliotheca Alexandrina

Radwa.Zaki@bibalex.org

Citation:

Radwa Zaki, Ptolemais: The lost city in Egypt.-
Historical Kan Periodical.- Issue (8) June 2010.
P.132 - 137 (www.historicalkan.co.nr)

Introduction

Undoubted, the founding of Greek city-states in ancient Egypt was irreplaceable; the *Polis* was the most characteristic expression of the Hellenic way of life.¹

It is a commonplace that the Ptolemaic government of Hellenistic Egypt was unusual, perhaps unique, among the successors in not founding Greek cities kingdoms, with a single exception. As a result, Egypt had only three Greek cities until the foundation of *Antinoopolis*² by Emperor Hadrian (AD 117-138) *Naukratis*³, the archaic foundation; *Alexandria*⁴, the greatest of the cities founded by Alexander the Great; and *Ptolemais*⁵ in Upper Egypt or *Ptolemais Hermiou* that was founded by Ptolemy I Soter (323 -283 BC).⁶ If Alexandria perpetuated the name and cult of the great Alexander (332-323BC), Ptolemais perpetuated the name and cult of the founder of the Ptolemaic dynasty; Ptolemy I Soter.⁷

Nomination

In ancient Egyptian PA si n ptwlmis (i.e. Posi Ptolemais). In Greek ptolemais (i.e. Ptolemais). Modern name El- Minshah⁸

Location

Ptolemais occupied the site of an Egyptian village Psoi (modern Minshah) 400 miles up the Nile, in the nome called after the ancient Egyptian city of Thinis (modern Girgeh).

Plan

Information concerning the planning of Ptolemais is shadowy, but it could have been assumed that the city assimilated the plan of Alexandria based on chess-board plan.

Foundation

Literary sources⁹ indicate that the ancient city should date to at least the third century B.C., it did not give any information about the foundation of the city except a decree from Ptolemais Hermiou gives interesting insight:

Resolved by the boule and demos... *Theos Soter* [founded] a Greek city in [the Thebaid]... making its name *Ptolemais* [from himself, and becoming its patron.] to it the king sent [... settlers from...] and from Argos [and from ...and Lacedaimon] and from The[saly?] and from ... the [council and people] decreed [to...].

The inscription itself is a Hadrianic copy of an early Ptolemaic decree.¹⁰

Description

The city was framed in by the barren hills of the Nile Valley and the Egyptian sky, here a Greek city arose, with its public buildings and temples and theatre, no doubt exhibiting the regular architectural forms associated with Greek culture, with a citizen-body Greek in blood, and the institutions of a Greek city-state.¹¹

Ptolemais is described by Strabo as a large city with a constitution on the Greek model:

Επειτα πτολεμαιοῦ πόλις, μεγίστη των εν θηβαδι και ουκ ελαττων Μεμθως, εχουσα και συστημα πολιτικον ην τω ελληνικω τροπω.

*Then follows Ptolemais, the largest city in the Thebais, not inferior to Memphis, with a form of government after the Grecian mode.*¹²

With much exaggeration, it can assume that the city was only the size of Thebes, it was a very large city indeed.¹³



The ruins of the ancient city

The Purposes of founding Ptolemais

1. One of the most important factors to establish a Greek city in Upper Egypt was the unprecedented threat to Ptolemaic throne in the Thebaid must have given an ominous warning to the ruling Ptolemaic authorities to be on full alert and take the utmost precautions against Thebes; the stronghold of the Egyptian nationalism. This activated and enhanced the role of Ptolemais, as the counter-stronghold entrusted mainly with the defense of the Hellenistic and Ptolemaic interests in the south of Egypt. Ptolemais played, in the regard, the role of repository which provided the garrisons all over Thebaid with their necessary troops of trained officers and soldiers.¹⁴

2. Thebaid stretches of the Nile valley from Aswan to roughly Abydos. The entire region was administrated through the new regional capital of Ptolemais.¹⁵ It is clear that, whatever the evolution of institutional control was in the early Ptolemaic Period, the Ptolemaic plan for the control of the Thebaid involved the control of the ancient institutions by newly established officials based in Ptolemais.¹⁶



A Ptolemaic inscription from Bir 'Iayyan

An excellent example of the regional treatment of the Thebaid comes from a recently published inscription from Bir layyan¹⁷; a water station supplying the water to passerby situated along the eastern desert road built by Ptolemy II Philadelphus (283- 246 BC), which connected the gold mines at Barramiya in the eastern desert, about ninety-seven km east of Edfu, to the Nile. The roughly-cut inscription, which served as a milestone marker, reads:

Απο ποταου εως τουτου σταδιοι
τετρακοσιοι εξηκοντα εις.
Βασιλευοντος πολεμαιου του
πολεμαιου εωτηρος ετους κη, μηνος
επειφ εστησεν ροδων Λησιμαχου
πολεμαιευσ τοπαρχων τους τρεις

From the river to this point, four hundred sixty-one stadii¹⁸. In the reign of Ptolemy son of Ptolemy Soter, year 28, month of Epeiph, Rhodon son of Lysimachos, form Ptolemais, toparch of three set up (this stone).¹⁹

The title of Rhodon, "toparch of the three" refers to an area in his charge, and may refer to the southern nomes of the Thebaid. The former may be more likely, in which case this inscription, then, may provide additional evidence that the Thebaid was administrated regionally from Ptolemais.²⁰

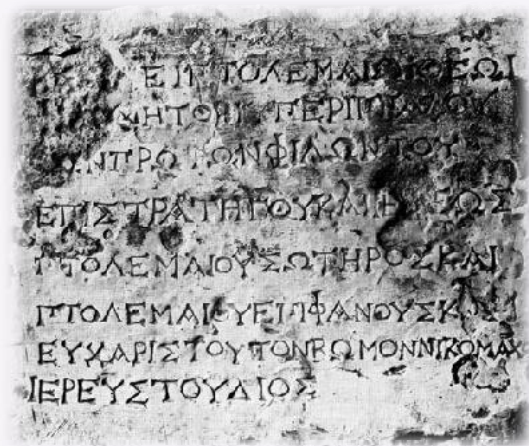
3. Also, Ptolemais, not far upstream from Akhmim, may have been sited to take advantage of developing cultivation in an agriculturally rich area that historically supported many settlements. All of the important Ptolemaic officials who were in charge of the finances and monitoring of local institutions were based there, as were the eponymous priests of Ptolemy I Soter (323-283 BC) after their introduction by Ptolemy IV Philopator (221-205 BC).²¹

Political view of the city

Of the autonomy of the city there is no manner of doubt. If there is some doubt whether Alexandria possessed a council (boulē) and assembly, there is none in regard to Ptolemais. It was more possible

for the kings to allow a measure of self-government to a people removed at that distance from the ordinary residence of the court. We have still, inscribed on stone, "Decrees psephismata" passed in the assembly of the people of Ptolemais, couched in the regular forms of Greek political tradition:

"It seemed good to the boulē and to the dêmos: Hermas son of Doreon, of the deme Megisteus²², was the proposer: Whereas the prytaneis who were colleagues with Dionysius the son of Musaeus in the 8th year, etc."²³



Ptolemais also had building specifically associated with its city status, with popular assemblies (both demos and ekklesia). As it had a town council (boule) it probably had a council chamber (bouleuterion) and a town hall (prytaneion) for the presiding officers (prytaneis) of the boule. It also had courts of justice (dikasteria).²⁴

The evidence for internal autonomy is thus complete. The king communicates with the city through the medium of the ambassadors, thus preserving the fiction of external autonomy.²⁵

Formally Ptolemais was a free Greek city-state in alliance with King Ptolemy, to which the king sent ambassadors, whom the city received with public honors. It dealt directly with the court and was not subject to the strategos of the Thinite nome or the epistrategos of the Thebaid, though he might often reside in Ptolemais. No doubt, in reality Ptolemais was completely under the king's control.²⁶ There is no evidence that Ptolemais minted its own coinage.²⁷

Demographic view of the city

The names of citizens of Ptolemais are Greek names. No doubt they too, like the Alexandrines and the people of Naucratis, avoided intermarriage with Egyptians. Psoi will, no doubt, have formed a native quarter at Ptolemais, just as Rakotis did at Alexandria, with a native population excluded from the citizen-body.²⁸

The citizen-body at Ptolemais, too, was divided into tribes and demes²⁹, it seems probable that the deme-names at Alexandria and Ptolemais were so arranged -presumably by the court- that the same deme-name should never occur in both cities. This, however, did not apply to the tribe-names. There was a tribe "Ptolemais" at *Ptolemais*, as well as at Alexandria. But the deme-names of Ptolemais, although different from those of Alexandria, were of the same kind. One of the demes belonging to the tribe Ptolemais gave the deme-name Berenikeus. To the same tribe, presumably, belonged the other demes called after members of the royal family Cleopatoreios, Philotereios. "Megisteus" is possibly taken from an epithet attached to Ptolemy I in the cult offered him, as Megistos Theos Soter "Greatest God Savior".³⁰

It is worth notice that one interest of Greek culture, the dramatic, was a living one in this far-away Greek community. As early as the reign of Ptolemy II we find Ptolemais the place where a guild of actors ("artists attached to Dionysos") has its headquarters, under the patronage of the Brother-and Sister Gods.³¹

The Cults

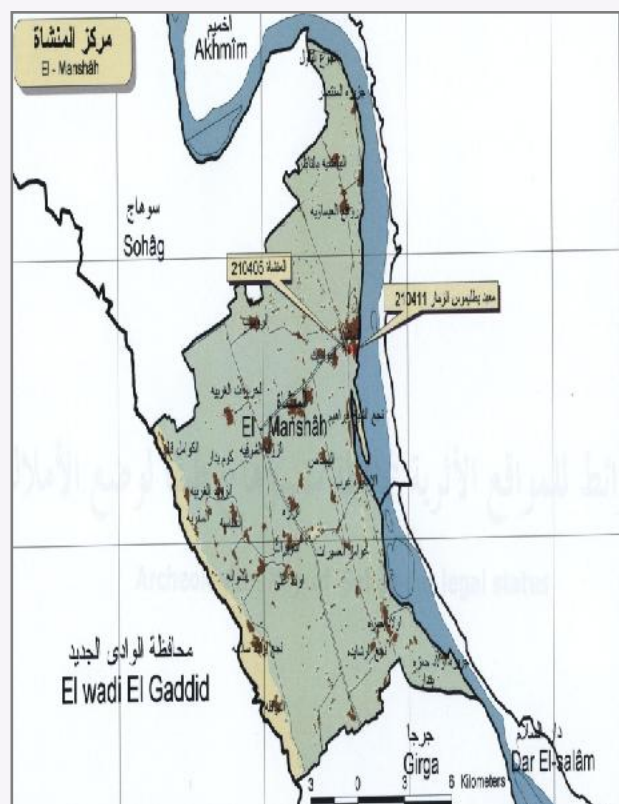
Ptolemais had its own cult³², or system of cults, addressed to the persons of the royal house. The earliest document in regard to this matter belongs to the reign of Ptolemy IV³³, Philopator (221-205 BC), and shows an annual "Priest of Ptolemy Soter and of the Father-loving Gods" (*i.e.* the reigning king and queen). Documents in the Thebaid are dated both by the priesthood of Alexander and the Ptolemaic kings and queens at Alexandria, and by this priesthood at Ptolemais.³⁴ Plaumann supposed that this eponymous priesthood at Ptolemais was a new institution of Ptolemy Philopator's, but that there was, quite distinct from it, a city-cult of Ptolemy I, as "Theos

Soter" or as "Megistos Theos Soter", and that this city-cult went back as far as the lifetime of Ptolemy I (323-283 BC). The evidence upon which he built for this distinct city-cult is exceedingly slight, but it seems certain that Ptolemais must have had from the beginning some cult of its founder. If Rhodes, in the lifetime of Ptolemy I, instituted a cult of him as a Saviour God, his own city of Ptolemais can hardly have been behind.³⁵

Remnant of ancient Ptolemais

The site has never been extensively excavated or surveyed. Nowadays, the remains of Ptolemais are covered completely by a modern village, but even on the modern rubbish dump remains of the ancient city can be found, like pillar fragments. The site of El-Manshah, is owned by Supreme Council of Antiquities "SCA", it contains also the Temple of Neos Dionysu.³⁶

Regarding finds from Ptolemais; black granite stele has been found in the site of El-Manshah³⁷. It dates back to the reign of Trajan (AD 98 – 117). It bears the dedication of the temple which was raised by the city of Ptolemais to the god Aesculapius³⁸ and the goddess Hygieia³⁹, and it has preserved the paeon which was composed for the occasion by a local poet.⁴⁰



Conclusion

It could be stated that;

- Ptolemais was considered a second political center in Egypt -founded by Ptolemy I Soter- after Alexandria, according to Strabo; it was the largest city in Upper Egypt, and an outpost of Hellenism during the Ptolemaic Period.
- Information concerning Ptolemais is quite limited and brief especially regarding the date of foundation the city, and its plan. On other hand, information relating to the political status of the city and its religion is evidenced by inscriptions.
- The site has never been exposed to a complete archaeological excavation before. The ruins of the city are buried under the modern village.

Footnotes:

* Ancient name given to several cities to honor members of the dynasty of the Ptolemies, the one referred here is *Ptolemais Hermiou* in Upper Egypt, the others are: *Ptolemais Theron* located at African coast of the Red Sea, established by Ptolemy II Philadelphus, *Ptolemais* in Cyrenaica (modern Libya), probably named after Ptolemy III Euergetes, *Ptolemais* or *Ptolemaida* in Greece, named after Ptolemy I Soter, *Ptolemais* in Acre (modern Israel), probably by named after Ptolemy Soter, *Ptolemais Euergetis* or *Arsinoe* in Fayoum taking place Crocodilopolis nome, renamed by Ptolemy III Euergetes, and *Ptolemais Hormou* (modern El-Lahun, Fayoum). See Strabo, *The Geography of Strabo*, book no. 14, 16, and 17.

- 1 H.I. Bell, 'A Hadrianic Foundation in Egypt', *Journal of Roman Studies, JRS*, 30, Part 2 (1940), 133
- 2 It was a city founded at an older Egyptian village by the Roman emperor Hadrian to commemorate his deified young beloved, Antinous. It was founded about AD 130; it is located on the east bank of the Nile, 38 km south of modern al-Minyā. See Bell, (1940), 133-134.
- 3 This is the only Greek colony in Egypt, founded under the 26th Dynasty, it was located at the

Nile River delta, on the western branch of the river, present Kom Gi'eif, About 80km south-east of Alexandria. See C.C. Edgar, *Naukratis*, *The Journal of Hellenic Studies, JHS*, 25, (1905), 106.

- 4 It is well known that Alexander the Great was the founder of Alexandria in about 331 BC.
- 5 On Ptolemais, see G. Plaumann, *Ptolemais in Oberägypten* (Leipzig, 1910), still the only study of the town. The site has never been extensively excavated or surveyed.
- 6 R.S. Bagnall, "Cults and Names of Ptolemais in Upper Egypt" in: W. Clarysee, A. Schoors, H. Willems (eds.) *Egyptian Religion the Last Thousand Years, II: Studies Dedicated to the Memory of Jan Quaegebeur*, (Leuven, 1998), 1093.
- 7 E.R. Bevan, *The House of Ptolemy*, (London, 1927), 105
- 8 K. Mueller, *Settlements of the Ptolemies: city foundations and new settlement in the Hellenistic world*, (Peeters- Leuven, 2006), 22.
- 9 Either inscriptions or historians' testimonies like Strabo.
- 10 Mueller (2006), 166, G.M. Cohen, *The Hellenistic Settlements in Syria, the Red Sea Basin, and North Africa*, (California, 2006), 350.
- 11 Bevan (1927), 105; M. Rostovtzeff, *Social and Economic History of the Hellenistic World*, I, (Oxford, 1998), 156-157.
- 12 Strabo, *The Geography of Strabo with an English translation by Horace Leonard Jones*, 3, (Cambridge, 1982-1995), 46.
- 13 Manning (2003), 37.
- 14 M. Abd-el-Ghani, "The Role of Ptolemais Outside its Frontiers", *Atti del XXII Congresso Internazionale di Papyrologia*, I, (Frienze, 2001), 130; J.P. Mahaffy, *A History of Egypt*, IV (Harvard, 1919), 172
- 15 Manning (2003), 65.
- 16 Manning (2003), 97.
- 17 Stele of pink sandstone, 73 cm high and 53.3 cm wide. The stone is a kind of milestone, a distance marker from the Nile set up by the toparch Rhodon son of Lysimachos. See R. S. Bagnall, J. G. Manning, S. E. Sidebotham, R.E. Zitterkopf, A Ptolemaic inscription from Bir 'Iayyan, *Chronique D'Egypte LXXI*, (Brussels ,1996), 320-321.
- 18 Greek unit of length, the stade, was equal to 600 Greek feet long, it means here the most common Ptolemaic stade of about 212 m. See:

- A Ptolemaic inscription from Bir 'Iayyan, 322.
 19 Manning (2003), 66.
 20 Manning (2003), 67.
 21 Manning (2003), 36.
 22 Megisteus; suburb in Ptolemais named after Megistos Theos Soter, title of Ptolemy I Soter, see Bevan (1925), 106.
 23 W. Dittenberger, *Orientis Graeci Inscriptiones Selectae: Supplementum Sylloges Inscriptionum Graecarum*, (Toronto, 1903), 74-75, no. 48; M. M. Austin, *The Hellenistic World from Alexander to the Roman Conquest: A Selection of Ancient Source in Translation*, (Cambridge, 1981), 293; Bevan (1925), 105; 291. حسن (1994).
 24 Mckenzie (2003), 152, Alan K. Bowman and Dominic Rathbone, *Cities and Administration in Roman Egypt*, *The Journal of Roman Studies*, JRS, 82 (1992), 108-109.
 25 A.H.M. Jones, *The Cities of the Eastern Roman Provinces*, (Oxford, 1973), 307.
 26 Bevan (1925), 106;
 زكي علي، تاريخ مصر البطلمية: بين الهد والجزر في عهد الملوك الثلاثة الأولين والجزر في عهد كليوباترة السابعة، (القاهرة، 2000)، 25.
 27 Cohen (2006), 351; 292. حسن (1994).
 28 Bevan (1925), 105
 29 Deme is a simple subdivision of land in the countryside seems to have existed in the 6th century BC and earlier, a deme functioned to some degree as a polis in miniature. See J.V. Fine, *The Ancient Greeks: A Critical History*, (Greece, 1983), 233.
 30 Bevan (1925), 105; 291. حسن (1994).
 31 Bevan (1925), 108.
 32 About the cult of Ptolemais we know little information; the main body of evidence has been the group of Ptolemaic inscriptions found in El- Manshah reproduced in W. Dittenberger, *Orientis Graeci Inscriptiones Selectae* (1903) nos. 47-52 and 103, mentioned are cult of Dionysus and Zeus, a sanctuary of Isis, and an altar to Harbaktis and Hierax i.e. Horus of Bakhtis (Edfu) and the falcon god Hierax (Bjk), Bagnall (1998), 1094-1095.
 33 Limestone votive tablet dates back to 180/179 BC, preserved in Brooklyn museum no. 16.632, see Dittenberger (1903), 179 no. 103; K. Herbert, *Greek and Latin Inscriptions in the Brooklyn Museum*, (New York, 1972): 22-24, no. 8, Pl. 7.
 34 Bevan (1925), 107; K. Dieter Kessler, *Ptolemais Hermiu, LÄ, IV*, (Wiesbaden, 1982), 1183

حسن (1994)، 293، 35; 35 Plaumann (1910).

36 مركز التوثيق الحضاري والطبيعي، أطلس المواقع الأثرية بمحافظة سوهاج، القاهرة، 2005

37 The stele is preserved in the Egyptian Museum in Cairo CG 384.

38 The god of medicine and healing in ancient Greek religion.

39 The goddess of health, cleanliness and sanitation.

40 G. Maspero, *Guide to the Cairo Museum*, (Cairo, 1906), 319

الخلاصة:

تعد بطوليميس المدينة الإغريقية الثالثة التي أنشئت في مصر عقب الفتح المقدوني، وقد شيدت هذه المدينة غربي النيل حيث كانت توجد قبلها مدينة مصرية، تدعى "بسوي Psoi"، ثم أطلق المصريون عليها في عهد البطالمة بسي بطوليميس، أي بسي التي أنشأها بطليموس، وتشغل اليوم بلدة المنشبة -وهي تقع جنوبي سوهاج بحوالي عشرة كيلو مترات- جانباً من موقع بطوليميس التي اختفت معالمها تماماً. ومن المحتمل جداً أن مهندس بطليموس الأول اتخذوا من الإسكندرية نموذجاً يحتذون به في تشييد هذه المدينة الجديدة، التي لا بد من أن يكون بطليموس قد أرادها أن تكون إسكندرية منطقة طيبة. كانت المدينة تتمتع بكافة مظاهر نظم المدن الإغريقية الحرة فالمدينة كانت تستطيع تعديل دستورها، تتمتع باستقلال ذاتي، وتوفر لها مجلس بولي Boule ومجلس آخر يضم الأحرار بها ويسمي Demos وبواسطتهما كانت تلك المدينة تدير شؤونها بحرية مطلقة ويتخاطب معها الملك بواسطة سفرائه ومندوبيه. وقد أنشئت في مدينة بطوليميس عبادة محلية لأفراد أسرة البطالمة، لها كهنة تؤرخ الوثائق بأسمائهم. ولذلك بينما كانت الوثائق في كل أنحاء مصر الأخرى تؤرخ بأسماء كهنة العبادة الإغريقية العامة، التي كان مقرها في الإسكندرية، كانت وثائق بطوليميس وكل منطقة طيبة كثيراً ما تؤرخ أيضاً بكهنة العبادة المحلية، التي كان مقرها في مدينة بطوليميس.

من تاريخ الفن

لوحة مختبئة للفنان فان جوخ



بقلم

أسماء صلاح

كاتبة وباحثة في علم الاجتماع
عضوه في هيئة تحرير دورية كان التاريخية
wasma_art@yahoo.com

وقد كشفت أبحاث سابقة عن محيط وجه امرأة يختبئ خلف تلك اللوحة ، لكن الكشف عن جمال هذه اللوحة وتفاصيلها تطلب المزيد من البحث. واحتاج العلماء إلى تعريض سطح اللوحة لشعاع رفيع ومكثف من أشعة إكس لمدة يومين متصلين. ولكن ثرى لماذا كان يرسم لوحاته فوق بعضها البعض ؟ وما سر تلك اللوحة المخبئة تحت المروج الخضراء ؟ ولماذا كانت ؟ وأين ومتى صورت ؟ أسرار كثيرة لم تكتشف بعد ، خلفها لنا فنان باع لوحة واحدة طيلة حياته - لوحة «كرمة العنب الأحمر» - واليوم بعد أكثر من مائة وعشرين عاماً ، يمنحنا ذلك الإلهام بعظمة الطبيعة وسحرها ؟!



احتفالاً بيوم البيئة العالمي بحثت بين أروقة المتاحف وجدران المعارض عن لوحة مناسبة للاحتفال بهذا اليوم ، ومن بين لوحات عديدة عبرت عن جمال الطبيعة جذبتني تلك اللوحة من بعيد ، دعونا نذهب في رحلة إلى متحف كرولر مولر بمدينة أوتريلو الهولندية ، لنشاهد معاً إبداع الفنان الهولندي فان جوخ Van Gogh ، والتي رسمها عام ١٨٨٧ في باريس ، وأعطاه اسم المروج الخضراء "Patch of grass".

عاش فان جوخ مهرجان الطبيعة حوله بقدرته على رؤية ما يدور خلف سطح الأشياء ، فصور لنا كيف تتراقص شجرة السرو مع الريح في حركتها ، وكيف تتفاعل الشمس مع حقول القمح وتشكلها ، وكيف ترصع النجوم ليالينا. حتى أصبحت الطبيعة بمختلف مظاهرها قادرة على التعبير عن أغوار نفس هذا الفنان ، فتوجت الأزهار معظم لوحاته ، بل صارت هي ملهمته الأولى.

وبعد عامين من اليأس الشديد أطلق الفنان فان جوخ النار على نفسه عام ١٨٩٠ ، ولم يكن يعرف أبداً ماذا بعد تلك الحياة القصيرة المأساوية التي لم يعرف فيها أحد أي شيء عن فنه ، فغطى تابوته بزهور عباد الشمس التي كان يعشقها ، ووضع عليه فرشاته وحامل اللوحات وكرسيه ، ليرقد بينهم فناناً مجهولاً جاهلاً بما سوف تحققه لوحاته من شهرة ونجاح ، وبقيت أعماله لتزين معظم المتاحف العالمية وبيعت بملايين الجنيهات.

ونعود للوحة المروج "Patch of grass" التي عبر فيها الفنان عن جمال المساحة الخضراء ، والتي تحمل أسراراً أثارت جدل العلماء ، حيث عرف مؤرخو الفن منذ فترة طويلة أنه كان يرسم لوحة فوق الأخرى. ويتوقع بعض الخبراء أن تكون هناك لوحات مخفية وراء ثلث لوحات فان جوخ تقريباً. وفي مدينة هامبورج الألمانية تمكن فريق أبحاث من اكتشاف لوحة مخبئة خلف المروج الخضراء.

كان التاريخية

The first Arabic Referred Journal Published in Electronic Format,
Specialized in Historical Studies and Research.

ISSN: 2090 - 0449

Third Year - Issue (8) June 2010 | Jumada Al-Akherah 1431

Kan historique périodique

www.historicalkan.co.nr



The Journal Issued Quarterly By : Junior Historian Series